

شاعر اليمامة مروان بن أبي حفصة

٦٠٤هـ - ١٨٢هـ

دراسة من إعداد
إسماعيل بن إبراهيم بن حمد السماعيل

الطبعة الاولى



مكتبة
إسماعيل بن إبراهيم بن حمد السماعيل
الرياض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شاعر اليمامة
صروان بن أبي حفصة

١٠٥ هـ - ١٨٢ هـ

الطبعة الأولى

دراسة من إعداد

إسماعيل بن إبراهيم بن حمد السماعيل

إسماعيل بن إبراهيم بن حمد السماعيل ، ١٤١٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

السماعيل ، إسماعيل بن إبراهيم بن حمد

شاعر اليمامة : مروان بن أبي حفصة .

... ص : .. سم

ردمك ١-٣١٢-٢٧-٩٩٦٠

١ - ابن أبي حفصة ، مروان ٢ - السعودية - الشعر .

العربي - تراجم ١ - العنوان

١٤/١٩٥٠

ديوي ٨١١.٠٩٢

رقم الإيداع : ١٤/١٩٥٠

ردمك : ١-٣١٢-٢٧-٩٩٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

ما أقسى قلب التاريخ وما أظلمه حيناً وما أرقه حيناً آخر . يقسو فكأنه قد من صخر ويرق حتى يكون في لطافة النسيم .

يقسو التاريخ حيناً فيظلم قوماً ويغمطهم حقهم فلا يفسح لهم صدره ويحتويهم بين حناياه ويعلى من شأنهم ويشيع ذكرهم على كل لسان حتى يعودوا أحياء في عقول الناس وأفكارهم وإن كانوا تحت الرموس عظاماً بالية وإنما يلقبهم التاريخ ويظمرهم تحت رغام النسيان رغم أنهم جديرون بالشهرة وأهل لكل فخر .

ويرحم حيناً ويسجل تاريخ جنس من البشر ، وينقلهم من الحضيض حتى يجاوز بهم السها ويعلو الشهاب ، فيعلى ذكرهم ويطنع أسماءهم ويحفرها في قلوب قارئيه وأفكارهم لتكون أقوى من أن يمحوها ويطمس آثارها مر الشهور وكر السنون والعصور رغم أن هؤلاء لا يستحقون من التكريم الذي حازوا عليه شروى نقير .

وهذا ذنب التاريخ وإن كان في الحقيقة ذنب أبنائه وصانعيه ومؤرخيه الذين طغت عليهم ذاتيتهم وأعماهم جباهاً وأصمهم عشقهم لها فوصموا التاريخ بالإهمال والتقصير والانحياز وهم الظالمون .

وعلى أية حال . فإن الظلم حاصل سواء من التاريخ أو أبنائه .

ففي مجال التاريخ الأدبي وهو فرع من فروع التاريخ العام نرى الظلم قد سرى في جسده وانتشر في أوصاله فأعلى ذكر قوم وطمس آخرين يستحقون كل تكريم في دنيا التاريخ الأدبي .

ومن هؤلاء المظلومين « مروان بن أبي حفصة » وهو شاعر طالما نظم غرر القصائد ، وبلبل طالما غنى في دوح الأدب ورياضه ، وعازف كثيراً ما أطرب آذان سامعيه وحتى قارئيه وإن نأى بهم الزمن والوطن . ومع ذلك لم يُرحم رغم كونه نجماً يتلألأ في سماء مملكة الأدب

وإمارة الشعر بل ظلم شأنه شأن غيره من عظماء الشعراء الذين لم ينالوا حقهم في ذبوع الصيت والانتشار .

من هنا خفت صوته ، وضعف جرسه ، وانطفأت شعلته بموته فلم يعد يذكره أحد أو يدون سيرته مؤرخ أدبي فانطمست آثاره وضاعت أخباره وأشعاره . اللهم إلا حفنة قليلة لا تشفي ظمأ ولا تروى غليلا تناولتها بعض الكتب عن بعض حتى عصرنا هذا .

واكتفت هذه الكتب بتدوين هذه الأخبار القليلة التي لا تلقى ضواء على تاريخ هذا الرجل ولا تكشف شيئا من معالم شخصيته المطمورة تحت تراب النسيان .

وفي عصرنا هذا عصر النقد التحليلي . لم نجد شيئا عن مروان . ولم يخرج بعد أديب يأخذ على عاتقه مسئولية نبش أدب هذا الرجل من تحت رمسه ، وإعادة الحياة إليه ولم يشمر أحد عن ساعد جد حقيقي فيركض عينيه بين طيات الكتب والأسفار ليجمع ويدقق ويحقق ويدون تاريخ مروان .

كل ما يوجد هو عبارة عن نتف أخبار أو مقالات تحليلية لا تتجاوز صفحات قليلة وهي بلا شك لا تتناسب وعظمة هذا الرجل ، وهذه الدراسات متناثرة في بعض الدراسات الأدبية أمثال حديث الأربعاء لطفه حسين ، وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ، والعصر العباسي الأول لشوقي ضيف ، وتاريخ الشعر العربي لنجيب البهيتي وتاريخ الأدب العربي للكفراوي وكتب أخرى سارت علي منوالها ونهجتها نهجها .

هذا من ناحية تاريخ مروان الأدبي ، أما شعره فإنه ظل مبعثرا في صفحات الكتب والأشعار كالأغاني وأمالى المرتضي ، وأمالى ابن الشجري ، وغيرها من الكتب القديمة فيما ضاع ديوان مروان الذي أشار إليه ابن النديم حينما قال (له ديوان في ثلاثمائة ورقة) (١) ومرت السنون ولم يحاول أحد جمع شتات أشعار مروان ولم متفرقها بين دفتي كتاب واحد حتى قام الدكتور حسين عطوان بهذه المهمة وحمل على عاتقه تلك المسئولية . فقام برحلة شاقة تنقل خلالها بين مئات الكتب التاريخية والأدبية حتى استطاع أن يجمع شعر مروان

(١) الفهرست ص ١٦٠

ويقوم بتحقيقه وإصداره في كتاب بعنوان « شعر مروان بن أبي حفصة » وعلى الرغم من نواقصه فإن لمؤلفه فضل السبق والأقدمية .

وانطلاقاً من تلك الأسباب رأيت أن من واجبي أن أزيل عن تاريخ هذا الشاعر غبار النسيان ، وأن أجعله حياً بشعره وذكره في أذهان الناس خاصة وأنه يمثل في شعره السياسي مراحل هامة من التاريخ الإسلامي يجب أن يدرك مدى تأثيرها في الحياة الأدبية في ذلك العصر .

ولقد وافق مروان هوى من نفسى ووقع قريبا من قلبي لأنه شاعر عظيم بحق ومما زادنى ولوعا به وشغفا أنه ابن وطنى وبيئتى "نجد" مهد العربية وأصلها ومنزعتها لأنه عاش في إقليم اليمامة وهو إقليم أشهر من أن يعرف ، وأكبر من أن يعرف ولقد شدنى مروان وجذبنى إلى أعماق التاريخ وتخطى بي حدود الزمن لأعيش معه حيا ماثلا أمامى في أخباره وأشعاره في رحلة امتدت أكثر من عام انقضت ومرت كسحابة صيف فلم أشعر بطولها ومللها لأننى أعيش مع رجل قريب من قلبي لكونه ينتمى إلى إقليم اليمامة الذى أتتمى إليه .

لقد سرت مع مروان خطوة بخطوة منذ أن فتح عينيه على هذه الدنيا واستنشاقه عبر الحياة فيها . فدرست عصره الذى عاش فيه ومن ثم كان له تأثير كبير عليه كما تطرقت لنسبه وحسبه وأسرته وجليت الغموض الذى يكتنفه من تلك الناحية وأزلت الإلباس حتى توصلت في النهاية إلى أصح الأقوال التى تطرقت إلى نسب مروان وحسبه وأسرته ودونت ذلك معتمدا على الحجة ومدعما رأى بالبرهان .

وحينما شب مروان عن الطوق وبدأ يدرك معنى الحياة وأنها كد وكفاح سايرته عبر رحلته وان كنت لا أمتلك ظهر مطيه ولا ناصية ناجية فتحدثت عن مراحل حياته في الدولة الأموية والعباسية واتصاله الوثيق برجالها من ولاة ووزراء وخلفاء مع مناقشة ماحيك حول هذه الاتصالات واللقاءات من أوهام وشبهات هى في ضعفها أو هى من خيط العنكبوت الذى تبني .

بعد هذا تركت مروان جانبا ليأخذ راحته ولأخذ لنفسى راحة من عناء السفر ومشقة التعب والنصب الذى بدأ من سنة ١٠٥ هـ حتى سنة ١٨٢ هـ وقد قضيت وقت راحتى تحت

أفياء فصل طريف ظريف هو شخصية مروان وأخلاقه .. وهو عبارة عن خيوط تجمعت في يدي. وحقائق استقرت في عقلي وفكري بعد رحلة طويلة : قضيتها مع مروان ، وفي هذا الفصل ناقشت ولاء مروان من حيث صدقه وكذبه ، لأنه بحق الموجه الأول الذي يرسم خط سيره وتفكيره . كما تحدثت عن مظاهره الخلقية والخلقية وفخره بنفسه الذي لم يتجاوز نطاق المادة بعدها عدت إلى مروان فوجدته في الرمق الأخير لأنه تعب من تلك الرحلة الطويلة التي تنقل خلالها بين بغداد واليمامة وصنعاء وخراسان .. فلفظ مروان آخر أنفاسه ، والتقى وجهه ربه بعد أن قضى نحبه ، فكتبت فصلاً "عن وفاته" ورغم أن هذا الموضوع لا يستحق عقد فصل خاص به بالنسبة لكثير من الشعراء إلا أنني وجدته مهما بالنسبة إلى مروان حيث دار حول مماته وهم وتشابكت خيوط الشك والارتياب هل مات حتف أنفه ؟ أم مات قتلاً أم ماذا ؟ وفي النهاية أثبتت حقيقة لامجال لإبطالها وتفنيدها . لأنه تستند إلى ركن شديد من الحججة والبرهان وهي أنه مات حتف أنفه .

وقد وجدت مناسبة أخرى ورحلة طويلة لا تقصر عن الأولى التي انتهت بموته سوف أرافق مروان خلالها . أنس به ويأنس بي وكانت طريق تلك الرحلة "دراسة شعر مروان" ولم أتوان عن المسير بل أعددت زادي وراحلي ، وبدأت أخطو سريعاً في هذه الطريق فبدأت الكلام بإشارة عابرة عن عصر مروان الأدبي هل كان له تأثير عليه أم لا . لأخلص بنتيجته مفادها أن مروان غريب على عصره الذي عاش فيه ، لأنه إن كان عباسي الزمن فهو جاهلي الروح والاتجاه. وانتقلت بعد ذلك إلى الكلام عن أسرة مروان تحت عنوان "بيت الشعر" لأن الأدب العربي لم يعرف أسرة كل أفرادها شعراء كأسرة مروان . وكانت تلك ظاهرة جديدة بالاهتمام والتسجيل ، فبسطة القول فيها وأشرت باقتضاب إلى أبرز شعرائها ثم انتقلت إلى بيت القصيد في تلك الدراسة وهو دراسة الأغراض الشعرية الذي قدمت بين يديه حديثاً اعترفت خلاله بصعوبة الموضوع ، وأن أي باحث مهما كانت ثقافته سيكون عاجزاً عن دراسة شعر مروان دراسة لا تعرض للنقد بحال. وذلك لضيق شعره ، وسقت بين يدي الحديث أدلة وشواهد تؤيد ما ذهبت إليه . وليس ببعيد أن يعثر أحد على جديد من شعر مروان ينقض به كل ما أبرمه السابقون . ويفند كل رأى دونه .

بعد ذلك تكلمت عن أهم الاغراض التي طرقها مروان وهما الرثاء والمديح ، وتحدثت خلالهما عن العاطفة وأطلت القول فيها ، ذلك لأنها هي قوام هذين الغرضين . وصدقها وكذبها مصدر قوتهما وضعفهما كما تطرقت إلى جانب مهم يتعلق بهذين الغرضين وهو "الطبع والصنعة" وهو جانب أثير حوله كثير من الشكوك والظنون لأدون بعد ذلك نتيجة مفادها أن مروان لم يكن صاحب صنعة حين رثى ومدح معنا ، وأن الصنعة إنما كانت طابعه وسمته حينما مدح العباسيين . بعد ذلك تكلمت عن بقية الاغراض الشعرية التي تطرقت إليها مروان على نطاق ضيق وهذه الاغراض هي : الوصف ، الغزل ، الفخر ، والهجاء معللا سبب قصور مروان في تلك الاغراض ، ولكن يجب الإنتباه إلى أن دراستي تمت بناء على ما هو موجود من شعر مروان وصحت نسبته إليه وهي دراسة حرة بالنقض والتفنيد إذا جد جديد وعثر على ضائع من شعر مروان . وتائه من نظمه بين طيات الاسفار .

وتحدثت بعد ذلك عن أهم العوامل المؤثرة في شعر مروان وهي أربعة :-

(١) البيئة (٢) الوضع السياسي (٣) الصفات الشخصية (٤) الثقافة النقدية

كما تحدثت عن موضوع مهم هو مروان في ميزان النقد . تحدثت فيه عن آراء النقاد المتضاربة حول مروان وقد فندت في ذلك الفصل وأبطلت كثيرا من الأوهام التي علقتم باذهان النقاد وبنوا على أساسها آراءهم ، وأصدروا احكامهم على مروان خاصة اتهم مروان باشتراء القوافي ، وقد دونت رأبي حول تلك الفرية الباطلة ، ورددتها معتمدا على أدلة وبراهين صحيحة واتضح لي في النهاية أن تلك التهمة من تليف خصومه غايتهم منها الغرض من مكانته .

وقبل اقتراب الرحلة من نهايتها سجلت أهم الخصائص الفنية التي اتسم بها شعر مروان وتركت بصماتها واضحة على صفحاته .

وأهم هذه الخصائص :

١ - بساطة الصورة الشعرية .

٢ - محاكاة الأقدمين .

٣ - الصنعة والطبع .

٤ - المذهب الواقعي .

٥ - طول النفس واعتماد البحور الطويلة .

٦ - الإكثار من وصف الناقة .

وجعلت مسك الختام وسلاف الكأس تحقيقاً مهماً لمجموعة من أشعار مروان فانت على الدكتور حسين عطوان جامع شعره . وقيمت، بتدوينها والإشارة إلى مصادرها مع محاولة ربط بعض هذه القصائد بقصائد موجودة في ديوانه لانفاقها معها في الوزن والقافية والغرض والملاحم مما يوحي بأن تلك الأبيات جزء من تلك القصائد ..

ولست أدري هل أحرزت الصواب أم أخطأته ولكنني اجتهدت ولكل مجتهد نصيب حيث واجهتني عقبات ومصاعب كانت جديرة بأن تعود بأثر عكسي على هذا البحث وكادت أن تقصره على جزء من حياة مروان وشعره في حين ضاع كثير من أخباره وأشعاره التي تدون حياته بكل ما فيها من بساطة ، وخشونة ، وبخل ، وصدق ولاء وكذبه ، وطمع وجشع ، وغيرها من صفات اتسمت بها حياة مروان .

وختاماً أقول : إنني حاولت قدر طاقتي واستطاعتي أن أكون واقعياً خلال رحلتي مع مروان في مضماري الشعر والحياة وحاولت أن أكون منصفاً له ممن ظلمه . مدافعاً عنه ضد من غشمه . مدوناً ما يتعلق به من حقائق ومفندا ما حام حوله من شكوك وأوهام . ترى هل وفقت ؟ لعل وعسى .

وكل ما أقوله هو أنني أستلهم من الله عفوه وتوفيقه فهو أعظم مسئول وأجل مأمول إنه سميع مجيب .

اسماعيل ابراهيم حمد السماعيل

الهشمر / أشيقر

٧ / ١٠ / ١٤١٤ هـ

الباب الأول

مروان الإنسان

- عصر مروان السياسي والاجتماعي

أ - اسمه ونسبه وأسرته .

ب - مولده ونشأته في الدولة الأموية .

ج - مراحل حياته في الدولة العباسية .

- مع الولاة

١ - مع السري بن عبد الله

٢ - مع معن بن زائدة

- مع الخلفاء

١ - مع المنصور

٢ - مع المهدي

٣ - مع الهادي

٤ - مع الرشيد

- مع البرامكة

د - شخصيته وأخلاقه

هـ - وفاته

عصر مروان السياسي والاجتماعي

العصر :

كلمة لها معنى ومدلول كبير وتعتبر ركيزة ، ودعامة قوية يقوم عليها كل بحث أدبي أو تاريخي أو فكري ، ولكنها في مجال الأدب أبلغ وفي ميدانه أشهر وأظهر .

لم يسلك باحث أدبي طريق البحث الشاق والدراسة الصعبة مستقصيا ظاهرة أدبية أو متتبعا حياة شاعر إلا وجعل العصر مبدأه ومنطلقه وذلك لأنه عامل مهم وحيوي في توجيه الشاعر أو الظاهرة الأدبية نجد آثاره واضحة وسماته بارزة فهو أعظم مؤثر وأكبر موجه .

من هنا وجدت نفسى وأنا في أول الطريق رهين العصر وأسيره حيث أصبح فكرة تلح علي بالكتابة عنها وحاولت أن أصرف النظر عنها ولكن جاذبيتها كانت أقوى فجدتني إليها ف وقعت أسيراً لا أروم فكاكا ومن هنا جعلت الكلام عن العصر أول خطوة في مضمار البحث الطويل .

ولكن العصر كلمة تعتبر قطباً تنطلق منه أفلاك عديدة ، فهناك العصر الأدبي والسياسي والتاريخي والاجتماعي . فأني هذه الفروع بالكلام أولى وبالبحث أجدى ؟ .

لاشك في أن البحث في عصر الشاعر السياسي والاجتماعي أولى من الكلام عن عصره الأدبي ، إذ أن السياسة ، والحياة الاجتماعية مؤثران عظيمان علي الشخصية المدروسة من حيث كونها شخصا لا أثرا أدبيا كما أن الحياة السياسية التي عاشها قطب البحث ورحاه وكذلك الحياة الاجتماعية هما المصدر الرئيسي الذي يرسم وجهته وخط سيره .

أما العصر الأدبي فإن مجال البحث فيه حين يخلص الباحث من دراسة الشخصية المدروسة وتتبعها في مراحل حياتها فإذا انتهى منها وواراها في قبرها عاش معها حياة ترزق في فصل جديد هو " فصل الشاعر والأديب " ومن هنا يبدأ الحديث في هذا الفصل بالعصر الأدبي الذي يمس أدب الأديب وآثاره وأفكاره وشخصه ، ولهذا آثرت البدء في الكلام عن العصر السياسي والاجتماعي ، مؤجلا الحديث عن العصر الأدبي إلى الفصل الثاني .

فما هو العصر السياسي ، والاجتماعي الذي عاش فيه مروان ؟

لقد تنسم مروان عبير الحياة ، وشم أريجها في العصر الأموي وعلى وجه التحديد سنة ١٠٥ هـ في خلافة هشام بن عبد الملك (كما سيأتي تفصيله) .

ولكن العصر السياسي الذي أثر في اتجاه مروان قد سبق مولده بقليل وذلك أن الصراع السياسي قد اشتد والخطر قد تفاقم وتعاضم منذ عهد يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥) هـ الذي أثار جروحا دملها الاسلام وبعث احقادا أحمدا جذوتها الدين الذي دعا إلى الوحدة . إذ عمد يزيد إلى إثارة النعرات والعصبية القبلية ، التي هدأت ، وسكن أوارها في عهد أسلافه (وكانت الإثارة تتمثل في خوض يزيد بنفسه غمارها وانحيازها إلى مضر مؤثرا إياها على اليمن وقد انتهى هذا الصراع بقتل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وقتل أهل بيته اليمنيين) (١) (وقد أشعل قتل آل المهلب نار العصبية في قلوب ذلك العنصر وأثار حقدته على البيت الأموي وصار العنصر اليمني منذ ذلك الحين خطراً يهدد كيان الدولة الأموية) (٢) .

وفي عهد هشام قتل خالد بن عبد الله القسري فكان مقتله سببا في إنهاء الدولة الأموية هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لعبت ثورات الخوارج والشيعية والولاة الذين ألمهم انحياز الأمويين إلى العنصر العربي وإهمالهم ما عداه دورا بارزا في سقوط الدولة هذا من جهة العصبية القبلية والنعرات الطائفية .

فماذا عن الخلفاء ؟

لقد تولى الخلافة بعد يزيد بن عبد الملك أخوه هشام وامتدت خلافته من سنة ١٠٥-١٢٥ ، ورغم قوته إلا أنه لم يكن بمنأى عن المنازعات القبلية والعصبية التي اشعل فتيلها سلفه ، وجاء جيل الخلفاء الذين بعده ، فساعدوا نتيجة ضعفهم من جهة واستهتارهم وإهمالهم من ناحية أخرى في ضياع ملكهم ، وخروج الأمر من يدهم ، فالوليد ابن يزيد مثلا اشتهر بخلاعه وعكوفه على شرب الخمر وسماع القيان ، وأهمل شأن الجماعة حتي ترك صلاة الجمعة في عصر اختلف فيه الحابل بالنابل وكثر الخارجون فيه على بني أمية وكان أخرى به والحالة تلك أن يبقى بمنأى عن سفاسف الأمور وساقطها ، وقد أدى ذلك إلى

(١) تاريخ الاسلام السياسي ٩/٢

(٢) المصدر السابق ٩/٢

حدث صراع عنيف أدى إلى قتله وخلفه يزيد الناقص الذي مات بعد خمسة أشهر فتولى أخوه ابراهيم بن الوليد الخلافة من بعده سنة ١٢٦ هـ ، واستمر حتى تغلب عليه مروان ابن محمد الملقب بمروان الحمار (١) سنة ١٢٧ هـ .

هذه صورة مصغرة ومختصرة عن العصر الذي عاش فيه مروان ، لقد كان مرجلا يغلي ، وقدرا على كف عفريت .

فما علاقة مروان بهذا وما مدى تأثيره به ؟ لم يكن مروان بن أبي حفصة ذا مساس وثيق واتصال عميق بتلك الأحداث ، لأنه في عهد يزيد بن عبد الملك لم يولد بعد ، وفي أول عهد هشام كان طفلا ولكنه على أي حال كان فتى غض الإهاب في نهاية العصر الأموي يحس ويدرك ما يدور حوله من أحداث وصراع سياسي ولم يكن له شأن إلا أنه كان يساير الأمويين ، ويؤيدهم من أعماق قلبه لأنهم كانوا أسياده وذوي أيادي بيضاء علي أسرته .

وكانت هذه الأحداث ساعدا قويا ودعامة صلبه ساعدت علي تقويض أركان الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ ، بسبب انتشار الدعوة العباسية وهي دعوة جديدة بأن تفرد بالكلام . حيث لم تكن الدعوة المناهضة لبني أمية عباسية في أول أمرها وإنما علوية بدأت قبل سنة ٩٨ هـ علي يد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم الشيعة الكيسانية وحينما شعر الأمويون بخطرته استدعاه الخليفة آنذاك سليمان بن عبد الملك وأكرمه ، ولما انصرف من عنده دس إليه من سمه في طريق الحميمة فلما أدركه الموت ودب في أوصاله أوصي بالأمر من بعده إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، وأفضى إليه بأسرار الدعوة .

ومن هنا أصبحت الدعوة عباسية بعد أن كانت علوية وقد بدأ محمد دعوته في عهد الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز ولكنها كانت سرية وأخذ يرسل الدعاة إلى العراق والحجاز وغيرها من الأقاليم الإسلامية كما استعان بالعناصر اليمينية التي أجحف الأمويون بحققها واستعان أيضا بالموالي الذين استجابوا للدعوة العباسية لأنهم رأوا فيها أملا يحيي قلوبهم ، ويخلصهم من الذل الذي لحقهم علي أيدي الأمويين ، وحينما مات محمد سنة ١٢٥ هـ

(١) آخر الخلفاء الأمويين سمي بالحمار نظرا لشدة صبره وتحمله المشاق والحروب

أوصى بالأمر من بعده لإبنته ابراهيم الذي انضم إليه في خراسان أبو مسلم الخراساني بجمع من الموالي الناقمين علي بني أمية وكان أبو مسلم شجاعاً قويا داهية أضفي على الدعوة العباسية هالة من القوة والعظمة والانتشار ونقلها بسببه من السري الجهر وقد استطاع أبو مسلم أن يتسلم أمور خراسان ويخضعها لإمرته سنة ١٢٨ هـ واستفاد من العداوات والمشاحنات التي كانت سائدة ومنتشرة ومشتعلة نارها بين المضربين واليمنيين كما انضم إليه اليمانيون إنتقاما لقتل سيدهم خالد بن عبد الله القسري .

وفي هذه الأثناء وقع ابراهيم بن محمد في قبضة الأمويين فأوصى من بعده بالأمر لأخيه عبد الله بن محمد السفاح وقد تقلد الإمارة ، وتولى الدعوة في الفترة ما بين موت ابراهيم ، وتولية محمد (أبوسلمة الخلال) . الذي ألحق الهزيمة بجيوش ابن هبيرة ، ودخل بجنده الكوفة سنة ١٣٢ هـ حيث قدمها عبد الله بن محمد قادما من الحميمة فبوع فيها بالخلافة سنة ١٣٢ هـ وهنا بدأت الدولة العباسية وزالت الدولة الأموية .

أما مروان بن محمد فإنه ظل يقاتل ويجاهد العباسيين فعهد عبد الله بن محمد السفاح إلى عمه عبد الله بقتاله . فهزمه عند نهر الزاب بالعراق ، واستمر يلحق به الهزائم الواحدة تلو الأخرى . حتى لجأ إلى مصر فظفر به العباسيون في قرية " ابى صير " قرب الأسكندرية وقتلوه ، وبعثوا برأسه إلى الكوفة وبمقتله إنتهى كل شىء وانتقل الحكم إلى يد العباسيين في ١٣٢/١/٢٧ هـ .

وقد استمر العباسيون في تعقب الأمويين قتلا وتشريدا وتنكيلا ، فقتل عبد الله بن علي ثلاثمائة نفر منهم كان قد أمنهم ودعاهم إلي وليمة كما نبش قبور الخلفاء الأمويين عدا عمر ابن عبد العزيز كما أن "السفاح" قد أمنهم وجعلهم يجالسونه ويحضرون مأدبه ، وفي يوم من الأيام دخل عليه سديف بن ميمون فأنشد :

لايغرنك ما ترى من إناس

فدع السوط وأبسط السيف حتى

فأمر بقتلهم جميعا وكانوا يقاربون الثمانين .

هذه نبذة مختصرة عن العصر السياسي الذي وعاه مروان بقلبه وعرفه فكره وسمعت أحداثه أذناه إذ كان عمره عند سقوط الدولة الأموية سبعا وعشرين سنة ، وقد هزت الأحداث فؤاده وأثارت الأحزان في قلبه على بني أمية إذ كان يدين بالولاء لهم ، لأنهم أعتقوا جده ابا حفصة من قيود الذل والرق والعبودية ولكن ماذا يفعل مروان أكثر من المشاركة الوجدانية ومحلها القلب فحزن وبكى وتألم على عهد مضى وسلف وامتلأ قلبه حقدا وضغينة على العباسيين فعقد العزم على ألا يهادنهم ففي ذلك خيانة لأسياده الأول .

كان مروان في ذلك الوقت مكتمل الشعاعية وقد بدأ ذكره ينتشر بين الناس انتشار ضوء الشمس فربأ بنفسه وشمخ بأنفه وحمى ولاءه للأمويين من أن يدنسه بالتهالك والارتقاء في أحضان أعدائه " وعدو صديقي عدوي " لهذا سكنت قيثارته عن عزف أمجاد العباسيين وانقطع صوته عن التغني بآثارهم وكان شاعريته قد غاضت وانصرف مروان يبحث عن شخصية تاريخية محترمة تستحق شعره فولى وجهه شطر اليمن مادحا مع ابن زائدة الذي يجمعه وآياه حب الأمويين واستمر مروان وفيا لأسياده من بني أمية مجافيا لأعدائه العباسيين منذ سنة ١٣٢ هـ حتى سنة ١٥٨ هـ ، لم يحاول أثناء هذه الفترة أن يتصل بالعباسيين حتي طلبوه وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله .

هذا هو أثر الصراع الأموي العباسي وبقي جانب سياسي مهم ألقى ظلاله علي شعر مروان هو "علاقة العباسيين بالعلويين" حيث استمرت علاقة العباسيين بالعلويين بعد انتقال الدعوة إلى العباسيين سنة ٩٨ هـ تنفياً بظلال الحب ، والود ، والإخاء ، والصفاء الذي يربط بين بني العمومة وفروع الأصل والأرومه . فكل من البيتين متفق مع الآخر علي تصفية أعدائهم الأمويين رغم وجود بعض العلويين غير مقرين بتحول الأمر إلى العباسيين .

وحينما اعتلى العباسيون كرسي الخلافة واستلموا لواء الإمامة وراية الزعامه أحس العلويون بالغبن لأن بني عمومتهم لم ينصفوهم ولم يشركوهم في الأمر فدب الحقد في قلوبهم وعم الحسد وطمس عيونهم فوق وقع بينهم من العداوات والإحن مثلما كان لهم مع الأمويين وأشدت الأمر واشتعلت النار فأعلن العلويون العصيان ورفعوا راية العدوان وهنا تتبعهم

العباسيون قتلا وتشريدا كما فعلوا من قبل بني أمية فقتل المنصور محمد العلوي الملقب بالنفس الزكية كما أن الهادي ذبح العلويين مذبحه عظيمة في معركة فخ وأوقع الرشيد من بعده يادريس بن عبد الله وأخيه يحيى .

هذا هو باختصار مجمل علاقة العلويين بالعباسيين بعد أن زال أمر بني أمية حيث أقف به عند عهد الرشيد حيث ودع مروان الحياة سنة ١٨٢ هـ .

وقد أثر هذا الصراع السياسي في نفس مروان وحدد وجهته فيما بعد سنة ١٥٨ هـ حيث تخلى عن قطيعته للعباسيين بعد أن طلبوه وبعد أن سكنت نفسه وثابت إلى هدوئها بعد إطمئنان نفسي بأنه وفي وأخلص لأسياده الأمويين وبعد رحيل ممدوحه الأول معن بن زائدة . فنزل على رغبة العباسيين سنة ١٥٨ هـ ومال إليهم وألقى نفسه في أحضانهم بعد أن عركه الدهر بكلكله وضرسه بناه ولا مهنة له تدر عليه قوته إلا الشعر يمدح به مكتسبا ولا مصدر لذلك سوى العباسيين ، وعزائه في ذلك أن معن بن زائدة قد مات ، وأنه لم يطلب العباسيين وإنما هم الذين طلبوه .

عكف مروان في تلك الفترة يكسو العباسيين ثيابا وحللا نسجها من روائع شعره وأعلن ولاءه لهم بلسانه لا بجنانه وقربه العباسيون لأنه شاعر يضرب بلسانه أرنية أنفه وهم في أشد الحاجة وأمسها إلي شاعر ينافح عنهم ويدافع ويكون لسانه وسيلتهم الإعلامية ، ويمثل شعره وجهتهم السياسية في عصر اشتدت فيه ثورات العلويين ضدهم وقد وجدوا في مروان بغيتهم ومنتهى غايتهم فقربوه إليهم فأخذ يصلي العلويين نارا . فأحرقهم بسياط لسانه ونار ألفاظه ووقع كلامه عليهم أشد من خبط السهام تحت جناح الظلام . ولم يكن محبا للعباسيين بقدر ما كان يكره العلويين بل إنه يشعر تجاه الطائفتين بحقد وضغينة لأنهم جميعا قوضوا صرح أسياده الأمويين وهدموا مجدهم . ولكنه أثر العباسيين في النهاية على العلويين لأنهم ذوو سلطان وأرباب دولة أما العلويون فما زالوا يعتصمون في رؤوس الجبال .

من هنا نجد أن الصراع السياسي الذي شهده مروان منذ ولادته سنة ١٠٥ هـ حتى وفاته سنة ١٨٢ هـ قد رسم خط سيره في مضمار الحياة ومن ثم ظهر أثره واضحا جليا على صفحات شعره ، ويتمثل ذلك في وجهتين :

الأولى : عزوفه سياسيا عن العباسيين ومن ثم ابتعاده عن مديحهم وذلك في بدء أمرهم لأنهم نكبوا الأمويين وفي ذلك نكبتهم وهدموا مجدهم وهو مجده يعتز به وبه يفتخر لأنه

موال لهم بسبب مآثرهم التي لا يمكن أن ينساها وأسرته أهد الدهر .

الثانية : ارتقاء مروان في أحضان العباسيين وتوثق الصلة بينه وبينهم حتى أصبح شاعر البلاط عندهم . وتجافيه عن العلويين وهجرهم ، إذ لا زعامة لهم ولا سلطان ومن هنا تبدل ولاؤه السياسي وأصبح ملكا للعباسيين ، ولكنه على أي حال لم يكن كوالئه للأمويين إذ كان مع الأمويين ولاء باللسان والحنان أما بالنسبة للعباسيين فولاء باللسان فقط لأنه لم يكن بدافع حب وإعجاب حقيقي بل حب زائف الجاء إليه دهر أخنى عليه فأدال من أسياده واختطف من بعدهم معقد آماله ومطمح رجائه معن بن زائدة ..

ورب قائل : يقول إن ولاءه للعباسيين وتأثره بجوهم السياسي فيه نكران الجميل الأمويين وأن مروان لبس لهم جلد النمر وقلب لهم ظهر الجمل .

والحقيقة هي أن مروان لم يتبدل ولم يتغير للأمويين ، رغم تأثره بالسياسة العباسية فيما بعد . بل ظلت ذكرى الأمويين حية في قلبه تنبض وفاء وإخلاصا وحنوة حب لا تزيد الأيام إلا توهجا . ولهذا نجده يردد قوله قبل توثق صلته بالعباسيين :

بنو مروان قومي أعتقوني وكل الناس يعد لهم عبيد
وقوله في معن :

حباك أخو أمية بالمرائي مع المدح اللواتي كان قالوا

وحيثما توثقت صلته بالعباسيين لم يهاجم الأمويين كما فعل مع العلويين نزولا عند رغبتهم وكل ما فعله هو أن جعلهم سيان لا حمد عليهم ولا ذم فجردهم من كل خير ولكنه لم يتهمهم بشر . ويتجلى ذلك في قوله :

فما فعلت بنو مروان خيرا وما فعلت بنو مروان شرا

وكان العباسيون يعرفون ذلك ويدركونه ولكنهم لم يلقوا إليه بالا ولم يؤاخذوه بما يكنه صدره مادام لسانه يعبر عن حبه لهم واعتزازه بملكهم ويعزف ألحانا ويصوغ قوافي تحكي عظمة مجدهم .

ثم ألا يكفي مروان ليدلل على وفائه للأمويين أنه عكف منذ سنة ١٣٢ هـ حتى سنة ١٥٨ هـ منقطعا عن العباسيين . مقيما باليمامة لا يروم عنها فراقا حدادا على أسياده ومعتقي أجداده ؟ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ألا يكفي فخرا ودليلا على حبه للأمويين أنه لم

يلق بنفسه في أحضان العباسيين بدافع منه وهوى من نفسه ، وإنما بعد أن جدوا في طلبه ؟

هذا هو الجو السياسي الذي عاش فيه مروان وتقلب بين الطافه وأعطافه وتذوق حلاوته كما تجرع مرارته . واكتوى بناره حيناً ونهل من نعيم أنهاره حيناً آخر وأحرقته قيلولته وقتاً وتفتياً تحت ظلاله حيناً آخر .

ولكن ماذا عن « الجو الاجتماعي » ؟ . لن أتطرق في كلامي إلى العصر الأموي لأنه مضى وراح ولم يكن له أي تأثير في حياة مروان وشعره وإنما سأبسط القول عن العصر العباسي . لأن مروان بلغ عند بدئه مبلغ الرجال وانتهى إلى الكمال وأصبح في مرحلة من عمره تنمي الإدراك والإحساس والتأثير بالعصر الذي يعيش فيه .

لقد بلغ العصر العباسي أوجه ووصل إلى القمة من الناحية الاجتماعية وذلك أن الخلفاء العباسيين اعتمدوا على الفرس في تدعيم ملكهم وتثبيت أساسه والفرس بطبعهم ميالون إلى المغالاة والمبالغة في ترفهم وبذخهم ونعيمهم وذلك طبع أصيل فيهم ، وكان من الطبيعي أن يتهالكوا على حياة النعمومة .

كانت بأيديهم مفاتيح الخلافة ، فهم الوزراء والولاة والوصاة على الخلفاء ، وقد ساعد على رقي الحياة الاجتماعية الهدوء السياسي الذي انتشر وعم الأقطار والأقاليم في العصر العباسي الاول عصر القوة والفتوة . فانصرف الناس إلى الانتشار في الأقاليم ، والأخذ بأسباب الحياة من زراعة وتجارة وصناعة . فكانت النتيجة الحتمية أن ارتفع المستوى المعيشي عند العامة وكثر مدخول الدولة من الأموال العينية والنقدية المستوفاة من حركات البيع والشراء والجزية والزكاة فعمر المنصور بغداد سنة ١٤٥ هـ . وأقام فيها القصور العظيمة التي كانت آية الفن المعماري في هندستها وزخرفتها وروعيتها وأبهتها التي تسخر العقول وتستحوذ على الأذهان والألباب . وتابعه الخلفاء من بعده فساروا على نهجه وقد سرى هذا السم الترفي إلى مآكل الخلفاء ومشاربهم وملابسهم ، وسرى ذلك إلى الطبقات المحملية التي تتمثل في الولاة والوزراء والمقرنين ، وسرت هذه الروح فدبت في أوصال الحياة العامة وتفتخت فيها حب البذخ والترف الذي كان عنوان الحياة الاجتماعية في العصر العباسي كما ساعد على انتشار هذه العادة الاجتماعية اختلاط العرب مع الجنسيات الأخرى ، وتقربهم إليهم عن طريق التعارف حيناً أو الزواج والصاهرة

حينما آخر كما أدت هذه الحياة الاجتماعية إلى كثرة الجوارى والغلمان حيث يقول أنيس المقدسى: (ومن نتائج المال والترف في العصر العباسي اقتناء الجوارى والغلمان وكان في بغداد كما كان في البصرة، وسواها من الحواضر الكبرى سوق لبيع الدقيق من عبيد وإماء) (١)

كما ذكر الأصفهاني (أنه كان للرشيد زهاء ألفي جارية) (٢)

ويقول المقدسى أيضا (إن ذلك لم ينحصر في قصور الملوك والأمراء بل تعداهم إلى منازل الخاصة وأرباب اليسار من تجار ومالكين وعلماء ومن يليهم من طبقات الشعب) (٣)

وقد سبب هذا اختلالا في ميزان الحياة الاجتماعية آنذك . ويقول عمر فروخ: (إن كثرة الجوارى في بيوت الخلفاء، و الأمراء وفي مواقع اللهو كان أيضا مدعاة إلى الفساد الاجتماعي الذي أنت منه البيئة العباسية، ولقد زاد في هذا الفساد نشوء طبقة الغلمان الخصبان) (٤)

كما أن من آثار هذه الحياة الاجتماعية المترفة انتشار حياة اللهو والمجون واللهو والطرب انتشارا جاوز حدود المعقول إلى حدود الإباحية المطلقة التي ظهرت واضحة جليلة في أشعار أبي نواس وأضرابه، ولم يكن الخلفاء والأمراء بمعزل عن تلك الحياة اللاهية الصاخبة لأن الوازع الديني قد ضعف نتيجة البذخ والترف، فقد كان أبو العباس السفاح يظهر للندماء في مجلسه ثم احتجب عنهم. كما كانت تلك سيرة المهدي والهادي والرشيد الذي بلغت الحياة الاجتماعية في عهده قمة ترفها وبذخها، ففي عهده اشتهر ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق، وابن جامع ومخارق وسواهم من المغنين وعن مخارق قال أبو العتاهية: (يادواء المجانين لقد رقت حتى كدت أن احسوك فلو كان الغناء طعاما كنت أدما. ولو كان شرابا لكان ماء الحياة) (٥).

ولقد ساعد علي رواج تلك الحياة أيضا علاوة علي تلك الأسباب أغدق الخلفاء العباسيين الأموال الطائلة دون عدد ولا حساب على طبقات النابهين من شعراء وقضاة ومغنين

(١) أمراء الشعر العربي ص ٥٤ (٢) الأغاني ١٤٧/٢١

(٣) أمراء الشعر العربي ص ٥٥ (٤) تاريخ الأدب العربي (العصر العباسية) ٣٨/٢

(٥) الأغاني ١٤٧/٢١

وأطباء ، فالمهدي أعطى شاعرنا مروان « مائة ألف درهم » على قصيدته «طرقتك زائرة» كما فرض على من في مجلسه خمسة آلاف على كل فرد منهم ، والرشيد طرب يوماً لغناء مخارق فأقطعه ضيعة وداراً ووصله بثلاثة آلاف دينار (١)

ومن هنا شاع البذخ والترف في أوساط الشعراء ، ومن ثم سرى أثره في أدبهم شعراً كان أو نثراً ، فتننى الشعراء بالخمر فوصفوا أقداحها وأوانيتها وعاصرها وساقيتها وشاربها وكل ما يتطرق إليها من مجالس لهو وطرب ورقص ، بل كان الشعراء خاصة يعقدون لذلك الجلسات وقد وصل الحال بهم أن ابتكروا أغراضاً شعرية جديدة «كالغزل في المذكر» والذي حفلت به أشعار أبي نواس ومسلم بن الوليد (صريع الغواني) وبشار وسواهم من الشعراء .

هذه صورة مختصرة من الحياة الاجتماعية السائدة في العصر العباسي ، وقد ذهب شوقي ضيف إلى القول : (إن هذا كله كان على حساب العامة المحرومة . التي كانت تحيا حياة بؤس تقوم على شظف العيش لينعم الخلفاء والوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة وأمراء البيت العباسي ، وطبيعي أن يعم البؤس والشقاء من جانب بينما يعم النعيم والترف من جانب آخر بل لقد كان الشقاء والبؤس أكثر الجوانب في الحياة العباسية) (٢)

وأعتقد أن شوقي ضيف قد وقع في الخطأ فإن وجود الشقاء والبؤس لا بد منه مهما بلغت الدولة من رقي ووصلت من حضارة ولكنه لم يكن على تلك الصورة المخيفة التي رسمها للمجتمع العباسي ، بل على الرغم من وجود الشقاء والتعاسة إلا أن البذخ والترف والنعيم كان طبع غالبية المجتمع العباسي حتى العامة منهم ممن كانوا يعيشون قريبا من حواضر الخلافة العباسية .

وقد علل شوقي ضيف سبب حدوث الثورات على الحكام ، ورده إلى بذخ الخلفاء وشقاء العامة ودهماء الناس حيث يقول : (ولعل البذخ وما صاحبه من اعتصار الشعب هو السبب الحقيقي في كثرة الثورات على العباسيين وخاصة في إيران ، ويقول : (ولعله السبب الحقيقي في تعلق الناس بالمهدي المنتظر من أبناء علي الذي ينشر العدل الاجتماعي في الأرض) (٣) كما ذهب شوقي ضيف إلى (أن بعض هذه الثورات قامت على أساس دعوات دينية مارقة كدعوة الخرمية التي استوحيت آراء المزدكية والمناوية وحتى الشيعة وفرقهم أعلوا

(١) انظر الأغاني ١٤٤/٢١ (٢) العصر العباسي الأول ص ٥١

(٣) المصدر السابق ص ٥١

المقاصد الدينية على مقاصد العدالة الاجتماعية وبذلك أخفقت هذه الثورات جميعا لأنها لم تضع للشعب اللافتات والشعارات الحقيقية التي يلتفت حولها ويعمل من أجلها ومضى العباسيون وحواشيهم يرفون إلى آذانهم في البذخ والترف (١)

ولا أعتقد صحة قول شوقي ضيف الذي يريد أن يحصر نتائج البذخ في قيام الثورات لأن حدوث الثورات في إيران طابعه سياسي أو ديني محض ففيها انتشر الشيعة كما أنها بعيدة عن مركز الخلافة . والفرس معروفون بتشيعهم لآل علي أما أن يكون السبب اجتماعيا فلا . لأن أغلب الوزراء والولاة والمغنين ، وغيرهم من المترفين كانوا فرسا ، ولهذا فإن الفرس لن يقوموا بثورات بسبب العدالة الاجتماعية ففي ذلك تنغيص على بني عمهم .

أما المانوية والمزدكية وسواهما من الحركات فهي حركات دينية وسياسية هدفها بعث الدولة الفارسية القديمة لأن أغلب الفرس لم يؤمن بالإسلام عن تقى وإنما خوفا أو مكيدة ، أما أن تقوم تلك الحركات بدعوى دينية والغرض اجتماعي فلا لأنها أبعد ما تكون عن تحقيق العدالة الاجتماعية فهي حركات منحرفة ضالة لا تستند إلى مبدأ سليم أو ترمي إلى هدف قويم ولا أعلم دينا كان حريصا على تحقيق العدالة الاجتماعية غير الإسلام .

أما الثورة العلوية أو الشيعية فصحيح أنها نتيجة ضياع العدالة الاجتماعية كما يراها قادتهم لأن بعض العلويين لم يرتضوا العباسيين لولاية أمر المسلمين في بادئ الأمر ولكن لما حصل ما حصل وانهارت الدولة الأموية وتحولت إلى عباسية كان العلويون يحلمون بأن العباسيين سوف يشركونهم في الأمر لأنهم بنو عمهم كما أنهم أول من أعلن الخروج عن طاعة بني أمية ولكن العباسيين تنكروا لهم .

هنا شعر العلويون بالحرمان وأحسوا بظلم اجتماعي لا يطاق وقديما قال طرفة

ابن العيد :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

فجرح الأحبة أليم ولهذا ثار العلويون بدافع سياسي وأهملوا الجانب الاجتماعي لأنهم لم يطالبوا بالمساواة مع العباسيين وإنما طلبوا الأمر لهم فقط وكل ما في الأمر أنهم اتخذوا من العدالة الاجتماعية سببا ظاهرا لثورتهم كما أنهم ألبسوا تلك الدعوة لباسا دينيا فهم أهل

(١) العصر العباسي الاول ص ٥١ .

البيت وأحق الناس بالإمامة وأقدر على تطبيق العدل الاجتماعي وهذا كفيل بتجميع الناس من حولهم وتجافيفهم عن العباسيين إذ أن اتخاذ دعوتهم طابعا دينيا سوف يذكر الناس بالمآسي التي لحقت بالعلويين . كقتل علي بن أبي طالب وابنه الحسين رضی الله عنهما وغيرهما مما يبعث في نفوس الناس الشفقة والعطف على أهل البيت ويدعوهم إلى مناصرتهم ومؤازرتهم .

أما أن يكون السبب الوحيد لثورة العلويين هو العدالة الاجتماعية كما يرى الدكتور شوفي ضيف فلا أراه والدليل على ذلك أن العلويين حينما أقاموا الدولة الفاطمية في مصر طغوا وبذخوا وأترفوا أنفسهم ووصلوا في ذلك حدا يزري ببذخ العباسيين وترفهم وكل ما في الأمر هو أننا نعتبر ثورتهم قد قامت باجتماع عدة عوامل دينية واجتماعية وسياسية مهدت لها وأوجدت قبولا لها عند كثير من الناس وحقق لها ذلك بعض الأتباع والمناصرين وإن كان هدفها الأساسي وغير المعلن الهدف السياسي .

ولكن أين مروان بن أبي حفصة من تلك المظاهر الاجتماعية المتناقضة المتباينة ، وهل أثرت في شخصه وشعره أم لا ؟ ؟

لقد كان مروان بعيدا عنها وقريبا منها ، فهو بعيد لأنه لم يكن على علاقة مباشرة بتلك الأحداث ولم تكن ذات تأثير على مجرى حياته ثم أصبح قريبا منها حينما ساهمت تلك المظاهر في رسم طريقه الأدبي بعد أن اتصل بالخلفاء العباسيين ونال إعطياتهم .

فمن ناحية البذخ والترف أصاب مروان من رضابه ونهل ثم علّ من برد شرابه ونمير مائة وذلك يتمثل في أنه أخذ نصيب الأسد من الهبات والعطايا التي بذلها الخلفاء للشعراء إذ أعطاه المهدي مائة ألف درهم على قصيدته :

بيضاء تخلط بالجمال دلالتها

طرقتك زائرة فحي خيالها

وأعطاه الرشيد سبعين ألفاً على قصيدته :

أشار سلمى بالبنان المخضب

لعمرك ما أنسى غداة المحصب

وأعطاه الهادي مائة وثلاثين ألف درهم لقوله :

وحزما إذا أمر أقام وأقعدا

تشابهتما سلما وعدلا ونائلا

وأعطاه معن بن زائدة عشرة آلاف دينار لقوله :

معن بن رائدة التي زیدت به شرفا على شرف بنو شيبان

وكان ذلك بسبب البذخ الذي طغى على الحياة الاجتماعية العباسية حتى أصبح رسم مروان لكل بيت يقوله ألف درهم وإن ساهم في ذلك الجوسياسي .

ولكن مروان حُرِم أو حرم نفسه من الارتقاء في أتون تلك الحضارة المترفة الرقيقة رقة الحرير رغم ما ناله من أعطيات وهبات يسيل لها لعاب الشعراء ، والمال مفتاح الترف والنعيم فلم يله مروان أو يسمع الغناء الا لماما ولم يشرب خمرا ولم يتغزل عن حب حقيقي ، وهذه أمور من معطيات الحضارة الاجتماعية التي عاصرها مروان ولكنه لم يتأثر بها لسبيين :

الأول : بعده عن مواطن الحياة الاجتماعية الناعمة الرقيقة لأن مهدها ومقرها بغداد عاصمة الحضارة الاسلامية ومقر الخلافة العباسية عصب الحياة الباذخة ومصدر الحضارة المترفة ، ولهذا اکتوى جميع من عاش في بغداد بنارها وتأثر بها وتقلب في أعطافها وألطافها وتقيأ ظلالها .

أما مروان فلم يحس بها أو يعلم شيئا عنها فهو أشبه بمن أغمض عينيه واستسلم لسلطان النوم فلم يع ما حوله ، وذلك لأنه كان يعيش في إقليم اليمامة وهي بعيدة كل البعد عن العراق وهو أتون الحضارة وبرزخها وإذا ما جاء بغداد مادحا فإنه لا يلبث حتى يعتلي ظهر ناجيته التي تنهب به الأرض تطوي سهولها وحزونها وتقطع قفارها وسباسبها حتي تحط به في أرض اليمامة وهي أرض درج على صعيدها وعاش تحت سمائها وتمرغ في ترابها ورضع فيها مع لبن أمه شظف العيش وخصاصته وقساوة الحياة المستقاة من طبيعتها البيئة الجامدة المتمثلة في الجبال والنجاد والوهاد . وندرة المطر والغيث . فشكل ذلك في نفس مروان مانعا وحصنا حماه من الارتقاء أو حتى التأثر الخفيف بحضارة أهل العراق ، وهكذا غدا بدويا في طبعه وخلقه ونهجه ، عربيا من بقايا الجاهليين في حياته وسيرته وسمته .

الثاني : الصفات الشخصية .. وهذه سبب سوف يأتي الكلام عنه لاحقا . ولكني لا أرى بأسا من التلميح إليها للحفاظ على صلة الكلام واكتمال الانتظام .

لقد خلق الله مروان وركبه تركيبا اخلاقيا كان السبب الثاني في ابتعاده عن مظاهر

الحياة الاجتماعية العباسية وعزوفه عن ترفها وبذخها المتمثل في اللهو من غناء وطرب وخمر ونساء فعلاوة على بداوته التي تعشق القديم والأصيل وترفض الجديد والدخيل فقد كان مروان بخيلا مقترا شحيحا على نفسه ، يلبس من الثياب ربما بالية واسمالا غير واقية ، فلا يعتني بشكل ولا مظهر ، فإذا تبدى للناس ففي أقبح صورة وأشنع أمثلة كما حرم نفسه من الطيبات فلم يأكل اللحم إلا لماما ولم يرتض لنفسه أن يستمتع بطيبات ما أحل الله له ، فكيف يستمتع بطيبات ما حرم الله عليه والبخل عدو لكل شيء وبسببه حرم على نفسه الخمر تحريم البخيل لا الزاهد وما الغناء والطرب والرقص إلا من توابعها رغم أن عنده من المال ما لو طلبها به لما امتنعت عليه ، ولكن تركيبه الأخلاقي منعه من كل ما يمت إلى البذخ والترف ومساوئها من مظاهر الحياة الاجتماعية المترفة بصلة كما أن بخله وشحه هو الذي أورثه حب المال فتهالك عليه ودعاه لأن يطرق أبواب الخلفاء ويلثم أعتابهم مستجديا .

وإذا صح لنا أن نعتبر الصراع بين العباسيين والعلويين كان منشؤه الظلم السياسي والاجتماعي والتفريق الطبقي الذي كان من أبرز سمات العصر العباسي فإن ذلك كان له تأثير كبير على مروان بن أبي حفصة حيث رسم خطته ووضع طريقه الذي سار عليه بعد سنة ١٥٨هـ حينما حداه الدهر ودفعته نوائبه إلى التزلف إلى ذوي الجاه والسلطان ولثم أعتابهم والنزول على رغباتهم فرأينا مروان يوثق الصلة بالعباسيين ويتحامل على العلويين داحضا حججهم ومفندا براهينهم التي اعتمدها سندا لهم وهم يطالبون بالخلافة وكان مروان بذلك يكرس نظرية التفريق الاجتماعي التي ارتضاها العباسيون وحشوا الشعراء على التغني بها وعزف ألحانهم على منوالها .

كان ذلك باختصار أثر الحياة الاجتماعية في العصر العباسي من سنة ١٣٢هـ حتى سنة ١٨٢هـ الذي طبع مروان بطابعه وصبغه بصبغته وجعله بحق علما من أعلام الشعر العباسي قريبا من أذهان الأدباء كل ما عن لهم بحث التأثير السياسي أو الاجتماعي علي الأدب في العصر العباسي الأول .

وسوف يأتي لاحقا في طيات هذا البحث مزيد من التفصيل وكثير من التوضيح عن هذا الاتجاه ومدى هذا التأثير .



(١) اسمه ونسبه وأسرته

هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة الشاعر المشهور اختلف في كنيته على أقوال ، ف قيل إنه يكنى « بابي السمط » (١) - وقيل إنه يكنى «بابي الهندام» (٢) وقال قوم أن كنيته «أبو الهيزام» (٣) ولقبه «ذو الكمر» (٤) وقد اشتهر بكنيته الأولى «ابو السمط» دون ماعداها من الكنى كما اشتهر بها حفيده «مروان بن ابي الجنوب» (٥) وربما يكون سبب شهرته بها هو ماذهب إليه المرزباني حيث قال : (إن مروان بن أبي حفصة يكنى «ابو السمط» وكان يلقب ببنت قاله) (٦) وربما أن ابا الهندام أو الهيزام كنية واحدة حرفت وصحفت على ألسنة الناس .

أما جد مروان الأعلى جد ابيه فهو ابو حفصة واسمه يزيد (٧) كان غلاما لمروان بن الحكم أعتقه يوم الدار (٨) بعد ما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه على أيدي الثائرين في السنة الخامسة والثلاثين من الهجرة . وكان سبب عتقه بلاءه الحسن خلال هذه المحنة حيث سقط مروان بن الحكم جريحا وهو يدافع عن عثمان فاحتمله « ابو حفصة » على كتفه وهرب به إلى بيت امرأه من عنزه ولازمه يعالجه ويمرضه ويعتني بشأنه حتى أبل من مرضه وبرأ جرحه فرد له مروان بن الحكم حسن صنيعه وجميل معرفته فأعتقه من الرق وتنازل له عن أم ولد يقال لها « سكر » (٩) كان قد رزق منها بنت اسمها « حفصة » حضنها

(١) أنظر البخلاء (شروح وتعليقات ، ص ٣٥٠) . الشعر والشعراء ٦٤٩/٢ ، الأغاني ٣٤/٩ والفهرست ص ١٦٠ ، زهر الآداب ص ٥٠٧ ، وفيات الأعيان ١٨٩/٥ شعر مروان ص ٧ .

(٢) وفيات الأعيان ٢٧٦/٤ ، النجوم الزاهرة ١٠٦/٢ ، أمالي المرتضى ٥١٨/١ (الحاشية) .

(٣) تاريخ بغداد ١٤٢/١٣ .

(٤) شعر مروان ص ٧ .

(٥) الأغاني ٣٤/٩ .

(٦) معجم الشعراء ص ٣٩٦ ولم يذكر البيت ولعله قوله : (أهلا بطيف لأم السمط أرقنا) البيت (شعر مروان ص ٢٠) وربما أنه خلط بينه وبين مروان الأصغر الذي ترجم له المرزباني في معجم الشعراء ص ٣٩٩ وقال عنه (يكنى ابا السمط) وبلقب (غبار المسكر) (انظر لطائف المعارف ص ٧٣) لقوله :

لما سئلت عن المشيب أجبتهم
هذا غبار من غبار المسكر

(٧) الأغاني ٣٤/٩ معجم الشعراء ص ٣٩٦ ، تاريخ بغداد ١٤٢/١٣ ، شعر مروان ص ٧ وفي المحاسن والمساوي ٣٥٨/١ قال

عن نسب إدريس بن سليمان وهو أخ لمروان (إدريس بن سليمان بن يحيى بن يزيد بن ابنى حفصة) وهو خطأ فيزيد وهو أبو حفصة وفي الشعر والشعراء ٦٤٩/٢ أن مروان هو مولى مروان بن الحكم كما قال (أعتق اياه ابا حفصة) وهذا خطأ لأن والد مروان هو سليمان وابو حفصة (جد والده سليمان) وفي الإبانة عن سرقات المثنبي ١٩٣ أن مروان مولى مروان ابن الحكم

(٨) يوم الدار : أى حينما اقتحم الثوار منزل عثمان رضى الله عنه وقتلوه سنة ٣٥هـ ، وعمره ٨٢ عاما .

(٩) الأغاني ٣٤/٩ ، ٣٩/٩ ، ١٠٦/٦ ، شعر مروان ص ٧ .

يزيد (١) بعد ذلك وتكنى بها وعرف بها وغلب ذلك على اسمه الحقيقي «يزيد» وقد اختلف في «ابى حفصة» جد الأسرة ونسبه أختلافا كبيرا يسبب للمجتهد حرجا في معرفة نسبه الصريح الصحيح وهل كان أصله يهوديا أم مولى . إلا أن هناك اجماعا على أنه لم يكن عربيا من ناحية الاب . فقد قيل إنه من أصل يهودى اسلم على يد مروان بن الحكم وهو ما ذهب إليه ابو الفرج الأصفهاني في إحدى رواياته (٢) إلا أن آل ابى حفصة ينكرون هذا النسب بحجة أنه مصنوع ويدعون أنه من سبى "اصطخر(٣)" (أسلم على يد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ثم وهبه لمروان بن الحكم)(٤) ، وذكر المرزبانى في معجم الشعراء (أن أصل آل ابى حفصة يهود من موالى السموأل بن عاديا (٥) ، ويدعون أنهم موالى عثمان بن عفان) (٦) ، وقبيلة عكل (٧) تدعى أن ابا حفصة منهم مضري النسب من نسل كنانة بن عوف بن مناة بن طابخة بن الياس بن مضر وهو بهذا النسب عربى أصيل لا مولى . ولا شك في أن هذا القول مختلق مصنوع للرد من قال أنه مولى وهو أمر يقره مروان بن أبى حفصه ويثبته في شعره حيث يقول :

بنو مروان قومي أعتقوني
وكل الناس بعد لهم عبيد (٨)

(١) انظر تاريخ الأدب العربى (الأعصر العباسية) لعمر فروخ ١٣١/٢ .

(٢) الأغاني ٣٤/٩ .

(٣) اصطخر بالكسر وسكون الحاء المعجمة والنسبة إليها اصطخرى وأصطخرزى بزيادة «زاي» بلدة بفارس من الإقليم الثالث طولها تسع وسبعون درجة وعرضها اثنتان وثلاثون درجة . وهي من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها وقيل أول من أنشأها اصطخر بن طموهرث ملك الفرس انظر معجم البلدان ٢٧٥/٤ .

(٤) في العقد الفريد ١٤٥/٧ أن الذي أسلم هو يحيى بن ابى حفصة كما زعم أنه أخ لمروان . وهو خطأ لأن يحيى ابن لابي حفصة والد سليمان فهو جد لمروان كما ذهب صاحب الشعر والشعراء ٦٤٩/٢ إلى أن يحيى هو الذى اسلم كما ذهب إليه صاحب العقد الفريد وذهب جرجى زيدان إلى أن مروان ابن لأبى حفصة ويبدو أنه وهم فخلط بين مروان الشاعر ومروان ابن أبى حفصة وهو أخ ليحيى سماه مروان بن الحكم باسمه كان شجاعا مقداما أرسله عبد الملك على رأس قوة من الجيش لمساعدة الحجاج ضد ابن الأشعث ولهذا نحمد جرجى زيدان قد وصف مروان بأنه كان شجاعا (تاريخ آداب اللغة ٨٥/٣) وفي أمالي المرتضى ٥١٨/١ سماه مروان بن يحيى وهو مروان بن سليمان وانظر في وهب عثمان إياه لمروان ابن الحكم إلى الأغاني ٣٥/٩ ، تاريخ بغداد ١٤٢/١٣ ، شعر مروان ص ٧ .

(٥) السموأل بن عاديا صاحب حصن الأبلق أشتهر بوفاته حيث أودع عنده امرؤ القيس أدرعه وهو ذاهب إلى القسطنطينية ولما طلبها منه «القيصر» جستنيان رفض فكان أن قتل ابنا له خارج الحصن واحتفظ بالأدرع فضرب به المثل في الرفاء وتنسب إليه القصيدة التي يقول فيها :

إذا المرؤ لم يدينس من اللوم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

(٦) معجم الشعراء ٣٩٦ .

(٧) عكل : قبيلة قديمة كانت تسكن في شمال نجد (أقليم الروشم) (وبلدها أشيقر) وكانت تعرف باسمها قديما جاء في معجم البلدان "الأشيقر جبل باليمامة وقرية لبني عكل" وهي احدي قبائل تجمع (الرباب) .

(٨) شعر مروان ص ٣٥ .

ويقول في رثاء معن بن زائدة :

حباك أخو أمية بالمرائي مع المدح اللواتي كان قالاً (١)

مما يؤكد أنه مولى من جهة أبيه . وتحاول قبيلة عكل أن تؤكد صحة ادعاء نسبته إليها حيث تقول (أن ثلاثة نفر أتوا مروان بن الحكم . وهم ابو حفصة ورجل من تميم ورجل من بنى سليم فباعوا أنفسهم منه في مجاعة نالتهم فاستعدى أهل بيوتاتهم عليهم فأقر أحدهم وهو السلمى أنه إنما أتى مروان فباعه نفسه وأنه من العرب فدرس إليه مروان من قتله فلما رأى ذلك الآخران ثبتا على أنهما موليان) (٢) وهو ما ذهب إليه أهل اليمامة أيضا وقد استعدت عليه قبيلة عكل مروان بن الحكم وابنه عبد الملك إلا أن ابا حفصة ابى أن يقر لهم بشيء سوى أنه أعجمى لا أصل له وأنه من سبي فارس نشأ في عكل وهو صغير ولعل ذلك ما جعل قبيلة عكل تدعى أنه منهم .

ومن خلال تلك الآراء والاختلافات يظهر جليا أن ابا حفصة مولى من سبي اصطخر ومما يؤكد هذا البيتان اللذان تحدث فيهما مروان عن اعتناق الأمويين لجده الاكبر والمذكوران سابقا .

كذلك فليس من المعقول أن يبيع العربي نفسه لمجاعة أصابته لأن له من العاقلة من يدفع عنه تلك الضائقة وينفس عنه تلك الكربة ثم كيف يقبل العربي أن يتحول أصله إلى أصل أعجمى وهو أصل وضع في نظر العرب . خاصة في دولة بنى أمية التي قامت على أساس التعصب للعرب .

وكما كان هناك اختلاف في جد الأسره . « ابى حفصة » استمر هذا الاختلاف حول أولاده وأحفاده من ناحية (الأم) . فقد ورد في الاغاني أن (ابا حفصة تزوج لحناء) (٣)

(١) شعر مروان ص ٤٥ .

(٢) الأغاني ٣٥/٩ وفي تاريخ بغداد ١٣/١٤٢ . ورد ادعاء آل ابى حفصه بأنه من موالي السمر آل بن عادباء كما نسب الخطيب البغدادي هذا الي أهل المدينة ، وانظر وفيات الأعيان ١٨٩/٥ .

(٣) في وفيات الأعيان ٤/٢٧٩ (حيا بنت ميمون)

بنت ميمون وهي من نسل النابغة الجعدي (١) الشاعر المعمر وكان زواجه بها في اليمامة عندما خرج اليها ليحبي الخراج لمروان بن الحكم حينما كان واليا على المدينة سنة ٥٦ هـ . واليمامة تابعه لها ، فأدرك ابا حفصة الظمأ في الطريق فطلب الماء من أحد البيوت القريه منه فأعطته جاريه ماء ليشربه ويطفيء حرارة العطش . فأعجب بها . وهام بها حبا وغراما ووجدوا وأراد أن يشتريها فأخبرته أنها حرة وأنها مولاة لبنى عامر بن حنيفة . فأنهى مهمته التي جاء من أجلها وقفل راجعا إلى المدينة فغالبه حنينه إليها وانبعثت لواعج الوجد والشوق في سويداء قلبه فلم يستطع مواصلة سفره إلى المدينة فرجع واتصل بأهلها فخطبها منهم وتزوج منها فحملت بانبه يحيى قبل خروجه من اليمامة وقد حملت له بعد يحيى بمحمد فبعد الله فبعد العزيز (٢) . ولعل هذا ما جعل الأدباء والنقاد يقولون إن الشعر جاء لآل ابي حفصة من هذا الطريق . إلا أن الخليفة الأموي الوليد بن يزيد (٣) قال لمروان عندما دخل عليه مع عمومته وكان في يد الوليد قضيب ففرزه في لمة (٤) مروان وقال : (يا غلام ولدتك سكر وهي أم ولد كانت لمروان بن الحكم فزوجها ابا حفصة) (٥) .

صحيح أن ابا حفصة قد تزوج سكرًا ومع ذلك لم يذكر المؤرخون والأدباء أن أولاد ابي حفصة منها . وفي اعتقادي أن هذا القول لا يمكن الاعتماد عليه والركون اليه لأنه يصور لنا تعصب الوليد بن يزيد لآبائه واجداده ولكي يشعر مروان ببنه الأمويين وفضلهم على آل ابي حفصة حيث إن ابا حفصة تزوج أيضا لحناء بنت ميمون من بني النابغة الجعدي وأولدها اولاده ومنهم يحيى جد مروان وهو ما أكدته مروان بن أبي الجنوب حيث قال

(١) النابغة الجعدي هو عبد الله بن قيس . شاعر من مخضرمي الجاهلية والاسلام نادم المنذر بن ماء السماء في الجاهلية واسلم ومدح رسول بقصيدة قال فيها :

أتينا رسول الله أذ جاء الهدى ويطو كتابا كالجحرة نيرا
بلغنا السماء مجلدنا وجدودنا وانا لرجو بعد ذلك مظهرا

ودعا له الرسول فقال (لافض الله فاك) مات بأصبهان وهو ابن (٢٢٠) سنة .

(٢) أنظر الأغاني ٣٤/٩ .

(٣) الوليد بن يزيد بن عبد الملك . تولى الخلافة بعد عمه هشام بن عبد الملك سنة ١٢٦ ولكنه لم يلبث أن قتل سنة ١٢٦ وذلك لأنه أشتهر بالفسوق والاعتكاف على اللذات والشهوات وانقطاعه عن الجماعة في الصلاة .

(٤) اللمة في مختار الصحاح ٦٠٦ (اللمة بالكسر الشعر يجاوز شحمة الأذن فاذا بلغ المنكبين فهو جمعة .)

(٥) الأغاني ١٠٦/٦ ، ٣٤/٩ ، ٣٩/٩ .

(ام يحيى بن ابي حفصة لحناء بنت ميمون من ولد النابغة الجعدي) (١)
وقد تزوج يحيى جد مروان بنتا لزياد بن هوذة (٢) كما تزوج بنتا لابراهيم بن النعمان
ابن بشير الانصاري اسمها « عمرة » (٣) . وأصدقها عشرين ألف درهم فلامه الناس وعيروه
بذلك إذ كيف يرضى وهو العربي الأصيل أن يصهر إلى مولى فرأى ابراهيم نفسه في موقف
يلزمه بالرد على خصومه ويدفعهم بالحجة القاطعة فقال :

فما تركت عشرون ألفا لقائل مقالا فلا تحفل مقالة لائم

فإن أكُ قد زوجت مولى فقد مضت به سنة قبلي وحب الدراهم (٤)

يشير الى تزويج الرسول ﷺ زيد بن حارثة وهو مولى من زينب بنت جحش وهي
عربية قرشية) وقيل : إن يحيى قد تزوج خولة بنت مقاتل بن طلبه (٥) بن قيس بن عاصم
"سيد أهل الوبر" واصدقها خمسين ألف درهم فتعرض لما تعرض له ابراهيم بن النعمان من
لوم وتقريع الناس وجرت السنة الشعراء بهجائه وكان ممن ألهم هذا الحادث الشاعر
القلاخ (٦) فقال يهجو مقاتل بن طلبه :

(١) الأغاني ٣٥/٩

(٢) المصدر السابق ٩/٣٦

(٣) طبقات الشعراء (لابن المعتز) ص ٤٢ وانظر الشعر والشعراء ٦٥٠/٢ ، والكامل ٤١٧/٢ وعيون الأخبار ص ٤/١٦ .

(٤) في المقدم الفريد ١٤٥/٧ نسبت الأبيات لمقاتل بن قيس (هكذا) يرد علي القلاخ والرواية هكذا :

وما تركت خمسون ألفا لقائل عليك فلا تحفل مقالة لائم
فإن قاتم زوجت مولى فقد مضت به سنة قبلي وحب الدراهم

لأن القلاخ قال يهجو : رأيت مقاتل الطلبات حلى نحور بناته كمر الموالى
فلا تفخر بقيس أن قيسا خررتم فوق أعظمه البوالى

وفي الكامل ٤١٨/٢ . البيتان لجرير وفيه فروج « بدل « نحور كما أن معها بيت ثالث هو :

لقد أنكحتم عبداً لعبيد من الصهب المشوهة الشبالي

أما في طبقات ابن المعتز ص ٤٤ فقد نسب البيتان الأولان لإبراهيم بن النعمان وكذلك في الشعر والشعراء ٦٥٠/٢ والكامل
٤١٧/٢ وعيون الأخبار ١٦/٤ . وفي هامش عيون الأخبار ١٦/٤ أن هذين البيتين رد على من قال يعيره بهذين البيتين :

لعمري لقد جللت نفسك خزبية وخالفت فعل الأكثرين الأكارم
ولو كان جلدك اللذان تتابعا ببدر لما رامما صنيع الآلائم

وقد ورد البيتان في الكامل للمبرد ٤١٦/٢ - غير منسوبين إلى قائل .

(٥) انظر الكامل ٤١٧/٢ الشعر والشعراء ٦٤٩/٢ والأغاني ٣٦/٩ وفي المقدم الفريد ١٤٥/٧ (مقاتل بن قيس) وفي طبقات

ابن المعتز ص ٤٢ ان الذي تزوج خوله هو (ابو حفصة جد مروان) .

(٦) القلاخ : هو من بني حزن وقيل (ابن حزن) بن منقر بن عبيد بن الحرث . وكان شقيقاً وأبوه جناب وأمه بنت خرشه ابن

عمر بن الضبي .. الشعر والشعراء ٢٦/١

نبئت خولة قالت حين أنكحها
 انكحت عبدين ترجو فضل مالهما
 لطلما كنت منك العار انتظر
 في فيك مما رجوت الترب والحجر
 لله در جواد أنت سائسها
 بردنتها وبها التجحيل والغرر (١)

ويذكر صاحب الاغاني (٢) في رواية عن العنزي قال : (خطب يحيى بن ابي حفصة إلى مقاتل بن طلبه بن قيس بن عاصم المنفري أبنته وأختيه فأنعم له بذلك فبعث يحيى إلى بنيه سليمان وعمرو وجميل فأتوه بالجفر فزوجهن بنيه وذخلوا بهن ثم حملوهن إلى حجر فقال القلاخ بن حزني :

سلام على أوصال قيس بن عاصم
 أضيعتموا خيلا عربا فأصبحت
 وإن كن رمسا في التراب بواليا
 كواسد لا ينكحن الا المواليا
 والأُم مكسوا والأُم كاسيا
 نشرن فكن المخزيات البواقيا (٣)
 فقال يحيى يرد عليه :

ألا قبح الله القلاخ ونسوة
 نكحنا بنات القرم قيس بن عاصم
 على البئر يعطش الكلاب من النتن
 وعمدا رغبنا عن بنات بني حزن
 وأوسط في حق وأرجح في وزن
 كوهنة بيت العنكبوت الذي تبني
 وابرز في فرج يعف ولا بطن
 إذا أمن الجيران ناء من الأمن (٤)
 ولم تر حزيننا ولو ضم أربعا
 وضييف بني حزن يجوع وجارهم

(١) جاء في الاغاني ٤٤/٩ أن البيتين الأول والثالث لمروان بن ابي حفصة يهجو امرأة من اهله تزوجت في قوم لم يرضهم من بني مطر كما أورد بيتا ثالثا واورد البيت الاول ثالثا والاخير وسطا والبيت الزائد هو :

لو كنت أشبهت يحيى في منكرة
 لما تقيت فحلا جده مطر
 (٢) الاغاني ٣٦/٩ ، ٣٧ .

(٣) ورد البيتان الثالث والرابع في الكامل ٤١٧/٢ باختلاف كبير (مكذبا) .
 (لم) أر اثوابا اجمر لخزيه
 والأُم مكسوا والأُم كاسيا
 من الخرق اللاني صبين عليكم
 بحجر فكن المقيات البواليا

كما ورد في الكامل ٤١٧/٢ (قال يحيى بن ابي حفصة يجيبه) أي القلاخ :
 (٤) الاغاني ٣٦/٩ ، ٣٧

وبناء على هذه الرواية يكون يحيى قد زوج « خولة لأحد بنيه » ولم يتزوجها هو مما يدحض الرواية الأولى التي زعمت أن يحيى تزوج خولة خاصة وأن الشعر المنسوب للقلاخ في الرواية الأولى مشكوك في صحته في حين لم يقل أحد عن الشعر الوارد في الرواية الثانية أنه مشكوك فيه مع العلم بأن يحيى شاعر مجيد وربما أن ورود اسم خولة أوهم الأدباء فظنوها خولة بنت مقاتل فنسبوا الأبيات إلى القلاخ وهي لمروان بن ابي حفصه كذلك فجامع شعر مروان د. حسين عطوان جعل الأبيات الثلاثة في الرواية الأولى من الشعر الصحيح لمروان .

وختاما فإن الصحيح والأمر الواضح كالشمس هو أن يحيى لم يتزوج خولة وإنما تزوجها أحد بنيه على أن صاحب الأغاني لم يذكر أي الثلاثة (عمرو ، جميل ، سليمان) تزوج خولة . بما يجعلنا في حيرة من أمرنا إذا ما حاولنا معرفة والدة مروان .

وعلى الرغم من ذلك فإن الأستاذ عمر فروخ يقول (تزوج سليمان خولة بنت مقاتل بن طلبه) وعلى هذا يكون نسب مروان من جهة أمه إلى قيس بن عاصم المنقري (!) إلا أن ذلك لا يغير شيئا في نسب مروان لأنه سوف يبقى من ناحية نسب والده .. مولى ..



(١) تاريخ الأدب العربي (الاعصر العباسية) لعمر فروخ ١٣١/٢ . ولم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه .

(ب) مولده ونشأته في الدولة الأموية

ولد مروان بن سليمان في شهر ربيع الأول سنة ١٠٥هـ (١) في اقليم اليمامة بنجد في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان حيث كانت تقيم أسرته إذ أن جده ابا حفصة قد تولى جباية خراج اليمامة لمروان بن الحكم حينما كان واليا على المدينة سنة ٦٥هـ واليمامة إحدى أعماله .

ومن هنا أصبحت اليمامة مقر أولاد ابي حفصة واحفاده من بعده . ويبدو أن تلك الأسرة كانت تعيش في منزلة اجتماعية لا بأس بها (كما تحدث عن ذلك علامة الجزيرة حمد الجاسر) وأصبح بيتها من بيوتات المجد والشهرة والمكانة الاجتماعية العالية في منطقة اليمامة من امثال بيوتات هوزة بن علي بن الحنفي وثمامة بن اثال ومجاعة بن مرارة وآل ابي حفصة (٢) وما من شك أن أسرة ابي حفصة ارتقت الى تلك المكانة الاجتماعية بواسطة أسيادها الأمويين وتعصبهم لها . ومما يدل على ذلك أن يحيى لما تزوج بنت زياد ابن هوزة استعدى عليه عماها عبد الملك بن مروان وقالاً أينكح ابراهيم بن عدي وهو من كنانة منك واليك بنتها وينكح هذا العبد هذه ؟ فقال عبد الملك : بل العبد بن العيد والله ابراهيم ابن عدي (وكان مغموز النسب في الاسلام) والله لهذا اشرف منه وإن لأبيه من البلاء في الاسلام مالميس لأبيهما ولا لأبيكما وما أحب أن لي بيحيى ألف منكما والله لو تزوج بنت قيس بن عاصم (٣) ما نزعتهما منه ومن زوجه فقد زوج ابني هذا وأشار إلى ابنه سليمان(٤) ويكفيها ذلك مجدا وعزا .

عاش مروان سني حياته الاولى في بيئته (اليمامة) (٥) التي انجبت كثيرا من الشعراء الذين خلدوا أسماءهم علي صفحات التاريخ وصنعوا من انفسهم نجوما تتلأأ في سماء الأدب العربي ففي أرضها ترعرع الاعشى والفرزدق وجرير وذو الرمة والحطيئة والعباس ابن

(١) النجوم الزاهرة ١٠٦/٢ ، معجم الشعراء ٣٩٦ وفي تاريخ الادب العربي (لبروكلمان ٢١/٢) أنه ولد سنة ١٠٣ وكذلك في (بلاد العرب ص ١٦١) انظر التعليق .

(٢) وللتوسع في معرفه مكانه اسرة مروان يستحسن الرجوع الي كتاب (ابن عربي موطد الحكم الأموي في نجد) للشيخ حمد الجاسر ص (١٤٣-١٤٤) و ص (٢٠٧-٢١٣) .

(٣) لعل هذا السبب الذي دفع يحيى الي ان يخطب : خوله بنت مقاتل بن طلبه بن قيس بن عاصم ويزوجها ابنه « سليمان » فيما بعد .

(٤) الأغاني ٣٦/٩

(٥) بالتحديد في منطقة السبخ (الخرج حاليا) انظر كتاب ابن عربي موطد الحكم الاموي في نجد ص ٢٠٧

الاحنف ، وعمارة بن عقيل وعشرات غيرهم . واستلهم مروان من تلك البيئة مكونات الشاعر: فاللغة فصيحة لم يداخلها لحن ولا تهجين ودنيا الشعر عامرة . وسوقها مزدهرة . كما أن هذا الاقليم كان محافظا بطبعه . لم تدخله الحضارة الفارسية واليونانية وما يستتبعها من ثقافات كان لها أثر كبير في حياة الأمة العربية في كافة النواحي الخلقية والعلمية والادبية والدينية . بل كانت اليمامة اقليما يمثل الحياة العربية السليمة من زيف الحضارة وبهرجها . كما كانت تمثل الحياة العربية الخشنة خشونة جبالها وتصورها لنا في أوضح صورة وأحلاها بكل ما تحمله من معاني التقشف والشطف .. ولا غرابة فحياة سكان اليمامة امتداد لحياة سكانها في العصر الجاهلي ولهذا جاء شعراؤها الأمويون ومن بعدهم أشبه ما يكونوا بشعراء العصر الجاهلي . كالأعشى وأضرابه .

وليس من شك أن تلك البيئة تركت أثرها واضحا في حياة مروان وفي شعره بعد ذلك . عاش مروان في العصر الأموي بعد أن احتلت موازين قوة الدولة وآذنت بغروب شمسها . فمكث في اليمامة لا يكاد يعدوها إلي غيرها رغم نبوغه في الشعر وهو ابن عشرين سنة . بسبب الصراع السياسي حول الخلافة وانتفاضة الاقاليم الاخرى ضد الخلفاء مما كان سببا في زوال الدولة الاموية سنة ١٣٢ هـ .

ولهذا نجد أن أخبار مروان في هذا العصر نادرة نادرة المطر في إقليم اليمامة لانشغال الناس بهذا الصراع السياسي وانزواء مروان في اليمامة فترة من الزمن جعلته في غفلة من الأدباء والمؤرخين . فلم يعيروه أي اهتمام آنذاك . علي ان اول ضوء سلط علي مروان في ذلك العصر هو خبر قدومه علي الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥-١٢٥) هـ وكان عمره عشرين عاما تقريبا . حيث يقول : (قال لي الرشيد هل دخلت على الوليد بن يزيد فقلت نعم . دخلت مع عمومتي إليه قال فأخبرني عنه فذهبت أتزحزح . فقال لي : إن أمير المؤمنين لا يكره ماتقول فقل ماشعت فقلت يا أمير المؤمنين كان أجمل الناس وأشعرهم وأجودهم دخلت عليه مع عمومتي ولي لمة فينانة فجعل يغمس القضب فيها ويقول : ولدتك سكر) (١) وقال المرزباني في ذلك (وفد أي مروان) على الوليد بن يزيد وهو حدث مع عمومته) (٢) .

ويقول الأستاذ حسين عطوان نقلا عن تاريخ دمشق (إنه وفد على الوليد بن يزيد

(١) الأغاني ٩/٣٤

(٢) معجم الشعراء ٣٩٦

(١٢٥-١٢٦هـ) مع الحسين بن مطير. (١) وطريح بن اسماعيل الثقفي (٢) وعدد من الشعراء ومع أن أكثر القدماء يقولون إنه لم يمدحه لأنه ارتج عليه حين وقف بين يديه فأنشده مما يحفظ من شعر تميم بن مقبل (٣) فإن ابن عساكر احتفظ له بقصيدة دالية امتدحه بها منها قوله :

إن بالشام بالموقر (٤) عزا
سادة من بني يزيد كراما
هان يا ناقتي علي فسيري
وملوكا مباركين شهودا
سبقوا الناس مكرمات وجودا
أن تموتي إذا لقيت الوليدا (٥)

ولم يذكر أديب أو مؤلف شيئا عن تلك الحادثة عدا ابن عساكر ، وبعدها انقطعت أخبار مروان نهائيا في العصر الأموي على الرغم من أن عمره عند سقوطها كان سبعا وعشرين سنة . إلا أن ابا الفرج الأصفهاني قال في أغانيه : (يقال أنه صنع قصيدة يمدح بها مروان بن محمد ولكن بعد فوات الأوان) (٦) ولكنها رواية ضعيفة مشكوك فيها . إذ لم يجزم ابو الفرج بصحتها مع ما تحمله كلمة «يقال» من ريب وشك . كما أن ابا الفرج

- (١) الحسين بن مطير بن مكمل ولد بين سنتي ٩٠-٩٥ مدح الوليد بن يزيد ومعن بن زائدة . مات في عهد المهدي سنة ١٥٨ .
(٢) طريح بن اسماعيل "ابو الصلت" شاعر الوليد بن يزيد الأموي وخليفه انقطع اليه قبل أن يلي الخلافة واستمر اتصاله به وجعله أول من يدخل عليه وكان يستشيريه عاش الي أيام الهادي .
(٣) تميم بن مقبل من بني العجلان كنيته (ابو كعب) ادرك الاسلام واسلم فكان يبكي اهل الجاهلية عاش ما يريد علي مائة سنة وهو من المخضرين وكان يهاجي الشاعر النجاشي توفي سنة ٢٥ هـ .
(٤) الموقر موضع بنواحي البلقاء من اعمال دمشق .
(٥) شعر مروان ص ٨ .

(٦) البهلاء ٣٥٠ (تعليقات وشروح) بقلم طه الحاجري نقلا عن الاغاني ولم أجد شيئا من ذلك في الأغاني الا أنني وجدت خبيرا يروي عن رجل باهلي انشد قوما شعرا يمدح به مروان بن محمد فاشتره مروان منه وجعله في مديح معن بن زائدة "انظر الخبر مطولا في الاغاني ٩/٤٠ وربما كان ذلك سببا في الإيهام . كما ذهب الدكتور حسن ابراهيم حسن في كتابه تاريخ الاسلام السياسي ٢/١٤٩ ذهب الي القول .. كان من انصار الامويين حتى قربه اليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية واصبح من خاصته المقربين اليه وشهد معه جميع مواقفه السياسية والحربية كما كما كان ساعده الامين في الاعمال التي تولاها قبل وصوله الي عرش الخلافة وبمده ويقول ص ١٥٠ ولاعجب فهو القائل في مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية :

مروان يا ابن محمد أنت الذي زيدت به شرفا بنو مروان

ولا شك أنه قد وقع في خطأ ووهم كبير اذ لم ينسب كلامه الي مصدر يعتمد عليه مما يوحي بالشك والارتياب اذ أن مروان لم يصل من المجد السياسي الي ما يؤهله لأن يكون ساعد خليفة أو وزير فقد كان جبانا بخيلا سيء المظهر وهي أمور تتنافى وهيبة الخلافة كما ان سنة عندما تولي مروان الخلافة احدى وعشرون سنة وهي بالطبع صغيره على المناصب الخطيرة ولم يقل بذلك القول من المتقدمين والمتأخرين سوى الدكتور حسن ابراهيم حسن واعتقد جازا ما أنه خلط بين مروان الشاعر ومروان بن أبي حفصه عم لوالده كان في عهد عبد الملك بن مروان وكان شجاعا يتدبه للمهمات وأخرجه من الحجاج =

الأصفهاني يعنيه جمع الخبر دون التفكير في صحته أو كذبه ويرى أن ذلك من مهمة القارئ والباحث.

واعتقد أن عدم اشتهاى مروان في تلك الفترة وانقطاع أخباره عائد إلى ابتعاده واعتزاله في إقليم اليمامة من سنة ١٢٦-١٣٢هـ وهى الفترة التى شهدت صراعا سياسيا عنيفا على السلطة بين الأمويين والعباسيين من جهة وبين الأمويين أنفسهم من جهة أخرى مما عجل بسقوطهم سنة ١٣٢هـ فأثر مروان الاعتزال ليتوارى عن أنظار العباسيين خشية أن يناله وأسرته سوء بحكم صلتهم بالأمويين ، كما أن دولة الشعر خاصة المديح قد دالت بسبب الصراع فترة من الزمن فلم يجد الشعراء ومنهم مروان خليفة يستحق أن تضرب إليه أكباد الإبل وتسيل أعناق المطي وتقطع إليه الفيافي والقفار طلبا لعطائه ونواله . واستمرت تلك الحال حتى استقرت الأمور للعباسيين وهدأت الثورة وخفت حدة الصراع فعاد للشعر ماؤه ورونقه وبهاؤه فدبت فيه الحياة وعاد شعراء المديح إلى الظهور ومنهم مروان .

إلا أن الدكتور مصطفي الشكعة يرى رأيا آخر في ندرة أخبار مروان في الدولة الأموية حيث يقول : (الذي لا شك فيه أن معظم الشعراء المخضرمين يحرصون الحرص كله على أن يحجبوا قصائدهم التي قالوها في بني مروان عن بني العباس تفاديا للحرج ودفعاً للغيرة ودرءاً لحفيظة تتحرك في قلب الملك المتولي الأمر وصاحب السلطان ، ومن ثم فقد عمل أكثر الشعراء من مخضرمي الدولتين علي حجب شعرهم في بني مروان وأدى عدم ترديده إلى إهماله وتبعاً لذلك إلى نسيانه فضع أكثره ، وبضياع شعر عدد من الشعراء المخضرمين في بني مروان فقد الأدب العربي ثروة نفيسة من أرق وأمتع ما قيل في ملوك أحبوا الشعر وأكرموا الشعراء وخصوصاً ذلك الذي قيل في الوليد بن يزيد وأنشد في ساحتها) (١) .



= والذي سماه مروان هو مروان بن الحكم تيمنا باسمه . كما وقع في نفس الخطأ جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ٨٥/٣ ، وانظر عن مروان بن ابي حفصه (الشجاع) الأغاني ٣٥/٩ ، ويبدو أن الدكتور حسن ابراهيم حسن يعتمد في اخباره على الأغاني ولكن دون تدقيق أو تمحيص ويدل علي ذلك نسبه البيت (مروان يا ابن محمد) الى مروان بن ابي حفصه مع انه لم ينسب اليه اطلاقا ولم يتطرق اليه إلا صاحب الأغاني حين اورده في خبير مشكوك في صحته مفاده أن مروان كان يشتري الشعر وأنه اشترى هذا البيت من رجل باهلي فجعله في مدح معن بن زائدة وسيأتي الخبر ونقده في موضوع "مروان في ميزان التقاد أحد فصول هذا البحث" .

(١) الشعر والشعراء للدكتور مصطفي الشكعة ص ٣٧

(ج) حياته في الدولة العباسية

مع الولاة

١ - مع السري بن عبد الله

كان السري بن عبد الله الهاشمي واليا لأبي جعفر المنصور على منطقة اليمامة في الفترة من ١٣٣-١٤٣هـ (١) وقد روت لنا كتب الأدب خبرا يدل على اتصال مروان بن ابي حفصة به وأنه مدحه بقصيدة ضاعت إلا ثلاثة أبيات منها هي :

أصاب الردى قوما تمنوا لك الردى لأنك أعطيت الجزيل وصردوا
سيذهب ما ضمت عليه أكفهم ويقى لهم في الناس ذم مخلد
وتبقى أياديك الكريمة بعدما يواريك والجود الصفيح المنضد (٢)

حيث روى إدريس بن ابي حفصة (٣) (أخو مروان) الخبر قائلا: (كان سبب اتصال مروان بخلفاء بني العباس أن جارية يمانية أهديت إلى ابي جعفر المنصور فأنشده شعرأ مروان يمتدح فيه السري بن عبد الله يذكر فيه ورائه العباس فسألها عن الشعر فأخبرته فأمر بإحضار مروان فوافاه بالربذة (٤) حاجا فلقى الربيع (٥) والمنصور عليل العلة التي مات فيها فقال كن قريبا حتى ندعو بك فلم تزل العلة تشتد به حتى مات قبل أن يصل إليه مروان فقال الربيع الحق بالمهدي ولا تتخلف عنه فانصرف مروان إلى اليمامة فجعلها طريقا وعليها بشر بن المنذر واليا فأوفده فيمن أوفد وأعطى كل رجل ألف درهم فقدم مروان على المهدي(٦)

والملاحظ في هذا الخبر عدم ورود الشعر الذي زعمت فيه الجارية اليمانية أن مروان قد قاله وذكر فيه ورائه العباس في حين أورد الدكتور حسين عطوان الأبيات الثلاثة السابقة نقلًا عن الحماسة الشجرية التي كانت هي المصدر الوحيد الذي ذكر مديح مروان للسري ابن

(١) انظر ابن عربي موطن الحكم الاموي في نجد ص ١٦٥ وهناك من يري أن التاريخ يقع بين سنتي (١٤٢ ، ١٤٣) هـ .

(٢) شعر مروان ص ٣٤ .

(٣) هو ادريس بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة قال عنه اسحق الموصلي (أخو مروان ينشد الشعر الجيد لنفسه ثم يقول يا أبا محمد قول الشعر أشد من قضم الحجارة علي من لايلمه وهو القائل
انفي الشعر لو يلقاه غيري من الشعراء ضن بما نفيت

(٤) الربذة من قري المدينة علي ثلاثة ايام من ذات عرق بها قبر ابي ذر الغفاري رضي الله عنه

(٥) الربيع بن يونس بن محمد حاجب أبي جعفر المنصور ووزيره بعد ابي أيوب المدرياني توفي سنة ١٧٠

(٦) المحاسن والمساوى ١/٣٥٨ ، سبط النجوم العوالي ٣/٢٦٩ ، مختار الاغانى ٦/٤٠٨

عبدالله دون بقية كتب الأدب التي توسعت في ذكر أخبار مروان خاصة كتاب الأغاني وهذا يلقي ظلالة من الشك حول أن مروان قد تطرق في مديحه للسري إلى أحقية العباسيين للخلافة دون العلويين نظرا لأن الخبر أهمل ذكر ذلك الشعر نهائيا في حين لا توجد أية إشارة إلى ذلك في الأبيات الثلاثة المروية ، إلا أن ذلك لا يلغي أن يكون مروان قد مدح السري طلبا لنواله فقط دون سواه من الأغراض ، ويؤكد ذلك ما يلي :

١ - أن الأبيات الثلاثة تنسجم انسجاما تاما مع طريقة مروان في مدح الولاة كما هي الحال مع معن أبرز ممدوحيه حيث يجعل مروان صفة الكرم من أبرز صفات الممدوح نظرا لحب مروان للمال وتهالكه عليه انسجاما مع نفسه المتصفة بالبخل الشديد .

٢ - لو كان مروان قد تطرق في مديحه للسري إلى حق العباسيين بالخلافة لكان حريصاً ألا تضيع تلك القصيدة أو تلك الأبيات خاصة . حيث سينشرها العباسيون وأتباعهم بين الناس كجزء من المعركة الدائرة بينهم وبين العلويين . ومما يؤكد ذلك إحتفاء الخلفاء العباسيين فيما بعد بتلك الظاهرة التي قل أن تخلو منها قصيدة مدح بها مروان هؤلاء الخلفاء وبذلهم لمروان من الأموال مالم يمنحوه لشاعر سواه رغبة في دفع مروان إلى مزيد من الدفاع عن أحقية العباسيين بالخلافة .

٣ - بما أن مروان مدح السري بن عبد الله نظرا لكونه واليا لإقليم اليمامة وقاعدته قديما « حجر » التي هي مدينة الرياض حاليا ، في حين أن مروان كان يقيم علي الأغلب في قرية «قران» (١) التي هي بلدة القرينة حاليا والتي لاتبعد عن قاعدة اليمامة بأكثر من ثمانين كيلا وهي مسافة تدفع مروان إلي القدوم علي واليها من أجل عطائه فقط ؛ وذلك قياسا علي المسافات إلي التي كان مروان يقطعها بين اليمامة واليمن لمدح معن بن زائدة ، والملاحظ أن مروان علي كثرة قصائده المادحة لمعن لم يلح علي الاتجاه السياسي القائم علي إبراز أحقية العباسيين بالخلافة دون العلويين علي الرغم من أن معن كان واليا للعباسيين واستمرت علاقة مروان به حوالي عشر سنوات .

٤ - لو أن مروان تطرق في مديحه للسري إلي « المديح السياسي » لكان حريا لهذا الوالي أن يندق علي مروان الأموال الطائلة لكي يجعله ادارة اعلامية يحارب بها العلويين نيابة عن أسباده العباسيين ولكانت النتيجة أن ينقطع مروان إليه ويمدحه بمدائح كثيرة خاصة

(١) انظر في ذلك قوله (ماترى البرق نحو قران ألا) ... البيت (شعر مروان ص ٧٣) وربما أنه عبر بقران عن إقليم اليمامة وأنه كان يعيش مع أسرته في منطقة الحضارم وهي المعروفة الآن (بالسيح) وأن مروان قد احدث فيها (نهراً) أي (عيناً) وسماه الجديده . انظر معجم البلدان ، رسم التلماء أو أن مروان كان يتردد بين (الحضارم) و(قران) .

وأن الوصول إليه قريب إلا أن الظاهر هو أن مروان حين مدح السري بقصيدته ربما صدم بقلة العطاء خاصة وأن الخبر أهمل ذكر مقداره وهذا ربما دفع مروان إلى عدم تكرار الاتصال بذلك الوالي وكان دافعا لمروان إلى أن ينقطع إلى معن بن زائدة وأن يمدح في مدحه مما كان سببا في طرد كل من المهدي والرشيدي له في أول دخول له عليهم .

٥ - يجب ألا تذهب بنا نسبة الخبر إلى إدريس (أخي مروان) إلى تصديقه فالغالب أن الخبر نسج على لسان لأنه شقيق مروان وكثيرا ما كان راوية لأخباره ولهذا نسب بعض مؤيدي العباسيين الخبر إليه لذر الرماد في العيون ، ولكي يكون أدعى للتصديق . وذلك من أجل طلبهم مروان ليكون شاعرهم . فكان أن دسوا هذا الخبر ليدعوا أن سبب استدعائهم لمروان هو هذا الشعر الذي قاله في اثبات حق العباسيين في الخلافة . ولو كان ذلك صحيحاً لكان العباسيون احرص الناس على ذلك الشعر من أن يضع .

٦ - إن السري بن عبد الله تولى الإمامة حتى عام ١٤٣ هـ بغض النظر عن بداية ولايته المختلف فيها . ولو كان مروان في أول لقاء به قد مدح العباسيين من خلاله لكان ذلك حرياً بأن يستمر شاعر العباسيين بدلاً من انقطاعه إلى معن من سنه ١٤٢ هـ تقريباً إلى سنة ١٥٢ هـ ولما تأخر به زمنه في الاتصال بالمنصور إلى نهاية سنة ١٥٨ هـ .

وعموماً فإن اتصال مروان بالسري ليس له من العمق والعراقة ما يجعله ظاهرة جلية في شعر مروان تدفع بالنقاد إلى البحث فيها واستقصائها وتحديد رأيهم في مروان انطلاقاً من الأشعار التي سجلتها .

إلا أنني رأيت الإشارة إلى تلك العلاقة نظراً لأنها علاقة مبكرة جعل منها مروان الخطوة الأولى في مسيرة حياته الشعرية التي امتدت حتى ١٨٢ هـ .

٢ - مع معن بن زائدة

كان معن أول شخصية مهمة يتصل بها مروان من شخصيات العصر العباسي ولكن مروان حين اتصل به بدءاً من سنة ١٤٢ هـ إلى حين مقتله سنة ١٥٢ هـ لم يكن ذلك بدافع كونه والياً عباسياً كما هو الشأن في علاقته بالسري بن عبد الله ، ولكن الدافع إلى ذلك هو معرفة مروان بأن معن بن زائدة أموي الهوى والاتجاه السياسي . طلبه العباسيون لحاجتهم إليه خاصة بعد معركة الهاشمية بين المنصور والراوندية ودوره فيها ، ولهذا كان مروان يرى في معن بقية رائحة من أسياده الأمويين . ولم ينظر إليه كصنيعه للعباسيين على الرغم من أن علاقة

مروان به لم تبدأ إلا بعد معركة الهاشمية عام ١٤١هـ وتولى معن على اليمن عام ١٤٢هـ وهذا ما جعله يسرف في اندفاعه إلى معن ومديحه له مدحا تشم منه رائحة التعريض بالخليفة المنصور عن طريق الشاء على موقف معن في يوم الهاشمية والإشارة إلى الموقف في كل قصيدة يمدح مروان بها معنا . وعلى الرغم من تعدد مدائحه لمعن إلا أن ضياع جزء كبير من شعر مروان يجعلنا عاجزين عن معرفة أولى قصائده فيه . إلا أن شهرة قصيدة مروان النونية التي مطلعها

هاجت هواك بواكر الأضعان يوم اللوى فظلت ذا أحزان
تجعل الحديث عنها محور العلاقة الوثيقة بين مروان ومعن خاصة وأنها ارتبطت بحادث تاريخي مهم هو موقعة الهاشمية ، وفيها يقول :

معن بن زائدة الذي زيدت به	شرفا على شرف بنو شيبان
جبل تلوذ به نزار كلها	صعب الذرا متمنع الأركان
إن عدا أيام الفعال وإنما	يوماه يوم ندى ويوم طعان
تقضي أستته ويسفر وجهه	في الروع عند تغيير الألوان
يكسو المنابر والأسرة بهجة	ويزينها بجهارة وبيان

ومنها :

ما زلت يوم الهاشمية معلناً	بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه	من وقع كل مهند وسان (١)

فأعطاه عليها ألف دينار ربما أثار سخط أبي جعفر المنصور حينما علم بالأمر ، فلما دخل عليه معن قال له : « بلغ أمير المؤمنين عنك شيئ لولا مكانك عند ورأيه فيك لغضب عليك » قال وما ذاك يا أمير المؤمنين فوالله ما تعرضت لك منك قال : إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معن بن زائدة الذي زيدت به	شرفا على شرف بنو شيبان
إن عدا أيام الفعال وإنما	يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال والله يا أمير المؤمنين ما اعطيته لما بلغك لهذا الشعر ، ولكن اعطيته لقوله :

(١) شعر مروان ص ١٠٧ والهاشمية قرية بناها السفاح قرب الكوفة وحدثت فيه ثورة الراونديي علي المنصور

ما زلت يوم الهاشمية معلناً بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاه من وقع كل مهند وسان

فاستحيا المنصور وقال : إنما اعطيته ما اعطيته لهذا القول ؟ . قال نعم يا أمير المؤمنين
والله لولا مخافة الشنعة عندك لأمكنته من مفاتيح بيوت المال(١) ، وما من شك في أن
المنصور يحسد معنا أن يكال له المديح وتهدى إليه غرر القصائد ، ولكن معنا عرف كيف
تؤكل الكتف إذ غمز من فتاة المنصور مذكرا إياه بمنته عليه أيام الهاشمية .

ونتيجة لذلك انقطع مروان إلى معن يصفيه وده ويصطفيه بمدائح في كل مناسبة
ومعن يجزل له العطاء وهو يكسوه من الثناء حللا فلم يتعداه إلى سواه ولم يمدح في حياته
أحدًا عداه وأصبح له بمنزلة زهير بن ابي سلمى مع هرم بن سنان وبقي ما قاله مروان وذهب
ما نفحه معن .

ومن روائع القوافي وغرر القصائد لاميته التي رددت على كل شفة ولسان ومطلعها
كأن التي يوم الرحيل تعرضت لنا من ضباء الرمل أدماء مغزل
وفيها يقول :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم
هم يمنعون الجار حتى كأنما
بها ليل في الإسلام سادوا ولم يكن
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا
وما يستطيع الفاعلون فعالهم
ثلاث بأمثال الجبال حباهم
تجنب لا في القول حتى كأنه
تشابه يوماه علينا فأشكلا
أيوم نداد الغمر أم يوم بأسه

أسود لها في غيل خفان أشبل (٢)
جارهم بين السماكين منزل
كأولهم في الجاهلية أول
أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا
وأحلامهم منها لدى الوزن أثقل
حرام عليه قول « لا » حين يسأل
فلا نحن ندري أي يوميه أفضل
وما منها إلا أغر محجل (٣)

يقول مروان (فأمر لي بصلة سنية وخلع علي وحملني وزودني)(٤) وقد قال ابن

(١) الأغاني ٤١/٩ (٢) غيل خفان : مأسده عند الكوفة

(٣) شعر مروان ص ٨٨ (٤) الأغاني ٤٣/٩

الأعرابي (١) عن تلك القصيدة : (لو أعطاه (أي معن) كل ما ما يملك لما وفاه حقه) (٢)
وقال عنها ابن خلكان (٣) : (هذا والله السحر الحلال المنقح لفظاً ومعنى وحقه أن يفضل
على شعراء عصره) (٤).

ولكن هناك أمر مهم تجب الإشارة إليه وهو أن مروان سلك مع معن طريقاً لم يسلكه مع
مدوح سواء لأنه إن كان يمدح أحياناً بدافع من عاطفة مادية بحثة كما في علاقته مع خلفاء
بني العباس فيما بعد ، فإنه لم يكن كذلك مع معن بل كان مادحاً له بدافع من عاطفة صداقة
ولهذا جاء مديحه متسماً بحرارة الصدق ولهجة الإخلاص نظراً لاتفاق المذهب السياسي
الذي يجمع بينهما وذلك يتمثل في ولاء معن ومروان للأمويين وإن كان ولاء أوجب عليهما
الظروف السياسية الجديدة اخفائه نظراً لزوال دولة الأمويين وقيام دولة العباسيين .

كان يعجبه في معن صفات الرجولة الكاملة من شجاعة وكرم وحلم وهي حلى معنوية
اتصف بها معن وبها اشتهر فجاء مروان وصاغ من تلك الحلى دور القصائد وغرر جيادها
وطوق بها عنق معن .

وكان مديح مروان يقع من معن موقفاً حسناً يصل به حد الإعجاب لأنه يرى فيه ذلك
المديح المعقول الذي تجرد من المبالغة الكاذبة التي يتخذها الشعراء عادة تقرباً وتزلفاً وتملقاً
للمدح ليستندوا جود يديه ولين جانبه وكرمه السماح .

ولقد وصل الإعجاب بمعن غايته حتى إنه ترك مروان يطلب على قصائد ما يريد .

يقول العنسي : (لما قدم معن بن زائدة من اليمن دخل عليه مروان بن ابي حفصة والمجلس
غاص بأهله فأخذ بعضادتي الباب وأنشأ يقول :

وما أحجم الأعداء عنك بقية عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا
له راحتان الحتف والغيث فيهما أباي الله إلا أن يضرا وينفعا

فقال له معن : احتكم قال : عشرة آلاف درهم فقال له معن : ربحتنا عليك تسعين ألفاً

(١) هو محمد بن زياد من أئمة اللغة ولد سنة ١٥٠ هـ درس علي يد المفضل الضبي ، والكسائي له مؤلفات عديدة منها :

١ - النواذر ٢ - الأنواء ٣ - صفة الحيل . مات سنة ٢٣١ في خلافة الرائق .

(٢) الأغاني ٤٣/٩

(٣) ولد سنة ٦٠٨ وتقل بين أربيل ، وحلب ، ودمشق واستقر بها مدرساً بالمدرسة الأمينية . ومات سنة ٦٨١ وعمره ثلاث
وسبعون سنة واشتهر بكتابه وفيات الاعيان

(٤) وفيات الاعيان (١٩١/٥) .

قال : أقلني أقالك الله . قال لا أقال الله من يقلك (١) لم يعفه لكن لو طلب ما ثمة ألف لما منعها إياه معن .

والقصيدة الآنفه الذكر طويلة مطلعها :

أرى القلب أمسى بالأوانس مولعا
ومنهما :

ولما سرى الهم الغريب قريره
عزمت فعجلت الرحيل ولم أكن
فأمت ركابي أرض معن ولم تزل
تدارك معن قبة الدين بعدما
أقام على الثغر الخوف وهاشم
مقام امرئ يأبى سوى الخطة التي
لقد دوخ الأعداء معن فأصبحوا
نجيب مناجيب وسيد سادة

ورغم انقطاع مروان إلى معن إلا أن معنا كان يساوي بينه وبين غيره من الشعراء وأحيانا يفضلهم عليه لأنهم أحسن مديحا وأبلغ قولا وذلك يدل على بصر معن بالشعر وقدرته على النقد (فقد اجتمع عند معن ابن ابي عاصية وابن ابي حفصة والضمري فقال :

لينشدني كل رجل منكم أمدح بيت قاله فأنشده ابن أبي حفصة :

مسحت ربيعة وجه معن سابقا لما جرى وجرى ذور الأحساب

فقال معن : الجواد يعثر فيمسح وجهه من العثار والغبار وغيرهما ، وأنشد الضمري أنت امرؤ همك المعالي ودون عروفك الربيع

فقال : ما أحسن ما قلت ، ولكن لم تسمني ولم تذكرني فمن شاء انتحله . فقال ابن

ابي عاصية :

إن زال معن بني شريك لم يزل لندى إلى بلد بعير مسافر

ففضله عليهم (٣) وربما يكون دافع معن إلى ذلك الحد من ظاهرة الطمع عند مروان .

(١) الاغاني ٣٣/٩ ، والعقد الفريد ٢٣٣/١ (والخبر ناقص) وخلاصة الذهب المسبوك ص ٨٤

(٢) شعر مروان ص ٦٣ وما بعدها . (٣) الموشح ص ٢٥٤ ، وأمالي المرتضي ٢٢٦/١

ومن روايت مديحه في معن بن زائدة قوله :

تحن قلوصي نحو صنعاء إذ رأيت
تحن إلى مرعى بصنعاء مخصب
وقد وثقت أن سوف يصبح ربها
تؤم شريكيا تهلل بالخيا
كما مدحه بقصيدة بائية منها :

إلى المجتبي معن تخطت ركابنا
كأن دليل القوم بين سهوبها
إلى أن يقول :

فما بلغت صنعاء حتى تبدلت
إلى باب معن ينتهي كل راغب
وبائية أخرى منها :

كفي القبائل معن كل معضلة
كنز الحامد والتقوى دفاتره
أنت الشهاب الذي يرمى العدو به
فيستتير وتخبو عنده الشهب (٣)

والملاحظ أن مروان عندما يتحدث عن شجاعة معن ويجعلها أبرز صفاته التي يمدحه بها يقرنها بالدفاع عن الدين وكأنه يغمز من قناة المنصور بعد موقف معن الرائع في يوم الهاشمية ولم تتوقف العلاقة بين شجاعة معن ودفاعه عن الدين وموقفه في الهاشمية بمروان عند المديح فقط بل إنه تطرق إليها حتى عند الرثاء في عدة مواطن نذكر منها (على سبيل التذكير) موقفا واحدا حيث يقول :

سيذكرك الخليفة غير قال
ولا ينسى وقائعك اللواتي
إذا هو في الأمور بلا الرجالا
على أعدائه جعلت وبالا (٤)

(١) شعر مروان ص ٦٨

(٢) المصدر السابق ص ١٦

(٣) المصدر السابق ص ٢٠

(٤) شعر مروان ص ٨٣ والخليفة هو المنصور

كما يلاحظ أيضا أن مروان في أثناء مديحه لمن لم يحاول إطلاقا الإشارة إلى أحقية العباسيين للخلافة دون الأمويين ، وهذا يؤكد أن مروان إنما مدح معنا مخلصا في حبه وليس لكي يكون وسيطا له عند العباسيين .

كما أنه من الضروري أن يؤكد أن مروان حينما تحدث عن كرم معن بإفاضة وشمول وأخذ يكرر الحديث عن صفة الكرم عنده في كل قصيدة بأسلوب يلفت النظر . لم يكن دافع مروان إلى ذلك الدافع المادي البحت الذي يبحث عنه عند كل عظيم يمدحه رغم صفة الطمع الذي يتصف بها والبخل المشهور عنه ، ولكن السبب في ذلك يعود إلى أن صفة الكرم والجود عند معن كانت حديث الناس في كل مكان ، وكان أن نشرها مروان عن طريق مدائحه بل ومرائيه فيما بعد وفاءً وحبا لشخص معن قبل انتظار أعطياته التي لم تتأخر في الانهمار من كفه إلى جيوب مروان .

وفي اعتقادي أن ما ذكرته إنما هو شيء من أشياء وغيض من فيض من مدائح (مروان) الرائعة الصادقة التي تنبض بكل معاني الصدق والتبل والشعور والأحاساس استطاعت أن تخلد نفسها رغم ظروف الزمان وعاديات الدهر . لأن مصدرها عاطفة حب وإعجاب بمعن قبل أن تصبح عاطفة درهم ودينار ، ولهذا نجد أن هذه العاطفة لم تخن مروان في أحلك المواقف وذلك عندما مات معن سنة ١٥٢ هـ قتيلا على أيدي الخوارج بسجستان إذ وجد مروان نفسه في موقف يحتم عليه أن يبكي ويبكي ، وكما مدح يرثي ليدلل على صدقه ويرد جميل معن وحسن صنيعه ويوفيه حقه من الإكرام بعد مماته كما منحه إياه في حياته فذلك خير دليل على الصدق والإخلاص .

ومن هنا استطيع الرد على من قال أن مديح مروان لمن كان الهدف منه ماديا بحثا فلم يكن هناك إعجاب سوى إعجاب الدرهم وحب سوى حب الدينار وهو ما اتهمه به د. طه حسين حيث قال : (أما في الرثاء فهو لا يطلب مالا وإنما يفي بعهد ويشكر صنيعه . ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه إلى الإجادة إلا أن يكون حساسا رقيق الشعور راقى النفس ، ولم يكن مروان من هذا كلة في شيء وإنما كان كما قلت لك رجلا عمليا يريد المال) (١) وأعتقد أن هذا الحكم كان جائزاً نقضه د. طه حسين في السطر نفسه والصفحة نفسها مما يوحى بتردده في اصدار الحكم وتناقضه حيث قال بعد ذلك مباشرة (على أن الرثاء لمن ليس بالردىء) (٢) ،

(١) حديث الأربعاء ٢٣٥/٢ .

(٢) المصدر السابق ٢٣٥/٢ .

ولكن الحق والواقع والصواب هو أن عاطفة مروان تجاه معن لا تتحمل أي ريب ولكنها عاطفة الصدق كل الصدق فهي قد تجاوزت معه وقامت بواجبها حين مات معن ، وهو ما لم يحدث عند وفاة المهدي والهادي ، فهو في رثائه معن بن زائدة كان الشاعر المجيد صور لنا هول الفاجعة وعظم المصيبة وأي مصيبة أعظم وأي رزء أجل من موت الهمام والليث الضرغام معن ابن زائدة الشيباني .

أقول : لقد انقلبت العاطفة انقلابا بحتمه الموقف ، فمن عاطفة إعجاب أصبحت عاطفة حزن وأسى مغلفة بالحب والصدق والإخلاص ، وكما صدقت الخنساء أباها صخرًا في رثائها له وابو تمام في رثائه ابن الطوسي ، وابن الرومي في رثائه فلذات كبده فقد صدق مروان في رثاء معن .

انهمرت من عينيه الدموع وتمزق قلبه أسى وتقطع حزنا وامتلأ كمدًا ، وأظلمت الدنيا في نظريه فلم يرها مضيعة كما عهدتها سابقا ، فمعن كان بدرها وقمرها ، وأظلمت بفقده ولم يجد مروان متنفسا لأحزانه إلا الشعر الذي نظمه في مديح معن أولا فمن الواجب أن ينظمه ثانيًا في رثائه حيث التجربة والمعاناة التي جعلته من عمالقة الرثاء في الشعر العربي كما كان عملاقًا في سماء المديح .

أقول : لقد عاش الواقع المرير بصدق وإحساس وكأني بمعن أبي إلا أن يسدي لمروان جميلًا حتى بعد موته إذ جعله في قائمة شعراء الرثاء .

ومن روائع مراثيه قصيدته اللامية التي قال فيها :

مضى لسبيله معن وأبقى	مكارم لن تبديد ولن تنالا
كأن الشمس يوم أصيب معن	من الإظلام ملبسة جلالا
هو الجبل الذي كانت نزار	تهد من العدو به الجبالا
وعطلت الثغور لفقده معن	وقد يروى بها الأسل النهالا
وأظلمت العراق وأورثتها	مصيبتها المجللة اختلالا
وظل الشام يرجف جانباه	لركن العز حين وهي فمالا
وكادت من تهامة كل أرض	ومن نجد تنزول غداة زالا

إلى أن قال :

فلهف ابي عليك إذ العطايا جعلن مني كواذب واعتلالا
ولهف ابي عليك إذا الأسارى شكوا حلقا بأسوقهم ثقالا
ولهف ابي عليك إذا المواشي قرت جدبا تمات به هزالا
ولهف ابي عليك لكل هيجا لها تلقي حواملها الثقالا
ولهف ابي عليك لكل أمر يقول له النجي ألا ارتحالا
سيذكر الخليفة غير قال إذا هو في الأمور بلا الرجالا
ولن ينسى وقائعك اللواتي على أعدائه جعلت وبال(١)

هذا ما اخترته منها ولم أترك البقية لضعفها ولكن خشية الإطالة ؛ إذ أن كل بيت منها ياقوتة في عقد .

فأي شحنة من الأسي يكتمها قلب مروان ؟ وأي شجون يخترنها فؤاده ؟ إنني لا أتصور حزنه وأساه فقد جل عن كل حزن وأسى .

هل يكون ذلك الشاعر الذي نعى معنا إلي العراق ونجد وتهامة والشام متصنعا في رثائه كاذبا في عاطفته ؟

إن طول نفس مروان ورثائه ولهفه الذي كرره في أبياته الأخيرة يصور لنا شعوره الصادق الذي اتصف به في اسمي واصفي غاياته ، ولو وقف مروان عند هذا الحد لربما قيل إن شعوره ضعيف انتهى عند قصيدة واحدة ، ولكنه استمر يرثي معنا بقصائد كثيرة تنبض بالحرقة والمرارة والألم في كل بيت بل في كل كلمة فنفس مروان الطويل أكبر برهان وأقوى حجة على صدق الشعور ونبل الإحساس وعظم مصيبتيه وبلوائه ، ولنقرأ قوله :

(١) شعر مروان ص ٧٩ وما بعدها والملاحظ ان مروان يشير في البيتين الاخيرين الي موقف معن في معركة الهاشمية حيث ساعد المنصور علي مهاجميه من الراوندية رغم عدائه له وكأني به يريد من وراء ذلك تذكير العباسيين بفضل معن عليهم .

ألقت إليه عرى الأمور نزار
 وقلوبها أسفا عليه حرار
 منها فعاش بشطرها الأعمار
 ليل بظلمته ولاح نهار
 بعهادها وبوبلها الأمطار
 حلماً يخالطه تقي ووقار
 ترك العيون دموعهن غزار
 كالبدن شق ضيائه الإسفار
 ترك القنا وطوالهن قصار
 بطل اللقاء مجرب مغوار
 نار بجمترك وتخمد ناز
 أحد وليس لنقضه امرار
 أحداً سواك لها بك المقدار (١)

فكادت له أرض العراقين ترجف
 به كان يرمى الجانب المتخوف
 وللمجد مبتاع وللمال متلف
 ربيعة والحيان قيس وخندف
 أيادٍ له بالضر والنفع تعرف
 سأشكرها مادامت العين تطرف
 وحن مع النبع الوشيح المثقف
 قبولاً فأمست وهي عجفاء حرجف (٢)

زار ابن زائدة المقابر بعدما
 إن القبائل من نزار اصبحت
 ودت ربيعة أنها قسمت له
 فلا بكين فتى ربيعة مادجا
 لا زال قبر ابي الوليد تجوده
 بحر يضم مع الشجاعة والندى
 إن الرزية من ربيعة هالك
 رحب السرادق والضياء جبينه
 لهفا عليك إذا الطعان بمأزق
 خلى الأعنة يوم مات مشيع
 يمسي ويصبح معلماً تذكى به
 مهما يمر فليس يرجو نقضه
 لو كان خلفك أو أمامك هائباً
 وقوله :

بكى الشام معنا يوم خلى مكانه
 ثوى القائد الميمون والذائد الذي
 أتى الموت معنا وهو للعرض صائن
 وما مات حتى قلده أمورها
 وحتى فشا في كل شرق ومغرب
 وكم من يد عندي لمعن كريمة
 بكته الجياد الأعوجية إذ ثوى
 وقد غيبت ربح الصبا في حياته

(١) العقدة الفريد ٢٤٢/٣ ولم يذكرها الدكتور حسن عطوان في شعر مروان
 (٢) المصدر السابق ٢٤٢/٣ ولم يذكرها الدكتور حسين عطوان في شعر مروان

لقد كان من حق مروان أن يبكي ويندب وينوح ما ترددت في جسده بقية من روح ،
فهذا دليل الإخلاص وعنوان الوفاء الشخصي أفاده كثيرا في حياته ولم يبخل عليه بعد مماته إذ
شاء الله أن يفيد مروان من معن بعد أن قضى من الحياة نجه كما أفاد منه حين كان يرزق .
وما كان ذلك إلا بسبب الإخلاص والاعتراف بالجميل .

وتتجلى لنا تلك الإفادة في هذين الاتجاهين :

(الأول) حينما رثى مروان معنًا بقصيدته آنفة الذكر ومنها هذا البيت :

مضى لسبيله معن وأبقى مكارم لن تبسبب ولن تنالا

دخل على جعفر البرمكي ليمدحه فقل له جعفر : أنشدني مرثيتك في معن فأنشده :

أقمنا بالمامة أو نسينا مقامالا نريد به زيالا

وقلنا أين نذهب بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا ؟

وكان الناس كلهم لمعن إلى أن زار حفرتة عيالا

حتى فرغ من القصيدة وجعل يرسل دمه على خديه فقال : هل أثابك على هذه المرثية
أحد من أهل بيته وولده قال : لا قال : فلو كان معن حيا ثم سمعها منك كم كان يشيبك
عليها ؟ قال أربعمائة درهم . قال : فإننا كنا نظن إنه لا يرضى لك بذلك ، وقد أمرنا لك عن
معن رحمه الله بالضعف مما ظنته ، وزودناك مثل ذلك فاقبض من الخازن ألفا وستمائة دينار
قبل أن تخرج ، فقال مروان يذكر جعفرا وما سمح به عن معن :

نفحت مكافئا عن جود معن لنا فيما تجود به سجالا

فمجلت العطية يا ابن يحيى لناد به ولم ترد المطالا

فكأفأ عن صدى معن جواد بأجود راحة بذلت نوالا

بني لك خالد وأبوك يحيى بناء في المكارم لن ينالا

كأن البرمكي بكل مال تجود به يدها يفيد مالا (١)

(١) انظر زهر الآداب ص ٣٣٦ والمحاسن والمساوي ٣٩٧/١ ، وطبقات ابن المعتز ص ٤٥ والأبيات المذكورة في شعر
مروان ص ٨٤

فجعفر كان معجبا برثاء مروان لمعن لأنه أحسن فيه كل معاني الصدق والوفاء والعاطفة التي تجيش بالحزن والأسى ولو لم يكن جعفر يميز جيد الشعر من رديئه وغثه من سمينه لما منح مروان ما منح . وتلك مكرمة لجعفر حفظها مروان وجعلته يمدح أسرة البرامكة فيما بعد وسيأتي تفصيل ذلك بعد حين .

(الثاني) : عندما غادر معن اليمن إلى سجستان عام ٥١١ هـ اتصل مروان بابنه زائدة لأنه رآه امتدادا طبيعيا لوالده ومتصفا بكل صفة معنوية محمودة عرفه الناس بها فهو شجاع ، متلاف ، حلیم ، وسديد الرأي ، وقد أهلته تلك الصفات لأن يكسب ثقة الخليفة ويجعله على ولاية اليمن خلفا لوالده « معن » لأنه رأى فيه صورته ماثلة تنطق بها أسارير وجهه وتنم عنها أفعاله لهذا استمر مروان في مديح زائدة كما كان يفعل مع أبيه وكأنه يمدحه في شخص ابنه فما زال مروان أسير فضله ولذا يحاول أن يسدد بعض دينه لمعن مديح له ولابنه .

ومعاذ الله أن يكون السبب دافعا ماديا بحثا في مديحه زائدة ، بل كان الدافع الحب والإعجاب بشخصية الممدوح لأنه صورة عن والده في كرمه وشجاعته ، بل وفي الهوى السياسي الذي كان يجمع بين معن ومروان وهو الولاء الخفي لبني أمية .

كل ما هنالك الرجولة الشاملة والشهامة العربية في الممدوح ، ولواعج حب وشوق يكنها صدر مروان لهذه الأسرة العريقة في المجد ويحاول الإفصاح عنها . ولهذا جاء مديحه لزائدة تعدادا لخصاله التي تميز بها . كما جاء جانب كبير منه مديحا لمعن الذي أصبح بعيدا عنه في سجستان .

يقول مروان :

أين لا أين زائدة الخيرات (م) إلا أبوه لا أين ذاكما ؟
 بابن معن يفك كل أسير مسلم لا يبيت يرجو الفكاكما
 مطري أغر تلقاه بالعرف (م) قوولا وللخنا تراكما
 من يرم جاره يكن مثل من رام (م) بكفيه أن ينال السماكما
 لم تنزل عند مواطن يا ابن معن عن مقام تقومه قدماكما
 إن معنأ يحمي الشفور ويعطي ماله في العلا وأنت كذاكما
 ما عدا المجتدي اباك وما من راغب اجتداه إلا اجتدأكما

رفعت في ذرا المعالي قديما فوق أيدي الملوك طرا يداكا
وسما الفرع منك في خير أصل من نزار فطاب منه شراكا
فبمعن تسمو وزائدة الخيرات (م) وعبد الإله كل فما كا (١)

وقد سمي ابن المعتز هذه القصيدة (الغراء) وقال : (أخذ عليها « أي مروان » من ابن
معن مالا كثيرا) (٢) .

وأعتقد أن القارئ الذي سوف يقرأ هذه القصيدة قراءة متأنية واعية تعتمد على معرفة
سابقة بعلاقة مروان بمعن سيجد في تلك القصيدة ثناءً على معن وتعداد مناقبه ، ولا شك أن
من أبرز صفات معن وفضائله أن خلف زائدة الذي استحق من الشعراء وخاصة مروان
مدائح لا تقل عما قيل في والده .

وإذا كانت القصيدة (الكافية) السابقة تعتبر هي القصيدة التي حفظتها كتب الأدب
من مدائح مروان في زائدة بن معن فهذا لا يعني إطلاقاً أن مروان اقتصر عليها ، ولكن يبدو
أن هناك قصائد أخرى كان الضياع من نصيبها أسوة بما ضاع من شعر مروان .

ومما يؤكد ذلك هذا البيتان اللذان قالهما مروان في مدح زائدة بن معن وهما :

رأيت ابن معن أنطق الناس جوده فكلف قول الشعر من كان مفحما
وأرخص بالعدل السلاح بأرضنا فما يبلغ السيف المهند درهما (٣)

مما يعني أنهما جزء من قصيدة ضائعة لا نشك في جودتها وقوتها بدليل شهادة أحد
أشهر رجال النقد في العصر العباسي وهو قدامة بن جعفر الذي قال معجبا بالبيتين السابقين
(وأو ما أبو السمط مروان بن أبي حفصة في مدحه (شراحيل بن معن بن زائدة) إيماءً موجزا
طريفاً أتى على كثير من المدح باختصار وإشارة بديعة) (٤) ويعني قدامة في ذلك كناية
مروان عن استتباب العدل برخص السلاح .

(١) شعر مروان ص ٧٤ وما بعدها

(٢) طبقات الشعراء ص ٥١ وفي وفيات الأعيان ١٩٠/٥

(٣) انظر البيتين في شعر مروان ص ١٠١

(٤) نقد الشعر ص ٨٦ ولا أعتقد أن المدح كان موجهاً لشراحيل بن معن ولكن إلي زائدة بن معن الذي خلف والده على ولاية
اليمن عام ١٥١ هـ . كما أن كتب الأدب التي دونت أخبار مروان بإفاضة مثل العقد الفريد وطبقات الشعراء (لابن المعتز)
والأغاني لم تتحدث إطلاقاً عن وجود أي علاقة بين مروان وشراحيل .

وقبل إنهاء الحديث عن علاقة مروان بمعن وابنه زائدة تبقى ملاحظة واحدة يجب الانتباه إليها وهي أنه قد يذهب بعض الناس إلى أن مروان غير مخلص لمعن غير محترم للعلاقة التي استمرت بينهما منذ تولي معن على اليمن عام ١٤٢ هـ حتى انتقاله إلى سجستان عام ١٥١ هـ بدليل أنه لم يمدح زائدة بن معن لأنه ابن معن ولكن لدافع آخر وهو أنه تولى مكان أبيه في اليمن فكفاه مؤنة ملاحقة معن في سجستان وهي بلاد بعيدة عن اليمن واليمامة فاكتفي بالقریب دون البعيد . وللرد على ذلك أقول :

١ - إن مديح مروان لزائدة كان مديحا لوالده والمتبع للقصيدة الكافية يجد فيها حديثا مطولا عن معن . وهذا قمة الوفاء .

٢ - إن قصائد مروان في معن غير مؤرخة ولولا وجود بعض الإشارات من أسماء مواضع وسواها من العلامات لما عرفنا هل قال مروان تلك المدائح وأنشدها لمعن وهو في اليمن أم لا ؟

وهذا يدل على أن مروان استمر في مديح معن والذهاب إليه في ولايته الجديدة خاصة وأن بعض المدائح لا توحى بأنها أنشئت لمعن في اليمن مما يعني احتمال إنشادها معنا في سجستان .

٣ - إن معن قتل عام ١٥٢ هـ بسجستان وعندما وصل الخبر إلى مروان تفجر لسانه بأروع المراثي التي جادت بها قريحته واوحى بها حزنه إليه وجعلته يحتل بها مكانة مرموقة في مملكة الشعر العربي ، بل إن مراثيه في معن هي المراثي الوحيدة التي تحسب له في هذا المجال . ولو لم يكن مروان وفيما لصاحب نعمته لما بكاه وهو بعيد عنه ولو كانت علاقته به علاقة مادية تنتهي بوجود بديل له لما نعاه إلى الناس جميعا وصور حزنه عليه في إطار عام ينقل حزن مروان على معن من حالة فردية إلى حالة عامة .

لقد كان من حسن حظ معن وابنه زائدة أن وجدا في طريقهما للمجد والعلا شاعرا بمكانة مروان يخلد اسم (الشيبانيين) تلك القبيلة التي ينتميان إليها بمدائحهم وفيها مراثيه في معن مما كان سببا في طرد مروان وإبعاده من مجالس الخلفاء العباسيين أكثر من مرة . بل وجلده وسجنه بسبب تلك المدائح كما حدث له مع الرشيد .

لقد كان قصائد مروان (في معن خاصة) روائع جعلت الخلفاء العباسيين فيما بعد يشترطون على مادحيهم أن تكون قصائدهم بمستوى مدائح مروان في معن بن زائدة ، وإلا

فلا داعي لإنشادها كما يحدثنا عن ذلك (ابو يوسف) قاضي الرشيد قائلاً : (اعترضه (أي الرشيد) أعرابي فأنشده فجزه وقال ألم أنهكم عن قول مثل هذا الشعر؟ ألم أقل لكم امدحوني بمثل قول القائل (بنو مطر يوم اللقاء كأنهم) وذكر الأبيات . قال أبو يوسف فقلت فيمن قلت؟ قال في اب ذاك الشاب الذي يسير في ظل القبة . فقلت للشاب : من أنت؟ فقال : شراحيل بن معن بن زائدة .

قال إسحق (١) فسمعت شراحيل يقول : (ذلك اليوم عندي أثر من الدنيا بحذافيرها) (٢) .



(١) إسحق : اى اسحق بن ابراهيم الموصلي اشهر مغن في العصر العباسي ولد سنة ١٥٥ هـ وتوفي سنة ٢٣٥ .
(٢) ديوان المعاني ٤٨/١ وفي طبقات الشعراء جاء الخبر برواية أخرى نقلها عن شراحيل بن معن بن زائدة وأن القصة كانت لشاعر من بني أسد مع يحيى بن خالد البرمكي (وليس مع الرشيد) (انظر طبقات الشعراء ٤٤/٤٣) وليس المهم في اختلاف الشخص الممدوح بين الرشيد أو يحيى البرمكي ولكن المهم هو صحة الحادثة بالنسبة لشراحيل بن معن وصدقها في التدليل على قوة شعر مروان . وانظر الخبر في وفيات الاعيان ١٩١/٥ باختلاف يسير .

مع الخلفاء العباسيين

١ - مع المنصور

بعد مقتل معن بن زائدة سنة ١٥٢ هـ اتصل مروان بابنه زائدة كما سبق تفصيله في الفصل السابق ، ومع ذلك ظل مروان ست سنوات من سنة ١٥٢-١٥٨ هـ لم يتزلف إلى خليفة أو أمير عباسي طلبا للعطاء والمنحة وإنما بقي قابعا في اليمامة ضاربا صفحا عن العباسيين غير محاول الاتصال بهم وربما أنه مدح أحدا من السراة والعظماء ، ولكن التاريخ لم يذكر عن ذلك شيئا نظرا لضياح شعر مروان .

وترجع أسباب اعتزال مروان للعباسيين إلى سببين :

الأول : الوفاء والإخلاص لمعن بن زائدة ميتا كما كان معه حيا ، فهذا الحب الحقيقي لمعن منع مروان من أن يخالطه حب مصطنع غايته التملق والرياء مع بني العباس من أجل عرض مادي بحت خاصة وأنه يجد عند معن ما يرضي غروره المادي وهو الشيء الذي لم يجده مروان عند الخليفة العباسي آنذاك وهو أبو جعفر المنصور الذي اشتهر ببخله الشديد .

الثاني : تخوف مروان من العباسيين أن ينالوه بشر لأنه من صنائع الأمويين بل مواليهم ، وما من شك أن فؤاده كان يترحم عليهم . ويكي أيامهم حينما أقض بنو العباس مضاجعهم ، وأزالوا دولتهم وتبعوهم وأعوانهم لاستئصال شأفتهم ، ولهذا ظل مروان مقيما ست سنوات في اليمامة لا يكاد يبرحها إلا لماما لكي يخرج عن دائرة اهتمام العباسيين وكأنه على علم أن الدهر كفيل بأن ينسي العباسيين ماضي مروان الأموي ويغفروا زلته من وجهة نظرهم .

ويضاف إلى تخوفه من العباسيين بسبب موالاته للأمويين إقباله الشديد على معن وإيثاره له عليهم . ففي ذلك حط من قدرهم وانتقاص من قيمتهم وهو ما أخذه الخلفاء العباسيون عليه بعد ذلك ضارين صفحا عن ولائه السياسي فيما مضى .

هذان الأمران هما اللذان حالا بين مروان والعباسيين ، ولولا مبادرة المنصور في طلب مروان بعد ذلك لقضى مروان نجه بعيدا عن العباسيين . فالوفاء يجره إلى الوراء فيما لو حاول أو سولت له نفسه الارتقاء في أحضان العباسيين طلبا لنوالهم ، وهناك الخوف الذي

يرتسم أمامه متمثلاً في مشانق ومجازر العباسيين التي أقاموها لأعدائهم الأمويين وأعدائهم
فأثر مروان الانتظار حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وأول ضوء سلط على مروان في العصر العباسي وله مساس بعلاقته مع الخلفاء
العباسيين كان في عهد أبي جعفر المنصور ولم يكن ذلك الضوء المسلط إقبال من الخليفة
على الشاعر ولكنه لوم وتقريع لمن وحسد لمروان على نوال أصابه . فمعن كان يغدق المال
على مروان ومروان يكسوه من الثناء حللاً في جميع قصائده . وقد سارت تلك القصائد مع
الركبان، وتناقلتها الألسن، وحفظتها الصدور حتى طرقت سمع أبي جعفر المنصور
وترجمها قلبه حسداً لمروان وحقداً وضغينة على معن، ولهذا قال لمعن بن زائدة حينما دخل
عليه : (لقد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانك عنده ورأيه فيك لغضب عليك . قال :
وما ذاك يا أمير المؤمنين . قال : اعطائك مروان بن ابي حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيبان
إن عدا أيام الفعال فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال والله يا أمير المؤمنين ما اعطيته ما بلغت لهذا الشعر وإنما اعطيته لقوله :

مازلت يوم الهاشمية معلنا بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهنده ولسان

فاستحيا المنصور وقال إنما اعطيته ما اعطيته لهذا القول ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين والله
لولا مخافة الشنعة لأمكنته من مفاتيح بيوت المال وأبخته إياها ، فقال المنصور لله درك من
أعرابي ما أهون عليك ما يعز على الرجال وأهل الخزم) (١)

فالمنصور حينما عاتب معن إنما تنطوي نفسه على حقد يصدر عن قلب أسود على
الأمويين وأضرابهم ، ومروان منهم كما أنه حسد معن أن نال الفخر وطبقت شهرته الآفاق
على لسان مروان ربيب أعدائهم ، كما أنه حاقد على معن لإعطائه مروان ألف دينار ، وهذا
أمر يحز في قلب المنصور الذي طبع على البخل والشح والتقتير حتى لقب « بابي
الدوانيق » .

(١) الأغاني ٩ / ٤١ .

وهذا نابع وصادر من معرفة ابي جعفر بعداوة مروان للعباسيين وإلا لما لم يمدح السفاح ولم يمدحه هو رغم أنه نبغ في الشعر وعمره عشرون عاما كما مدح الوليد بن يزيد (١) بل إنه تجاهل العباسيين ولم يذكر أحدا منهم في مديحه لمن إلا ما كان من ذكره لابي جعفر في قوله يمدح معنا «مازلت يوم الهاشمية» وفيه من الغمز والتحقير لابي جعفر مقدار ما فيه من التشريف والتعظيم لمن ، وهذا أشد إيلا ما لأبي جعفر من التجاهل الكلي .

إن في تجاهل مروان للسفاح و ابي جعفر وأشراف العباسيين في ذلك الوقت حط لقيمتهم وانقاص لقدرهم . رغم أنهم خلفاء الله في الأرض وولاته على رعيته فدفع ذلك ابا جعفر إلى تفرير ولوم معن متناسيا أياديه البيضاء وفضله ، وأي يد ، وأي معروف ، وأي فضل أعظم من إنقاذ معن للمنصور من أيدي الراوندية أيام الهاشمية عام ١٤١ هـ ولو أن معنا أنقذه وهو على حال الرضا لما كان في ذلك غضاضة ولكن الحال التي كان عليها هي العداوة والنقمة على معن لا اشتراكه مع ابن هبيرة في محاربتة للعباسيين ، ولهذا فإن إنقاذ معن له طوق معروف طوقه عنقه لا يفكه إلا غاسل ولو شاء معن لاخترط المنصور مع الراوندية وهبرة بسيفه معهم إذ أنها فرصة سنحت للنيل من عدوه . فيا لشهامة معن ومروءته وبالثناء ابي جعفر لأنه حسده على مديح مروان له ؛ ولهذا فمن حق معن أن يغمز من قنائة المنصور وأن ينال من هيبتة مذكرا إياه بفضائله عليه حينما قال : (إنما اعطيته لقوله مازلت يوم الهاشمية) فمعن يعرف من أين تؤكل الكتف ومتى يحسن الجواب ، ولهذا استجيا ابو جعفر لأنه عرف مقدار خطئه وزلة لسانه فلم يسعه إلا أن يتدارك ما بدر منه فيجذب عمل معن مشيدا ومنوها بكرمه ولكن على مضض .

هذا أول ضوء سلط على مروان في مجالس خليفة عباسي ، ولكنه ضوء الحسد إن صح التعبير ، ومن الطبيعي أن تصل الحادثة إلى مسامع مروان ويتحدث الناس بها فيزيد إقبالا على معن ، وإعراضا وصدودا عن ابي جعفر مدة حياة معن وبعد وفاته ، واستمر على ذلك إلى ما قبل وفاة ابي جعفر بأيام قلائل .

بعد الضوء الأول شع ضوء ثان مصدره اعجاب المنصور بشعر مروان فحاول الاتصال

(١) وذلك بقوله :

ان الشام بالموقر عزاً	وملوكا مباركين شهودا
سادة من بنى يزيد كراما	سبقوا الناس مكرمات وجودا
هان ياناقتي على فسيري	أن تقوتى إذا لقيت الوليدا

شعر مروان ص ٣٣ .

بمروان كما أن مروان قل عنده بدوره عارض الصدود والهجران مع مرور الأيام وعرف أن الأيام وإن طالت سوف تلقي به في أحضان العباسيين مجتديا ومتكسبا بشعره ، ولا ضمير في ذلك فمعن ذهب وبقي على الوفاء له ست سنوات من سنة ١٥٢ حتى سنة ١٥٨ هـ ولن يقدر اتصاله بالعباسيين في وفائه لمعن لأنه وفاه حقه بعد مماته في رثائه له بقصائد تنبض بالحزن وتنشع بالأسى خاصة وأن معن قد توفي وله في قلوب العباسيين مكانة خاصة لكونه أحد القادة الذين أرسوا دعائم ملكهم ؛ ولذا فإن الاتصال بالعباسيين لن يكون خيانة له في قبره ولن يتلقى من أجله سهام النقد ممن يرون في اتصاله بالعباسيين تنكر للأمويين وأيامهم ، وأما قوله :

فألقي رحله أسفا وآلى عينا لا يشد له رحالا (١)

فأمر اقتضاه عامل الحزن ولكنه يخف مع الأيام فلن يعيش مروان حياته يجتر الأسى ويلوك الحزن والمرارة ، ولهذا قرر مروان الذهاب إلى المنصور والإقبال عليه ولكن بعد أن بادر إليه المنصور وطلبه واقبل عليه .

وإنني لعلى يقين من أن المنصور لو امهله القدر لن يوبخ مروان كما فعل المهدي والرشيد بعد ذلك لأنه هو الذي طلبه أولا وكفيه تويخه لمعن حينما اغدق على مروان . بل إنه يحاول التكفير عن خطئه فآثر وهو الخليفة أن يتنازل عن شيء من كبريائه من أجل مروان . ثم إن الدولة لم ترس نفسها على قواعد ثابتة بعد فهي بحاجة إلى الشعراء يضربون بألستهم أنوفهم يذوبون عنها وعنهما يدافعون بغض النظر عن صدقهم من كذبهم فما زال الشعر يفعل فعل السحر يخلب ألباب الناس ، وابو جعفر يدرك ذلك جيدا ولكن القدر الذي لا يتقدم ولا يتأخر اختطف المنصور قبل أن يلقاه مروان ولولا ذلك لسمعنا مروان طائرا مفردا في حديقة الشعر من جديد .

وقصة طلب المنصور لمروان يرويها الخبر المنسوب إلى إدريس بن سليمان شقيق مروان حيث يقول : (كان سبب اتصال مروان بخلفاء بني العباس أن جارية يمانية أهديت إلى أبي جعفر المنصور فأنشدته شعرا لمروان يمدح به السري بن عبد الله (٢) يذكر فيه وراثه العباس فسألها عن الشعر فأخبرته فأمر بإحضار مروان فوافاه بالربذة حاجا (٣) فلقي الربيع والمنصور

(١) شعر مروان ص ٨٣

(٢) مدح مروان السري بشعر أورده عند الحديث عن علاقة مروان به ولكنه لم يتطرق للعباسيين وربما ان هذا الذكر كان في الجزء المفقود من القصيدة حيث لم أجد منها الا ثلاثة ابيات وربما أن ذلك في قصيدة اخرى .

(٣) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة ايام من ذات عرق فيها قبر أبي ذر الغفاري رضى الله عنه .

عليل العلة التي مات فيها فقال : كن قريبا حتى ندعو بك ، فلم تزل العلة تشتد به حتى مات قبل أن يصل إليه مروان . فقال الربيع : الحق بالمهدي ولا تتخلف عنه فانصرف مروان إلى اليمامة فجعلها طريقا وعليها بشر بن المنذر واليا فأوفده بشر فيمن أوفد . واعطى كل رجل ألف درهم فقدم مروان على المهدي (١) .

على أنني أشك في أن يكون مروان قد مدح العباسيين حينما اتصل بالسري بن عبدالله الذي انتهت ولايته على اليمامة عام ١٤٣ هـ . والا فكيف يقي مروان منذ ذلك التاريخ وحتى سنة ١٥٨ هـ وهي السنة التي طلبه المنصور فيها متقطعا عنهم إذا كان قد مدحهم في أول قيام دولتهم .

اعتقد أن نسج الخبر على لسان ادريس شقيق مروان بتلك الصيغة مكيدة من العباسيين لكي يصدق الناس الخبر . كما أنهم ادعوا بأنه مدح العباسيين من خلال السري بن عبد الله من أجل ايجاد المبرر الذي دعاهم إلى الاتصال بمروان .

وفي رأيي أن العباسيين كانوا محتاجين إلي مروان ، ولكنهم غير قادرين على قطع العلاقة بينه وبين من الذي أغدق عليه كثيرا من المال . في حين كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت وهو ابو جعفر المنصور غير قادر بسبب بخله علي مجازاة واليه على اليمن في مجال العطاء والكرم . لذا انتظر العباسيون حتى مات معن قتيلاً عام ١٥٢ هـ ، وانتهت مرحلة الانكفاء الحزين عند مروان التي اذابها الزمن .

ونظرا لأن مروان رجل بخيل يحب المال حبا جماً جاء اتصالهم به لأنه لا يوجد في الساحة من يملك مفاتيح بيوت المال سواهم فكان أن اتصلوا به ، ولكنهم بحثوا عن حجة يبررون بها اسباب اتصالهم بمروان فكان صنع الخبر على لسان شقيقه بتلك الصيغة .

إذا فالشك يحوم حول سبب طلب العباسيين لمروان . وليس حول الطلب نفسه . لأن الظرف السياسي يستدعي مثل ذلك حيث بدأ الصراع بين العباسيين والعلويين ينتقل إلى ساحة الصراع الدموي من خلال المعارك التي جرت بين المنصور والعلويين ممثلين في محمد ابن الحسن الملقب (بالنفس الزكية) مما جعلهم في حاجة إلى صوت اعلامي يدافع عنهم . فكان ذلك الصوت صوت مروان .

باللعجب حسده المنصور أولاً ثم طلبه ثانياً . ولكن الموت فصل بينهما قبل أن يبدي المنصور لمروان مكنون صدره . هل يسجنه ؟ أم يعاتبه ؟ أم يصطفيه لنفسه ؟ وهو الأقرب .

(١) الحاسن والمساويء ، ٣٥٨/١ ، وسط النجوم العوالي ٢٦٩/٣ .

لقد أنصف الموت مروان من ابي جعفر الذي انتقص قدره عند معن ووبخه على إغداق المال وبذله له فأماته الله قبل أن ينشده مروان بيتا واحدا وينطق به لسانه الذي نطق بمدح معن .

وعلى أي حال فإن محاولة اتصال مروان بالمنصور بناء على طلب الأخير قد مهدت الطريق أمام مروان للاتصال بخلفاء بني العباس فيما بعد وتقدمه عندهم وإيثارهم له على سائر الشعراء . وإذا كان من الطبيعي أن مروان لا بد وأن يقول شعرا ينشده المنصور إلا أن كتب الأدب لم تذكر شيئا من هذا عدا الخبر الذي ورد في الأغاني ومفاده (قال المهدي يوما وبين يديه مروان بن ابي حفصة أين ما تقوله فينا من قولك في أمير المؤمنين المنصور :

له لحظات عن خفافي سريره إذا كرها فيها عتاب ونائل

فاعترض آدم بن عمر بن عبد العزيز فقال هيهات يا أمير المؤمنين أن يقول هذا (أي مروان) ولا ابن هرمة كما قال الأخطل :

شمس العداوة حتى يستفاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا (١)

عموما فإنه لا علاقة بين المنصور ومروان وإنما مجرد اتصال لم يتم وما دفعني للإشارة إلى تلك العلاقة والحديث عنها إلا كونها المحاولة الأولى وخطوة البداية التي مهدت له الاتصال فيما بعد بالخلفاء العباسيين ولهذا فإن مروان مهد لتلك العلاقة مع الخليفة الجديد وهو المهدي بقصيدته التي يرثي فيها والده أبا جعفر المنصور (لاحبا به) ولكن تقريبا وتزلقا إلي الخليفة الجديد ، حيث يقول في قصيدة ضاعت كلها إلا هذان البيتان :

أبا جعفر صلى عليك إلهنا فرزوك أمسي أعظم الحدثان

بكي الثقلان الجن والإنس إذ ثوى ولم ييك ميتا قبله الثقلان (٢)

(١) الأغاني ٥/١٠ ولم يذكر سوى هذا البيت إلا أن هذا البيت ورد في العقد الفريد ٢٢٤/١ ت محمد سعيد العريان) منسوبا لابن هرمة بمدح ابا جعفر المنصور من ضمن ثلاث ابيات هي :

له لحظات عن خفافي سريره إذا كرها فيها عتاب ونائل

لهم طينة بيضاء من آل هاشم إذا سود من كوم التراب القبائل

إذا ما ابي شيئا مضى كالذي ابي وإن قال أي فاعل فهو فاعل

ورغم أن الدكتور حسين عطوان لما جمع شعر مروان عقد فصلا ص ١١٣ وما بعدها تحت عنوان ما ينسب له ولغيره إلا أنه لم يذكر من ضمنه هذه الابيات .

(٢) تاريخ الموصل ص ٢٣٠

٢ - مع المهدي

يعتبر المهدي أول خليفة عباسي اتصل به مروان بعد أن حاول الاتصال بالمنصور بناء على طلب الأخير . ولولا أن الموت فرق بينهما . إلا أن تلك الحادثة قد خففت شيئا من العقبات التي تعترض طريق مروان وتحول بينه وبين الوصول إلى المهدي إلا أنه كان يظن في نفسه أن الطريق أمامه مفروشة وردا ورياحين ، ولكنها في الحقيقة طريق مملوء بالشوك والسعدان . فالمنصور طلبه ولاندري هل كان يريد معاقبته ؟ أم معاتبته ؟ أم استصفاه لنفسه ؟ وإن كان الرأي الأخير أرجح .

أما المهدي فلم يطلبه ولم يستحسن شعره وإنما قدم مروان عليه بناءً على طلب الربيع ابن يونس فقابله المهدي بالصدود والإعراض والهجران ولم يتلقاه بصدر رحب ووجه طلق وثغر باسم وسن ضاحك كما توهم مروان رغم تقربه إليه بقصيدته التي يرثي بها والده المنصور وقد ذكرت منها بيتين في الفصل السابق . (١)

ويعود إعراض المهدي عن مروان إلى سببين أحده بهما المنصور من قبل عندما عاتب معن بن زائدة على إعطائه مروان ألف دينار وأخذ المهدي بهما فيما بعد ، هما :

الاول : انقطاع مروان إلى معن بن زائدة انقطاعا تاما واهماله الخلفاء العباسيين والدعوة العباسية فلم يتطرق إلى ذلك في شيء من مديحه لمعن لأنه يعرف أن ممدوحه لم يصل ولاية اليمن لأنه من صنائع العباسيين فيتقرب إليه بمدحهم ، ولكنه وصل إلى الولاية بفضلته وجميله الذي طوق به المنصور أيام الهاشمية حين ركبته وتكاثر عليه الراوندية .

أما فيما سبق فإن معنا كان عدو العباسيين قاتلهم مع ابن هبيرة ، وأهدروا دمه بعد ذلك لولا حادثة الهاشمية ، ومن الطبيعي ألا يرضى معن بمدح العباسيين حينما يمدحه مروان وهو مالا يرضاه مروان أيضا ؛ وأن يجد المهدي في نفسه على مروان لأن في إقباله على معن إهمالا لقدرة وانتقاصا لشأنهم وحقهم . خاصة وهو يعرض بالعباسيين حينما أشار إلى فضل معن عليهم في قوله (مازلت يوم الهاشمية معلنا .. إلخ) ولم يكن مروان مهتما بهم

(١) البيتان هما :

ابا جعفر صلى عليك الهنا فرزوك امسى اعظم الحدان
بكي الثقلان الإنس والجن إذ ثوى ولم يك ميتا قبله الثقلان

تاريخ الموصول ص ٢٣٠

لأنه وجد جلاً يمدحه عن اعجاب كما كفاه مؤنثه ، وأغدق عليه من المال ما قضى على تعطشه إليه ، وأرضى غروره . فلا حاجة تضطره إلى أحضان العباسيين ليرتمي فيها .

الثاني : بقاء مروان على ولائه السياسي للأمويين في العصر العباسي ولم يكن ذلك يتعارض مع تقربه إلى معن والي العباسيين على اليمن لأنه كما اسلفت وصل الولاية لفضله على العباسيين وليس عن طريق التصنع والتقرب إليهم ويكفي أنه كان عدوا لهم في أول عهدهم ، ولهذا حقد المهدي عليه لأنه ظل على الوفاء للأمويين مدة طويلة في العصر العباسي . وكان ذلك سببا في عدم إطراره للعباسيين في مديحه لمعن لأنه يتعارض مع ولائه السياسي للأمويين ويرمي في أحضان النفاق والتنكر للماضي . ومما يدل على بقاءه على ولائه للأمويين زمنا طويلا في العصر العباسي قوله يرثي معنا :

جباك أخو أمية بالمرائي مع المدح اللواتي كان قالاً (١)

ولهذا عكف مروان في الإمامة من سنة ١٥٢ إلى ١٥٨ هـ متخوفا من العباسيين من ناحية ومحافظا على وفائه لمعن والأمويين من جهة أخرى .

ولهذا لم يحاول الاتصال بالعباسيين إلا حينما طلبه المنصور ، وحينما مات قبل لقائه قدم على المهدي بناء على طلب الربيع بن يونس . وربما كان المهدي عارفا بمحاولة والده مقابلة مروان .

ولئن كان من أسباب امتناع مروان عن القдом على المنصور معاتبته لمعن على ما حباه به مروان فلا امتناع جاء منه . فقد انعكست الأمور مع المهدي وجاء الإعراض من الخليفة هذه المرة ولكن السبب للمرة الثانية كان معنا . ففي الأولى كثرة ما اعطاه مروان من المال ، وفي الثانية كان السبب غلو مروان في رثائه معن بن زائدة حيث روى صاحب الأغاني عن الفضل بن الربيع (٢) قوله : « رأيت مروان بن ابي حفصة وقد دخل على المهدي بعد وفاة معن بن زائدة في جماعة من الشعراء فيهم سلم الخاسر (٣) وغيره فأنشده مديحا (٤) فيه فقال له : من أنت قال : شاعرك يا أمير المؤمنين وعبدك مروان بن ابي حفصة . فقال : ألسنت القائل :

(١) شعر مروان ص ٨٣

(٢) الفضل بن الربيع بن يونس وكنيته (ابو العباس) تولى الحجابة للرشيد والأمين كما كان والده الربيع بن يونس حاجبا للمنصور . توفي سنة ٢٠٨ هـ .

(٣) سلم الخاسر : أحد الشعراء المطبوعين تكسب بالشعر سنة ١٥٨ مدح المهدي والهادي والرشيد والبرامكة والمنصور سمي الخاسر لأنه باع مصحفاً واشترى طنبوراً .

(٤) لم يذكر الخبر ذلك المديح .

اقمنا باليمامة بعد معن مقاماً لانريد به زيالاً
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالاً ؟

قد ذهب النوال كما زعمت ، فلم جئت تطلب نوالنا ؟ لا شيء لك عندنا . جروا
برجله فجروا برجله حتى خرج ، فلما كان من العام المقبل تلتطف حتى دخل مع الشعراء
وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة فمثل بين يديه بعد وأنشده رابع أو
خامس من الشعراء :

طرقتك زائرة فحي خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها
قادت فرأدك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصبا فأمالها
قال فأنصت الناس لها حتى بلغ إلى قوله :

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها ؟
أو تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية بتراثم فأردتم أبطالها

قال : فرأيت المهدي قد زحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط اعجاباً بما
سمع ثم قال : كم هي ؟ قال : مائة بيت . فأمر له بمائة ألف درهم . فكانت أول مائة ألف
درهم اعطيها شاعر أيام بني العباس (١) .

والمتتبع لهذا الخبر يرى أن مروان مدح المهدي أول مرة ولكنه طرده . ولاشك أن سبب
طرده ليس غلوه في رثاء معن فقط . لكان طرده قبل أن ينشد مديحه ولكن المهدي لم يجد
في شعر مروان جديداً وإنما مدحه بالكرم والشجاعة ... إلخ وهي معاني مبتذلة كل

(١) الاغانى ٤٢/٩ وانظر الخبر في تاريخ بغداد ١٣/١٤٢ ، والفرج بعد الشدة ١/٣٧٩ ، وخلاصة الذهب المسبوك ص ١٢٧
(بشيء من التغيير) والمعجب أن ابا الفرج الاصفهاني ذكر في موضع آخر من الاغانى خبراً عن ثابت العبدي عن مروان
ابن ابي حفصة يذكر فيه مروان أنه انشد الرشيد وهو معه في إحدى غرواته في بلاد الروم قصيدته (طرقتك زائرة) وأنه
وصف فيها الرجال من الأسرى وكيف اسلموا نساءهم والظفر الذى رزقه وأن الرشيد اعطاه عليها مائة الف درهم
(الأغانى) واعتقد أن ابا الفرج إنما اورد الخبر جريا على عادته في نقل أي خبر عن الشخصيه التي يتحدث عنها بغض النظر
عن صدقه او كذبه تاركاً معرفة الصدق من الكذب لمعرفة وإدراك القارىء إما القصيدة فلاشك أنها قيلت في المهدي
وليس الرشيد بدليل قول مروان :

سنن النبي حرامها وحلالها

أحيا أمير المؤمنين محمد

يمدح بها حتى السوقة من الناس استغرقها مروان في مدح معن ولهذا طرده لأن مايريده هو الدفاع عن أحقية العباسيين بالخلافة . يريد مديحا سياسيا يظهر حق العباسيين ويطمس باطل أعدائهم .

نعم لقد طرد المهدي مروان رغم أنه لم يفد عليه إلا بناء على طلب الربيع بن يونس (وزير المنصور) الذي قال له (الحق بالمهدي ولا تتخلف عنه) (١) ، وكان الهدف من وراء ذلك هو لفت نظر مروان إلى رغبة الخليفة الجديد بأن يتجه في مديحه له اتجاهها سياسيا لا مدحا تقليديا ، وكان مروان ذكيا عرف مراد المهدي ومدحه بما أراد في تلك القصيدة ودافع عن العباسيين أفضل دفاع وعرض بالعلوين داحضا حججهم في مطالبتهم بالخلافة وهو مالم يستطع أحد من الشعراء أن يفعله أو يظهره في قوة وشموخ مروان . حيث صاغ دعوى العباسيين صياغة فقهية وسكبها في عروق الشعر يطرب بها أسماع الناس فتقبلوها ولم ينكروها وتلك لعمر لله قمة المدح السياسي .

والمتتبع لهذا الخبر مرة أخرى يرى أن الرواه قالوا «أنشده مديحا» ولكنهم لم يوردوا هذا المديح وإنما آثروا الاختصار بإهماله وربما أن السبب عدم استحسان المهدي له لكونه مديحا تقليديا يستطيع مروان أن يقوله لكل ممدوح في حين يريد أن يتخذ مروان في مديحه طريقا أخرى هي طريق المدح السياسي . ولكن إدريس بن سليمان (أخا مروان) يقول في تنمة الخبر المنشور سابقا والذي افاد قدوم مروان على المنصور (فقدم مروان على المهدي ومدحه بأربع قصائد .

قوله :

صحا بعد جهل فاستراحت عواذله وأقصر عنه حين أقصر باطله

وقوله :

طاف الخيال فحيه بسلام أنى ألمّ وليس حين لام

وقوله :

اعص الهوى وتعز عن سعادكا فلمثل حلمك عن هواك نهاكا

وقوله :

مرى العين شوق حال دون التجلد ففاضت بأسراب من الدمع جسد

(١) المحاسن والمساوىء ٣٥٨/١ وسمط النجوم العوالى ٢٦٩/٣

قال إدريس فاعطى المهدي مروان ألف درهم . (١)

وأقول ليس معقولا أن يقصر المهدي عطاءه لمروان على ثلاثين ألف درهم وقد مدحه بأربع قصائد دفعة واحدة مع أنه اعطاه على قصيدته « طرقتك زائرة » ... إلخ مائة ألف درهم . والذي أذهب إليه هو أن يكون العطاء لكل قصيدة على حدة خاصة إذ عرفنا أن مروان كان بخيلا ويحب المال ولذا فإنه لن يجازف بشعره في مجلس واحد فينال عليه عطاءً واحداً ، وهذا مما يؤكد بطلان رواية إدريس ويدحضها .

ومما يؤكد ذلك أمور منها :

١ - أن إدريس قال عن تلك القصائد أنها أول ما أنشد مروان المهدي بعد دخوله عليه مباشرة ، ولم يذكر أنه طرده في اول الأمر ، ولم يذكر شيئا عن أشهر قصائد مروان وهي (طرقتك زائرة) مع إجماع الأدباء على أنها أول مدائحه بعد أن طرده المهدي . وفي رواية إدريس ينكشف التحيز والتعصب لمروان لأنه أخوه ؛ وليس معقولا أن يظهر أخاه بمظهر المنبوذ بين الخلفاء . وما يؤكد ذلك هو أن تلك الرواية للخبر على هذه الصفة لم تنسب لغير إدريس . فليس غريبا أن يتعصب الأخ لأخيه على حساب الحقيقة والخبر .

٢ - أن إدريس خلط بين القصائد من دون مراعاة لتفاوتها زمنيا فجعلها في زمن واحد ، وليس الأمر كذلك . فمن المؤكد أن كل قصيدة قيلت في زمن غير زمن القصائد الأخرى لأن مروان يحرص على كثرة العطاء فليس معقولا أن ينشد أربع قصائد في محفل واحد بل سوف يوزع الإنشاد على محافل أربعة لينال عن كل قصيدة قسطها . وما يؤكد صحة ما ذهب إليه في أن القصائد مختلفة زمنيا . وأن إدريس جعلها في زمن واحد القصيدة الثانية :

طاف الخيال فحيه بسلام أنى ألمّ وليس حين لمام

فهذه القصيدة قيلت بمناسبة مبايعة الهادي وليا للعهد بعد ابيه المهدي وهو ما صرح به

(١) المحاسن والمساوىء ٣٥٨/١ - ٣٥٩ وفي سمط النجوم ٢٦٩/٣ (فاعطى المهدي مروان إجازة سبعين ألف درهم واستشهد صاحب سمط النجوم بقول مروان :

سبعين ألفا راشنى من جائه وما نالها في الناس من شاعر قبلى

شعر مروان ص ٩٣ والحقيقة أن الجائزة من المهدي واتباعه بلغت سبعين ألف . ثلاثين ألفا منه واربعة من اتباعه فروى صاحب المحاسن والمساوىء عن ادريس ما أعطاه المهدي لمروان فقط في حين روى صاحب السمط ما اعطى المهدي واتباعه مروان وهو سبعون ألف درهم وانظر الخبر في مختار الأغاني ٤٠٩/٦ إلا انه لم يروه (صاحب الكتاب) عن إدريس بن سليمان .

مروان في القصيدة ذاتها وقد حدث ذلك سنة ١٥٩ هـ أي بعد سنة من دخول مروان على المهدي لأول مرة .

قال الصولي (لما عقد المهدي لولده موسى قال مروان بن ابي حفصة :

عقدت لموسى بالرصافة بيعة شد الإله بها عرى الإسلام
موسى الذي عرفت قريش فضله ولها فضيلتها على الأقسام
بمحمد بعد النبي محمد حي الحلال ومات كل حرام
مهدي أمته التي أمست به للذل آمنة وللإعــــدام
موسى ولي عهد الخلافة بعده جفت بذاك مواقع الأقسام (١)

ومن قوله في تلك القصيدة يمدح المهدي :

يا بن الذي ورث النبي محمدا دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثـة الأعمام ؟
ألفى سهامهم الكتاب فحاولوا أن يشرعوا فيها بغير سهام
ظفرت بنو ساقى الحجيج بحقهم وغررتم بتوهم الأحلام (٢)
والمتتبع لهذا الخبر مرة أخرى يرى أن الرواة قالوا « أنشده مديحا » ولكنهم لم يوردوا هذا المديح .

وقد روي صاحب العقد الفريد عن مروان قوله (فلما انشدت المهدي الشعرين (٣) قال : وجب حقلك على هؤلاء وعنده جماعة من أهل بيته . وقد أمرت لك بثلاثين ألف وفرضت على موسى (٤) خمسة آلاف وعلى هارون (٥) مثلها وعلى (على) أربعة آلاف وعلى العباس كذا وعلى فلان كذا فحسبت سبعين ألفا (٦) وكان مروان قد أنشده تلك

(١) الأبيات في تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤ كما ورد البيت الأول وكذلك الثاني في ضحى الإسلام ٣١٢/٢ وهذه الأبيات مما فات على د. حسين عطوان جامع شعر مروان . كما أن أحمد أمين أورد البيتين الأولين من القصيدة الأولى مع الأبيات الأخيرة على أنها قصيدة واحدة . انظر ضحى الإسلام ٣١٢/٣ .

(٢) شعر مروان ص ١٠٤ وساقى الحجيج (البيت السادس) هو العباس بن عبد المطلب .

(٣) الشعران هما : القصيدة الميمية (طاف الخيال) واللامية (طرقتك زائرة)

(٤) موسى هو الهادي (٥) هارون هو الرشيد (٦) العقد الفريد ٢١٧/١

القصيدة بعد ان اعاد على مسامعه قصيدته (طرتك زائرة) للمره الثانية نظرا لاستحسان المهدي لها عندما انشده اياها اول مرة . ولهذا فإن هذا العطاء الذي تحدث عنه مروان إنما هو من أجل القصيدة الميمية وليس لقصيدة (طرتك زائرة) لأنه سبق لمروان أن نال عليها مائة الف درهم (١).

٣ - أن قصيدة (طرتك زائرة) وهذه القصيدة فيهما إشارة الى الشعر السياسي بل إنهما غارقتان فيه وهو ما يريده المهدي من مروان في حين أن قصيدة (صحا بعد جهل) قد خلت من ذلك الاتجاه السياسي وهذا يعني أن تلك القصيدة (صحا بعد جهل) هي الاولى وكانت السبب الذي طرد بسببه مروان نظرا لأنها تدور في فلك الشعر التقليدي الذي ابتعد عنه مروان نهائيا في جميع مدائحه للخلفاء العباسيين لمصلحة المديح السياسي ومن هنا يستحيل أن ينشد مروان المهدي القصائد الأربع (كما ادعى إدريس) في مجلس واحد ومن أول لقاء خاصة أن رواية إدريس لم تتطرق إلى ذكر أبرز قصائد مروان وهي قصيدة (طرتك زائرة) .

ومن هنا فإنني أذهب بل وعلى يقين بأن قصيدة (صحا بعد جهل واستراحت عواذله) هي أول قصيدة مدح مروان بها المهدي وأنه أنشده اياها (لوحدها) حينما دخل عليه لأول مره وأنه طرده لأنها خلت من الاتجاه السياسي وإن لم يفصح المهدي عن ذلك وإنما اختفي خلف علاقة مروان بمعن بن زائده وأنه اسرف في مديحه وراثته له (٢) .

٤ - ومما يؤكد ذلك ما جاء في الاغاني عن أسحق الموصلي نقلا عن مروان قال : (دخل مروان ابن ابي حفصة على المهدي في أول سنة قدم عليه . قال (اي مروان) فدخلت عليه في قصره بالرصافة(٣) فأنشدته قولتي فيه :

امر واحلى ما بلبي الناس طعمه عذاب أمير المؤمنين ونائله
فإن طليق الله من أنت مطلق وأن قتيل الله من أنت قاتله

(١) هذا ما جعل إدريس حسب رواية المحاسن والمساويء ٣٥٩/١ يقول . (فاعطى المهدي مروان ثلاثين الفا) فلم يحسب إدريس ما اعطاه بقية القوم .

(٢) ومما يؤكد بطلان رواية إدريس أنه اعاد تكرار هذه القصة وأنها حدثت بين المهدي ومروان حينما مدحه بقصيدة (طرتك زائرة) وقصيدة (اعدك من ذكر الاحبة عائد) انظر المحاسن والمساويء ٣٥٩/١

(٣) مدينة بناها المهدي على الجانب الشرقي من دجلة : سنة ١٥٩ هـ مقابل المدينة التي بناها ابره على الجانب الغربي وفيها قبور معظم الخلفاء العباسيين .

قال فأعجب بها وأمر لي بمال عظيم فكانت اول صلة سنوية وصلت إليّ في أيام بني هاشم (١)

ولا يهم قول مروان أنه أمر لي بمال عظيم لأنه ليس من المعقول أن يذكر مروان أن المهدي طرده فيفضح نفسه ولكن خلوها من الإشارات السياسية يؤكد أنها اولى قصائده في المهدي وهذا يدل على أنه أنشد تلك القصيدة منفردة عن غيرها مما يؤكد خطأ ادعاء إدريس ابن سليمان . ومما يؤكد صحة الحادثة أن مروان هو الذي حدث بها عن نفسه وهو أولى بأن يصدق ونقلها عنه اسحق الموصلي . وهو المؤتمن على اخباره بغض النظر عن ادعاء مروان بأن المهدي قد اعطاه عليها مالا .

وعموماً فإن مروان رغم هذا التكريم والعطاء الذي اغدقه عليه المهدي لم يجد الطريق مفروشة له بالورود والرياحين في النهاية ، حيث كثر حساده وأصبح يلاقي صعوبة في الدخول على المهدي ولم تكن تلك العقبة من الخليفة هذه المرة ، ولكنها من وزيره يعقوب ابن داود (٢) الذي ألمه أن يقبل الخليفة على مروان ويغدق عليه من الأعطيات ما لم يعطه أحداً ودخل قلب يعقوب حسد وحقد عليه مروان فكاد له واهمل شأنه ومنعه من الدخول على المهدي الذي لم يكن يدري ما سبب انقطاع مروان عنه اللهم إلا أن يكون في اليمامة . في حين أن مروان يلازم عتبة الباب ليل نهارياً أمل أن يؤذن له فيدخل وهو الآخر لا يدري ما سبب حجبته عن الخليفة وظل على ذلك زمناً حتى انكشفت له الحقيقة . حيث يقول إدريس بن سليمان : (انصرف أي مروان) إلى اليمامة ثم عاد في سنة أربع وستين ومائة فطلب الوصول بيعقوب بن داود فأقدم نحو من سنة وغضب المهدي على يعقوب بن داود .

قال إدريس : « فحدثني مروان قال : بينما أن واقف على باب المهدي إذ خرج خالد ابن يزيد بن منصور فقال : يا ابن ابي حفصة ذكرك أمير المؤمنين أنفا وهو يراك أشعر الناس غير أنه يقول لا حاجة لنا فيما قبلك فانصرف عن بابنا ، قال فانصرفت مغموماً ثم ذكرت رجلاً أتحدث عنده وأتفرح به وأنس لديه فأتيت يزيد بن مزيد (٣) فشكوت إليه ما قال لي خالد بن يزيد . فقال ادلك على رجل صدق له رقعة لعله ينفعك . قلت : ومن هو ؟ قال :

(١) الأغاني ٤٢/٩ وقد ذهب صاحب المعاني وشذرات الذهب الي أن مروان قال تلك القصيدة في مدح الرشيد (شذرات الذهب ٣٠١/١) وانظر ذلك في التعليق رقم ٢١١ في ديوان المعاني ٤٨/١ .

(٢) وزير المهدي نكبه سنة ١٦٦ .

(٣) يزيد بن مزيد والي الرشيد على ارمينية واذريجان وقد تولاهما مرتين أخرهما سنة ١٨٣-١٨٥ مدحه بكر بن النطاح وابو الشمحق ومسلم بن الوليد وهو ابن أخي معن . توفي عام ١٨٥ هـ .

الحسن الحاجب فغدوت الى الحسن فشكوت اليه ما حكاه خالد من رأي أمير المؤمنين فقال بل من يعقوب بن داود فقلت : بابي أنت وامي ! انت ترجو ان يكون ذلك مفتاحاً لما أنا فيه! قال ذلك كما أقول لك فانصرفت وقلت :

أتاني من المهدي قول كأنما
 وقلت وقد خفت التي لاشوى لها
 ومالى إلى المهدي لو كنت مذنباً
 ولا هو عند السخط منه ولا الرضا
 عليه من التقوى رداء بكنه
 يفض له طرف العيون وطرفه
 هل الباب مفض بي إليك ابن هاشم
 أتيت امرأ أطلقتها من وثاقه
 وجلى ضباب العزم منه ورائة
 فقلت وزيرنا صح قد تابعت
 وما كان لي إلا إليك ذريعة
 وإن كان مطويا على الغدر كشحه
 وقل مثل ما قال ابن يعقوب يوسف
 تنفس فلا تريب إنك آمن
 فما الناس إلا ناظر متشوق
 به أحتز أنفي مدمن الضغن جادع
 بلا حدث إنى إلى الله راجع
 سوى حلمه الصافي من الناس شافع
 بغير الذي يرضى به الله صانع
 وللحق نوربين عينيه ساطع
 على غيره من خشية الله خاشع
 فعذري أن أفضى بي الباب ناصع
 وقد أنشبت في أخدعيه الجوامع
 وانهضه معروفك المتتابع
 عليه بإنعام الأمير الصنائع
 وما ملك إلا إليه الذرائع
 فلم أدر منه ما تجن الأضالع
 لاخوته قولاً له القلب تالع
 وأنى لك المعروف والقدر جامع
 إلى كل ماتسدي إليّ وسامع (١)

قال (أي مروان) وقلت في قصيدة أخرى وهذا بعد أن نكب المهدي يعقوب ابن داود
 وسجنه عام ١٦٦ هـ :

(١) شعر مروان ص ٦٦ ويلاحظ في تلك القصيدة أسلوب العتاب والاعتذار وكأن مروان يتبع في ذلك خطى النابغة الذبياني في قصيدته التي وجهها إلى النعمان بن المنذر . منها هذا البيت المشهور :

أتاني ابنت اللعن إنك لمنى وتلك التي تستك منها المسامع

انظر ديوان النابغة ص ٨١

سيحشر يعقوب بن داود خائباً يلوح كتاب بين عينيه كافر
 خيانته المهدي أودت بذكره فأمسى كمن قد غيبته المقابر
 بدا منك للمهدي كالصبح ساطعاً من الغش ما كانت تجن الضمائر
 وهل لبيان الصبح إن لاح ضوءه فجال الدجى من ظلمة الليل سائر
 أمنزلة فوق التي كنت نلتها تعاطيت لا أفلحت مما تحاذر (١)

قال فأتيت بهما الحسن بعد يومين فقال ما صنعت فأنشدتكما إياه قال اكتبهما لي فقلت قد فعلت فقال هاتهما فتناولهما وقال : لست واضعهما من يدي حتى أضعهما في يد المهدي ثم مضى واتيته من الغد فقال ما وضعتهما من يدي حتى وضعتهما في يد المهدي فقراهما فرق لك وأمر يادخالك عليه فاحضر يوم الإثنين فحضرت فخرج علي فقال : قد علم أمير المؤمنين بمكانك وقد أحب أن يجعل لك يوماً يشرفك فيه ويبلغ بك . قلت فمتى بابي أنت وأمي ؟ قال : يوم الخميس . فعدت إليه يوم الخميس فإذا وجوه بني العباس يدخلون على المهدي فلما تمام المجلس دعاني فدخلت فسلمت فرد السلام فقال : إنما حجبتك عن الدخول انقطاعك إلى الناس ويعقوب بن داود فافتتحت النشيد بما قلت ثم أنشدت قولِي فيه :

طرقتك زائرة فحي خيالها (٢)

فأعجب بذلك وقال جزاك الله خيراً فقلت : أشهدوا هذا والله الشرف أمير المؤمنين يجزييني خيراً ثم أنشدته :

أعادك من ذكر الأحبة عائد (٣)

فلما صرت إلى قولِي :

أيادي بني العباس بيض سوابغ على كل قوم بادئات عوائد
 فهم يعدلون السمك من قبة الهدى كما يعدل البيت الحرام القواعد

(١) شعر مروان ص ٤٦

(٢) لو صحت رواية هذا الخبر بهذه الصيغة لكان مروان قد أنشد تلك القصيدة أمام المهدي ثلاث مرات . المرة الأولى بعد عام من طرد المهدي له واعطائه مائة ألف درهم والمرة الثانية عند مبايعة الهادي بولاية العهد حينما مدحه بقصيده (طاف الخيال) . وتلك الثالثة .

(٣) تمه البيت (أحل واستخفك الرسوم البوائد)

سواعد عز المؤمنين وإنما
يزين بني ساقى الحجيج خليفة
يكون غرارا نومه من حذاره
كان أمير المؤمنين محمدا
على أنه من خالف الحق منهم
ينوء بصولات الأكف السواعد
على وجهه نور من الحق شاهد
على قبة الإسلام والخلق راقد
لرأفته بالناس للناس والد
سقته به الموت الحتوف الرواصد

أشار إلي فأمسكت فقال : يا بني العباس هذا شاعركم المنقطع إليكم المعادي فيكم فأتوا إليه مايسره . فقلت ينبغي إذا سمعوا كلام أمير المؤمنين وعرفوا رأيه أن يصلوني من أموالهم . فقال : أنا فارض عليهم لك مالا . ففرض على ابنه موسى خمسة آلاف درهم وعلى هارون خمسة آلاف درهم ثم فرض على القوم قدر حالاتهم حتى فرض عليهم سبعة وثلاثين ألف درهم والربيع (٢) يكتب ما فرض على كل رجل منهم (٣) .

ولا أعتقد في صحة هذا الخبر على هذه الصفة وإن كنت لا أشك في توثق علاقة مروان بالمهدي كم تحدثنا بذلك كتب الأدب ، وذلك للأسباب التالية :

١ - أن الراوي هو إدريس بن ابي حفصة وهو أخو مروان وأنه يقصد بذلك الرفع من شأن أخيه أو أن مروان كان يقص عليه كل مرة قصته عند دخوله على المهدي وأن إدريس مع مرور الزمن صنع من تلك الأخبار (حادثة واحدة)

٢ - أن مروان رجل شحيح بخيل يحب المال وأعتقد أن ذلك سوف يكون سببا في تقسيط زمن الإلقاء لكي يأخذ على كل قصيدة عطاء مستقلا بدلا من أن يكتفي بعطاء واحد لا يتجاوز سبعة وثلاثين ألف درهم ولم يذكر الخبر أن الخليفة قد أعطاه شيئا .

٣ - أنه كثيرا ما يرد في كتب الأدب أن مروان أنشد المهدي قصيدته (طرتك زائرة) لوحدها وأنه أخذ عليها مائة ألف درهم (١) .

٤ - أن إدريس ذهب إلى أن القصة حدثت سنة ١٦٤ وبعدها بسنة أي في سنة ١٦٥ دخل مروان على المهدي بعد أن نكب يعقوب بن داود والصحيح أن نكبه داود كانت سنة ١٦٦ لأن بشار بن برد قتل بسبب ابن داود سنة ١٦٧ .

(١) الربيع بن يونس : وكان حاجب المنصور قبل ذلك وقد سبقت ترجمته .

(٢) المحاسن والمساوىء ١ : ٣٥٩-٣٦٣

(٣) انظر الأغاني ٩/٤٢ .

٥ - أن إدريس بن ابي حفصة سبق أن روى حديثا عن إنشاد مروان المهدي لأربع قصائد أخرى في مجلس تبين من مناقشة ذلك الخبر بطلانه وأن الهدف منه هو دعاية إدريس لأخيه وإعلاء شأنه .

٦ - أنه لو صح هذا الخبر بهذه الصيغة لكان مروان قد أنشد المهدي قصيدة (طرتك زائرة) ثلاث مرات ؛ الاولى بعد عام من طرده ، والثانية عند مبايعة الهادي بولاية العهد ، وتلك الثالثة .

٧ - روى صاحب العقد الفريد (١/٢١٧) عن مروان قوله (فلما أنشدت المهدي الشعرين قال وجب حقلك على هؤلاء وعنده جماعة من أهل بيته . قد أمرت لك بثلاثين ألفا وفرضت على موسى خمسة آلاف وعلى هارون مثلها وعلى علي أربعة آلاف وعلى العباس كذا وعلى فلان كذا فحسبت سبعين ألفا . والشعران هما :

(١) طرتك زائرة فحي خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالتها

(٢) طاف الخيال فحيه بسلام أنى ألم وليس حين لمام

فليس معقولا أن تتكرر القصة بأسلوب متشابه ومتقارب أكثر من مرة مما يؤكد أن مثل هذه القصة وضعت بتلك الصيغة سواء عن طريق رواية إدريس أو مروان لها من أجل إظهار مكانة مروان لدى المهدي .

وبغض النظر عن كذب هذا الخبر من صدقه نجد أن مروان أصبحت له دالة على العباسيين أن يعطوه على كل قصيدة سبعين ألف درهم أو أكثر بعد قصيدته " طرتك زائرة " التي أعطي عليها مائة ألف درهم . وقد أصبح ذلك رسمة عند خلفاء بني العباس بعد ذلك . وهنا نصل إلى حقيقة هامة وهي أن مروان قد تعرض للطرده في زمن المهدي مرتين .

الاولى : جاءت من الخليفة المهدي الذي طرده لغلوه في رثاء معن بن زائدة كما زعم ولكن الغاية من طرده هو أنه لم يضمن شعره الدفاع عن أحقية العباسيين بالخلافة فطرده لكي يشعره بما أراد ويريد وهي أن يتجه مروان في شعره اتجاهها سياسيا يؤيد حجج العباسيين في عدم مشاركتهم للعلويين للخلافة . وقد عرف مروان ذلك فكان بعده شاعر الحزب العباسي الاول .

الثانية : حدثت في زمن المهدي ولكنها لم تأت منه هو وإنما جاءت من وزيره يعقوب ابن داود والمهدي لا يعلم بذلك سلفا ولكنه سمح له بالدخول عليه بعدما نكب هذا الوزير

وسبب منع يعقوب له هو أنه كما يقال يعد من الزنادقة وأنه يتشيع للعلويين سرا ويؤمله أن يدافع أحد عن العباسيين بمثل مادافع عنهم مروان فلم ير بدا من منعه .

بقي أن نعرف أي طريق سلكها مروان في مدح المهدي ومن ثم بقية الخلفاء العباسيين بعد ذلك هل اتبع طريقا سلكه الشعراء الجاهليون والإسلاميون قبله ؟ فمدح معددا الصفات ومشيدا بالمناقب وما يتصف به الممدوح من كرم وشجاعة وحلم ... إلخ .

أم أن مروان تنكب الجادة وتجنب هذا الطريق ؟ فلم يعد له وجود في شعره ؟

إن التساؤل والشك يوحى بأن مروان قد سلك طريقا جديدا لم يطرقه سوى شعراء قلة ينشدون غاية واحدة وهدفا واحدا وينزعون عن وتر واحدة .

لقد سلك مروان في مديحه بعد حادثة طرده مذهبا سياسيا اتصف بالصدق والحرارة في ظاهرة أما باطنه فهو النفاق والرياء . فحينما مدح المهدي أخذ يدافع عنه وعن أحقيته بالخلافة وشرعية استيلاء العباسيين عليها . في وقت شدد أعداء الخلافة العباسية الهجوم عليها ومعارضتها والادعاء بأن العباسيين قد اغتصبوها وسلبوها من أيدي أصحابها الشرعيين « العلويين » فوجد المهدي نفسه في حالة تلزمه أن يبذل العطاء لمن يدافع عنه ويصوغ أحقيته بالخلافة فقهايا وشرعيا في نهج شعري يخلب ألباب الناس فهو أبلغ في النفوس ، وأكثر تأثيرا ، وأدعى للاستجابة .

لهذا وجد مروان نفسه وقفا على هذا « الشعر السياسي » لا يعدهو إلى غيره ولا يتجاوزة إلى سواه . كما أضاف إلى ذلك صفات المديح التقليدي كالكرم والشجاعة .. إلخ .

ولكنه لم يمدح المهدي بهذه الصفات قصدا لهذا النوع التقليدي من المدح وإنما لأنه يرى فيها مقومات الخلافة والخلفاء إذ لا يمكن لإنسان أن يلي أمور المسلمين إلا إذا اتصف بصفات الرجولة الكاملة .

كما أن مروان في تحامله على العلويين ومنافحته عن العباسيين كان مرائيا منافقا فلم يكن وراءه حقدا أو حسدا على العلويين وإنما كان يريد المال ولا مال إلا عن هذا الطريق .

لقد دفعه المهدي إلى هذا الطريق كما دفع غيره من الشعراء وإلا منع العطفية أو قللها ومروان أخذ أعطيات كثيرة من معن ويعز عليه أن ينال أقل منها . فلم يجد إلا تلك الطريق ، ورغم ذلك اتصفت أشعاره بالحرارة والجودة ونالت إعجاب الناس على مختلف طبقاتهم ، وليس ذلك بعائد إلى صدق عاطفته ، ولكنه عائد إلى أنه من عبيد الشعر إذ لا بد له من

الاعتكاف طويلاً وانتقاء الألفاظ والمعاني ومن ثم عرضها على النقاد لمعرفة رأيهم في جودتها وإعادة صياغة الهزيل منها صياغة جديدة كما حدث له مع يونس بن حبيب (١) بخصوص قصيدة (طرقتك زائرة) وهو يهدف من وراء ذلك أن تلقى قصائده لدى الخلفاء العباسيين قبولاً حسناً ليجزوا له العطاء .

وقد علل الدكتور طه حسين ذلك بقوله (كان مروان يعبد المال ويقدمه تقديساً وكان فيما بينه وبين نفسه يزدري الأمويين والعباسيين والعلويين وكان فيما بينه وبين نفسه مقتنعاً بأن يفوز بأموال العباسيين فلو أدال الله منهم للأمويين والعلويين لساار مع الدولة الجديدة سيرته مع الدولة القديمة ليظفر منها بهذا المال الذي يعبده ويقدمه) (١)

وأقول لقد صدق الدكتور طه حسين ، ولكنها ليست عادة مروان وحده بل كان الشعراء الذين يتبعون ندى الخلفاء كما يتتبع البدوي منازل الغيث ومواطن الكلاً . اللهم فيما يتعلق بازدرائه للأمويين فذلك ادعاء من د / طه حسين ليس في محله .

وقد حدد لنا مروان نوعية اتجاهه السياسي وهل هو صادق في مذهبه أم لا وذلك حين سأله محمد بن عبد الحميد حيث قال (قلت لابن ابي حفصة ما أغراك ببني علي قال :

(ما أحد أحب إلي منهم ولكن لا أجد شيئاً أنفع للقوم منه) (٢)

وأقول إنه كاذب في حبه للعلويين ولكنه يؤكد أن تحامله عليهم ليس صادراً عن حب للعباسيين ولو كانوا أحب الناس إليه لما تعرض لهم بسوء مهما كلف الأمر ولو تتبعنا جميع قصائد مروان التي مدح بها المهدي لوجدناها كلها مصطبغة بصبغة الرياء ومكتسبة بإهاب النفاق السياسي ولنقرأ نموذجاً لتلك القصائد لنعرف صدق هذه النظرة وواقعيتها :

يقول مروان :

له فوق مجد الناس مجدان منهما	طريف وعادي الجرائيم تالد
وأحواض عز حومة الموت دونها	وأحواض عرف ليس عنهن ذائد
أيادي بني العباس بيض سوايغ	على كل قوم باديات عوائد
هم يعدلون السمك من قبة الهدى	كما تعدل البيت الحرام القواعد
سواعد عز المسلمين وإنما	تنوء بصولات الأكف السواعد

(١) ستأتي قصته مع يونس بن حبيب مفصلة في فصل (مروان في ميزان النقاد) .

(٢) حديه الأربعة : ٢٣٠/٢

(٣) العقد الفريد : ٣٦٨/٥ ، وانظر تاريخ بغداد ١٤٢/٣١

يسوق بني ساقى الحجيج خليفة على وجهه نور من الحق شاهد
كان أمير المؤمنين محمداً لرأفته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهم سقته به الموت الختوف الرواصد(١)

فقد مدح المهدي متحدثاً عن أصله العريق في المجد ونسبه المتعمق في عرويته وهاشميته وأثنى على بني العباس جميعهم حيث قال : « بني ساقى الحجيج » وأشار في البيت الأخير عن طريق الإيماء والتعريض والإشارة دون التصريح للعلوين فهم الذين خالفوا الحق بخروجهم عن الخلافة وعصيانهم طاعة الخليفة ، فانظر كيف جعل الخلافة حقاً وملكاً للعباسيين دون العلويين وهددهم بالانتقام والعقاب .

ويقول مروان في قصيدته التي مطلعها " طرقتك زائرة " مخاطباً للعلوين :

هل تطمسون من السماء نجومها بأفكم أو تسترون هلالها
أم تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية بتراثهم فأردتم إبطالها (٢)

فأي منافحة أعظم من تلك المنافحة ؟ وأي تعريض أشد وقعا وإيلاما من ذلك ؟

وقوله في قصيدته التي مطلعها « طاف الخيال »

يا ابن الذي ورث النبي محمدا دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين البنات وبينكم قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثه الأعمام
ألغى سهامهم الكتاب فحاولوا أن يشرعوا فيها بغير سهام
خلوا الطريق لمعشر عاداتهم حطم المناكب كل يوم زحام
وارضوا بما قسم الإله لكم به ودعوا وراثه كل أصيد حام (١)

(١) شعر مروان ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٩

(٣) شعر مروان ص ١٠٤

فأي بيت في تلك القصيدة خرج عن المنهج السياسي الذي أراده العباسيون ؟
لقد وقعت هذه الايات موقعا سيئا من العلويين وكانت أشد عليهم من خبط السهام
في جنح الظلام .

وشاء الله أن يموت المهدي سنة ١٦٩ هـ فلم تذرف لمروان دمعة ولم يخشع له قلب أو
يتملىء حزنا وأسى وهو الذي بكى واستبكى وحزن وأسى حينما مات معن ، وذلك أن
الفرق بين الرجلين واضح وضوح الشمس في رابعة النهار والقمر ليلة البدر ، فالعاطفة التي
مدح بها معنا غير العاطفة التي مدح بها المهدي . فهي تجاه الأول عاطفة حب وإعجاب
وتجاه الثاني عاطفة مادة ونفاق سياسي أراده المهدي . ولهذا فليس من المعقول أن يبكي
المهدي . وإذا تساوى بين الرجلين وهيهات المساواة بينهما . فالفرق بينهما فرق ما بين سهيل
والثريا والمشرق والمغرب ، وشتان بين مشرق ومغرب .

إن مروان لو أراد أن يرثي المهدي كما رثى معنا لخائنه عاطفته وعسرت عليه قوافي
الشعر وشردت منه بنات الأفكار ؛ فليس من المعقول أن تتحول العاطفة المادية عاطفة حزينة
في مواقف الرثاء بل سوف تكون عاطفة باردة كالثلج وهو ما حدث بالفعل فمروان رثى
معنا بأحر القصائد التي تسيل حزنا وشجنا وتتسم بالصدق وتتم عن الوفاء والاعتراف
بالجميل مما سبب له حرجا أمام المهدي والرشيذ بعد ذلك .

أما رثاؤه للمهدي فلا يكاد يتعدى ابياتا تعد على رؤوس الأصابع جمع فيها مروان بين
التهنئة والعزاء وما خرج منها عن دائرة المديح دخل في إطار الحكمة تزلفا للخليفة الجديد
(الهادي) فهي مديح وتهنئة أكثر منها رثاء وتعزية . كل مافي الأمر أنه جعل رثاءه وسيلة
تلمق تقربه إلى الخليفة الجديد ، ولنقرأ قوله :

لقد أصبحت تختال في كل بلدة	بقبر أمير المؤمنين المقابر
أته التي ابتزت سليمان ملكه	وألوت بذئ القرنين منها الدوائر
أته فغاله المنايا وعدله	ومعروفه في الشرق والغرب ظاهر
ولول كان تجريد السيوف يردها	ثنت حدها عنه السيوف البواتر
بأيدي بها تعطي الصوارم حقها	وتروى لدى الروع الرماح الشواجر

ولو لم تسكن بابنه بعد موته لما برحت تبكي عليه المنابر (١)

فأي رثاء هذا؟ إنه في اعتقادي لا يعد شعراً بما تحمله تلك الكلمة من معني . إنه نظم وليس بشعر لأنه يفتقر إلى القوة والحرارة والصدق ، وما في هذه الايات غير البرودة التي تحاكي برودة الشتاء وصقيعه .

إن مروان لم يرث بمعني الكلمة وإنما سكب حكماً في اسلوب شعري مكتمل الوزن، والحكمة لا تحتاج إلى عاطفة تأثيرية حزينة وإنما تأتي من كل قادر عليها أياً كان اتجاهه الشعري . اذا كان فكره يختزن التجارب التي مر بها في حياته وكان قادراً على صياغتها في اطار الحكمة .

فنحن نعرف أن الموت طوى سليمان وذا القرنين وسيطوي الناس جميعهم فلا رادع منه فأى جديد في تلك الايات ؟ الجواب : لاشيء والذي نريده أن يصور هول الفاجعة ووقعها على فؤاده وأن تسود الدنيا في عينيه كما كان شأنه مع معن وأن ترجف مصر والعراق والشام وتهامة ونجد . كيف لا والميت الخليفة وهو أعلى شأننا من معن ، ومع ذلك لم نجد كل هذا عند مروان والسبب جمود العاطفة . فقد توقف نهر الدراهم التي يسيلها فتوقفت لأنها عاطفة الترف . أما أن تختال المقابر بقبر المهدي فليس في ذلك أي معنى للرثاء .

وحسب مروان أنه أخطأ ووقع في سوء اختياره فحينما اختالت المقابر فإن ذلك يعني فرحها بقبر أمير المؤمنين وحسبها أن تباهي به وتفخر . ولو كان صادقاً في رثائه لصور حزن الناس وبكائهم وارتجاف البلدان وإظلام الدنيا واحتجاب الشمس كما فعل مع معن . وفي اعتقادي إنه لا يريد أن يرثي المهدي يمعان رثى معنا لأن في ذلك تسوية بينهما وكما فرق بينهما في المديح يجب أن يفرق بينهما في الرثاء فحبه للمهدي حب درهم

(١) شعر مروان ص ٤٨ وانظر البيتين (١ ، ٦) في طبقات بن المعتز حيث نسبها إلى مروان يرثي بهما المتوكل ويهنيء ابنه المنتصر ولم يكن ذلك صحيحاً لسببين :

الأول : أن مروان مات سنة ١٨٢ هـ في حين أن المتوكل قتل عام ٢٤٧ هـ

الثاني : أن المنتصر هو قاتل ابيه المتوكل فهل يعقل أن يرثي مروان المتوكل أمام قتله . وقد ذكرت هذه الايات في سمط النجوم العوالي ٣/٣٧٢ وتاريخ الخلفاء ص ٢٨٢ بزيادة بيت هو :

ولو لم يقيم موسى عليها لرجعت حيننا كما حن الصفايا العشاير

ودينار ووجه لمن حب القلب للقلب والبعد بينهما كالبعد بين الشباب والهرم .

وما أحسب مروان حينما قال : « تختال في كل بلدة » مصورا فرح المقابر إلا مجاف للحقيقة وإلا فالحقيقة أن المختال قلبه . ثم لو ولي الخلافة غير الهادي أتستمر المقابر في البكاء ؟

لا أعتقد أنها بكت لكي تسكت أو تستمر . فإذا كانت المقابر قد بكت حقيقة فما الذي منع مروان أن يقول ارتجفت وهو المعنى الذي يناسب المقابر وليس البكاء . ولكنها العاطفة أبت أن تسوي بين معن الذي ارتجفت له الدنيا وبين المهدي . وكل ما أراده مروان من قوله هذا هو حسن التخلص ليخرج من رثائه المتهالك الغث إلى مديحه السمين الذي يدر عليه الدنانير والدرهم ، فما زال بريق الذهب يخلب عينيه .

كما يتضح ذلك الرثاء الباهت الذي يبكي لفظا لا قلبا في قوله :

أفنى البكاء على الإمام محمد ماء العيون فأسعدت بدمائها
إن القبور قديما وحديثها بصدك فاضلة على أصدائها
ما حفره أسنى وأكرم ساكنا من حفرة حدروك في أرجائها
إلا التي أمسى النبي محمد فيها فإن لتلك فضل ثنائها (١)

وأعتقد أن بكاء مروان الذي يدعيه هو دموع التماسيح ، وقد دفعه ذلك ليكرر في البيت الثالث احتفاء قبر المهدي به وهذا تكرار لمعنى البيت الأول في قصيدته الرائية السابقة .

كما أن مروان يعرف في أعماق نفسه من هو أكرم من المهدي على الله بعد النبي محمد عليه الصلاة والسلام ولكن نفاقه دفعه لتجاهل هؤلاء مقدما المهدي عليهم .

ولنقرأ قوله أيضا مكررا الصورة التي في البيتين الأخيرين من القصيدة السابقة حيث يقول في قصيدة أخرى :

واكرم بقبر بعد قبر محمد نبي الهدى قبر بما سبذان
عجبت لأيد هالت التراب فوقه ضحى كيف لم ترجع بدون بنان (٢)

(١) تاريخ الموصل ص ٢٥٥ ويبدو أن هذه الايات الاربعة هي جزء من قصيدة أشندها مروان أمام الهادي بعد وفاة المهدي أورد منها الدكتور حسين عطوان بيتاً واحداً هو

إن خلدت بعد الامام محمد نفسي لما فرحت بطول بقائها

(٢) وفيات الاعيان ٢/٢١٠/٥/٣٤١ وما سبذان اسم (القرية) التي توفي فيها المهدي من اعمال جرجان

٣ - مع الهادي

كان أول لقاء بين الهادي ومروان في عهد المهدي ، ولم يكن لقاءً واحداً وإنما تم بينهما أكثر من لقاء وكان لهما أكثر من حديث . أما حينما تولى الهادي الخلافة سنة ١٦٩ هـ فلم يكن لمروان مع الهادي من الاخبار والاسمار إلا النزر اليسير نظرا لقصر خلافة الهادي إذ كانت مدة خلافته سنة وبضعة أشهر .

إلا أن مروان لم يلق من الهادي مالمقيه من المهدي قبله والرشد بعده من طرد وإبعاد فلم يطرده الهادي ولم يؤاخذه بما كان له مع معن بن زائدة من أحاديث كما أخذه بها سلفه وخلفه .

ويعود سبب ذلك إلى أن مروان قد وطد صلته بالهادي في خلافة المهدي فمدحه وأثنى عليه حينما بويح بولاية العهد . ولهذا لم يجد الهادي سببا يدفعه إلى احراج مروان وطرده كما فعل المهدي لأنه يعرف أن والده إنما طرده وابعده ليس لما ابداه من استيائه من اغراقه في مديح ورتاء معن ولكن لغاية يقصدها وهي توجيه مروان وجهة سياسية حينما يمدح العباسيين ليوقف سدا منيعا في وجوه أعدائهم يقارعهم بالحجة ويدفعهم بالبرهان ويصوغ حججه وبراهينه في أساليب شعرية مختلفة قوامها القوة والجزالة التي تستهوي الناس وتستميلهم ، ومن ثم تسحرهم وتؤثر فيهم ، وهو ما حدث من مروان إذ اتجه اتجاهها سياسيا قوامه الدفاع عن حق العباسيين في الخلافة ، وما دام المهدي قد كفي ابنه الهادي مؤنه توجيه هذا الشاعر فحري به ألا يتبع أسلوب الغلظة والطرود والإبعاد فالشاعر مستعد أكثر من أي وقت مضى للدفاع عن العباسيين والمنافحة دون حقهم لأن مضي الأيام يزيده تعمقا وتشبثا بمذهب دافع عنه أولا وإن كان تشبثا وتعلقا ظاهريا يقوله اللسان ولا يعتقده القلب .

لقد وطد مروان نفسه على ألا يتنكر للعباسيين مابقي خليفة عباسي . ولا يهم الهادي عدم صدق ضميره وعدم حبه لهم . مادام لسانه محبا . فالمهم لسانه لذي يضرب به أرنبة أنفه فهو الظاهر للناس ، أما مايكنه ضميره من حب أو حقد فسر بينه وبين نفسه . ومن هنا أقبل الهادي على مروان .

ومرة أخرى أقول إن أول اتصال مروان بالهادي في عهد المهدي ولكنه اتصال ينقسم إلى قسمين واتجاهين :

الأول : معرفة عادية لا تتعدى حدود المجاملة لابن الخليفة ولا تتجاوز إطار المعرفة النفعية المادية ولهذا أسميها « معرفة عطاء » وهي معرفة ومجاملة يمنحها مروان لكل سداة العباسيين المقربين من الخليفة وقد استطاع مروان أن يفيد منها أكثر من مرة وينال عطاء الهادي ويتجلى ذلك لنا بوضوح حين دخل مروان على المهدي بعد نكبه يعقوب بن داود ومدحه بقصيدته :

أهاجك من ذكر الأحبة عائد أجل واستخفتك الرسوم البوائد
وحين وصل إلى قوله معرضاً ببني علي
علي أنه من خالف الحق منهم سقته به الموت الحتوف الرواصد

أشار المهدي إلى مروان فسكت وقال : (يابني العباس هذا شاعر كم المنقطع إليكم المعادي فيكم فأتوا إليه مايسره ، فقلت ببني إذا سمعوا كلام أمير المؤمنين وعرفوا رأيه أن يصلوني من أموالهم . فقال : أنا فارض عليهم لك مالا . ففرض علي موسى ابنه خمسة آلاف وعلى هارون خمسة آلاف) . (١)

هذا أحد اللقاءات التي تمت بين الهادي ومروان علاقة عادية كانت تربط بينهما كما ربطت بين مروان وسراة العباسيين .

الثاني : اتجاه أقوى علاقة وأكثر ارتباطاً من اللقاء الأول كان ذلك حينما هم المهدي بمبايعة ابنه الهادي بولاية العهد سنة ١٥٩ هـ ثم الرشيد بعده إذ دخل مروان على المهدي وأنشده قصيدته الميمية المشهورة :

طاف الخيال فحيه بسلام أنى ألم وليس حين لمام
وفيها البيت المشهور :
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام
وفيها يقول مادحا الهادي ومهتماً بولاية العهد :

(١) المحاسن والمساويء ٣٦٣/٢

عقدت لموسى بالرصافة بيعة
موسى الذي عرفت قريش فضله
بمحمد بعد النبي محمد
مهدي أمته الذي أمست به
موسى ولي عهد الخلافة بعده
شد الإله بها عرى الإسلام
ولها فضيلتها على الأقسام
حي الحلال ومات كل حرام
للذل آمنة وللإعدام
جفت بذاك مواقع الأقسام

قال مروان : (فلما أنشد المهدي الشعرين) (١) قال : (وجب حقتك على هؤلاء وعندة
جماعة من أهل بيته قد أمرت لك بثلاثين ألفا وفرضت على موسى خمسة آلاف وعلى
هارون مثلها) (٢) كم اشار إلى ذلك في قوله يمدح الهادي والرشد معا حيث يقول :

موسى وهارون هما اللذان
من ولد المهدي مهديان
قد أطلق المهدي لي لساني
من اللجين ومن العقيان
لو خايلت دجلة بالالبان
إذا لقيت اشتبه النهان (٣)

وقوله فيهما يخاطب أمهما « الخيزران » :

ياخيـزران هناك ثم هناك إن العباد يسوسهم ولدك (٤)

ففي هذا اللقاء توطدت العلاقة وقويت جذورها . ليس من أجل العطية فقط لأن
الهادي قد سبق له أن أعطى مروان قبلها كما أعطاه بقية سراة العباسيين ما فرضه عليهم
المهدي . فليست العطية ذات بال . ولكن الملفت للنظر هو أن مروان حينما مدح المهدي
خرج إلى مديح الهادي مهنتا بولاية العهد ومعلنا أنه سوف يسير على هذه الطريق ويسلك
هذا المسلك مع الخليفة المقبل لايعدوه إلى طريق آخر أو اتجاه جديد . وهنا يبدو الصبح لذي

(١) الشعران . القصيدة الآتية الذكر والأخرى (طرقتك زائرة)

(٢) العقد الفريد ١ / ٢٤١

(٣) شعر مروان ص ١١٠ وقد عدّها الدكتور حسن عطوان في مدح الرشيد وليس ذلك صحيحا .

(٤) لطائف المعارف ص ٨١ وتاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ حيث روى عجز البيت هكذا « أمسى يوسوس العالمين ابنك » .

عينين وينكشف السر ويتضح الأمر الذي لم يحاول الهادي من أجله أن يعرض أو يصد عن مروان في أول أمره لأن الغاية التي ينشدها الهادي ويريد دفع مروان إليها قد أعلنتها مروان في وقت سابق ولا حاجة إلى دفعه إليها دفعا عن طريق الطرد والإبعاد عند أول لقاء .

ولذلك فإنه عندما مات المهدي سنة ١٥٩ هـ واعتلى الهادي كرسي الملك وتصدر مجلس الخلافة أميراً للمؤمنين وأمه الشعراء طالبة نواله وفيض عطائه كان ممن دخل عليه مروان ينتابه الخجل ويعتريه الاضطراب ويساوره الخوف والوجل من أن يلق من الهادي جفاءً أو نفورا ، ولكنه لم يجد من ذلك شيئا بل كان دخوله عليه كدخول بقية الشعراء ولا شك أن مديح مروان للهادي عند مبايعته وليا للعهد أصبح يدا بيضاء حفظها الهادي له فاقبل عليه واصطفاه لنفسه .

وكان دخول مروان مع الناس للتهنئة بالخلافة والتعزية لموت الخليفة فجاء مروان ناظما قصيدة يرثي بها المهدي مستغلا حزن الهادي خشية أن ينبذه حين يعود إلى انبساطه وانشراحه وسروره بعد أن تزول الكآبة وتنتهي الوحشة وتنقشع سحابة الحزن والأسى التي خيمت على الوجوه حينما مات المهدي . وكان قصد مروان منها هو أن يظهر شيئا يدل على حبه للمهدي وإخلاصه له بعد وفاته وأن يظهر بمظهر الشاعر الذي جزع لموته وتألّم وامتلاً قلبه هما وغما وكندا على فقدته كما كانت حاله مع معن .

يقول صاحب الأغاني : (دخل مروان بن ابي حفصة فأخذ بعضادتي الباب ثم قال :

لقد أصبحت تختال في كل بلدة بقبر أمير المؤمنين المقابر
ولو لم تسكن بابنه بعد موته لما برحت تبكي عليه المنابر

فخرج الناس بالبيتين (١) . ولكن الهادي لم يعطه عليها شيئا إذ لم يكن في حال من السرور توجب عليه أن يهب ويمنح . بل هو في شغل شاغل يتقبل التهاني والتعازي في آن واحد من الوافدين ومروان أحدهم .

وأقول : الحمد لله أن الهادي لم يعط مروان شيئا ؛ فما في البيتين شيء يستحق المنح والهبة ، وليس فيهما إلا البرودة المتناهية كبرودة الشتاء لأن مروان تكلف المعاني تكلفا ليجمع في الشعر بين المدح والرثاء . فخرج من حيث لا يدري إلى « الحكمة المبتذلة » فما كان في هذا الموقف مادحا ولا نائحا " وإنما كان حكيما ، ولنقرأ قوله :

أنته التي ابتزت سليمان ملكه وألوت بذوي القرنين منها الدوائر
 أنته فغالته المنايا وعدله ومعروفه في الشرق والغرب ظاهر
 ولو كان تجريد السيوف يردّها ثنت حدها عنه السيوف البواتر
 بأيديها تعطي الصوارم حقها وتروى لدى الروع الرماح الشواجر (١)

فأى رثاء للخليفة السلف ... ؟ وأي مديح للخلف .. ؟

المهم في الأمر هذا أن مروان استمر على علاقته بالهادي لم تشبها شائبة أو تحجبها
 غيوم طرد وإبعاد ، كما أن مروان حافظ على نهجه الذي سار عليه أيام المهدي يحتج
 للعباسيين وبدافع عنهم ويدحض حجج العلويين وأنهم ليسوا أهلاً للخلافة وقيادة المسلمين
 (فكان في شعر مروان لبني العباس عم النبي أفضى ما كانوا يطمحون إليه من سند نظري
 شرعي لخلافتهم) في نظر الدكتور نجيب البهيتي . (٢)

وقد وقفت مدة خلافة الهادي القصيرة حائلاً دون تكاثر اخباره مع مروان . وتعداد
 حوادثه كما كانت الحال مع معن والمهدي . فلم يمهل الموت الهادي سوى سنة وثلاثة
 أشهر، إلا أنه قياساً على قصر خلافته فإننا نحكم من خلال المواقف التي التقى فيها مروان
 بالهادي وأنشده شعره على مدى عمق العلاقة بينهما ومكانة مروان عند الخليفة التي
 تؤكدها المواقف التالية :

الأول : حينما مدح مروان الهادي بقوله :

إن خلدت بعد الإمام محمد نفسي فما فرحت بطول بقائها (٣)

والثاني : حينما مدحه بقوله :

(١) شعر مروان ص ٤٨ وانظر فصل المستدرك على شعر مروان في نهاية هذا البحث كما أن مروان قد رثى المهدي بقصيدتين
 ومن الأولى :

إن خلدت بعد الإمام محمد نفسي فما فرحت بطول بقائها

وأكرم بقبر بعد قبر محمد نبي الهدى قبر بما سبذان

والثانية :

وقد سبقت الإشارة إليهما في الفصل السابق (مع المهدي) كما سيأتي الحديث عنهما وعن القصيدة الرائية في فصل (المستدرك
 على شعر مروان) في نهاية هذا البحث .

(٢) تاريخ الشعر العربي ص ٤٨٥

(٣) شعر مروان ص ١٥

تشابه يوماً بأسه ونواله فلا أحد يدري لأيهما الفضل
شبيهه اييه منظراً وخليقة كما حذيت يوماً على أختها النعل (١)
والقصيدة طويلة لم يوجد منها سوى هذين البيتين (وحيثما سمعها الهادي قال : أما
أحب إليك ؟ ثلاثون ألفاً معجلة أو مائة ألف تدون لك في الدواوين قال : تعجل الثلاثون
وتدون المائة ألف . قال : بل تعجلان لك جميعاً) (٢) وفي هذا الخبر يتجلى لنا طمع مروان
وجشعه وتهافته على المال وتساقطه تساقط الذباب على الطعام وتهافت الفراش على السراج .
الثالث : حينما تعقب الهادي العلويين وتشدد في معاقبتهم والأيقاع بهم حتى ظفر بهم
وأصاب منهم مقتلة عظيمة في فخ (٣) وكان ممن فر من العلويين إدريس بن عبدالله العلوي
وفر أخوه يحيى بن عبدالله فقال مروان معرضاً بالعلويين ومحذراً لهم وقد ضمن ذلك مديحا
لهادي :

أتظن يا إدريس أنك مفلت كيد الخليفة أو يفيد فرار
فليدركنك أو تحل ببلدة لايهتدي فيها إليك نهار
إن السيوف إذا انتضاها سخطه طالت وتقصر دونها الأعمار
ملك كأن الموت يتبع أمره حتى يقال تطيعه الأقدار (٤)

أما بعد هذا فلم نجد شيئاً يتحدث عن العلاقة بينهما . وما من شك أن سبب ذلك قصر
خلافة الهادي كما أسلفت من ناحية وضياع شعر مروان من ناحية أخرى .

ولما مات الهادي سنة ١٧٠ هـ مسموماً بيد امه الخيزران لأنه أراد خلع الرشيد من ولاية
العهد لابنه العباس وقع خبر موته على مروان برداً وسلاماً فما ذرفت عينه دمعة وما غم فؤاده .

(١) المصدر السابق ص ٨٥

(٢) الأغاني : ٣٨ / ٩ ، النجوم الزاهرة : ٦٤ / ٢

(٣) فخ موضع بمكة يعرف الآن بالزاهر .

(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٧٦ / ٥ ، وحماسة ابن الشجري ص ١١٢ (عدا البيت الرابع) ومقاتل الطالبين ص ٤٩٠
وفيها لم يذكر اسم القاتل حيث قال المؤلف (وقال رجل من أولياء بني العباس) وفي الكامل لابن الأثير (قال ابن جرير
الطبري : فقال في ذلك بعض الشعراء أظنه الهادي) فنسبها إلى الهادي . أما في حماسة ابن الشجري فنسبت الأبيات إلى
مروان وهو الصحيح غير أن الاختلاف حدث حول « إدريس في الرواية » ففي أمالي ابن الشجري إنه إدريس بن إدريس
سار إلى أرمينية ودرس إليه الرشيد من سبه وفي الكامل لابن الأثير لم يذكر من هو وفي مقاتل الطالبين ذكر أن سببها قتل
إدريس بن عبدالله وهو الرأي الصحيح . فهو الذي عاصر الهادي وقتله في موقعة فخ : وهو الذي يجب الأخذ به . لأنه
كتاب عن الطالبين فهو يتحرى الصدق أكثر من أي مصدر سواه كما روى بعد ذلك أبو الفرج أن الشعر لمروان بن ابي
حفصة وقال (انشدنيه على بن سليمان الأنخشي) وقد وردت الأبيات في شعر مروان ص ٥٠ .

أو اظلمت الدنيا في عينيه أو امتلأ قلبه حزنا وشجنا ، ولم تجد قريحته بيت شعر واحد يرثي به الهادي . وذلك لأن العاطفة التي مدح بها الهادي مادية بحته قوامها الدرهم والدينار فأى شيء يهمه من الهادي وهو يعرف أن هناك خليفة سوف يخلفه في مكانه قد يجد عنده من الخطوة مالا يستطيع أن يجده عند غيره .

ثم كيف نريد من مروان أن يرثي الهادي ولم يمكث معه سوى سنة لم تكن كافية لكي تترك في قلبه قليلا من حب ومن عاطفة صدق ووفاء ؟ كيف نريد ذلك منه وهو لم يستطع أن يجد ذلك حينما مات المهدي ؟ رغم أنه عاصر المهدي مدة خلافته من سنة ١٥٨ إلى سنة ١٦٩ فلم يرثه إلا بعدة ابيات مفرقة في ثلاث قصائد قالها مجاملة للخليفة الجديد (الهادي) هي للحكمة أقرب منها للثناء (١)

كما أن مروان يحاول أن يهيئ نفسه لمقابلة الخليفة الجديد وهو الرشيد وليس من المعقول أن يقابله برثائه للهادي إذ أن ذلك سوف يؤدي بالرشيد إلى إبعاده نظرا لموقف الرشيد الحائق على أخيه الهادي الذي حاول خلعته من الخلافة لمصلحة ابنه العباس ، فكان ذلك سببا في موت الهادي مقتولا بالسهم على يد امه الخيزران .



(١) انظر الحديث عن ذلك في الفصل السابق (مع المهدي) .

٤ - مع الرشيد

مات الهادي مسموماً لأنه حاول أن يعزل أخاه هارون عن ولاية العهد ويجعلها لابنه العباس ولكن أمه الخيزران سمته سنة ١٧٠ هـ قبل أن يتمكن من تحقيق هدفه وتولى هارون الخلافة وتلقب بالرشيد .

وقد بلغت الدولة في عهد الرشيد أوج تقدمها ورقية في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية . فأمر مروان بغداد يحدوه ما يحدو الشعراء راغباً نوال الرشيد وفيض منحه وعطاياه .

وكان اول اتصال بين مروان والرشيد قبل أن يتولى الأخير الخلافة وبالتحديد في عهد المهدي وكانت العلاقة بينهما في ذلك الوقت علاقة مجاملة فلم يكن الرشيد ذا منصب ليتذلل إليه مروان طالبا فيض عطائه وإنما أحبه لأنه ابن الخليفة المهدي ، ولكنه استطاع أن ينال من منح الرشيد وعطاياه كما أخذ من الهادي قبله وذلك حين مدح المهدي بقصيدته التي يقول فيها :

طاف الخيال فحيه بسلام أني ألم وليس حين لم
والمعروف أن المهدي فرض على أولاده وحضوره شيئا معلوماً ففرض علي الهادي
خمسة آلاف وعلى الرشيد مثلها لكل قصيدة (١)

وكما مدح مروان الهادي قبل توليه الخلافة واستطاع بذلك تعميق الصلة وتوطيد العلاقة بينهما مما أتى أكله بعد حين . كذلك فعل مع الرشيد فمدحه قبل أن يلي الخلافة ، وكان ذلك أيام والده ، وأملا في الارتفاع بمستوى العلاقة عن الإطار العادي إلى ما هو أسمى وأعظم من ذلك .

ومن مدائحه فيه قوله حينما غزا الرشيد الصائفة لأبيه سنة ١٦٥ هـ (٢)

أطفت بقسطنطينية (٣) الروم مسندا إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجزيتها والحرب تغلى قدورها (٤)

(٢) الصائفة : غزوة الصيف

(١) العقد الفريد ٢١٧/١

(٣) القسطنطينية : عاصمة الروم الشرقية فتحها السلطان العثماني محمد الفاتح واسمها الآن (اسطنبول) .

(٤) شعر مروان ص ٦٠

وقوله يمدحه والهادي : (وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصل السابق)
موسى وهارون هما اللذان في كتب الاخبار يوجدان
من ولد المهدي مهديان قدا عنانين على عنان (١)
وقوله فيهما :

ياخيزران هناك ثم هناك إن العباد يسوسهم ولدك (٢)
وحيثما تولى الهادي الخلافة كف مروان عن الرشيد منصرفا إلى الخليفة الجديد وكأنه
عرف ما قد أضمر الهادي من شر وكيد لأخيه . فلم يمدح الرشيد بولاية العهد كما فعل مع
الهادي لأن في ذلك إغضاب للخليفة الذي عقد العزم على خلع أخيه وتولية ابنه .
وماذا يهمه من هارون وقد بدأت شمسهُ تأفل وسفينته تجرح؟ إنه لم يهتم بتطوير
العلاقة معه في خلافة الهادي كما فعله أيام أبيه .

وحيثما تولى الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ كان يجد في نفسه على مروان لأكثر من
سبب ، فهناك انقطاع مروان إلى معن وتجاهل العباسيين في أيام دولتهم الأولى من ناحية ،
ومن ناحية أخرى انقطاعه إلى الهادي فقط واهماله هو فقي ذلك رفعة لشأن أخيه الهادي
وحط من قدره وانحطاط قيمته وانحياز واضح لموقف الهادي منه فيما يتعلق بولاية العهد
ولكنه انحياز صامت لم يكن للشعر فيه مجال .

أما مروان فإن يظن بالرشيد ظلنا حسنا ويؤمل فيه خيرا كثيرا . إذ كان يعتقد أن زمن
الطرد والإبعاد قد ولى إلى غير رجعة بدليل أنه لم يجد شيئا من ذلك أيام الهادي .

فالتطريق أمامه فسيحة رحبة مفروشة وردا وريحانا ولهذا سوف يتلقاه الرشيد
بالأحضان وسوف يقبل عليه اقبال الظامىء على الحوض لأنه قد أسهم بجهد كبير لاسبيل
إلى إنكاره في نشر المذهب السياسي العباسي وإشاعته بين الناس والدفاع عنه بواسطة
الحرف والكلمة ما أمكنه ذلك . كان يظن أن الرشيد سيحمد له عمله فيقربه ويجلسه
بجانبه مبالغة في إكرامه وكان يظن أن صدى قصائده الرائعة التي مدح بها المهدي لاتزال
تطرق سمع الرشيد وتناجيه في هدوء هذا شاعر أيبك أفلا تصطفيه . ؟ كل تلك الخواطر

(١) شعر مروان ص ١١٠

(٢) لطائف المعارف ص ٨١ وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٨٤ (أمسى يسوس العالمين ابنك) ويبدو أن هذا المديح كان في
خلافة المهدي . ولم يكن في خلافة الهادي لان الهادي كان يحاول خلع الرشيد من ولاية العهد وليس معقولا أن يسمح
لمروان بمدح الرشيد معه .

كانت تداعب خيال مروان وأفكاره فيحلم بحظوة لم ينلها شاعر قبله ، وكان يخيل إليه أثناء تفكيره أن ليس للخلافة حاجب يمنع أبواب يوصد في وجهه خاصة وأنه لم يسجل على مروان أنه قال بيتا واحدا يؤيد موقف الهادي في نزاع ولاية العهد من أخيه هارون الرشيد وأخذها لابنه .

كان يظن أن انقطاعه إلى المهدي والهادي قد حطم تلك القيود والموانع ووسع أمامه الطريق إلى قصر الرصافة وضيقتها أمام الآخرين وكثيرة هي الأفكار التي كانت تراود خيال مروان وتغدغ أحلامه فيعيش معها هنيهة متخيلا أمجاده مع الماضين فعهد الرشيد امتداد لعهد أسلافه .

واقول نعم . كان عهد الرشيد امتدادا لعهد أسلافه ولكنه امتداد سياسي فقط ، أما بالنسبة لمروان فأمر خاضع لمزاج الخليفة .

لقد تبخرت أحلام مروان فلم يلق من الخليفة الرشيد ما كان يتوقعه عندما اتصل به اول مرة عند اعتلائه عرش الخلافة . بل هجره وأعرض عنه وأبعده معيدا بذلك سيرة والده من قبل متذرعاً بموقف مروان من معن وانقطاعه إليه ومبالغته في مدحه وراثته مبالغة تجاوزت حدود المنطق وتخطت دائرة المعقول في نظر الرشيد . هذا هو السبب الظاهر من الرشيد كما فهمه الناس منه .

ويتضح ذلك فيما رواه الأصمعي عن علاقة مروان السيئة بالرشيد حيث قال : « بعث إلى الرشيد في وقت لم تكن عادته أن يستدعيني في مثله وجاءني الرسول بوجه منكر فأحضرني إحضارا عتيقا منكرا مستعجلا فوجلت وجلا شديدا وخفت وجزعت . فدخلت فإذا الرشيد على بساط عظيم وإلى جانبه كرسى خيزران عليه جويرية خميسية فسلمت عليه فلم يرد علي ولم يرفع رأسه إليّ وجعل ينكت الأرض بإصبعه فقلت سعي بي عنده يبطل يهلكني قبل كشفه وأيست من الحياة فرفع رأسه وقال يا أصمعي : ألا ترى الدعي ابن الدعي (اليهودي) عبد بني حنيفة مروان بن ابي حفصة يقول في معن بن زائدة وإنما هو عبد من عبيدنا :

أقمنا بإيمامة بعد معن	مقاما لا نريد به زيالا
وقلنا أين نذهب بعد معن	وقد ذهب النول فلانوالا
وكان الناس كلهم لمعن	إلى أن حفرته عيالا

فقال إن التوال قد ذهب مع بقائنا فماذا يصنع بنا إذا ؟ ولم يرض حتى جعلني وخاصتي عيالاً لمن والله لأفعلن به ولأصنعن . فقلت يا أمير المؤمنين عبد من عبيدك أنت أولى بأدبه أو العفو عنه . فقال عليّ بمرّوان فدخل عليه فقال (أي الرشيد) السياط . فأخذ الخدم يضربونه بها وهو يصيح يا أمير المؤمنين ماذني ؟ يا أمير المؤمنين استبقني إلى أن ضرب أكثر من سوط فقال (أي مروان) يا أمير المؤمنين أعف عني واذكر قولني فيك وفي آبائك . فقال يا غلام كف عنه ثم قال : ماقلت يا كلب ؟ فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
 أم تدفعون مقالة عن ربه جبريل بلغها النبي فقالتها
 شهدت من الأنفال آخر آية بتراثهم فأردتم إبطالها
 فدعو الأسود خوادراً في غيلها لا تولغن دماءكم أشبالها

قال فأمر باطلاقه وأن يدفع إليه ثلاثون ألف درهم (١)

ولعل ما يؤيد هذه القصة قول مروان يفتخر بنفسه وهو مسجون حيث قال :

إن تحبسوني فالكريم يحبس إنني لسامي الناظرين أشوس
 مصابر حتى تجيش الأنفس لاساقط عالج ولامدنس

عرضي نقبي وندييي أملس (٢)

ورغم أن هذا الشعر لا يتضمن إشارة إلى إنه قيل في زمن الرشيد إلا أنه يتضح من خلال علاقة مروان بالخلفاء العباسيين أن مروان لم يتعرض لموقف أشد وأقسى من هذا الموقف الذي يوحى بأن الرشيد سجنه قبل أن يضربه بالسياط .

والحقيقة التي لاتزال تعمي وتخفي على كثير من الناس والسر الذي لم ينكشف لكثير من الباحثين هو أن الرشيد لم يطرد مروان لانقطاعه إلى معن على نحو ما أوردته وروته الاخبار وظنه واعتقده كثير من الناس ، ولكنه طرده لانقطاعه إلى أخيه الهادي حينما تولي

(١) الفرج بعد الشدة ١٥٥/٣ ولم ترد في مصدر سواه

(٢) البصائر والذخائر ١٠٨/٨ ولم يرد الشعر في مصدر سوى هذا المصدر .

الخلافة لأن الرشيد وجد عليه وحقد بسبب موقفه منه ، وما من شك أن الأمر سوف يتناول المنقطعين إليه من الشعراء والوزراء والكتاب ... إلخ .

ولكن ماذا يصنع الرشيد ؟ هل يوضح سبب طرده مروان للناس ؟ فيقول إنه طرده نكالا بالهادي والمنقطعين إليه ؟ إن ذلك لن يشبع نهم الناس إلى الحقيقة لأن ذلك لا يعد سببا وجيها ؛ ولهذا تعلق الرشيد بالسبب الذي تعلق به والده من قبل وهو محاسبة مروان على مواقفه المشهورة مع معن بن زائدة وطرده بسببها والحقيقة (إياك أعني واسمعي يا جارة) أخذها بهذا الموقف تسترا وإلا فإن الزمن كفيل بأن يححو آثار الماضي والدهر ضمير بازالتها ثم إن لمروان من المواقف المشهورة مع المهدي ومدائحها فيه ودفاعه عن حق العباسيين ما يغفر جميع زلاته واخطائه ، ومع هذا حاسب الرشيد ولم يحاسب كثيرا من الشعراء الذين مدحوا الأمويين في وقت مضى لأنهم لم ينقطعوا إلى الهادي كما فعل مروان فأخذ الرشيد بمعن تشفيا من الهادي .

روى صاحب الأغاني نقلا عن الفضل بن الربيع قائلا : (ولي هارون الرشيد الخلافة فدخل إليه مروان فرأيته (١) واقفا مع الشعراء ثم أنشده قصيدة امتدحه بها فقال : من أنت ؟ قال شاعرك وعبدك يا أمير المؤمنين مروان بن ابي حفصة قال : ألسنت القائل في معن ابن زائدة (وأنشده البيتين) (٢) الذين أنشده إياهما المهدي ؟ ثم قال : خذوا بيده فأخرجوه لاشيء لك عندنا فأخرج ، فلما كان بعد ذلك بأيام تल्प حتى دخل فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

لعمرك لا أنسى غداة المصب إشارة سلمى بالبنان المخصب
وقد صدر الحجاج ألا أقلهم مصادر شتى موكبا بعد موكب

قال : فأعجبه فقال : كم قصيدتك من بيت ؟ قال ستون أو سبعون فأمر له بعدد أبياتها ألوفا فكان ذلك رسم مروان عندهم حتى مات (٣) ورغم أننا أمام روايتين مختلفتين قد

(١) الحديث للفضل بن ربيع .

(٢) البيتان هما

أقمنا بإمامة بعد معن مقاما لا نريد به زيالا
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

(٣) تاريخ بغداد ١٣/١٤٤ ، والأغاني ٩/٤٢٩ والبيتان هما ما وجد من هذه القصيدة .

تصدق أحدهما وتكذب الأخرى إلا أنه مما لاشك فيه هو أن علاقة مروان بالرشيد في البداية كانت شوكا أوجع خاصة مروان سواء بالضرب كما في القصة الأولى أو الطرد كما في القصة الثانية إلا أن النتيجة كانت في النهاية واحدة .

لقد صفح عنه الرشيد وقربه إليه وجعله من خواصه وأصحاب الحظوة عنده . مفضلا له على أبي نواس أبرز شعراء الرشيد آنذاك إذ كان لا يرضى عن سلوك أبي نواس في العلن فاختصه بمجالس أنسه وابعده عن مجالس العامة ، وبهذا أصبح مروان شاعر البلاط والناطق الرسمي وخير من يمثل نظرية الدفاع عن العباسيين خير دفاع وأفضل تمثيل وأصدق فلاح عجب إذا أصبح مروان شاعر الرشيد الأول كما يقول الجاحظ (١) .

(اجتمع للرشيد مالم يجتمع لغيره وزراؤه البرامكة (٢) وقاضيه أبو يوسف (٣) وشاعره مروان بن ابي حفصة وندبه العباس بن محمد عم أبيه (٤) وحاجبه الفضل بن الربيع (٥) أتبه الناس وأعظمهم وزوجته زبيدة (٦) بنت عمه جعفر (٧) .

لقد كان اعراض الرشيد عن مروان في البداية سببا في إخلاصه له وتفانيه في مديحه طلبا لنواله نقاه من كل شائبة وطهره من كل دنس كالسيف تصقله النار وكالذهب تبقي النار على جيده وتعيده أكثر بهاء ورونقا .

لقد صقله اعراض الرشيد فصنع منه سيفا قاطعا يذب عن دعوة العباسيين وينافح عنها يضرب بلسانه أرنبه أنفه . فيرسل الكلام نظما يروى فيقع على أعداء العباسيين أشد إيلا ما من خبط السهام في جوف الظلام ، وهكذا كان مروان حتى مات سنة ١٨٢ هـ .
ولنقرأ هذه المدحة التي تؤكد التوجه الجديد لدى مروان حيث يقول :

(١) الجاحظ : هو عمرو بن عثمان الجاحظ ولد سنة ١٥٠ هـ وانتهت إليه زعامة الكتاب في العصر العباسي واشتهر بأسلوبه الساخر حينما والجد حينما آخر وكان يميل إلى الاعتزال وعرفت إحدى فرق المعتزلة بالجاحظية نسبة إليه . من كتبه البيان والتبيين والحيوان والحاسن والأضداد والبخلاء . مات سنة ٢٥٥ هـ .

(٢) البرامكة : اسرة فارسية نسبة إلى جدّها برمك اشتهرت في العصر العباسي وخاصة في عهد الرشيد حيث أصبح جعفر البرمكي وزيرا أثيرا عنده فاقبلت الناس عليهم فخاف الرشيد على ملكه ونكبهم سنة ١٨٧ هـ وقتل جعفرًا وصادرا أموال الباقيين وسجنهم .

(٣) سبقت ترجمته (انظر علاقته مع معن) .

(٤) العباس بن محمد اخو السفاح والمنصور ولاء المنصور دمشق والشام كلها إليه تنسب العباسية ولد ١٢١ مات ١٨٦ .

(٥) الفضل بن الربيع (سبقت ترجمته) .

(٦) زبيدة بنت جعفر بن المنصور اسمها أمة العزيزة وغلب عليها اسم زبيدة واليها تنسب عين زبيدة توفيت سنة ٢١٦ ببغداد .

(٧) النجوم الزاهرة ٢٥ / ٦٤ .

وسدت بهارون الثغور فأحكمت
وما أنفك معقوداً بنصر لوائه
وكل ملوك الروم أعطاه جزية
وفيها هذا المديح السياسي :

إلى وجهه تسمو العيون وما سمت
ترى حوله الأملاك من آل هاشم
يسوق يديه من قریش كرامها
على ثقة التت إليك أمورها
أمور بميراث النبي وليتها
إليكم تناهت فاستقرت وإنما
خلفت لنا المهدي في العدل والندی
وأبناء عباس نجوم مضيئة
ليهنكم الملك الذي أصبحت بكم
أبوك ولي المصطفى دون هاشم

إلى مثل هارون العيون النواظر
كما حفت البدر النجوم الزواهر
وكلتا هما بحر على الناس زاخر
قریش كما القى عصاه المسافر
فأنت لها بالحزم طاو وناشر
إلى أهله صارت بهن المصائر
فلا العدل منور ولا الحكم جائر
إذا غاب نجم لاح آخر زاهر
أسرته مختالة والمنابر
وإن رغمت من حاسديك المناظر (١)

لقد استجاب مروان لنداء اراده الرشيد فتجاهل الهادي كما يتضح من البيت العاشر من ناحية كما انتهى إلى القمة في هذا الدفاع السياسي المحكم القائم على الحجج والبراهين الدامغة والتي ألبسها لباس الحق والفضيلة فأصبحت حقاً لا مرأى فيه ولا اختلاف ، وليس غريباً أن يجزل له الرشيد العطاء كما أجزل مروان له المديح (فأعطاه عشرة آلاف دينار وكساه وأمر له بعشرة من الرقيق وحمله على بردون) (٢)

ولكي ندرك قوة الصلة وشدة الارتباط بين الرشيد ومروان لنقرأ هذا الخبر ففيه ما يغني عن ألف مقال ومقال . (قال أي الرشيد يوماً لمروان بن ابي حفصة صفني بما في فقال اعفني

(١) شعر مروان ص ٥٣ / ٥٤

(٢) خلاصة الذهب ص ١١١

يا أمير المؤمنين فقال : لا بد فقال : والله إنك من أعدل وأجود الناس وأكسل الناس فقال كيف تقول ذلك وقد صيرت حركاتي غزوا وجهادا فقال ما كسلك في هذا ولكن أن تأمر لي بألف دينار ولم تفعل وما أرى يمنعك إلا الكسل فضحك وأمر له بخمسمائة درهم . فقال له وأعجب من هذا إنك عييت وحططت في نصف الطريق (١) فمن الذي يجرو على وصف الخليفة بالتكاسل والتباطؤ؟ وفي أي شيء؟ إنه التكاسل في تعطيل الهبة والعطية. لن يجرو على تلك المقالة إلا من له على الخليفة دالة وسلطان وله من الحظوة والتقريب ما عز تحصيله على سواه من الناس .

ولنقرأ ما يقوله مادحاً الرشيد في قصيدة ضاعت سوى ما ذكرته (حينما كان الفداء بين المسلمين والروم سنة ١٦٥هـ) فلم يبق بأرض الروم أسير إلا فودي به حيث يقول :

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها محابس مافيها حميم يزورها
على حين أعياء المسلمين فكاكها وقالوا سجون المشركين قبورها (٢)

ورغم هذا التقريب لمروان إلا أن الرشيد كثيرا ما كان يسوي بينه وبين الشعراء في العطية لأنهم استطاعوا أن يكونوا مثله في قوة المديح وجزالته ، وهذا يدل على قدرة نقدية يتمتع بها الرشيد يعرف عن طريقها جيد الشعر من رديئه وغثه من سمينه . وعلى هذا يحدد مقدا والعطية والهبة حسب درجة المديح قوة وضعفا .

روى صاحب الأغاني قال : (دخل مروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر ومنصور النمري (٣) على الرشيد ، فأنشده مروان قصيدته التي يقول فيها :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثه الأعمام
فأنشده سلم فقال :

حضر الرحيل وشدت الأحداج (٤)

وأنشده النمري قصيدته التي يقول فيها :

إن المكارم والمعروف أودية أحلك الله منها حيث تجتمع

(٢) شعر مروان ص ٦١

(١) خلاصة الذهب ص ١١١

(٣) منصور النمري هو بن مسلمة بن الزبير بن النمر بن قاسط ولد في بلدة رأس العين في الشام تتلمذ على كلثوم العتابي واتصل بيحيى البرمكي والرشيد وهو علوي في سره توفي سنة ١٨٧ بعد نكبة الرشيد للبرامكة .

(٤) صدر بيت وعجزه (وغدا بهن مشمر مزعاج)

فأمر لكل واحد منهم بمائة ألف درهم . فقال يحيى بن خالد : يا أمير المؤمنين . مروان
شاعرك خاصة قد الحقته بهم قال فليزد مروان عشرة آلاف) (١)

ليست تهمنا الزيادة التي جاءت متأخرة بسبب اقتراح من أحد مقربي الرشيد ، وإنما
الذي يهمننا هو أن الرشيد ساوى بينهم جميعا فلم ينفل مروان ولم يفضلهم عليه باديء ذي
بدء فليس معنى التقريب الايثار دائما ، وقد يكون هدف الرشيد من وراء ذلك هو كسر
حدة الطمع التي تجيش بها نفس مروان .

كما إن مروان نفسه قد اعترف بقوة شعر النمري في محضر من الخليفة هارون
الرشيد، وأن النمري مؤهل لأن يغلبه ، وذلك حينما أنشد النمري الرشيد قوله :

إن لهارون أمام الهدى كنزين من أجـر ومن بر
يريش ما تبـري الـليالي ولا تريش أيديهن ما يبـري
كأنما البدر على رحله ترميك منه مقلتا صقر
وأنشده أيضا :

ولمن أضع لقد عهدتك حافظا لوصيح العباس بالأحوال

(قال مروان وأخلق به أن يغلبني وأن يعلو عنده) (٢)

على أن انقطاع مروان إلى الرشيد لا يعنى أنه وقف نفسه عليه بمدحه دون سواه ، بل
مدح قوما غيره لكنهم يعتبرون امتدادا للرشيد وسياستهم تنبع من سياسة الرشيد فمدحهم
مدح للرشيد ، وفي ثناء مروان عليهم ثناء على الرشيد وأعني بهؤلاء البرامكة والأمين (٣)
فالبرامكة وزراؤه والأمين ابنه وولي عهده من بعده .

فحينما بويع الأمين بولاية العهد بعد والده مدحه مروان بقصيدة منها :

لما سمعت ببيعه محمد شفت النفوس واذهبت احزانها
بايعت مغتبطا ولو لم تنبسط كفي لبيعته قطعت بنانها

(١) الأغاني : ١٨/١٢ ، تاريخ بغداد ١٤٣/١٣

(٢) أمالي المرتضى : ٢٧٥/٢

(٣) الأمين محمد بن هارون الرشيد وامه زبيدة بنت جعفر بويع بولاية العهد بعد أبيه وللأمين من بعده ولكن حاول خلع
فنشبت قتال بينهما من سنة ١٩٣ - ١٩٨ حيث قتل .

رجحت زبيدة والنساء شوائل والله ارجح بالتقى ميزانها (١)

كما أنه قد سبق وأن اشار إلى ذلك حينما خاطب امه زبيدة مهنتا لها بولادتها للأمين في قصيده لم يبق منها إلا هذه الأبيات الثلاثة وهي :

لله درك يا عقيلة جعفر ماذا ولدت من العلاء والسؤدد

إن الخلافة قد تبين نورها للناظرين على جبين محمد (٢)

إنني لأعلم إنه خليفة إن بيعة عقدت وإن لم تعقد (٣)

ومن هنا يتضح أن علاقة مروان بالأمين كانت جزءاً من علاقته بالخليفة هارون الرشيد وتدخل ضمن الاتجاه السياسي الذي سلكه مروان في مدائحه للعباسيين ، إلا أن الموت قد داهم مروان سنة ١٨٢هـ ولم تتح له الفرصة للقاء الأمين خليفة عام ١٩٣هـ .

أما بالنسبة للبرامكة فإن علاقته بهم وإن كانت من خلال علاقته بالرشيد تتطلب عقد فصل خاص بها نظراً لتعدد الأشخاص الذين اتصل بهم من تلك الأسرة ولتعدد المواقف التي ساهمت في تعمق العلاقة بين مروان وبينهم ، وهذا ما سوف نتحدث عنه في الفصل التالي .



(١) شعر مروان ص ٧١ والمحاسن والمساوىء ١٥٣/٢ وقد نسبها د. حسين عطوان لمروان في مدح المهدي وهذا خطأ منه لان زبيدة والدة الامين في حين أن والدة المهدي هي (ام موسى بنت منصور الحميري) وربما أن اسم « محمد » الذي يشترك فيه المهدي والأمين احدث ذلك الوهم عنده .

(٢) العقد الفرید ٢٤٣/١ وعلى هذا فإن المقصود بالعقيلة هي (المرأة الكريمة) وليس الزوج كما هو شائع في هذا الزمان إذ أن زبيدة بنت جعفر . اما صاحب العقد الفرید الذي نقلت الابيات عنه فقد نسب البيتين إلى أبي الجنوب بن مروان .

(٣) هذا البيت ورد في وفيات الاعيان (٣١٦/٢) مع هذين البيتين .

مع البرامكة (*)

بلغ البرامكة في عهد الرشيد مالم تبلغه أسرة أخرى من مجد وسؤدد وعلو منزلة تضاهي السها فقد أصبح أفرادها عليّة القوم وأصبحوا قادة الأمة ووزراءها ، وكاد صيتهم أن يطغى على صيت الرشيد فأمّتهم دهماء الناس من كل حذب وصوب يضربون إليهم اكباد الإبل التماسا لهباتهم ومنحهم ، فسار ذكرهم في الآفاق مسيرة شعاع الشمس ووصلت سيطرتهم على مقاليد الأمور حدا جعل الرشيد يعطي بموجبه جعفر البرمكي خاتم الخلافة ليأمر وينهى ويولي ويعزل حسب إرادته وأصبح الرشيد خليفة اسما لا رسما لولا أن تدارك الرشيد الأمر فنكّبهم على ما هو مشهور في كتب التاريخ والأدب سنة ١٨٧ هـ .

وقد توجه مروان إلى البرامكة تحذوه الرغبة في المال من ناحية ، وشعوره بالود والتوحد السياسي الخفي من ناحية أخرى . فمدحهم ممثلين في يحيى بن خالد وولديه جعفر والفضل حتى أن حظ الفضل من مدائح مروان قد تجاوز حظ الهادي والرشيد .

فهو حينما مدح الرشيد بل العباسيين كلهم بالشجاعة والكرم والحلم ، وغيرها من الصفات الحسنة لم يكن ينشد نعمتهم ومديحهم بها فقط ففى ذلك تسوية بينهم وبين الناس ، ولكنه مدحهم بها ليجعلها سببا في أحقيتهم للخلافة ، فما من إنسان يستحق أن يلى أمور الناس وهو مجرد من تلك الصفات الحسنة . ولهذا جمع في مدحهم للعباسيين بين المدح التقليدي والمدح السياسي وجعلهما متلازمين ليكونا عند الناس نظرة صحيحة إلى العباسيين حينما تولوا زمام الأمور وأنهم أجدر الناس بالخلافة لأنهم جمعوا بين صفات الرجولة والحكم والورائة .

اما مدحهم للبرامكة فلا بد أن يقصر عن مدح العباسيين حيث لا بد من اجتناب المدح السياسي فلم يكن البرامكة طلاب خلافة ينشدون من يدافع عنها ويذب دونها وليسوا أصحاب مذهب سياسي ظاهر (١) يطلبون له أعوانا وأنصارا وأتباعا ، ولكنهم قوم تسنموا

(*) عقدت هذا الفصل للحديث عن علاقة مروان بالبرامكة مستقلا عما سبق حينما عقدت فصلا لعلاقة مروان بالولاه العباسيين للأسباب التالية :

أ - تأخر مجيئهم زمنيا عن الولاه السابقين لتأخر العصر الذى برزوا فيه .

ب - ان علاقة مروان بهم اشتهرت من خلال ارتباطه بالرشيد في حين ان الولاه السابقين وهم (السري بن عبد الله) و (معن بن زائدة) و (زائدة بن معن) كانت علاقته بهم مستقلة عن الخليفة الذى يمثلونه وهو المنصور استقلالاً تاماً .

(١) في هذا اشارة إلى قولى (التوحد السياسي الخفي) حيث أن هناك هما مشتركا بين مروان والبرامكة وهو البغض الخفي للعباسيين . فمروان كان أموي الهوية والبرامكة كان ولاؤهم الخفي علويا ولكن الظروف السياسيّه حالت دون اظهار ذلك من قبل مروان والبرامكة . وسيجد القارىء في الصفحات اللاحقه توضيح اكثر لهذا النقطة .

أعلى المناصب لما اتصفوا به من كريم الخصال وطيب الخلال ، فكيف يحوز مروان رضاهم ويحوز على عطائهم ؟ لابد أن ينظم غرر القصائد وروائع القوافي وعيون الشعر إطراء ومدحا وثناء على تلك الأسرة التي أصبحت بين الأسر قمرا يضيء الدنيا بكل خلق كريم والناس حولها نجوم أو كواسطة العقد بين ثمين الدرر .

ولست أدري أيهم مدح أولا لعدم وجود دليل يمكن الاستناد إليه ، ولكن حسبي أن أبدأ بجعفر لأنه زعيمهم ، وأعلام مرتبة ، وأقربهم منزلة عند الرشيد ، ولأنه هو الذي اتصل به مروان طالبا مساعدته للدخول على الرشيد ، حيث يقول ابو يعقوب الخطابي : (دخل مروان بن ابي حفصة على جعفر بن يحيى يسأله ايصاله إلى الرشيد ، وأنه قد مدحه بقصيدة ينشدها إياه) (١)

وقد مدح مروان جعفراً بقصيدة قال فيها :

أبر فما ترجوا الجياد لحاقه أبو الفضل سباق الأضاميم جعفر
وزير اذا ناب الخليفة حادث أشار بما عنه الخليفة يصدر (٢)
فقال جعفر أنشدني مرثيتك في معن بن زائدة فأنشده :

أقمنا بإليمامة إذ يئسنا مقاماً لأنريد به زيالا
وقلنا : أين نذهب بعد معن ؟ وقد ذهب النوال فلانوالا
وكان الناس كلهم لمعن إلي أن زار حفرتة عيالا

حتى فرغ من القصيدة وجعل يرسل دموعه على خديه فقال هل أثابك أحد على هذه من أهل بيته وولده قال لا . قال فلو كان معن حيا ثم سمعها منك كم يثيبك قال : أربعمائة دينار قال فإننا كنا نظن إنه لا يرضى لك بذلك وقد أمرنا لك عن معن رحمه الله بالضعف مما طنته وزودناك مثل ذلك فاقبض من الخازن ألف وستمائة دينار قبل أن تخرج .

(١) المحاسن والمساوي ٣٩٧/١

(٢) جاء في المحاسن والمساوي ٣٩٧/١ أن جعفرا وصل مروان بثلاثين ألف درهم كتب له بها إلى صالح الصيرفي وكان فيها دراهم طبريه فقال :

ثلاثون الفا كلها طبرية دعالي بها لما رأى الصك صالح
دعا بالزيف الناقصات وانما عطاء أبي الفضل الجياد الرواجح
فقلت له لما دعا بزيفه أأجد هذا منك أم أنت مزاح ؟

فلما أنشد ذلك جعفرا ضحك وقال : انشدني مرثيتك في معن بن زائدة .. الخ .

فقال مروان يذكر جعفرا وما سمح به عن معن :

نفحت مكافئا عن جود معن لنا فيم تجود به سجالا
فمجلت العطية يابن يحيى لنادبه ولم ترد المطالا
فكافأ عن صدى معن جواد بأجود راحة بذلت نوالا
بني لك خالدا وابوك يحيى بناء في الكارم لن ينالا
كان البرمكي لكل مال تجود به يداه يفيد مالا (١)
ومن مدائحه في جعفر :

بدولة جعفر حمد الزمان لنا في كل يوم مهرجان
جعلت هديتي لك فيه وشيا وخير الوشي ما نسج اللسان

أما الفضل بن يحيى فقد كان ذا نصيب وافر من مديح مروان وثناؤه ، ومن أبرز قصائده تلك التي مدح بها الفضل حين اتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية وجعل ولائهم له وأن عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل وأنه قدم بغداد منهم عشرون ألف رجل فسموا « الكرنبية » وخلف الباقي منهم بخراسان على اسمائهم ودفاترهم .

وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة :

مالفضل إلا شهاب لأفول له عند الحروب إذا ما تأفل الشهب
حام على ملك قوم عز سهمهم من الوراثة في أيديهم سبب
أمست يد لبني ساقى الحجيج بها كتائب مالها في غيرهم إرب
كتائب لبني ساقى الحجيج بها ما ألفت الفضل منها العجم والعرب
أثبتّ خمس مئين في عدادهم من الألوف التي احصت لك الكتب
يقارعون عن القوم الذين همُّ أولى بأحمد في الفرقان إن نسبوا

(١) العقد الفرید ٢٧٧/٧ ، وفيات الاعيان ٢٥٢/٥ ، طبقات بن المعتز ص ٤٦ كما روي ابن خلكان نقلا عن ابي الفرج في اغانيه عن محمد البيهقي التميمي أنه دخل علي هارون الرشيد فقال له انشدني مرثية مروان بن ابي حفصة في ممن بن زائده فأنشده بعض القصيدة فيكي الرشيد . قال وكان بين يدي الرشيد (سكرجه) فملأها من رموعه

وفيات الاعيان ٢٥٢/٥ .

إن الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق يبقى على جود كفيه ولاذهب
 ما مريوم له مذشد مئزره إلا تمول أقوام بما يهب
 كم غاية في الندى والبأس أحرزها للطالبين مداها دونها تعب
 يعطي الها حين لايعطي الجواد ولا ينبو إذا سلت الهندية القضب
 ولا الرضا والرضا لله غايته إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
 قد فاض عرفك حتى ما يعادله غيث مغيث ولا بحر له حذب (١)

والملاحظ أن مروان قد تطرق في هذه القصيدة من البيت الثاني إلى البيت السادس إلى مدح العباسيين مدحا سياسيا كما كان شأنه معهم في كل محفل ومناسبة حتى إذا تخلص إلى مدح الفضل ترك الجانب السياسي وأخذ بالجانب المعروف الشائع .

كما أنشد مروان الفضل قبل خروجه إلى خراسان قوله :

ألم تر أن الجـود من لدن آدم تحدر حتى صار في راحة الفضل
 إذا ما أبو العباس راحت سماؤه فيالك من هطل ويالك من ويل
 وقوله :

إذا أم طفل راعها جوع طفلها دعته بإسم الفضل فاعتصم الطفل
 ليحيا بك الإسلام إنك عزه وإنك من قوم صفيـرهم كهـل (٢)

وذكر محمد بن العباس (ان الفضل بن يحيى قد أمر له بمائة الف درهم وكساه وحملة على بغله . قال وسمعتة يقول : أصبت قى قدمتي سبعمائة ألف درهم) (٣)

(١) شعر مروان ص ١٨ .

(٢) هكذا وردت الأبيات في تاريخ الطبري ٤٦٢/٦ على أنها قصيدة واحدة وهذا خطأ فادح لأنه يعنى وجود الأقواء في القصيدة وهو اختلاف حركة الروي وهو من عيوب القافية فحركة البيتين الأولين « الكسرة » والأخيرين « الضمة » والحقيقة أن كل بيتين من قصيدة وانظر البيتين ١ - ٢ في شعر مروان ص ٨٦ والبداية والنهاية ١٧٢/٩ والبيتين ٣ - ٤ في شعر مروان ص ٩٢ والبداية والنهاية ١٧٢/٩ والوزراء والكتاب ص ١٩٠ .

(٣) تاريخ الطبري ٤٦٢/٢ .

ومن جيد قصائده التي مدح بها الفضل قوله حينما قضى على يحيى بن عبدالله العلوي سنة ١٧٦ هـ .

ظفرت فلا شلت يد خالدية رتقت بها الفتق الذي بين هاشم
على حين أعياء الراتقين التمامه فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة من المجد باق ذكرها في المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فائزا لكم كلما ضمت قدح المساهم (١)
و حينما قدم الفضل من خراسان خرج الرشيد لاستقباله فجعل الفضل يث الاموال بين
الناس فقال مروان :

حمدنا الذي أدى ابن يحيى فأصبحت بمقدمه تجري لنا الطير اسعدا
وما هجعت حتى رأته عيوننا وما زلن حتى آب بالدفع حشدا
نفي عن خراسان العدو كما نفي ضحى الصبح جلاباب الدجى فتعددا
لقد راع من أمسى بمرو مسيره إلينا وقالوا شعبنا قد تبددا
إذا الناس رموا غاية الفضل في الندى وفي البأس القوها من النجم أبعدا
سما صاعدا بالفضل يحيى بن خالد إلى كل أمر كان أسنى وامجدا
يلين لمن أعطى الخليفة طاعة ويسقى دم العاصى الحسام المهندا (٢)
إلى آخر القصيده .

كما مدح مروان الفضل بقصيدة اشار فيها إلي رضاعه من الخيزران والدة الرشيد منها
هذان البيتان :

كفي لك فضلا أن افضل حرة غدتك بشدي والخليفة واحد
لقد زنت يحيى في المشاهد كلها كما زان يحيى في المشاهد خالد (٣)

(١) شعر مروان ص ١٠٣ وقد جاء في البيان والتبيين ٢٨٤/٣ قال له الفضل قل (فلا شلت يد برمكية) فخالد كثير وما برمك
إلا واحد) وفي الضناختين ١٠٤/١ (قل برمكية فقد بشر كنا في خالد بشر كثير ولا يشر كنا في برمك أحد) .

(٢) شعر مروان ص ٣١ - ٣٢ .

(٣) وفيات الاعيان ٢٧/٤ .

كما قال قصيدة يمدح فيها (البرامكة) جميعا ولم يوجهها لشخص منهم بعينه حسب ما ورد في الموجود من تلك القصيدة وهي هذه الأبيات الاربعة :

عند الملوك منافع ومضرة
إن كان شرا كان غيرهم له
وإذا جهلت من امرئ اخلاقه
إن العروق اذا استمر بها الندى
وارى البرامك لا تضر وتنفع
والخير منسوب إليهم اجمع
وقديمه فانظر إلى ما يصنع
أشب النبات بها وطال المزوع (١)

اما يحيى والد كل من جعفر والفضل فقد مدحه بقصيدة منها :

إذا بلغتنا العيس يحيى بن خالد
سمت نحوه الابصار مناودونه
فان نشكر النعمى التي عمنا بها
فحق علينا ما بقينا له الشكر (٢)

كما اشار إليه في بعض القصائد التي مدح بها جعفرا والفضل ومثال ذلك قوله في مدحه لجعفر وقد اعطاه مكافأه على رثائه معن بن زائدة .

بني لك خالد وأبوك يحيى
وقوله يمدح الفضل :

إن الجواد بن يحيى الفضل لا ورق
وقوله من قصيدة أخرى

لقد زنت يحيى في المشاهد كلها

وأيا كان فقد كان مديح مروان ليحيى يأتي في مرتبه أقل من مدائحه في ابنه الفضل وجعفر .

وإلى هنا تصل بنا الرحلة مع مروان وتقف بنا عجلة الزمن بعد أن سايرنا مروان مع الحروف والكلمة عبر العصرين الأموي والعباسي وعهود الخلفاء وسراة الناس وعظماهم حتى توقفت العجلة بمروان في عهد الرشيد قبل انتهائه لتتضح امام عيوننا حقيقة مهمة وهي

(١) وفيات الأعيان ٣٥/٤ .

(٢) شعر مروان ص ٥٢ .

ان علاقة مروان بالبرامكة كانت مشابهة لعلاقته مع معن بن زائدة الأمر الذى يدفعنا للتساؤل عن سر تلك العلاقة الوثيقة بينه وبينهم حتى كاد مدحه لهم يتفوق على مدحه للرشيد وما هو السر في أن جعفر البرمكى سأل مروان عن رثائه لمعن ومن ثم اعطاه مبلغا من المال نيابة عن ورثة معن ؟ من وجهة نظرى أرى أن السبب والسر يكمن في وجود شبه قوى بين البرامكة ومعن بن زائدة في نظر مروان احده في النقاط التالية .

١ - أنهم يتحلون بصفات معنوية حسنة هي اشبه بالحلي في جيد الحساء . فهناك الكرم الحائمي والشجاعة والرأي السديد والفكر الثاقب (والاخلاص لولاة الأمر) والرفق بالضعفاء والعطف على المحتاجين .

٢ - أن البرامكة ليس لهم مذهب سياسي يدينون به علنا . ويريدون له اعوانا وأنصارا فيطلبون من الشعراء الدفاع عنه ونشر مبادئه في اشعارهم ليكون ذلك أدعى لاستجابة الناس وانقيادهم لأن الشعر اكثر تأثيرا واعظم سحرا ، ومعن بن زائدة كذلك وإنما وصلوا جميعا إلى ماوصلوا إليه بهمتهم العالية . وطموحهم الذي لا حدود له ولذا فان أي وجود للاتجاه السياسي في مديح مروان للبرامكة ليس موجها لهم ولكنه موجه للخلفاء العباسيين الذين يمثلونهم .

٣ - أنهم أغدقوا على مروان من الاعطيات مالم يفدق على شاعر سواه حتى أصبح بمثابة الشاعر شبه المنقطع إلى البرامكة ، والمنقطع انقطاعا كليا إلى معن لما ناله من حظوه وتقريب عندهم جميعا .

٤ - أن اصلهم فارسي كما أن مروان لم يكن على أصح الاقوال عربيا من جهة الأب وربما أن كونهم جميعا ينتمون إلى عنصر الموالي قد جعل بينهم وبين مروان ألفة تكاد تصل إلى درجة الأخوة ، والفارق الوحيد هو أن مروان رثى معن بقصائد كلها صدق وحرارة تنبعث من اعماق قلب مزقه الأسى واذابه الحزن أما البرامكة فمات قبل أن يشهدنكتبهم ولو قدر له أن يحيا إلى حين حدوث نكتبهم لمجادت قريحته بعيون القصائد في رثائهم فهو أحبهم عن اعجاب . ونكتبهم جاءت فجأة ولا بد أن تحدث في نفس مروان صدى وردة فعل لأن عاطفه الاعجاب تتحول إلى عاطفة حب حزينة في المآتم والاحزان تترك بصماتها وآثارها في نفس الانسان متمثلة في اشعار حزينة شجية . أقول هذا رغم أن مروان مات ومازال حبه للبرامكة سرا يكنه في فؤاده . يشير في نفوس الناس تساؤلات أكان مرثيا ؟ أم كان صادقا ؟

أما الرشيد فشأنه شأن أسلافه من الخلفاء أحبه من أجل المادة وعبادتها والتهافت على طلبها ، ويكفي للدلالة على ذلك أن مروان اعترف عندما سئل عن سر تحامله على العلويين بريائه وتلقاه للعباسيين حينما قال : (ما أحد أحب إليّ منهم ولكني لم أجد شيئا أنفع عند القوم منه) (١) .

وليت الزمن طال بمروان ليشهد نكبة البرامكة ثم موت الرشيد لنعرف ماذا هو قائل ؟

على أن هناك ملاحظه مهمة تجدر الإشارة إليها وهي أن هناك فكرة مشتركة تجمع بين الاطراف الثلاثة معن بن زائدة وشاعرنا مروان والبرامكة . وهي الكره الخفي لبني العباس الذي اجبرتهم الظروف السياسية وقوة الخلفاء على ابقائه طي الكتمان ، وإن كانوا في الاتجاه المضاد وهو الحب الخفي مختلفين . فمعن ومروان يحنان للماضي ولماثر بني أمية في حين أن البرامكة يحنون إلى حاضر موجود غير قادر على أن يفرض نفسه بطلا على الساحة السياسية وهم العلويون ويدل على ذلك ما يلي :

١ - أن جعفر البرمكي طلب حينما اتصل به مروان ومدحه بقصيدته التي منها

أبر فما يرجو جواد لحاقه ابو الفضل سباق اللهميم جعفر

طلب منه أن ينشده قصيدته في رثاء معن والتي منها

اقمنا بإلي مامة اذا يئسنا مقاما لانريد به زبالا

وكافأه جعفر عنه بضعف ما كان مروان يؤمله من معن لو كان حيا فكان ذلك سببا في مدح مروان له بقصيدة علي وزن وروي وقافيه القصيدة التي قالها في معن حيث قال يخاطبه

منحت مكافئا عن جود معن لنا فيما تجود به سجالا

فعلجت العطيه يا ابن يحيى لناديه ولم ترد المطالا

واعتقد ان جعفر البرمكي بموقفه هذا كان يهدف إلى ارضاء شعور نفسي يميل إلى كره الخلفاء العباسيين ومحبة لمن يعاديهم لا يقدر على اظهاره بسبب الظروف السياسية .

٢ - اطلاق جعفر البرمكي سراح خصم الرشيد الرئيسي يحيى بن عبدالله زعيم العلويين

(١) المقد الفريد ٣٠١/٤ .

الذي قام بثورة ضد العباسيين في بلاد الديلم انتهت بهزيمته عام ١٧٦هـ على يد الفضل ابن يحيى البرمكي ومن ثم اجابه الفضل إلي الصلح (١) حيث قدم به إلى الرشيد فسلمه بدوره إلى جعفر البرمكي وأمره بسجنه ولكنه رق له فاطلقه دون علم الرشيد، وانكر دوره في فراره حينما سأله الرشيد عنه ثم اعترف بذلك وكان ذلك من اهم الاسباب التي أدت إلى نكبة البرامكة عام ١٨٧هـ وقتل جعفر البرمكي .

٣ - قول مروان حينما سئل عن سر تحامله علي العلويين حيث قال (ما أحد أحب إليّ منهم ولكني لم أجد شيئاً انفع عند القوم - أي العباسيين - منه) (٢) وهو إن كان كاذباً في حبه للعلويين إلا أن ذلك يوحى أيضاً بأنه لم يكن يحب العباسيين ولكن الظروف السياسية وحبه للمال دفعاه إلي التقرب للعباسيين كاذباً بالنيل من العلويين .

وختاماً أقول لقد حاولت انصاف مروان في علاقته مع ابرز ممدوحيه وهم معن بن زائدة والخلفاء العباسيين والبرامكة دون ميل إليه او تحامل عليه مستعينا في ذلك بالنظر الدقيق والتعمق الوثيق في احاديثه واخباره معهم دون تعصب يشط بي عن روح النقد البناء الذي يعتمد الحقيقة مرجعه الأول والأخير .



(١) انظر مقال الطالبين ص ٤٦٩ .

(٢) العقد الفريد ٣٠١/٤ .

د - شخصيته وأخلاقه

الأخلاق والصفات سواء أكانت إيجابية أم سلبية هي مفتاح الشخصية الانسانية التي ينظر الناس من خلالها إلى أي إنسان وهل هو يتصف بشخصية متزنة أم متناقضة تنتقل بين الشيء ونقيضه .

ونظراً لأن مروان من خلال سيرة حياته وعلاقته بمن اتصل بهم يبدو للناس شخصية مميزة تجتمع فيها جميع التناقضات . كان على أن اخصص فصلاً لدراسة شخصيته وأخلاقه معتمداً في ذلك على قصائده التي قالها وأخباره التي تناقلتها الناس عنه .

إن الملاحظ على شاعرنا مروان من خلال شعره وأخباره أنه كان شاعراً متناقضاً في حبه وولائه لا يدوم على حال ولا يستمر على طريقة خاصة فيما يتعلق بعلاقته مع الخلفاء العباسيين في حين أنه ظل وفياً ومخلصاً لبعض من كانت له بهم علاقة إستمرت حتى بعد موتهم كما هي الحال مع معن بن زائدة وتحمل في سبيل ذلك الحب والوفاء ما لاقاه من طرد وابعاد في العصر العباسي حينما اتصل بالخلفاء العباسيين وإن كان ذلك الطرد وقتياً . كما استمر على وفائه لبني أمية شطراً من حياته في العصر العباسي يلهج لسانه بذكرهم والثناء عليهم والاعتراف بفضلهم عليه خاصة قبل اتصاله بالخلفاء العباسيين فالأمويون هم الذين اعتقوا جده الأكبر أبا حفصة وطوقوا عنقه واعناق آبائه وأولاده بجميل لا يحويه الزمن . لذا نراه يعترف بذلك الفضل ويدين لهم بالطاعة وبنوه بمآثرهم عليه تنويه الصادق الشاكر وذلك من خلال قوله :

بنو مروان قومي اعتقوني وكل الناس بعد لهم عبيد

وقوله في رثاء معن

حباك أخو أمية بالمراثي مع المدح اللواتي كان قالها

وحينما ادال الله من دولة بني أمية فقامت على انقاضها دولة العباسيين . اتصل مروان بمعن بن زائدة فأخلص له في حبه ووفائه وصدق في ذلك وعبر عنه كثيراً في شعره يدفعه إلى ذلك إعجابه الشديد بشخصية معن إعجاباً حقيقياً قبل أن يكون إعجاب حب تملق وتزلف ونفاق ومجاملة من أجل بريق الدراهم والدنانير ويتجلى ذلك واضحاً في رثائه معنا حينما توفي مقتولاً سنة ١٥٢ هـ إذ بكاه البكاء المر وحزن عليه الحزن الذي جل عن كل أسي

وحزن ولكنه مع ذلك ظل محافظا علي ولائه للأمويين لم يتنكر لهم أو يتبدل أو يتغير كما يعبر عنه البيت (حباك أخو أمية ... الخ).

ولم يكن ذلك متعارضا مع حب مروان لمعن بل أن حبه له يعتبر دليلا علي وفائه واخلاصه في ولائه للأمويين لأن معنا لم يكن حين وصل إلى ولاية اليمن وارتقى سلم المجد في عهد العباسيين صنيعة لهم بل كان عدوا لهم أول الأمر ولكنه اسدى للعباسيين جميلا حينما انقذ المنصور من يد الراوندية . فمروان حينما أحب معنا إنما أحب فيه شهامته واصالته وحبه للأمويين مما يوحي بأن هناك صفة مشتركة بين المادح والمدوح وهي حب بني أمية .

ولهذا نجد أن لهجة مروان في الثناء علي اسياده الاول اخف تعبيراً وأقل حرارة بعد اتصاله بالعباسيين حيث يقول :

فما فعلت بنو مروان خيرا وما فعلت بنو مروان شرا

إلا أنه لم يتعرض لهم بسوء أو يقلب لهم ظهر المجن فيتقرب إلى العباسيين بهجائهم وربما أنه اضطر إلى ذلك اضطراراً ليمنع عن نفسه شرا تحدته نفسه بأنه وشيك الوقوع خاصة حينما تعرض للطرده لأول مرة في عهد المهدي . هذا بالنسبة للأمويين .

اما بالنسبة لمعن فقد احجم مروان عن الارتقاء في احضان العباسيين مدة امتدت من سنة ١٥٢ - ١٥٨ هـ يمنعه عن ذلك شعوره النابض بالوفاء والاخلاص تجاه معن الذي ثوى تحت رمسه وليدلل علي وفائه اتصل بابنه زائده بن معن فمدحه بقصيدة أثنى فيها علي والده حتى أنه ليبدو أن تلك القصيدة كانت مديحا لمعن اكثر مما هي مديحا لابنه .

ولكن الدهر يأبى إلا أن يذيب موقفه المتصلب تجاه العباسيين فحاول أن يتصل بالمنصور تحقيقاً لرغبة المنصور نفسه ، ولكنه مات قبل ذلك فاتصل بالمهدي والهادي والرشيد ولكن ذلك لا يعني أن مروان تبدل وتغير عن وفائه لمعن لأن معنا قد مر وقت طويل علي وفاته ومهما حاول مروان أن يمنعه عن الاتصال بالعباسيين فانه سيجد نفسه خاضعا لعادات الزمن وصروف الدهر وهنا يبدو التناقض وتضخم الازدواجية في الوفاء للعباسيين والأمويين والعلويين علي السواء فمروان اصبح عباسيا ولكن بلسانه يكيل المديح للعباسيين وينافح عنهم ويصوغ أحقيتهم للخلافة صياغة فقهية في أسلوب شعري رصين معرضا ببني عمهم « العلويين » بأنهم قوم معتدون يطلبون ما ليس حقا لهم لأن الخلافة لبني ساقى الحجيج .

فهذا مديح ودفاع سياسي بلغ القمة في جودته وجاز السها وعلا في منزلته الشهاب
وفي هذا ولاء ولكنه باللسان .

ولذا فان مروان تناسى الأمويين ومعن بن زائدة واتجه للعباسيين تناسياً أملته ظروف
الزمن وصورفه ولايكاد يخدش وفاءه لأنه لم يتعرض لهجاء الأمويين والتعريض بهم رغم
حرص العباسيين على ذلك وتشجيعهم له وهذا موقف مشرف يجب تسجيله لمروان إذا
قيس موقف مروان في هذا بموقف كثير من الشعراء الذين يتقربون للحاكم الجديد بهجاء
الحاكم الذي دالت دولته في لمح البصر وسرعة البرق . كل ما نلاحظه على مروان أن
لهجته الشعرية التي كانت تفيض بذكر الأمويين والثناء عليهم قد خفت كثيرا في العصر
العباسي عندما بدأ اتصاله بالخلفاء العباسيين ويتمثل ذلك في قوله :

فما فعلت بنو مروان خيرا وما فعلت بنو مروان شرا

بعد ان كان يقول عن نفسه أنه أخ الأمويين في قوله (حباك أخو أميه .. أئخ) وهذا
التغير البسيط في الولاة أمر ضروري لكي يؤمن لقمة عيشه التي لن يستطيع كسبها إلا
بلسانه فماذا يعني عنه الأمويون وقد زالوا ؟ وماذا يضرهم وقد اكلت الارض عظامهم أن
مدح أعداءهم فالشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها ، ويكفيه أنه لم يسلم لسانه سيفا يقطع
به اعراضهم بعد أن زالوا ، واعتقد أن هذا أمر طبيعي إذا روعي الظرف السياسي الذي
عايشه مروان بعد زوال الأمويين فما من سبيل إلى لقمة العيش إلا بالتشبث باصحاب
المذهب الجديد ، والتملق والتزلف واصطناع محبتهم لأنه في الحقيقة كان مبغضا للعباسيين
كارها لهم وإنما احبهم من أجل المادة فجعلها قناعا يخفي وراءه ذاك الحب المصطنع .
ومروان شاعر لا يملك من أسباب كسب العيش إلا لسانه . وليس أدل على بغض قلبه
للعباسيين من قوله حينما سئل عن سر تحامله علي العلويين (ما أحد أحب إلي منهم ولكني
لم أجد شيئا انفع عند القوم منه) (١) وقوله في موضع آخر (والله ما حملني على ذلك بغض
لهم) (٢) والحقيقة هي أنه مبغض لهم « أي للعلويين » بغضه للعباسيين . ومن هنا استطاع
أن أوضح شخصية مروان في موقفه من الخلفاء والولاة فيما يلي .

١ - أنه كان محبا للأمويين حب من يعترف بفضلهم ومنتهم وأيادهم البيضاء التي
اسدوها إليه باعتاقهم لجدته « ابي حفصة » رغم زوال دولتهم واضمحلال ملكهم وليس

(١) العقد الفريد / ٣١٥ .

(٢) ١٣ / ١٤٢ تاريخ بغداد .

أدل على ذلك من قوله « حباك أخو أميه » البيت . حينما رثى معنا ودليل آخر . هو أنه لم يتعرض للأمويين بهجائهم تقرباً للعباسيين كما تقرب إليهم بهجاء العلويين . كلا الفريقين عدوا للعباسيين فما الذي منعه عن ذلك ؟

إنه فارق واحد أن للأمويين فضل عليه وحسن صنيع أما العلويون فلم يكن لهم عليه معروف . فمعروف الأمويين منعه من التعرض لهم وفي هذا وفاء وإن لم يمدحهم لأنه ليس معقولاً أن يفعل ذلك في عهد أعدائهم ولهذا تعلق بالعلويين فجعلهم شارة وهدفاً يصوب إليها نبال كلامه وسهام معانيه وجارح ألفاظه لأن دولتهم لم تقم بعد وبما يدل على وفائه للأمويين أنه قد يستغل بعض لحظات الصفا لدى الخلفاء العباسيين التي تسمح له بالتعبير عن وفائه لهم بالإشادة بأحدهم كرمز لذلك الوفاء لهم ومثال ذلك موقفه النبيل حينما سأله الرشيد عن الوليد بن يزيد (١)

٢ - الحب الخالص المنبعث عن إعجاب بشخصية الإنسان الذي يمنحه مروان حبه وإعجابه قبل أن يكون للحب سبب آخر مادي أو سياسي . فذا حبه لمعن بن زائدة . إذ كساه من المدائح حللاً منمقه مزر كشة تفيض بمعاني الصدق والحب والوفاء والشعور النبيل ولم يكن تقرب مروان إليه لأنه وإليّ العباسيين عليّ اليمن أولاً وسجستان بعد ذلك ليجعله إليهم زلفي وسبباً لذلك لأن معنا كان الوحيد بين ولاة العباسيين الذي سعت الإمارة إليه ولم يسع إليها . حيث كان عدواً للعباسيين حاربهم وجالدهم وناوأهم مع ابن هبيرة واهدر العباسيون دمه فاخترني حتى كان يوم الهاشمية فانقذ المنصور من مخالب الراوندية فكافأه بأن ولاه بعض أعماله وكذلك لم يكن معن صاحب مذهب سياسي ينتقي له دعاة وانصاراً فيتزلف إليه مروان بنشر مذهبه والدفاع عنه ، والذب دونه أو اعتناقه إيماناً به فيكون مديحه مروان صادراً عن هذا الهدف السياسي وتوحد الرأي المذهبي . كذلك لم يكن ذلك الحب حبا مادياً رغم ما أصابه مروان من منح معن إذ لو كان كذلك لخانتته العاطفة حينما مات معن فالعاطفة المادية تجرد حياتها في تدفق الدرهم والدينار فان فقد ماتت وتلاشت . بل ربما يكون هناك شعور مشترك بين الاثنين (مروان ومعن) وهو أن ذكرى الأمويين مازالت حية متوقدة في قلب كل منهما وإن لم يستطيعا البوح بها وأن مروان لذلك يرى في معن بقية منهم، ولو لم يكن الحب خالصاً لما وجد مروان كلمة رثاء يقولها لكنه بكى معنا واستبكى

(١) انظر معجم الشعراء ٣٩٦ حيث قال مروان عنه (كان أجمل الناس وأشعرهم واجودهم) وقد سبقت الإشارة إلى هذا الموقف عند الحديث عن نسب مروان وعند الحديث عن علاقته بالرشيد .

واستمطر الغمام دمعاً فجاءت قصائده كلها ذات صدق وحرارة تفيض بمشاعر الأسي العميق والحزن الذي اصاب القلب الرقيق وهو مالم يتيسر لمروان مع الخلفاء العباسيين .

٣ - الحب المصطنع « حب اللسان » ولكنه يخفي تحته النفاق والمجاملة والرياء وهذا هو حب مروان للعباسيين . فهو لم يحب المنصور ولكن المنصور طلبه فمات قبل أن يقبل عليه ويتصل به ، ومدح المهدي والهادي والرشيد ، ولكن المهدي طرده ، وكذلك فعل الرشيد متذرعين بانقطاعه إلي معن واغراقه في رثائه رغم مديح مروان لهما حتي اذا مر زمن جاء مروان ثانية . فمدحهما مدحا سياسيا كله خداع وكذب وتزلف كان مروان في غفلة منه فدلاه عليه حينما طرده من مجلسيهما فاتخذ من ذلك مركبا يوصله إلى بلاطهما لأنه يريد المال والثروة ولا طريق إليهما إلا بالنزول علي ارادة الخليفة وهواه فمدح العباسيين حتي عانق بهم الثريا وحط من منزلة العلويين حتي استووا في الحضيض الأوهد وكان العباسيون يعلمون نفاقه ولكنهم لم يهتموا بذلك . كل ما يريدونه لسانه فاشتروه أما قلبه فليكن في سواده عليهم كدة المدينة علي شرط ألا ييوح بما في قلبه فيسيل به لسانه شعرا .

وقد يظن كثير من الناس أن مروان كان صادق الولاء مع العباسيين ولهم الحق في أن يذهبوا إلي ذلك حينما يسايرون مروان في حوادثه واخباره معهم فهم قد اغدقوا عليه من المال ما يوهم الناس بحبه لهم وحبهم له وما عليهم لكي يكشفوا زيف ذلك الوفاء إلا أن يبحثوا عن رثاء مروان للعباسيين فلن يجد أحد شيئا اللهم إلا نزرا يسيرا لا يعبر عن حب ولا يصدر عن عاطفه إذ أن مروان كان ماديا في حبه كما قلت سابقا فتجمدت عاطفته وماتت لأنها فقدت سبب حياتها حينما مات المهدي إذا انقطع عنها الدرهم والدينار فما أشبهها بالشجرة التي تموت إن عز عليها الماء ومما يؤكد ذلك ما رثى به الخليفة المهدي حيث قال :

لقد أصبحت تختال في كل بلده بقبر أمير المؤمنين المقابر

فنظرا لعدم حبه الصادق خانه التوفيق في هذا التعبير . في هذا البيت وبقية الأبيات التي جمعت بين التهئة والتعزية ، واران أن يجعلها سببا في دخوله علي الهادي وكان جانب الرثاء فيها ذائبا في اطار الحكمة المبتدلة التي طالما لاكنها ألسنة الشعراء طويلا قبل مروان ، ولم يعثر علي ابيات اخرى في رثاء المهدي سوى «٦» أبيات مفرقة بين قصيدتين

قالهما مروان من اجل التزلف إلى الخليفة الجديد « الهادي » (١)

أما بالنسبة للهادي فقد كفاه موقف الرشيد الكاره له مؤنة رثائه .

أما بالنسبة للرشيد فحسب مروان انه مات قبله ولن يكن حظه اكبر من صاحبيه لو تأخرت وفاة مروان .

ففي اجادته مديح العباسيين وتقصيره في رثائهم يسقط الزيف وينكشف القناع ويتمزق إهاب النفاق . فالتقصير نشأ عن أن عاطفة المادة لا تستطيع أن تسمو إلى مواطن الوفاء والاخلاص عند وقوع المآسي فتمق وزخرف في الفاظه لكي يقع ذلك موقع حسنا عند الخلفاء . وقدما قيل (أعجب الشعر أكذبه) ولكن في غير الرثاء . ففيه يكون (أبرد الشعر أكذبه) .

وحب مروان الأخير يكشف لنا عن جانب آخر من شخصيته العجيبة الغريبة ويوضح صفة كانت عماد شعره حينما مدح العباسيين وتعرض للعلويين بما ألمهم وأوجع قلوبهم . ويتضح ذلك الجانب وتلك الصفة في الشراهة الشديدة المتمثلة في حبه للمادة وتهالكة على جمعها وتهافته عليها تهافت الفراش علي السراج فهو متميم بحب الدرهم عاشق للدينار كلف بجمع المال كلف قيس بليلي وجميل ببثينة وقد اوصله هذا الحب والغرام إلى حد عبادة المال وجمعه وتكديسه . يقول د. طه حسين مصورا تلك الظاهرة (كان مروان يعبد المال عبادة ويقدهه تقديسا وكان فيما بينه وبين نفسه يزدي الأمويين والعباسيين والعلويين وكان فيما بينه وبين نفسه مقتنعا بأنه يفوز بأموال العباسيين فلو ادال الله منهم للأمويين أو للعلويين لسار مع الدولة الجديدة) (٢)

وأقول أما بالنسبة للأمويين فلم يتحامل عليهم لأنهم ذوو فضل عليه أما العلويين فليسوا اصحاب حكومة وليس بأيديهم حكم ولا سلطان فمن الطبيعي أن يتحامل عليهم لأن ذلك يقع من العباسيين موقعا حسنا ومانال العطاء إلا بسبب ذلك فهو يزدي العباسيين والعلويين أما الأمويين فلا .

وكان انهماكه في طلب المال وغرقه في ذلك حتي أذنيه سببا في تنقيح اشعاره المادحة وعرضها علي الأدباء والنقاد والعكوف عليها طويلا قبل اظهارها حتي تمر بأكثر من

(١) انظر توضيح ذلك في علاقته مع المهدي .

(٢) حديث الاربعاء ٢٣٠/٢ .

تعديل وتبديل من حذف لفظ وابداله بآخر . وهكذا . حتى تصبح القصيدة في أبهى حللها فيقدم مروان بها على ممدوحه وينال عطاءه .

فهذا المهدي اعطاه على قصيدته « طرقتك زائرة » مائة الف درهم . كما فرض على أولاده حينما أنشده قصائد اخرى ، واصبح لمروان عليهم دالة أن يعطوه بكل بيت ألف درهم، ولكي يعرف كل إنسان ما وصل إليه مروان من جشع وما قطعه من طريق في مسيرة الطمع يجب أن يقرأ هذا الخبر ففيه الف شاهد وشاهد على نفسه الطماعة وذلك عندما أنشد معن بن زائدة قصيدته التي يقول فيها

وما أحجم الأعداء عنك بقية عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا
له راحتان الجود والحتف فيهما أباي الله إلا أن تضرا وتنفعا

قال له معن (أحتكم « قال عشرة آلاف فقال : معن ربنا عليك تسعين الفا . قال .
أقلني أقالك الله) (١) فأبي شخص يطلب من ممدوحه أن يعفيه ويقله من قول قاله لكي يعطيه مالا؟ اللهم إلا من انطوت نفسه علي الطمع والجشع والشراسة .

وحينما مدح الهادي بقوله :

تشابه يوماً بأسه ونواله فما أحد يدري لأيهما الفضل

قال له الهادي (أيما أحب إليك ثلاثون الفا معجلة أو مائة ألف تدون في الدواوين ؟ قال
تعجل الثلاثون وتدون المائة ألف قال بل تعجلان لك جميعا) (٢)

ويكرر الموقف للمرة الثالثة مع الرشيد حينما قال : (صفني فقال : اعفني يا أمير المؤمنين فقال : لا بد فقال : والله إنك من أعدل الناس وأجود الناس وأكسل الناس فقال : كيف تقول ذلك وقد صيرت حركاتي غزوا وجهادا؟ فقال : ما كسلك من هذا ولكن أن تأمر لي بألف دينار وما تفعل وما أري يمنعك إلا الكسل فضحك وأمر له بخمسمائة دينار فقال له :
وأعجب من هذا أنك أعيتت وحططت في نصف الطريق) (٣)

فهذا الخبر والخبر الذي قبله وإن كان ظاهرهما المزاح والتندر والضحك إلا أنهما يكشفان لنا الاتجاه النفسي عند مروان وسلوكه واتجاهه المادي البحت . وإلا فإن له من مواطن القول التي يتندر ويمزح ويضحك ويروح عن النفس فيها ما يجعله يمتأى عن هذه

(١) الأغاني ٣٣/٩ ، العقد الفريد ٢٢٣/١ ، خلاصة الذهب ص ٨٤ .

(٢) النجوم الزاهرة : ٦٤/٢ ، الأغاني ٣٩/٣٨/٩ . (٣) خلاصة الذهب ص ١١٢ .

المواطن التي تسيء إليه وتؤخذ عليه ولكنها النفس الطماعه التي تسعى وراء المال دون كل ولا ملل .

ولعل انسان يقول إن مروان العذر في أن يطلب المال ويلج في ذلك بنهم ويظنه كريما متلافا لأن داره مقر للأضياف ينحر الجزر ويعقر الكرم فهو إنما يطلب المال ليفي للناس ديناً ويقضي للنازلين به حقاً وطالبي قراه ما يجعله عند حسن ظنهم وصحيح اعتقادهم .

وأقول : لو كان كذلك لعذرناه حينما يطلب المال ولو تجاوز في طلبه حدود المعقول فالناس يطلبون المال لحاجتهم إليه في تقويم أودهم وسد فاقتهم دون أن يظهروا الكرم الحاتمي فما بالك بالكريم المتلاف ؟ إن له الحق كل الحق في أن يطلب المال إذا كانت طريقه شريفة لأنه لا يطلبه لنفسه وإنما لغيره ، ومن حق مروان ذلك ولكنه لم يكن كريماً ولا متلافاً . إذا فهو يطلب المال ليصرفه علي لهوه ولذاته ومجالس أنسه مثل أبي نواس الذي لو طلبت منه مدحه لقاء كأس خمر لما تأخر أو أبي تمام الذي ينفق ما أعطاه الخلفاء على الشعراء المنتظرين بأبوابهم .

وأقول لم يكن مروان في شيء من هذا ولكنه كان يجب جمع المال وتكديسه ، ويحرم نفسه طيب الطعام ونفيسه فقد كان بخيلاً من بخلاء العرب . وهذا سر تهالكه وجمعه للمال وهذه صفة تميز بها مروان أوضحها حبه للمال . ألم أقل إن حياته أشبه بحلقات الدرع يأخذ بعضها بعجز بعض ، وكل خصلة تكشف عن أخرى تصدر عنها وتتعلق بها .

اعتمد على النفاق في مدح العباسيين من أجل المال وجمع المال لأنه ممن يحبون جمعه ولا يحبون تفرقه فلقد كان مروان بخيلاً شحيحاً مقترراً بكل ما تحمله تلك الالفاظ . من معاني ، ولم يكن هذا شأنه مع نفسه ، ولكنه مع الناس ايضاً ولئن كان بخلاء العرب أربعة هم (ابو الاسود الدؤلي والحطيئة وخالد بن صفوان وحמיד بن ثور) فلنعتبره خامساً ولننصبه عليهم رئيساً لأنه بلغ في البخل غايته واحتل قمته حتي قال الجاحظ في تصوير حاله البخيلة (أو من يشق غبار مروان بن ابي حفصة . فهو أبخل من مادر) (١) وجعله الدكتور مصطفى الشكعة دليلاً قويا علي أن أصله كان يهودياً حيث يقول (من أين أوتي مروان غريزة السعي إلى كسب المال والنجاح فيه وشدة المحافظة عليه والإمعان في البخل ؟ لعل السبب في ذلك

(١) البخلاء ص ١٦٥ .

هو ماتذهب إليه بعض الروايات من أن ابا حفصة (جد مروان) كان يهوديا فأسلم على يد عثمان فأثرى وكثر ماله وتولى الخزنة لبني أميه فإن صحت هذه الرواية فإننا نكون قد عرفنا سبب بخل مروان وسبب حرصه علي المال وسبب مقدرته الفائقة في جمعه إنها بقايا اليهودية في عرقه وأثر الوراثة في أخلاقه فالصفات المعنوية والملكات تورث من الجدود (١) .

وعلى أي حال فأنتني لا أكاد أجد لفظا ولا وصفا يصور بخله وشحه لأنه جل في ذلك عن الوصف وعلا على التشبيه وحسبي أن أجعل الحوادث والأخبار تحدثكم عنه فهي أبلغ في التصوير وأروع في التعبير كما أنها تمتع نفس القارىء لما تحويه من الغرابة والظرف .

يقول (ابن الجهم) (٢) (أتينا إليمامه فنزلت علي مروان بن أبي حفصة فقدم لي تمر وأرسل غلامه بفلس وسكرجه يشتري زيتا فأتى الغلام بالزيت فقال له خنتني وسرقتني . قال : أخونك وأسرقك ؟ في فلس ؟ فقال أخذت الفلس لنفسك واستوهبت الزيت) (٣)

ومر مروان في بعض سفراته وهو يريد مغنى امرأة من العرب فأضافته فقال لها : (علي أن وهب لي الأمير مائة ألف أن أهب لك درهما فأعطاه ستين ألفا فأعطاها أربعة دنانير) (٤) (واشترى مروان لحما بنصف درهم فلما وضعه في القدر وكاد ينضج دعاه صديق له فرده على القصاب بنقصان دانق فشكاه القصاب وجعل ينادي هذا لحم مروان وظن أنه يأنف لذلك فبلغ الرشيد ذلك فقال : وبلك ما هذا ؟ قال اكروه الاسراف) (٥)

وفي هذا يقول الشاعر الجني :

ثوى اللؤم في عجلان يوما وليلة	وفي دار مروان ثوى آخر الدهر
عد اللؤم يبغى مطرحا لرحاله	فنقب في بر البلاد وفي البحر
فلما أتى مروان خيم عنده	وقال رضينا بالمقام إلى الحشر
وليست لمروان على العرس غيرة	ولكن مروان يغار على القدر (٦)

(٢) هو رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة واشتهر بالبخل وبالغ فيه . يروى أنه ذهب إلي حوض فسقى منه إبله ورأى ماء قليلا في أسفل الحوض فدفعته نفسه الخبيثة إلي أن يسلم فيه ويمد به الحوض فسما مادرا لذلك واسمه الحقيقي (مخارق) انظر قطوف من ثمار الادب ص ٢٢٤ .

(٣) في الأغاني ٣٧/٩ (جهم بن خلف) وهو الأقرب لكي لا يذهب الظن إلي الشاعر المشهور علي بن الجهم لأنه ولد بعد وفاة مروان بست سنوات حيث توفي مروان في عام ١٨٢ هـ وولد علي بن الجهم عام ١٨٨ هـ .

(٤) العقد الفريد ١٤٥/٧ والأغاني ٣٧/٩ .

(٥) الأغاني ٣٨/٩ . (٦) المصدر السابق ٤٥/٩ .

ويحدثنا محمد النوفلي عن ابيه مصورا بخل مروان قائلاً كان (أي مروان) لا يأكل اللحم حتي يقرم إليه فإذا قرم ارسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله فقبل له نراك لا تأكل إلا الرؤوس في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك؟ قال: الرأس أعرف سعره ولا يستطيع الغلام أن يغنني فيه وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه. إذا مس عينا أو أذنا أو خذا وقفت عليه. فأكل منه ألوانا آكل من عينيه لونا وأذنيه لونا وغلصمته لونا واكفي مؤنه طبخه فقد اجتمعت لي فيه مرافق (١).

وذكر الخطيب البغدادي (أن مروان يبخل فلا يسرح له فإذا اراد أن ينام اضاءت له الجارية القصبة إلى أن ينام) (٢)

كل هذه الاخبار تتحدث عن لؤمه وبخله، ورغم أنها تصور لنا شخصية مروان البخيل اكمل تصوير إلا أن هناك خبرا يعطي من الدلائل علي بخل مروان ولؤمه المتناهي مالم يوفره خبر آخر فأى لؤم وأي بخل وأي شح؟ أعظم من أن يهرب المضيف من ضيفه. روى الهيثم بن عدي قال (نزل بابن ابي حفصة ضيف باليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه تلك الليلة فخرج الضيف فاشترى ما يحتاج إليه ثم رجع وكتب إليه.

يا أيها الخارج من بيته وهارب من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له فارجع وكن ضيفا علي الضيف (٣)

(١) الاغاني ٣٨/٩ .

(٢) تاريخ بغداد ١٤٢ / ١٣ .

(٣) العقد الفريد ٢٠٨/٧ ، وعيون الاخبار ٢٤٨/٣ ، وقد روي البيتان على النحو التالي :

ياتارك البيت علي الضيف وهارب من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بخبز له فارجع وكن ضيفا علي الضيف

وقد ورد البيتان في المحاسن والمساوي ٤١٩/١ بشئ من الاختلاف ومعهما هذان البيتان .

إذا اشتهى الضيف طيخ الشتا أتاه بالشهوة في الصيف
وإن دنا المسكين من بابيه شد علي المسكين بالسيف

ولم تنسب الايات إلى قائل ولم يذكر اسم من قبلت فيه .

هذا هو لؤمه وبخله وشحه وتقديره في طعامه فماذا عن لباسه ؟

كان مروان في لباسه يحكي شخصاً فقيراً لا يملك من عرض الدنيا شيئاً فلا عهد له بدرهم أو دينار فثيابه رثة ممزقة يالية اصطلمحت عليها كل العلل التي تصور البخل في شدته ومتمناه وكان يدخل علي الخلفاء في هيئته الرثة وشكله المزري .

واعتقد أنه يقصد من وراء هذا غاية ويروم هدفاً لأنه يخلق في نفوس ممدوحيه الشفقة والعطف والحدب عليه فيكون أجدى لامتصاص الأموال منهم والملابس علي اختلاف انواعها فليس أجدى من طريق الكديه سبيلاً لاستدراار أيدي الخلفاء وانهمارها بالبذل والعطاء (فقد كان المهدي يعطي مروان وسلم الخاسر عطية واحدة ، وكان سلم يأتي باب المهدي على البرذون قيمته عشرة آلاف درهم ، والسرج واللجام المقذوذين ولباسه الخرز . والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الاثمان ، ورائحة المسك والغالية والطيب تفوح منه ، ويجئ مروان وعليه فرو كبش وقميص كرايبس وعباءة كرايبس وخفاكيل وكساء غليظ منتن الرائحة وكان لا يأكل اللحم بخلا حتى يقدم إليه) (١) .

فيالها من صورة مزرية وياله من شكل ومنظر يؤدي عيون الناظرين ، وما كان مروان مهتماً من احد ولا يخاف عدلاً ولا لوماً ولا تقريعاً إذ لو كان كذلك لظهر في هيئة حسنة بعض الشيء ولو على الأقل حين يدخل علي الخلفاء ولكن هذه هي الشخصية البخيلة الغربية تدعو الناس إلى الضحك والتندر عليها والازدراء لها .

وأغرب من ذلك تلك الصفة التي يتبعها مروان مع ممدوحيه حين ينهاهم عن البخل وهو البخل ويدعوهم إلى البذل وهو المقتر والشحيح مصوراً لممدوحيه نهاية المسكين القابضين الظانين بخيرهم علي غيرهم وأنهم لم يكسبوا سوى الخزي والعار والشنار .

فلسفه غريبة عجيبة حقاً كونتها في ذهنه وعقله خبرته الطويلة في ميدان البخل والشح حتي تعرض للذم والتقريع فلم ينته وما زال سادراً في غيه ، ولكنه يحاول أن يرسم للناس سياسة جديدة تنقذهم من الذم والسخرية فدعاهم إلى البذل والعطاء حيث قال في مدح السري بن عبد الله :

(٢) الاغاني ٣٧/٩ .

اصاب الردي قوما تمناوا لك الردي لأنك أعطيت الجزيل وصرودوا
سيذهب ما ضمت عليه اكفهم ويقي لهم في الناس ذم مخلد
وتبقى اياديك الكريمة بعدما يواريك والجود الصفيح المنضد (١)

وأقول لقد صدق ولو قال : سيذهب ما ضمت عليه اكفنا لصدق اكثر .

واغرب من هذا أن يخالف في شعره سيرته في هذا المجال محاولا اعطاء الناس صورة
عنه وقد التحف ببردة الكرم الحائمي فما عليه أن ادعى الكرم في بضع كلمات إنه ولا شك
كاسب يخسر لفظا ويربح آلاف الدراهم ولنقرأ قول :

أروي الظماء بكل حوض مفعم جودا واترع للسفاب قدوري
وتظل للإحسان ضامنة القرى من كل تامكة السنام عقيري
اعطي الله ما تبرعا عودا على بدء وذاك علي غير كثير (٢)

وليس هذا الادعاء طبعه فقط بل كان شأن كثير من الشعراء البخلاء يفتخرون
بكرمهم المزعوم كما كان الجبناء يفتخرون بشجاعتهم الخيالية (واعجب الشعر أكذبه) .

لم يتمتع مروان نفسه بملذات الحياة وعيشها المترف الناعم الذي يتجاوز حدود المباح
كما تسمح به حياة بغداد الصاخبة فهو الذي حرم نفسه من التمتع بأمواله في حدود المباح
دينيا حري به أن يحرمها منه فيما عدا ذلك لأن الانغماس في حياة الترف واللهو يتطلب
اسرافا وبذخا بينه وبين مروان عداوة وتأباه نفسه البخيلة فهل يعقل أن يحرم انسان نفسه
من الأكل الخلال والملبس الخلال والمشرب الخلال ثم ينفق ماله في كأس تذهب عقله
او جاريه تعطيه ما يريد لقاء أن ينفق عليها ما جمعه . لا والف لا .

ويجب أن لا يذهب الظن إلى أن مروان اعرض عن الاستمتاع بمباهج الحياة كما
تضج بها مدن الحضارة العباسية لكونه انسانا متدينا ينظر إلى الدنيا بمنظار الزاهد العابد .
ليس مروان في ذلك بشيء إذ لو كان زاهدا زهد العبادة لحرم نفسه وانفق على الفقراء
فكيف به وهو يكاد أن يأخذ ما في يد الفقراء .

(١) شعر مروان ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٦ .

ومما يوضح الصورة أكثر هو استجابة مروان لحضور جلسات اللهو وإن كانت قليلة ،
والاقبال على ما فيها من لذات تتجاوز حدود الدين متى ما رأى أن ذلك لا يكلفه دينارا
واحدا كما نشاهد في المواقف التالية :

١ - فيما رواه حماد بن اسحاق حيث قال (كان مروان بن ابي حفصة يعجىء إلى جدي
ابراهيم فإذا تغدى قال اطعمتمونا طيبا فأطعمو آذاننا حسنا) (١) .

٢ - علاقته بعنان الناطفية المشهورة في المجتمع البغدادي بعلاقتها المتعددة مع كثير من
الشعراء ورجال المجتمع المخملي وهي علاقات لا ترتفع عن مستوي الشبهة كما هي مع
بشار بن برد . كما يتضح ذلك من قول مروان حينما رآها تبكي وقد ضربها مولاها .

بكت عنان فجرى دمها كالدر يسّن من خيطه

فقال

فليت من يضربها ظلما تجف يناه علي سوطه

وقوله لها في موقف آخر :

وما زال يشكو الحب حتي رأيت تنفس من أحشائه وتكلما

فقال

ويكي فأبكي رحمة لبكائه إذا ما بكي دمعا بكيت له دما (٢)

٣ - قصته مع الحسن بن شهريار وقد بلغت من الإباحة حدا يتعذر معه ذكرها في هذا
الموقف وإنما اكتفي بالإشارة إليها لأنها تدل دلالة واضحة علي خلق مروان (٣) .

إلا أن هذا المجنون المحدود بالطبع لا يرقى اطلاقا إلي مستوى المجنون عند بشار بن برد أو
ابي نواس أو ابن هرمة ، وهذا ما دفع د. طه حسين إلى القول (لأنعرف لمروان مجونا ولا
عبثا فلم يكن كما قلنا ماجنا ولا عابثا وإنما كان بخيلا والبخل والعبث شيخان لا يتفقان ومن
ظن علي نفسه باللحم والطيبات لم يستبح لنفسه خمرا ولا ما تتبعه الخمس) (٤) .

(١) أخبار ابي تمام للصولي ص ٢١٦ .

(٢) البصائر والذخائر ١٤/٥ . والمستطرف من اخبار الجوارى ص ٣٩/٣٨ .

(٣) البصائر والذخائر ١٧/٧ كما أورد السيوطي في كتابه المستطرف من أخبار الجوارى ص ٢٤ قصه (ماجنه) تؤكد مجون
مروان وعدم تدبئه اكتفي بالإشارة إليها دون ذكرها .

(٤) حديث الأربعاء ٢/٢٣٥ .

وليس البخل هو السبب الوحيد الذي قلل من ظاهرة المجون عند مروان بل كان بجانبه سبب آخر هو البيئة التي عاش مروان بين احضانها لأن البيئة ذات أثر واضح في سلوك الانسان الخلقى . والمعروف عن مروان أنه كان يقيم في إقليم إليمية ولايكاد يقدم بغداد إلا مرة في السنة ليمدح ويأخذ ثم يكر راجعا إلى موطنه وهذا الإقليم لم يعرف عنه تأثر بالحضارة الفارسية واليونانية مع ما صاحبها من خلكيات مسفه وأمور تننافي وشرائع الاسلام كما تأثرت بذلك سائر الأقاليم الاسلامية خاصة مدينة بغداد .

أما إقليم إليمية فإنه يمثل البداوة والحياة العربية القديمة بكل بساطتها وخشونتها في شطف عيشها وقساوته .

ومروان انسان خرج من ذلك الاقليم ، وعلي أرضه درج ، وكحل عينيه بترابه ، وافترش أرضه وتلحف سماءه ، ورضع من ثقليله العربيه وعاداته حتى ارتوى فمنعه ذلك وكرس في نفسه الابتعاد عن الملذات وما يصاحبها ، وجاء بخله ليشكل مانعا آخر يحول بينه وبين الوقوع في ملذات الشباب ومتع الهوى والصبا وإن كان دور البخل أوضح وايرز من دور البيئة .

إلى هنا ننتهي من الحديث عن بخله لكي يبدأ الحديث عن صفة أخرى لدى مروان هي الذكاء في اختيار الممدوحين فعلى الرغم من أن مروان يحب المال ويتهافت على تحصيله إلا أن هذا الحب لم يدفعه إلى مديح الناس على اختلاف طبقاتهم استجداء لأكفهم وما تجود به أريحيتهم وإنما ارتفع بشعره ولم يدس أنفه في الرغام ويعفر وجهه بالتراب فلم يمدح الا خليفة أو وزيرا أو رجلا له من المزايا والمكارم ما يفوق به ألف خليفه . فقد مدح معن بن زائدة وابنه زائدة والهادي والمهدي والرشيذ والبرامكه والسري ابن عبدالله ، وهذا الذي دفع مروان إلى تنقيح شعره وعرضه علي النقاد واحكامه احكاما وانتقاء الفاظه لتلائم معانيه . فما يجوز للخليفة لايمدح به الوالي والعكس بالعكس ولذا انهمرت عليه المنح وانهاالت العطايا . كما أن اسلوب مروان في اختيار ممدوحيه ومستواهم الاجتماعي كان ذا أثر ايجابي علي قوة شعره وارتفاع مستواه .

ولو كان يطلب المال من أي مصدر لما احكم شعره وجوده ولو رأينا يمدح به الخباز والجزار وبائع البصل وغيرهم ولقرنا لمروان شعراً رديفا مهلهل النسج للاحكام فيه ولاقوة ولاحرارة .

وقد يذهب الظن بكثير من الناس إلى الإدعاء بأن سبب تلك الأنف أنه يرغب في العطاء الجزيل الذي لا يقدر عليه إلا العظماء كما هي عادة البخلاء في الاكثار من كل شيء ، وأرى أن ذلك ليس ظنا في محله إذ لو كان بخله سبباً في تحديد مستوى ممدوحه لدفعه إلى مدح أى انسان لكي يحصل علي المال من أي مصدر قل أو أكثر ويؤكد ذلك قوله :

ولقد حببت بألف ألف لم تشب إلا بسيب خليفة وأمير
مازلت آنف أن أولف مدحة الا لصاحب منبر وسرير (١)

وقوله

كم ملك حلتة كسيت ومن سرير ملكه ادنيت
إن غبت عن حضرته دعيت وإن حضرت بابه حييت (٢)

وقد أورثه ذلك اعتزازا بنفسه وافتخارا بها وصل به حد الغرور في مجالي قوة الشعر وكثرة الاعطيات ، وربما أن مروان حاول أن يكمل نفسه لنقص يحسه ويدركه في شخصيته مصدره بخله وتقديره ولهذا افتخر بشعره وما ناله من اعطيات بعد أن عز عليه الافتخار بكل صفة معنوية تجرد منها وابتعد عنها ، وهو الفخر الحقيقي الذي نحسبه لمروان أما ما عداه فلا فخر له ولم نر منه سوى أن جده ولي خراج إليمامة لمروان بن الحكم سنة ٦٥ .

وفي افتخاره بشعره يقول

ولقد جريت مع الجياد ففتها بعنان لاشبم ولا مبههور
ما نالت الشعراء من مستخلف ما نلت من جاه وأخذ بدور (١)

وقوله مفاخرنا سلم الخاسر بكثرة عطائه :

وإني لسباق إذا الخيل كلفت مدى مائة أو غاية فوق ذلكا
حببت بأوقار البغال وإنما سراب الضحى ماتدعي من حباثكا
وما نلت حتى شبت لإعطية تقوم بها مصرورة في ردائكا (٢)

(١) شعر مروان ص ٥٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٥ .

يقول د / طه حسين (ثم لانعرف مروان فخرا أو مال إلى الفخر فقد كان رجلا عمليا يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة) (١) والفخر الذي يريده طه حسين هو الإعتزاز والإفتخار بالحسب والنسب والجاه والمكانة والكرم ، وهو ما لم يتطرق إليه مروان إلا لماما ولذا لا يصح أن يبنى عليه رأى يتعلق بصفات ايجابية يمكن إضافتها إلى شخصية مروان تحسن من صورته لدي الناس ، وربما كان مروان يدرك أن الناس لن يصدقوه في ذلك فاكتفي بالإشارة للتذكير فقط .

ولنطو ما تقدم ونقطع صلتنا به حسنا كان أو سيئا لنقف عند ظاهرة وجدت عند مروان حسبها أن تلفت الأنظار إليها وتصرف الناس عن السلبيات التي كانت غالبية على شخصية مروان وتلك الظاهرة هي ظاهرة المرح . فالواضح أن مروان شخصية محبوبة خفيفة الظل والدم ، ولهذا احتمله الخلفاء وقبلوا عليه رغبة في مديحه أولا وفي شخصيته المرحه ثانيا رغم مظهره المزري ولباسه الرث الذي ينفر الناس منه ، ويكفي مروان لكي يكون ذا شخصية مرححة أن يكون بخيلا فالبخلاء مصدر ضحك وهزل وتندر لما يروى عنهم من نوادر وطرف مليحة تروح عن الناس وتساعد على إزالة همومهم عن طريق التندر عليهم وامتناع النفس بقصصهم وحكاياتهم في مجالس سمرهم وانسهم ، ومروان في البخلاء علم في رأسه نار وأخباره ونوادره المغرقة في الطرافة احتلت مكانه على ألسنة معاصريه كوسيلة للترفيه عنهم وبحق كان كريما علي الناس أن يجعل من نفسه مادة ضحكهم وهزلهم .

ومن الأمثلة الحية التي تصف لنا شخصية مروان المرححة ما رواه صاحب الأغاني حيث قال (أعطى المهدي مروان ثلاثين ألف درهم فجاءه ابو الشمقمق (٢) فقال له اجزني من الجائزة فقال له أنا وأنت نأخذ ولا نعطي قال فاسمع مني بيتين قال هات قال ابو الشمقمق :

حياة مروان تقي عنبرا خالط مسكا خالصا أذخرا

فما يقيمان بها ساعة الا يعودان جميعا خرا

فأمر له بدرهمين . وقيل اعطاه عشرة دراهم فقال له خذ ولا تكن راوية الصبيان) (٣)

(١) حديث الأربعاء ٢/ ٢٣٥ .

(٢) ابو الشمقمق اسمه مروان بن محمد ولد بالبصرة ، ولقب بالشمقمق لأنه عظيم الأنف أهرت الشدقين ، وقيل أن أصله من البخارية وهم أسرى أتى بهم لعبيد الله بن زياد سنة ٥٤ مدح أبو الشمقمق الرشيد ومات سنة ١٨٠ كما قال ابن المعتز .

(٣) الأغاني ٩/ ٣٨ .

وقال مروان يتندر على رجل عظيم اللحية إسمه رباح :

لقد كانت مجالسنا فساحا فضيقها بلحيته رباح
مبعثرة الأسافل والأعالي لها في كل زاوية جناح (١)

وقوله مداعبا يحيى بن منصور الباهلي حينما عاد إلى الشعر بعد تنسكه اعجابا منه
بأفعال معن بن زائدة فقال مروان يداعبه :

لا تعتمدوا راحتي معن فإنهما بالجود أفتنتا يحيى بن منصور
لما رأى راحتي معن تدفقتا بنائل من عطاء غير منزور
ألقي المسوح التي قد كان يلبسها وظل للشعر ذا وصف وتحبير (٢)

وقوله مداعبا (صالح) صيرفي جعفر البرمكي الذي أمره جعفر بأن يصرف لمروان
ثلاثين ألف درهم . حيث قال مداعبا له ومدعيا بأنه يريد اعطائه نفودا زائفة :

ثلاثون ألفا كلها طبرية دعالي بها لما رأى الصك صالح
دعا بالزئوف الناقصات وإنما عطاء ابي الفضل الجياد الرواجح
فقلت له لما دعا بزئوفه أأجد هذا منك أم انت مزاح (٣)

وحكايته مع عباد بن شبل حينما هجا بغلة مروان (الشهباء) بقوله :

أرى الشهباء تخبر اذ غدونا برجليها وتعجه باليدين
فقال له مروان يهجو بغلة عباد المسماة (القطاة)

أرى خلق القطاة فأزدريها ويملاً منظر الشهباء عيني

(١) شعر مروان ص ٢٨ .

(٢) شعر مروان ص ٢٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٩ .

وقوله :

لعمري أريك لو غير ابن شبل
ولكن عرضه عندي وعرضي
هجا الشهباء قطعه الهجاء
إذا मिलت بينهما سواء (١)

وأخبار بخله التي تصور لنا شخصيته في الأدب وقد سبق الحديث عنها في هذا الباب كان لها دور إيجابي في اتصاف مروان بصفة المرح والدعابة لكي يكون مقبولاً عند الناس ليحضر مجالسهم وينال ما كلهم ومشاربهم ولو اجتمع مع بخله نفس ثقيلة لكان من نفسه في جبل لاطيق الناس حملة .

وهذه المواقف ليست كل شيء وإنما هي غيض من فيض ، ونزر من كثير وكما ضاعت أشعار مروان ضاعت أخباره التي تكشف عن جوانب يكتنفها الغموض من هذه الشخصية لضياح هذه الأخبار وما الشعر إلا تعبير عن تلك الحوادث والأخبار والأسمار فإن ضاعت ضاع وإن فقدت فقدت فهما أمران متلازمان .

ومع هذا أقول : إن أخبار مروان ونوادره الموجوده بين أيدينا استطاعت أن تجسم لنا هذه الشخصية وتجعلها ماثلة في أفكارنا حية واضحة شخصية متناقضة تناقضاً غريباً فهناك الحب الصادق ، والحب الزائف ، والولاء الحقيقي ، والولاء المصطنع والبخل الواضح للعيان والكرم من طرف اللسان يضاف إلى ذلك عزة نفس في اختيار الممدوحين ، وسمو نفس وخفة دم ومرح إلى غير ذلك من التناقضات التي تجعل مروان شخصية يكاد أن يحتار العقل في فهمها .

وإني لآخال مروان ذائباً في بيئته ذواباناً . فأصبحت هي هو وهو هي ممتزجان لا يكادان ينفكان أثرت في شعره وفي شخصيته فأورثته التناقض كما تناقضت بيئته فكانت سهولاً وحزوناً ووهاداً ونجاداً وحرراً لافحاً وبرداً قارساً . كان محباً لمعن منافقاً للعباسيين كريماً بلسانه بخيلاً بماله .. إلخ . وهذا ما جعل مؤرخي الأدب يعدونه من (المفلوكين) وهم من يقف حظهم السيء عقبه في طريق استمتاعهم بالحياة وما يملكون من جاه أو مال (٢) مما جعلهم ينظرون إليه لباعتبراره رجلاً بخيلاً فقط ولكن باعتبراره (فيلسوف البخل تماماً مثل سهل بن هارون) (٣) . كما ذهب إلى ذلك الدكتور مصطفى الشكعة .

(١) ربيع الأبرار ٣٩٩/٤ .

(٢) الفلاكة والمفلكون ص ٨٥ .

(٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي .

كما دفع ذلك الدكتور طه حسين إلي القول عن تناقض مروان (كان مروان متناقضاً ولكنه تناقض مفهوم) (١) .



(١) حديث الأربعاء ٢٣٧/٢ .

هـ - وفاته

حينما اتكلم عن موت مروان فليس القصد الاخبار عن موته من حيث قضى نحوه فهذا خبر عادي ، ولكن طريقة الموت وسببه هو ما يدعو إلى شيء من الشرح والتطويل مع مراعاة الدقة والتمحيص وقياس ذلك بمقياس العقل والمنطق لكي يعرف بعد ذلك صدق الخبر من كذبه وحسن القول من عواره وصحيح الكلام من لفظه . خاصة عندما يجد الباحث نفسه يسير بين أخبار متناقضة لاتكاد تستقر به على شاطئ مما يتطلب منه أن يدرس تلك الاخبار دراسة واعية وصولا إلى الحقيقة البيضاء والرأى الأبلج .

والمعروف والمشهور أن مروان بن ابي حفصة مات سنة ١٨٢ هـ في خلافة هارون الرشيد وهذا هو الرأى الذي اتفق عليه كثير من النقاد والكتاب والأدباء الذين كتبوا عن مروان ما عدا الدكتور طه الحاجري الذي خالف ذلك فروى أنه (عاش عمرا غير قصير فقد عمر إلى أيام محمد بن زبيدة) (١) وكما روى رجل يقال له أحمد بن موسى بن حمزة كلاما شبيها بهذا حيث قال (رأيت مروان بن ابي حفصة أيام محمد بن زبيدة في دار الخلافة وهو شيخ كبير) (٢) ولم يرو الخبر سواه ولم يورده سوى صاحب الأغاني الذي ينقل الخبر ويترك مهمة تصديقه وتكذيبه للقارئ خاصة وأنه أورد عدة روايات متناقضة عن طريقة موت مروان وتاريخها .

وهذان الرأيان مخالفان لما ذهب إليه أكثر النقاد والأدباء . بل إن منهم من قال أنه توفي سنة ١٨١ (٣) .

وأمام تعدد الروايات حول موت مروان لا بد أن نتساءل قائلين : كيف مات مروان ؟ وليس المراد سنة موته ولكن المراد طريقة الموت . وهذا تساؤل يجيب عليه أبو الفرج في الخبر التالي والذي يحوم حوله من الشك والريب مالا يحتمل على تصديقه والجزم به .

(١) البخلاء : ٣٥١ شروح وتعليقات .

(٢) الأغاني ٤٣/٩ وما من شك في بطلان الروايتين لأن الأخذ بهما يعني أن مروان عاش حتى سنة ١٩٣ وهى السنة التي مات فيها الرشيد وتولى فيها الأمين وهو فارق في العمر كبير لا يحمل على الصحة وقال صاحب تاريخ بغداد ١٤٤/١٣ نقلا عن إدريس بن سليمان بن ابي حفصة (إن مروان توفي في إحدى ثمانين ومائة) ١١٤/١٣ تاريخ بغداد .

(٣) المرجع السابق (تاريخ بغداد ١٤٤/١٣) تاريخ آداب اللغة (لزبدان) ٨٥/٣ ، وفي معجم الشعراء قال المزياني (يقال أنه جاوز الثمانين) ص ٣٩٦ . فيكون مات في عهد الأمين . وليس ذلك صحيحا .

يقول ابو الفرج نقلا عن علي بن محمد النوفلي نقلا عن صالح بن عطية الأضجم

قال :

لما قال مروان :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثه الأعمام

لزمته وعاهدت الله أن اغتاله . فأقتله في أي وقت أمكنتني ذلك ، ومازلت الاطفه وأبره وأكتب أشعاره حتى خصصت به فأنس بي جدا وعرفت ذلك بنو حفصة جميعا فانسوا بي ولم أزل أطلب له غرة حتى مرض من حمى أصابته فلم أزل اظهر الجزع عليه والألزمه والأطفه حتى خلي البيت يوما فوثبت عليه فأخذت بحلقه فما فارقه حتى مات فخرجت وتركته فخرج إليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتا وارفعت الصبيحة فحضرت وتباكيت واطهرت الجزع عليه حتى دفن وما فظن بما فعلت أحد ولا اتهمنى به (١) . هذا ما رواه ابو الفرج ورواه عنه كثير من الناس ولايعنى ذلك أن ابا الفرج يعتقد صحة الخبر . كل ما يهيمه الرواية فقط لأن الخبر ذو مساس بمروان وغاية ابي الفرج هي جمع أكبر قدر ممكن من اخبار الشخص وتسجيلها بغض النظر عن صحتها وكذبها .

والمتتبع لرواية الخبر لا بد أن تساوره شكوك ويخالجه ارتياب في صحة الحادثة ونقلها عن لسان بطلها يوحى بكذبه إن كان رواها هو وربما يكون شخصية لا وجود لها وحيك الخبر عن لسانها للليل من مروان لكونه صنعة العباسيين ، واثارة الشكوك حول موته تكون جزءاً لا يتجزأ من ملحمة الصراع بين العلويين والعباسيين .

وهنا يكون كذب الرواية أشد وضوحاً للأسباب التالية :

١ - أن هذا الشخص (صالح بن الأضجم) قد لازم مروان كما جاء في الخبر ولأطفه حتى أنس به وتعاضمت الصداقة وتوطدت وقويت عروق المودة واشتدت حتى أصبح الرجل قطعة من حياة مروان وحتى وصل به الأمر إلى أن أصبح راوياً لأخباره ونوادره وأشعاره ، ولكن من قرأ عن مروان شيئاً وترنم من شعره بشيء لن يقع على اسم ذلك الرجل ولن يجده كما ادعى راوياً وكاتباً لأخباره وأشعاره اللهم إلا في هذا الخبر وأنا لم أجد حتى قصيدة واحدة أو بيتاً واحداً يلقي ضوءاً على هذه الشخصية الغامضة . ثم كيف يأنس مروان بشخص لا يعرفه ولا يعرف شيئاً عن اتجاهه الفكري

(١) الأغاني ٤٦/٩ .

والسياسي في عصر اشتد فيه ذلك الصراع ؟ كيف يكون ذلك قبل أن يدرس مروان اتجاه ذلك الرجل دراسة تحمله على قبوله صديقا أو نفيه واستبعاده خاصة وأن مروان بلغ من العمر عتيا ، وعلمته التجارب ألا ينخدع بسراب الصداقة في عصر إتجهت أنظار عالمه إليه تدرس وتحلل اتجاهه السياسي من خلال مدائحه للعباسيين مما يحتم عليه الاحتراس لنفسه من عاديات الزمن وصروف الدهر وغوائله حيث أصبح رمزا للصراع السياسي بين العباسيين والعلويين في إطاره الأدبي لايدانيه فيه شاعر آخر وهذا ما يجعله مطلوبا من العلويين مما يحتم عليه مزيدا من الحذر .

٢ - أن صالح الأضجم قال إنه هو الذي قتل مروان . ثم أظهر الحزن عليه حينما سمع صياح القوم ونواحهم وبكاءهم عليه . فخرج على القوم وشاركهم في مصيبتهم وهذا يعني أنه قتله غيلة حسب ماورد في الخبر وهو ما اراده بن الأضجم إذ استغل خروج أهله عنه لأنه يريد إخفاء الخبر دون أحد غيره وتعميته على سواه فهل يعقل وهل يصدق الإنسان اللبيب أن يعترف الرجل بذنبه ويقول : قتلت مروان واغتلت مروان ؟ إن كانت له هذه الميزة فما الذي حملة على اخفاء الخبر حينما من الزمن ؟

إنني لم أسمع أن قاتلا قد اعترف بما فعله طوعا واختيارا من أجل المفاخرة والمباهاة . لم أسمع بذلك إلا في معامع القتال وساحات النزال لأن الثأر ثأر عام يتجاوز الحالة الشخصية إلى الحالة العامة التي يتأجج به الصراع بين اتجاهين فيقتل شخص (ما) آخر في إطار هذا الصراع فيكون الدافع لذلك الثأر للقبيلة أو المذهب لا الثأر الشخصي ، ولأعتقد أن لمن نسب الخبر إليه وهو صالح الأضجم أي مصلحة عامة في إطار الصراع السياسي لكي نقول أنه قتل مروان إنتصارا للعلويين لأن ما أثر عن صالح الأضجم أنه كان ذا منزلة كبيرة لدى العباسيين وتولى بعض أعمالهم في عصر المأمون (١) .

ثم لو حاولنا الإفتراض أن صالح قد خدع مروان وأهله بصدفته لهم فهل من المعقول أن يثق أهل مروان بهذا الشخص الغريب الذي طرأ على حياة مروان بحيث يخرجون عن مريضهم (مروان) وهو مريض بالحمى يغالb الموت والموت يغالبه وينتزع نفسه انتزاعا ،

(١) راجع في ذلك هجاء دعبل الخزاعي لصالح بن الأضجم في شعر دعبل ص ١٨٦ والأغاني ٤٦/١٨ ولو كان صالح علويا لما هجاه دعبل إذ المشهور عن دعبل أنه (علوي) بدليل هجائه للمتصم بقوله :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم يأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة خيار إذا عدوا وثامنهم كلب

ويتركون ابن الأضجم عنده وهو رجل غريب عليه ثم يأتون إليه فيجدونه ميتاً ؟ كيف يعقل ان يخرجوا عنه ؟ ولو فرضنا صحة ذلك كيف صدقت عائلة مروان أنه مات حتف أنفه فلم يتطرق إلى ابن الأضجم شك ولم تحم حوله الشبهات بسبب ملازمته لمروان قبل موته واختفائه بعد ذلك وظهوره فيما بعد ؟ ووجود آثار الخنق بادية علي وجه مروان . الخبر لم يذكر شيئاً عن ذلك ومن الطبيعي ألا ينتقص بطل الحادثه نفسه بتطرق الشك إليه ودلل على ذلك بقوله « ولأأتهمني به أحد » .

ولكن يجب أن يتساءل كل انسان لا يقبل أمراً ولا يصدقه قبل أن يزنه بموازين العقل والمنطق فيقول : إذا كان القتل خنقاً فأين آثار الخنق ؟ هل اختفت تلك الآثار ؟ وإن كانت باقيه فكيف لم يرها ذوو مروان ؟ إنهم والحالة تلك أغبياء .

٣- إذا صحت قصة قتل مروان .. فأبي فائدة في اعتراف ابن الأضجم بقتله ؟ هل قتله في ساحة الوغى ومغمعة القتال ؟ ثم هل قتل عنتره بن شداد ؟ فيكون من حقه أن يفاخر . إنه قتل اعزلاً مريضاً كبيراً في سنه طريقاً على فراشه وهذا يلحق بابن الأضجم حينما يعترف بقتل مروان عاراً وشاراً يسيء إليه وإلى قومه لأن العرب تعيب قتل الاعزل فكيف إذا كان مريضاً . إن قتل مروان علي تلك الصورة لا يدل على شجاعة وقوة وإنما يدل على الجبن والخوف فكيف لو التقى بمروان سليمان معافي ومروان معروف عنه الخوف والذل . لا شك أن ابن الأضجم سيكون أكثر جبناً وذعراً وخوفاً ، وإن كان يريد الثأر من مروان والتشفي بقتله اطفاء لنار حقد تشتعل في قلبه فما هي فائدة الاعتراف ؟ إن التشفي بالقتل يحصل به اطمئنان قلب القاتل دون اعتراف أما الاعتراف بمسمع من الملأ ومرأى فقد يبعث المخاوف والقلق في قلب الفاعل لأن المقتول . لن يكون معدوم صيحة ومقطوع عاقله تعجز عن الأخذ بالثأر وغسل العار .

٤- روى صاحب المصون في الادب الخبر الآتي عن الغزي وهو رجل كثيراً ما نقل عنه ابو الفرج اخبار مروان مما يجعل روايته صحيحة . روى الخبر التالي حيث قال (حضر مروان بن ابي حفصه فقبل له قل لا إله إلا الله فقال :

تبقي قوافي الشعر ما بقيت	والشعر منسي إذا نسيت
لم يحظ في الشعر كما حظيت	جمع من الناس ولا شتيت
كم ملك حلتته كسيت	ومن سرير ملكه ادنيت
إن غبت عن حضرته دعيت	وإن حضرت بابه حيت

ثم خرجت نفسه (١)

فهذا يعني أن مروان مات في محضر من جميع أهله ويؤكد ذلك أن الشعر مما صحت نسبته إليه وفي هذه ابطل لقصة القتل المزعومة من أساسها .

٥ - نحن لانشك في أن هناك شخصاً اسمه صالح بن الأضجم إذ أن صاحب الأغاني قد ذكر هذا الإسم في أكثر من موضع (٢) . إلا أن هذا لا يحملنا على تصديق الحادثة بل إن الحادثة حادثة مكذوبة مختلقة موهلة في الشك والارتياب من أجل أن يقع القارئ في الفخ ويصدق ما يقال فيقع في سوء ظنه . كما أن العلويين يهدفون من وراء ذلك تحذير كل شاعر يتحامل عليهم ويتناول إليهم بلسان يثلبهم ويعيبهم بأنه سوف يترصدون به الدوائر كما ترصدوا بمروان هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يهدف العلويون بذلك إلى الإساءة إلى مناوئتهم من الشعراء والأدياء وسواهم من أجناس الناس المعادين لهم ولن يسىء إلى هؤلاء شئء كاختلاف قصة قتل واغتيال .

ثم إن رواية القصة على لسان «ابن الأضجم» لا يعنى رضاه بها . وقبوله لها وإنما

(١) المصون في الأدب ١٦٩ .

(٢) الأغاني ٤٦٠٣٧/١٨ وما رواه صاحب الأغاني الخبر التالي قال ابو خالد الأسلمي :

عرضت لدعبل حاجة إلى صالح بن عطية الأضجم فقصر عنها ولم يبلغ ما أحبه فدعبل فيها فقال يهجوه :

أحسن ما في صالح وجهه فقس على الغائب بالشاهد
تأملت عيني له خلقة تدعو إلى تزنيه الوالد

الأغاني ٣٧/١٧ وفي الأغاني ٤٦/١٨ كان صالح بن عطية الأضجم من أبناء الدعوة ، وكان من أقبح الناس وجهها وكان ينزل واسطاً فقال فيه دعبل (وأنتد البيتين السابقين) وفي الأغاني ٣١/٥ ذكر الأصفهاني خبراً رواه صالح الأضجم عن اسحق الموصلي . وفي شعر دعبل ص ٤٠٧ (الحاشية) ترجم له الدكتور عبد الكريم الاشر فقال (صالح بن عطية الأضجم من وجوه كتاب العصر وكان ينزل واسطاً ولاء المأمون مصر علي يد كاتبه احمد بن ابي خالد ، وكان صالح جارا له ولا إبراهيم الموصلي ، ولم يصل إلينا من شعر رد دعبل فيه إلا الهجاء لأنه قصده في حاجه فقصر فيها وكان صالح من أقبح الناس وجهها فولع دعبل بذكره فصحف اسمه إلى الأضجم والاقصم والضجم عرج في الفم والشفه والعتق . ولد دعبل يهجوه ويخاطب المعتصم :

قل للأمين أمين آل محمد قول امرئ شفق عليه محام
أنكرت أن تفتن عنك صنيعة في صالح بن عطية الحجام
ليس الصنائع عنده بصنائع لكنهن طوائف الاسلام
اضرب به نحر العدو فإنه جيش من الطاعون والبرسام

انظر شعر دعبل ص ١٨٦ والأغاني ٤٦/١٨ .

هي رويت علي لسانه زيادة في إيهام الناس وتضليلهم وليس أمر الإنتحال والكذب والتدجيل عن ساحة الأدب بغريب إذ طالما حفلت كتب الأدب بمثل هذا .

كما يهدف العلويون من وراء ذلك إلى الانتقام من مروان تشفيا منه وإطفاء لنار غل تحرف صدورهم وتلهبها كالمراجل وتملؤها حقدا على رجل ألهم منه تعريضه بهم . فأرادوا الانتقام ، ولكنه لم يتيسر إلا عن طريق الزعم والافتراء .

والذي يؤلم النفس ويحز في القلب ويسيء إلى الأدب هو أن كثيرا من الأدباء الذين يشار إليهم بالبنان جروا خلف رواية القتل معتقدين صحتها وثبوتها ومع ذلك لم يحاول هؤلاء أو واحد منهم أن يناقش ويدقق ويحقق قبل القبول والأخذ والإعتماد فطالما شوهت الحقائق والبست الأباطيل برود الصدق والحقيقة تنم عن طهارة ظاهرها وإن خبت ونجس باطنها .

وكل ما عمله من تسميه منصفًا وإن لم يكن كذلك من هؤلاء النقاد هو أنه نقل قصة القتل بإيجاز وأشار إليها بعبارة توحى بشكه وارتيابه كأن يقول « ويقال » ومع ذلك لم يكمل الطريق فيحقق ويدقق حتى يصل إلى نتيجة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، وإنما اكتفي من الغنيمة بالإياب فرضي كل ناقد لنفسه منزلة الشك مع الراحة ولم يكلفها ويجشمها طريق الحق والصراحة .

فظه الحاجري يقول (إذا صح ما يرويه ابو الفرج عن صالح بن عطية الأضجم فإن المذهب الذي رفع من قدره (أي مروان) هو الذي قتله وقضى عليه (١) ويقول شوقي ضيف (ويقال أنه مات مقتولا بيد شعبي إنتقاما للعلويين)(٢) .

أما عمر فروخ فأشار إلى قتله إشارة مصدق حيث قال (وفي ربيع الأول سنة ١٨٢ هـ اغتيل مروان بن ابي حفصة (ولكنه شك في سبب القتل) فقال (قيل لأنه تعرض للعلويين بشيء من الهجاء)(٣) .

أما نجيب البهتيتي فروى القصة مختصرة عن الأغاني دون أن تبنى عبارته عن شك في رواية القتل . بل إن التصديق يبدو عليه حيث يقول (حتى ليقول أحدهم ويدعي صالح بن عطية الأضجم : لما قال مروان أنى يكون ... ؟ البيت لزمته وعاهدت الله أن

(١) البخلاء (تعليقات وشروح) ص ٣٥٠ .

(٢) العصر العباسي الأول ص ٣٠١ .

(٣) تاريخ الأدب العربي (الأعصر العباسية) ١٣٢/٢ .

أغتاله فأقتله) ثم يقول (وقد كان فضل يندس إليه ويتقرب منه ويلازمه حتى سنحت له فرصة أخذه فخنقه) (١) .

أما د/ طه حسين فروى القصة بحذافيرها عن الأغاني رواية الواثق المصدق . وليس غريبا أن يقع في هذا الوهم إذ طالما وقع فيه مرارا خاصة فيما يتعلق بمروان (٢) .

كما ذهب إلى ذلك الدكتور / عبد العزيز الكفراوي حينما قال عن مروان (ومازال يتعقبه بعض الشيعة حتى اغتاله) (٣) .

ولكن رغم هذا يجب أن أثبت حقيقة مهمة وهي أن ناقدا قديما يعتبر بحق أشهر من كتب عن مروان بغزارة وصدق بين الكتاب القدماء وهو الخطيب البغدادي الذي قال عن مروان (إنه مات) ولم يذكر قصة القتل . وفي إعتقادي أنه لم يكن جاهلا برواية قتله أو لم يسمع بها ولكنه لم يصدقها ولم يقتنع بها ولهذا أهملها . ويقوى إعتقادي أن الخطيب البغدادي أسهب وأطال في الحديث عن مروان وأفاض إفاضة ناقد مهتم به غايته وهدفه أن يصل إلى حقائق مهمة ووقائع صحيحة ، وهو ما لم ألحظه عند كثير من النقاد الأقدمين والمحدثين الذين تطرقوا للكتابة عن مروان في إيجاز شديد يتجه في الغالب إلى شعره ويهمل حياته .

وخلاصة القول أقول إن مروان لم يُقتل ، ولم يغتاله أحد ، وإن مانسج حول هذا الموضوع كذب وافتراء واختلاق وأن مروان قضى نحبه حتف أنفه وعلى فراشه وقبر في مقبره نصر بن مالك ببغداد سنة ١٨٢ هـ (٤) . رحمه الله ومما يؤيد صحة وفاة مروان لاقتله شخصية صالح بن عطية الأضجم ومكانته في الدولة العباسية حيث تولي بعض الأعمال للمأمون ومن هنا فهو شخصية عباسية الولاء . ولن نقدم علي مثل هذا العمل ولو فرضنا أنه عباسي في ظاهره علوي في باطنه وهو ما قد يدعوه لقتل مروان إلا أننا لم نسمع أنه عوقب من قبل العباسيين علي فعله هذا بدليل قوة علاقته بالمأمون لأن عمله هذا لو صح لكان دليلا كافيا علي أنه علوي الهوى عباسي اللسان وهذا العمل الذي قام

(١) تاريخ الشعر العربي ص ٤٧٥ .

(٢) حديث الأربعاء ٢٣٨/٢ .

(٣) تاريخ الشعر العربي ٢٧/٢ .

(٤) تاريخ بغداد ١٤٤/١٣ معجم الشعراء ص ٣٩٦

به وهو مقتل مروان وادعائه في كل مجلس ومحفل سيعطي مبرراً كافياً للانتقام منه لذا فإن استمرار علاقته بالمأمون تعني استمرار علاقته بمن قبله مثل الرشيد (الذي مات مروان في عهده) والأمين من بعده فكيف يغفل هؤلاء الخلفاء الثلاثة عن معاقبة صالح الأضجم.

إن هذه العلاقة تنسف قصة القتل من أساسها وزيادة في التثبيت فيما اذهب إليه من نفي قصة القتل المزعومة أن الدكتور عبد الكريم الأشتري حينما قام بتحقيق شعر دعبل وتكلم عن العلاقة بين دعبل الخزاعي وصالح بن عطية الأضجم تحدث عن مروان ابن أبي حفصة ص ٤٣٥ (في ملحق تعريف بالأعلام) حيث قال عنه (مات في خلافة الرشيد سنة ١٨٢ وقد جاوز الثمانين (١). ولو كان لصالح بن الأضجم علاقة بنهاية مروان لتحدث عنها الدكتور الأشتري وقد ذهب آخرون ممن كتبوا عن مروان إلى القول أنه عاش إلى عصر المأمون مستأنسين في ذلك بثلاث أبيات قالها مروان مهنتاً عمرو بن مسعدة حينما شفي من مرضه وهي :

صح الجسم يا عمرو لك التمحيص والأجر
ولله علينا الحزم ود والمنة والشكر
فقد كان شكاً شوقاً إليك النهي والأمر

(١) شعر دعبل (ملحق تعريف بالأعلام) ص ٤٣٥ وقد أخطأ الأشتري لأنه ذكر أنه من مواليد ١٠٥ في نفس الترجمة وعلي هذا فعمره ٧٧ سنة وفي معجم الشعراء ٣٩٦ جاءت رواية هي ويقال أنه جاوز الثمانين وهذا يعني أنه لم يمض قبل سنة ١٨٦ هـ . (وربما أن الذي أوقع في هذا الابهام ما جاء في تاريخ الطبري ٦٣٣/١٠ طبعة ليدن (١٨٧٩م) من أن مروان بن أبي حفصة مدح هارون الرشيد وقد كان الفداء بين المسلمين الروم سنة ١٨٩ فلم يبق في أرض الروم أسيراً إلا فودي به . فقال :

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها معجاس ما فيها حميم يزورها
علي حين أعيى المسلمين فكأكها وقالوا سجون المشركين قبورها

وليس هناك ما يمنع وقوع المرزباني على هذا في تاريخ الطبري لأنه بعده في العصر إذ مات الطبري سنة ٣١٠ ومات المرزباني سنة ٣٨٤ إلا أن رواية المرزباني تحتل الشك لأنه يقول « ويقال » إذ لم يكن جازماً . كذلك فإنه أورد سنة وفاة مروان وأرخها بعام ١٨٢ وهذا دليل على إقناعه بها أما روايته الأخرى « ويقال » فلا تملكونه مخبراً يحاول جمع الآراء التي تحوم حول الشخص مهما كان مصدرها تاركاً مهمة التدقيق والتصحيح للقارئ ، وكذلك فإن القصيدة لا تحتل أن تكون عام ١٨٩ هـ إذ أن فكاًك الأسرى حدث بين الرشيد والروم أكثر من مرة والدليل على ذلك أن الرشيد كان يفرضو عاماً ويحج عاماً كما يلاحظ أن مروان قد سبق ومدح الرشيد عندما غزا الصائفة لايه سنة ١٦٥ . راجع شعر مروان ص ٦٠ .

نظرا لأن عمرو بن مسعدة كان وزيرا للمأمون . كما ذهب إلي ذلك الدكتور مصطفى الشكعة حيث قال : (وبالرغم من الفترة القصيرة التي عاشها مروان في عهد بني أمية والفترة الطويلة التي عاشها في عصر بني العباس والتي يذهب البعض بأنها امتدت إلي عهد بني المأمون وليس الرشيد لأنه من المرجح أنه مدح عمرو بن مسعدة وزير المأمون نقول أنه بالرغم من ذلك كله فإن مروان بن ابي حفصة يعتبر نموذجا لشعراء المرحلة المتوسطة من الخضرمين بين الدولتين) (١) . ولم يكن ذلك صحيحا رغم صحة نسبة الأبيات المذكورة أعلاه إلى مروان وذلك لأن الأبيات قيلت في عهد الرشيد حيث أن عمرو بن مسعدة كان أيامها يوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي في أيام الرشيد (٢) .

وفي نهاية هذا البحث أود التأكيد علي أن ما يطل قصة القتل المزعوم من أساسها . علاوة علي الأسباب التي سبق توضيحها . هو أن خبر قصه القتل كان برواية علي ابن محمد النوفلي وهذا الشخص مشكوك فيه لأنه كثيراً ما يروي الأخبار التي تحاول الحط من مكانة مروان الأدبية كما يلاحظ ذلك في روايته عن شراء مروان للقوافي (٣) .



(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٨ .

(٢) الاعلام ٥/٢٦٠ .

(٣) انظر الاغاني ٩/٤٠ وسيأتي تفصيل ذلك في فصل (مروان وشراء القوافي) .

مـروان الشعر

- أ - عصره الأدبي .
ب - بيت الشعر .
ج - شعره (تمهيد) .
د - الأغراض الشعرية .
- ١ - المديح ٢ - الرثاء ٣ - الوصف
٤ - الفخر ٥ - الغزل ٦ - الهجاء
- هـ - العوامل المؤثرة في شعره
- ١ - البيئه
٢ - المناخ السياسي
٣ - الصفات الشخصية .
٤ - الثقافة النقدية
- و - مروان في ميزان النقد
ز - مروان وتنقيح الشعر
ح - مروان وشراء القوافي
ط - الخصائص الفنية
- ١ - بساطة الصورة الشعرية
٢ - محاكاة الأقدمين
٣ - الصنعة والطبع .
٤ - المذهب الواقعي .
٥ - طول النفس واعتماد البحور الطويلة .
٦ - الإكثار من وصف الناقة .
ي - المستندرك على شعر مروان .

أ - عصره الأدبي

كم ترددت قبل أن اكتب هذا الفصل وكم تساءلت هل اكتب عنه أم لا؟ ذلك أن حديثي عن العصر الأدبي الذي عاش فيه مروان فيه خروج عن طبيعة شاعرنا والروح الشعرية التي سيطرت عليه ولهذا فإن حديثي عن عصره الزمني يبدو غريباً بالنسبة له من الناحية الأدبية ولعلها المرة الأولى في تاريخ شاعر « ما » يكون عصره غريباً عنه بعيداً منه إلا في جزء منه يسير .

لقد كان مروان شاعراً قديماً المنزوع والفكر والروح وانطبعت في ذهنه الحياة القديمة بكل ما فيها من تقاليد وعادات تمثل البساطة والخشونة والأصالة ، وبما أن الشعر تعبير وإيحاء عما في أعماق الشاعر من عواطف وخلجات وجدانية فإن شعر مروان قد جاء ناطقاً ومتحدثاً عن حياته ومصوراً أعادته وتقاليدته ومنهجه في الحياة الذي لا يختلف عن الحياة الجاهلية بشيء في روحه وسماته إلا لماماً .

لهذا فإن مروان وإن عاش عمره الزمني بين نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي الأول وعد من شعراء الدولة العباسية فإننا لانعتبره عباسياً إلا وقتاً وزمناً أما روح شعره فجاهلية ، وكم كان جديراً بنا أن نتخطى حدود الزمن ونجعله في عداد الجاهليين فهو بهم أشبه وإليهم أقرب وبهم أمثل ، وكان هذا سر ترددي أكثر من مرة عن الكتابة عن عصر مروان الأدبي الذي عاش مروان فيه بجسده لابروحه الشعرية .

وإن كان لي مسوغ يبيح لي الكتابة عن تلك الناحية فما هو إلا وجود تيار محافظ على النزعة العربية القديمة في الشعر في وقت انقلبت فيه جميع المفاهيم السياسية والاجتماعية والأدبية وكان رئيس هذا التيار المحافظ شاعرنا مروان بلا منازع ، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن الحديث عن العصر سيوضح الحقيقة التي أريد الوصول إليها وهي أن الناس يبيئاتهم أشبه منهم بأبائهم ، ولهذا كان مروان يمت للقدماء أكثر مما يمت للمحدثين في العصر العباسي من ناحية الحياة واللغة ولولا ما في شعره من معان إسلامية لحسبه أي قارئ لشعره شاعراً جاهلياً إذا استثنينا الإتجاه السياسي في شعره .

عاش مروان جزءاً من حياته في العصر الأموي منذ سنة ١٠٥ - ١٣٢ . أي (سبعا وعشرين سنة) ، وكانت الحياة في جميع اتجاهاتها عربية أصيلة سواء أكانت سياسية

أو اجتماعية ومن الطبيعي أن تكون الحياة الأدبية معبرة عن ذلك ، ولهذا فإنها عربية الأصل والمنشأ طوال فترة الحكم الأموي حتي سنة ١٣٢ هـ ، وقد كان لها الأثر الكبير في ترسيخ الأصالة العربية في الشعر التي تقوم على الاحتفال بألفاظ الأقدمين ومعانيهم وأساليبهم ومضمون القصيدة عندهم وترسيخ ذلك في ذهن مروان وفكره مما رسم اتجاهه في العصر العباسي بعد ذلك .

أما في العصر العباسي فقد تغيرت الحياة ، وانقلبت جميع المفاهيم والموازن السياسية والاجتماعية وحتى الدينية ففي مجال السياسة أصبح الوزراء فرسا بعد أن كانوا عربا عند كثير من الخلفاء ، وفي مجال الاجتماع رقت الحياة ونعمت بعد خشونة فسرى البذخ في أوصال الحياة العباسية من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن ، وفي المجال الديني كثرت الفرق والطوائف وتعددت الملل والنحل فوجدت المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة وغيرها من الطوائف التي وإن كان منشؤها في العصر الأموي إلا انها استفحلت واشتد خطرهما في العصر العباسي .

ونتيجة لذلك كان لابد من أن تنقلب المفاهيم في الحياة الأدبية لانها تسجيل حي لوقائع الحياة السياسية والاجتماعية على وجه الخصوص فالشعر ترجمان الأمة في ذلك الوقت الذي يصور آمالها وآلامها ، ويعلى من شأنها كما هو شأن الصحف والوسائل الإعلامية في العصر الحاضر . فأني صورة حدثت في الشعر وأي تغيير ؟

لقد حدثت الثورة في كل شيء بالنسبة للشعر في المضمون والشكل والصور والأخيلة وغيرها من مقومات النص الأدبي مما حدا بكثير من الأدباء والنقاد إلى أن يسموا هذا العصر بعصر المولدين .

فبالنسبة للأغراض (ظل العباسيون ينظمون في الموضوعات القديمة من المدح وغير المديح مما كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون وبذلك ابقوا الشعر العربي على شخصيته الموروثة ، ومضوا يديمونها دعما بما يلائم بينها وبين حياتهم العقلية الخصبّة وأذواقهم المتحضرة المرهفة فإذا هي تتجدد من جميع أطرافها تجدداً لا يقوم على التفاضل بين صورة هذه الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة بل يقوم على التواصل الوثيق) (١) كما يقول شوقي ضيف . هذا بالنسبة للأغراض القديمة . فماذا بالنسبة للأغراض الجديدة ؟

يقول عمر فروخ (دخل في الأدب العربي فنون وأغراض ومعان لم يألفها الأدب من

(١) العصر العباسي الاول ١٥٩ .

قبل كالغزل المذكر والخمريات والتوفر على الأوصاف الحضرية واهمال العصبية البدوية ثم زالت دولة الجمل والطلل وقام على انقاضها دولة الرياض والحسان وزالت من الشعر المطبوع بالطابع الجديد آثار التقليد للأقدمين والاحترام لهم (١) ، وبالنسبة للأسلوب يقول (دخل عليه شيء من الضعف في معرفة خصائص الألفاظ وفي التركيب أيضا ولكنه اكتسب رقة في التعبير ودخل عليه التكلف بالإكثار من الصناعة) (٢) وأقول أيضا لقد دخلت عليه ألفاظ فارسية ويونانية ورومية وغيرها نتيجة الإختلاط ، وقرض طائفة من الموالي الشعر العربي ومن ذلك قول ابي نواس :

لما هوى بين غياض الأسد وصار في قبض الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد

وأب سرد كلمة فارسية معناها « الماء »

وفي الشكل والمضمون ثار كثير من الشعراء على الطريقة العربية في ابتداء القصائد فحينما كان العربي يبدأ قصيدته بالغزل ووصف الأطلال ومناجاة الناقة جاء شعراء العصر العباسي يعييون عليهم اتجاههم الذي ارتضوه لانفسهم ، حيث يقول ابو نواس .

صفة الطول بلاغة القدم فاجعل صفاتك في ابنة الكرم
وقوله :

عاج الشقي على رسم يسائله وعجت أسأل عن خماره البلد
يكي على طلل الماضين من أسد لادر درك قل لي من بنو أسد ؟

كذلك اتجه المحدثون إلى الأوزان القصيرة وإلى نظم المقطعات والأبيات المعدودة في أغراض محدودة كما أحيوا القوافي التي كانت إلى ذلك الحين مهجورة أو شبه مهجورة . كما نظموا الشعر الفلسفي والتأملي والتعليمي والتاريخي والقصصي كما هو الحال عند صالح بن عبد القدوس وابان بن عبد الحميد الذي نظم كليله ودمنة شعرا . كانت تلك أهم مظاهر التغيير في الشعر العباسي حيث انقسم الشعراء أمام تلك التغييرات إلى ثلاث طوائف هي :

(٢) تاريخ الأدب العربي (الأعصر العباسية ٢ / ٤٠) .

(٣) المرجع السابق ٢ / ٤٠ .

(الأولى) طائفة محافظة لم تززعها رياح التغيير وعواطف التبدل التي عصفت بغيرها وإنما ظلت محافظة على قدمها مقتدية بأعلامها القدماء في العصرين الجاهلي والإسلامي فنهجت نهجهم في شعرهم في الأسلوب والمعاني والشكل والمضمون ويأتي في قمة هؤلاء شاعرنا مروان حيث قال عنه الدكتور شوقي ضيف (ولم يتضح عنده التأثر بالحضارة العباسية) (١) والدكتور عمر فروخ حيث يقول عنه (شاعر مكثر من الشعراء المجتهدين والفحول المتقدمين المحككين للشعر على مذهب زهير بن أبي سلمى) (٢) ويقول عنه نجيب البهيتي (مروان استمرار لمذهب الأوائل واتصال للتقاليد الشعرية يقوم هو ومدرسته في قلب عصر جديد) (٣).

(الثانية) : طائفته تتأرجح بين المحافظة من جهة والتجديد من جهة أخرى فبحكم نشأتها القديمة لم تستطع قطع الصلة مع القديم وإنما تعلقت به وأحبته وشغفت به ، ولكن ذلك لم يمنع زعماءها من التأثر بالجديد والسير في ركابه ومن هذه المدرسة بشار بن برد .

(الثالثة) : طائفة مجددة ثارت على كل شيء قديم ونبذته وحقرته وتعلقت بكل جديد نشأ مع الحضارة العباسية المترفة كما أخذ أصحابها على عاتقهم مسؤولية نشر المذهب الجديد بين الشعراء فخالقوا عمود الشعر العربي في الشكل والمضمون وطريقة البناء الفني للقصيدة وفي الأسلوب ، ولم يعد يربطهم بالقديم صلة سوى وحدة الروي والقافية وزعيم تلك المدرسة أبو نواس .

وجاء دور النقاد فانقسموا على انفسهم كالشعراء إلى ثلاث طوائف طائفة تعصبت للقديم كابن الأعرابي ، وأبي عمرو بن العلاء ، وإسحق الموصلي ، وطائفة أخرى وقفت وسطا بين القديم والحديث تحمد من كل اتجاه جيده وحسنه ، وتذم رديئه وقبيحه دون النظر إلى قدمه وحدائثه كالجاحظ وابن قتيبة والأصمعي ، وطائفة ثالثة تعصبت للحديث وابتلّت كل ما هو قديم كخلف الأحمر وقدامه بن جعفر وسواهما ، وكان تعدد طوائف النقاد نتيجة حتمية لتعدد طوائف الشعراء بحسب التعصب للقديم أو الاعتدال أو الإفراط في الجديد .

ومن هنا نجد أن عصر الأدب هذا لا يسم مروان بميسمه أو يطبعه بطابعه إلا من حيث

(١) العصر العباسي الأول ص ٣٠١ .

(٢) تاريخ الأدب العربي (الأعصر العباسية) ١٣٢/٢ .

(٣) تاريخ الشعر العربي ص ٤٧٢ .

كونه زعيم المدرسة المحافظة فقط. أما ماعداه فإنه كان بعيدا عن روح العصر وثقافته إذ نجده جاهليا في قصائده مغرقا في أقدميته فإذا كان المحدثون الشعراء يقولون « لا تطل ولا جمل » فإنه يقول به ويبدأ قصائده بالغزل وبكاء الطلل ووصف الناقة والجمل وحينما تنكر الشعراء العباسيون لألفاظ القدماء في أساليبهم ومالوا عن الجزالة الى الرقة والنعومة واكثروا من الألفاظ الأعجمية ، وشحنوا قصائدهم بغريب البديع من جناس وطباق وغيرها من المحسنات البديعية تكلفا لا طبعاً وتعسفا لافطرة فإن مروان ظل المحافظ على تراث القدماء فبعثه حيا في قصائده إذ كانت فيها جزالة النابغة وعروبة لبيد ورضانة الأعشى وصخب واتقان امرئ القيس ، ولم يحاول استعمال لفظ أعجمي في أشعاره لأنه متعصب للغة من ناحية ولأنه عاش في بيئة لا تعرف سوى العربية الفصحى لهجة ومنطقا كما حفلت اشعاره بصور بيانية رائعة من تشبيه واستعارة ومجاز أما المحسنات البديعية فلم يتهالك عليها ، ولئن وردت في أشعاره فإنما هي عفو لا تكلف فيها ثم انها من الندرة بحيث لا يلتفت إليها ، ولا أخال المحسنات البديعية إلا نتاج الثقافة الراقية التي شاعت في العصر العباسي كما انها تناسب الأغراض الرقيقة كالغزل ووصف الخمر والطبيعة مما لا يتفق وطبع مروان الذي عشق القوة وألف الجزالة وصاهر الفخامة .

كما اننا لانرى مروان ينظم المقطعات الصغيرة إلا اماما أما بقية قصائده فكانت من الطول بحيث تتجاوز مائة بيت وكانه ابى إلا أن يجاري القدماء في معلقاتهم ومذباتهم ، وهذا يدل على طول نفسه الشعري وهو طبع لا يتأتى من الرقة والنعومة التي ألفها شعراء الدولة العباسية وارتقوا في أحضانها إلا نادرا كما هو الحال عند ابن الرومي .

وحينما نظم الشعراء العباسيون على البحور القصيرة كالهزج ومجزوء الرجز وغيرها من البحور القصيرة فإن مروان تجافى عنها إلا اماما لأنه يملك قوة في نفسه تعينه على إدراك شأوه في إطالة القصيدة في نظمها وبحرها فنظم على البحور الطويلة كالبيسيط والطويل والكامل والرجز في حين سلك كثير من الشعراء العباسيين البحور القصيرة لأنها تتلاءم ونفسهم الذي نعمته ورفهته وقصرته الحضارة العباسية الناعمة ، وإن كان قد تطرق إلى البحور القصيرة والمجزوءة على نطاق ضيق من أجل أن يقول للناس إنه لم يتعد عنها ابتعاد العاجز وإنما ابتعاد العارف بها الذي لا يحبذها كما أن ذلك الاتجاه إليها كان مقتصرأ على الوزن فقط ولكنه لم يتجه إلى الغرض أو اللغة أو البلاغة .

لذا نجد أن علماء اللغة العربية الذين يحرصون على سلامتها من اللحن والخطأ قدسوا

مروان على سواه رغم أنه قصر نفسه على غرضي المدح والثناء تقريبا ذلك لأنهم لا ينظرون إلى كثرة النظم وتنوع الأغراض بقدر ما ينظرون إلى سلامته واتفاقه مع عقليتهم الصرفة ، ولهذا تعصب له ابن الأعرابي وقدمه على بشار وأبي أن يدون لأحد بعده وختم به الشعراء (١) كما تعصب له اسحق الموصلي ضد بشار لأنه كان يعشق أشعار القدماء ويفنيها في حين عزف عن أشعار المحدثين ومروان خير من يمثل القدماء كما تعصب له ابو عمر بن العلاء لأنه كان قطب علماء اللغة في عصره فهو يحب القدماء . ويتعصب لهم لسلامة شعرهم وخلوه من اللحن ، ولم يجد في العصر العباسي شاعراً يحاكيهم ويمثلهم سوى مروان في سلامة شعره وجزالته وفخامته . في حين نجد الأصمعي يقدم بشارا على مروان ويقول عن مروان (إنه لم يتجاوز مذهب الأوائل) (٢) وذلك لأن الأصمعي صاحب مذهب وسطي بين المغالين في حب القدماء والمفرطين في حب المحدثين وسيأتي بيان ذلك في (فصل مروان في ميزان النقاد) .

وختاماً أقول : إن مروان شاعر جاهلي في ثياب عباسية ولئن عاش بجسده في زمن العباسيين ، فإن روحه تقدمت عليه واشربت حب القدماء ، ولهذا فإن عصره لا ينطبق عليه إلا بحكم أنه عاش فيه زمنه ولكنه كان بعيداً عنه بروحه ، ولهذا يجب أن نحبه في عداد القدماء بعد أن نتخطى به قيود الزمن وحدوده ، وقدما أخرج النقاد عدي بن زيد من قائمة الشعراء الجاهليين لأنه لا يماثلهم في روحه الشعري وأسلوبه اللغوي .



(١) انظر الأغاني ٤٣ / ٩ .

(٢) انظر الأغاني ٢٥ / ٣ ، الموشح ٢٥١ .

ب - بيت الشعر

كثيراً من الأسر حباها الله بالمجد والشهرة في كثير من أوجه الحياة المتباينة ونواحيها المختلفة ولم يكن ذلك على مستوى الأفراد إذا لبطل السبب وزال العجب ولكن على مستوى الجماعات .

ويبدو أن ميدان الشعر أكثر الميادين حظاً في اشتهاار الناس على مستوى الجماعات ويكمن السبب في ذلك ، ويعود إلى العامل الوراثي وأثر البيعة للذين يحيطان بالإنسان ويؤثران عليه تأثيراً مباشراً . فالجد في الجاه مثلاً شرف قد يصل إليه فرد من الأسرة ولا يعني ذلك أن يصل إليه جميع أفراد الأسرة لأنه لا يعتمد على الوراثة وإنما يعتمد على صفات معنوية تبرز الانسان في مظهر الرجولة الكاملة التي تؤهله لكل مجد وشرف . أما ميدان الشعر فيكفي العامل الوراثي والبيئة الأدبية أكثر وضوحاً إلا أن العامل الوراثي قد يظهر أثره في أسر ويختفي في أسر أخرى .

ولو انعمنا النظر وسرحنا الفكر عبر أطوار أدبنا العربي لوجدنا أن هناك بيوتات عدة أشهر كثير من أفرادها بنظم الشعر فهناك بيت زهير بن ابي سلمى والخنساء وجريير وحسان ابن ثابت .

إلا أن البيت الذي لفت انظار النقاد والأدباء بكثرة شعرائه هو (بيت آل ابي حفصة) الذي اخرج مروان ذلك الشاعر المغرد الذي ملأ الدنيا دويماً وسواه من الشعراء . إذ أن البيوتات السابقة لم تخرج إلا أربعة شعراء على الأكثر . اللهم إلا بيت حسان الذي انجب ستة شعراء وهو أكثر البيوتات إنجاباً للشعراء منذ العصر الجاهلي حتي جاء بيت آل ابي حفصة فانجب عشرة شعراء (١) على نسق واحد .

وليس المجال مجال بحث شعر هؤلاء من ناحية قوته وضعفه بمقدار ما هو محاولة لإلقاء الضوء على هذه الأسرة الشاعرة أو المدرسة الشعرية لأن هذا البيت انجب من الشعراء ما لم ينجمه بيت عربي حتى الآن ، ولست أعدو الحقيقة حيث أقول « إنه مدرسة شعرية قائمة بذاتها » تستحق من الأدباء والدارسين اهتماماً بالغاً باعتبارها ظاهرة فريدة في ادبنا العربي ويستحق العامل الوراثي أن يكون له حضوره الباهر عند دراسة تلك الظاهرة .

(١) عدهم ابن النديم في الفهرست ص ١٦٠ و الثعالبي في لطائف المعارف ٧١ وسوف يأتي تفصيل ذلك .

لقد توارثت هذه الأسرة الشعر كإبراً عن كابر . أخذته الأبناء عن الآباء ، ثم أخذه عنهم الأحفاد ومدحوا الخلفاء ونالوا من اعطياتهم وهباتهم الشيء الكثير ، وهنا يبدو ويظهر أثر العامل الوراثي وهو السبب الأول في تكوين هذه المدرسة فالمعروف أن ابا حفصة « جد الأسرة » كان شاعرا وتزوج من لحناء بنت ميمون من ولد النابغة الجعدي الشاعر المشهور فجاء الشعر هذه الأسرة من طريقين طريق الأب وطريق الأم فلا غرابة أن جرى الشعر في عروق أفرادها جريان الدم في جسم الإنسان ودب ديبب الغداء في الاعضاء .

كما أن تلك الأسرة عاشت في إقليم اليمامة الذي انجب من الشعراء المقآت ممن أثروا أدبنا ولغتنا ورفعوا رأس الأدب العربي عاليا ، وهذا هو أثر البيئة .

يقول المبرد : (كان يقال أعرق قوم في الشعر آل حسان فهم معتدون ستة في نسق كلهم شاعر ، وهم سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام) . حتي جاء آل ابي حفصة وتوارثوا الشعر كإبراً عن كابر وتناسق منهم عشرة على الولاء مذكورون بالشعر (١) وقد عددهم الثعالبي في كتابه لطائف المعارف (٢) وأورد شيئا من أشعارهم وهؤلاء الشعراء هم :

١ - ابو حفصة « جد الأسرة » ومن شعره قوله يوم الدار حينما حوصر عثمان بن عفان وقتل :

وما قلت يوم الدار للقوم صالحوا	أحل لا ولا اخترت الحياة على القتل
ولكنني قد قلت للقوم جادلوا	بأسيا فكم لا يخلصن إلي الكهل (٣)
وقوله : لست على الزحام بالأمر	إني لوراد حياض الشر

معود للكر بعد الكر (٤)

(١) لطائف المعارف : ص ٧٠ .

(٢) امن ص ٧٠ - ٧٤ .

(٣) الأغاني ٩ / ٣٥ ، لطائف المعارف ص ٧٠ / ٧١ والرواية هكذا :

وما قلت يوم الدار للقوم صالحوا	أجل لا ولا اخترت الحياة على القتل
ولكنني قد قلت للقوم ما صنعوا	بأسيا فكم حتى يعود إلي الكهل

(٤) الأغاني ٩ / ٣٥ ، لطائف المعارف ص ٧١ (ياسقاط شطر البيت الأول فجاءت الرواية هكذا

إني لوراد حياض الشر	معاود للكر بعد الكر
---------------------	---------------------

وذكر أنه قالها في موقعة الجمل وقد شهد الموقف مع مروان بن الحكم .

٢ - يحيى بن ابي حفصة وكان يهاجي اللعين المنقري (١) وجريرا : وقال عنه الجاحظ
(وأكثر أهل بيته شعراء وجالا ونساء) (٢) ومن شعره وقوله :

ياليت ياليت لذات الصبا رجعت هيهات ذلك شيء ليس مرتجعا
كم حية ترهب الحيات صولته يحمي بواديه غادرته قطعاً (٣)

٣ - سليمان بن يحيى بن ابي حفصة ومن شعره قوله :

وقائلة ما بال مالك ناقصا وأموال أقوام سواك تزيد
فقلت لها إني أجود بما حوت يداي وبعض القوم ليس يجود (٤)

٤ - مروان بن سليمان بن يحيى بن ابي حفصة (مدار بحثنا هذا) .

٥ - ابو الجنوب بن مروان بن سليمان بن يحيى بن ابي حفصة . ومن شعره يمدح الهادي
ويعرض بالرشيد :

أمير المؤمنين اليوم موسى وانت غدا أمير المؤمنين
سنختار الخلافة بعد موسى وإن رغمت انوف الحاسدين
رأيت أباك أورثها بنيه وانت كذلك تورثها البنينا (٥)

٦ - مروان بن ابي الجنوب بن مروان بن يحيى بن ابي حفصة ويسمى « مروان الأصغر »
ويكنى (أبا السمط) ويلقب (غبار العسكر) (٦) قال للمأمون :

ولو علمت فوق الخلافة غاية تنال بمجد في الحياة لنالها (٧)

(١) العمدة ٢ / ٣٠٧ واللعين المنقري هو منازل بن ربيعة ويكنى « بابي أكيدر » وقد أشتهر اللعين بهجائه للاضياف حيث يقول :

وأبفض الضيف ما بي جل مأكله إلا تنفجه حولي إذا قعدا
مازال ينفج كتفيه وحبوته حتي أقول لعل الضيق قد ولدا

(٢) العمدة ٢ / ٣٠٧ .

(٣) لطائف المعارف ص ٧١ وانظر اشعاره في الأغاني ٩ / ٣٧ ، وفي مجلة العرب ١ / ٦٨٣ اشعار ليحيى نسبها حمد الجاسر
(خطأ) لمروان .

(٤) لطائف المعارف ص ٧١ . (٥) المصدر السابق ص ٧٢ .

(٦) ترجم له المرزباني في معجم الشعراء ص ٣٩٩ وسمي (غبار العسكر) لقوله :

لما سئلت عن المشيب أجبتهم هذا غبار من غبار العسكر

(٧) لطائف المعارف ص ٧ .

وقوله للمعتصم (١) :

لما دخلت على معصوم أمته خليفة الله أدناني وأغناني
مثل العطايا التي اعطى ابوه أبي وجده المصطفى المهدي اعطاني (٢)

٧ - يحيى بن مروان بن ابي الجنوب بن مروان بن سليمان بن يحيى بن ابي حفصة وانشد له
الجاحظ :

قل للألى جعلوني نصب أعينهم لا تجعلوني من أغراضكم غرضا (٣)

٨ - مروان بن يحيى بن مروان بن ابي الجنوب بن مروان بن سليمان (ابو السمط) شاعر
المتوكل (٤) وكان أخط الناس بشعره ومن شعره قوله : معرضا بالعلويين :

أبوكم على كل كان أفضل منكم أرباه (٥) ذوي الشورى وكانوا ذوي عدل
وساء رسول الله إذا ساء بتته بخطبته بنت اللعين ابي جهل
اراد على بنت النبي تزوجا ببنت عدو الله يالك من فعل
وحكم فيها حاكمين ابوكم هما خلعاها خلع ذي النعل للنعل
وقد باعها من بعده الحسن ابنه فقد ابطلا دعواكم الرثة الخبل
وخليتموها وهي في غير أصلها واطلبتموها حين صارت إلى الأصل (٦)

(١) المعتصم محمد بن هارون أمه أم ولد تركية اسمها « ماردة » ويسمى المنمن . تولي الخلافة سنة ٢١٨ بعد المأمون وقال بخلق
القرآن وضرب أحمد بن حنبل سنة ٢١٩ ، توفي سنة ٢٢٧ من أهم أعماله (فتح عمورية) .

(٢) لطائف المعارف ص ٧٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٣ .

(٤) المتوكل (ابو الفضل) جعفر بن المعتصم عاشر الخلفاء العباسيين تولي الخلافة سنة ٢٣٢ وقتل سنة ٢٤٧ مع وزيره الفتح ابن
خاقان قتله ابنه المنتصر .

(٥) هكذا أورد (أباه) .

(٦) لطائف المعارف ص ٧٣ وفي الأبيات يعرض بالعلويين بان جدهم على بن ابي طالب (رضي الله عنه) خطب بنت ابي جهل
فغضب رسول الله (ﷺ) وقال (والله لا يجتمع بنت نبي الله وبنت عدو الله) فكف على ، وفي قوله (حكم فيها حاكمين)
إشارة إلى حادثة التحكيم التي جرت بين علي ومعاوية بعد معركة صفين ، وفي قوله (وقد باعها من بعده الحسن ابنه) إشارة
إلى تنازل الحسن بن علي رضي الله عنه لمعاوية عن الخلافة .

٩ - محمود بن مروان بن يحيى بن مروان بن ابي الجنوب بن مروان بن سليمان يقول

للمنتصر :

لقد طال عهدي بالامام محمد وما كنت أخشى أن يطول به عهدي
فأصبحت ذا بعد وداري قريفة فيا عجا من قرب داري ومن بعدي (١)

١٠ - متوج بن محمود (٢) بن مروان بن يحيى بن مروان بن ابي الجنوب بن مروان بن سليمان بن ابي حفصة .

١١ - إدريس بن سليمان « أخو مروان » وقد أهمله الثعالبي فلم يعده معهم وذلك لانه أهتم بالشعراء السابقين لتسلسلهم في النسب .
وقد روي اسحق الموصلي : قائلاً

« كان إدريس بن سليمان بن ابي حفصة أخو مروان ينشد الشعر الجيد لنفسه ثم يقول :
يا أبا محمد قول الشعر أشد من قضم الحجارة على من يعلمه وهو القائل :

وانفي الشعر لو يلقاه غيري من الشعراء ضمن بما نفيت (٣)

وقد قال ابن رشيق عن تلك الأسرة (ومن البيوتات (أي بيوت الشعر) بيت ابي حفصة
كان مروان شاعرا وجماعة بيته شعراء يضربون بألسنتهم انوفهم » (٤) .

وليت الأمر اقتصر على الرجال ، ولكن تعدهم إلى النساء . إذ يقول ابن رشيق ايضا .
(كان يحيى جد مروان شاعراً يهاجي اللعين المنقري وجريراً وأكثر أهل بيته شعراء رجالا
ونساء) (٥) .

واني لأخال الشعر قد حط رحاله عندهم وآلى ألا يغادرهم ، وما من شك في أن كثرة
شعراء تلك الأسرة وتعددتهم أمر يوحى بتفاوتهم في أشعارهم قوة وضعفا وندرة وكثرة حسب
قدرة الملكة الشعرية . إذ لم يكونوا في مستوى واحد وعلى وتيرة واحدة وإنما كانوا متفاوتين
كل التفاوت ومتباينين كل التباين ففيهم القوي وفيهم الضعيف وفيهم بين فما أشبههم

(١) لطائف المعارف ص ٧٤ .

(٢) الطبري : حوادث سنة ٢٥٢ « محمد بن مروان » .

(٣) المصون في الأدب ص ١٣ ولادريس شعر في الأغاني ٥ / ١١٣ ، ١٢٢ .

(٤) العمدة ٢ / ٣٠٧ .

(٥) المصدر السابق ٢ / ٣٠٧ .

بالنجوم تتهاوى تحت سقف سماء واحدة وتبعد بينها مسافات طويلة وفيها ما يضيء وإضاءة قوية تشعر الناس بوجوده وفيها ما يضيء وإضاءة خافتة فلا يكاد يهدي ضالاً أو يلفت نظراً .

ولقد أجمع النقاد والأدباء الذين تعرضوا لهذه المدرسة « الشعرية » على تقديم « مروان ابن سليمان » مدار بحثنا هذا « على سائر شعراء أسرته وانه بينهم (كانه علم في رأسه نار) فهو أجودهم واحكمهم شعراً وأقواهم سبكا وأجزلهم لفظاً واطولهم نفساً وأكثرهم عطاء فنال من الشهرة والجاه ما لم يضاهيه فيه أحد من أسرته ، ولولا اشتهاى مروان بين الشعراء مما جعل الأدباء يتناولونه بالنقد والتعليق ومن ثم يتناولون أسرته نقداً وتعريضا ، لربما طوى تلك الأسرة النسيان فلم يعرھا الأدباء أي إهتمام ولكن مروان كان نجما يتلألأ في سماء أسرته فهدى الناس إليها فتردد ذكرها على كل شفة ولسان فمروان فيهم كواسطة العقد بين عشرات الدرر .

جاء في أمالي المرتضي (إنه أشعر شعراء أهله) (١) وفي تاريخ بغداد جاء على لسان الكسائي قوله « إنما الشعر سقاء تمخض فدفعت الزبدة إلي مروان بن ابي حفصة » (٢) وقال دعبل الخزاعي (وكل من قال الشعر من آل ابي حفصة بعد مروان وأخوته وولده وولد ولده فمتكلف وقد جهدنا أن نجد لهم بيتا نادراً فلم نجده) (٢).

ويعتبر ابن المعتز أعظم ناقد تعرض لتلك الأسرة ، ورأيه هنا يعتبر أفضل رأي لانه بناه على تحليل وتدليل وتفصيل وهذا ما تفتقر إليه آراء النقاد والآخرين الذين سلكوا طريق الاجمال فجاءت آراؤهم غامضة لا تكاد توضح من أمر هذه الأسرة إلا أن مروان اشعرها دون ابداء آرائهم في بقيه شعراء الأسرة ويتضح ذلك من الخبر الذي رواه الصولي (٤) قائلاً: (كنت عند ابن المعتز فقريء في حضرته شعر لمتوج (٥) وكان رديناً لا يساوى بياضة فقال : أشبه شعر آل أبي حفصة وتناقضه حالاً بعد حال ؟ فقلت إن شاء الأمير فقال : (كانه ماء سخن لعليل في قدح ثم استغنى عنه فكان ايام مروان على حرارته ثم انتهى إلى ابي الجنوب وقد نفص ثم انتهى إلى مروان الثاني وقد فتر ثم انتهى إلى يحيى وقد زاد فتوره ثم انتهى إلى

(١) أمالي المرتضي ١ / ٥١٨ .

(٢) تاريخ بغداد ١٣ / ١٤٤ .

(٣) الورقة ص ٤٩ .

(٤) الصولي هو محمد بن يحيى أهله من ملوك جرجان نشأ في بغداد ونامد المكتفي والمقتدر والراضي ، ورى عن السجستاني والمبرد وتعلب من كتبه . الاوراق ، اخبار الشعراء ، كتاب الوزراء ، اخبار ابي تمام توفي سنة ٢٣٥ هـ .

(٥) متوج بن محمود آخر شعراء مدرسة آل ابي حفصة ورقمه التسلسلي « عشرة » .

ابي السمط وقد برد ثم انتهى إلى محمود وقد ثخن لبرده ثم انتهى إلى متوج هذا وقد جمد فلم يبق بعد الجمود شيء (١) .

وهذا الرأي ينبض بالحكمة النقدية السليمة المبنية على الأدلة والبراهين والخبرة الفنية التي تعتمد على ثقافة واسعة والملم نقدي ينم عن بصيرة واطلاع إلا أن ابن المعتز لم يقل شيئا عن الشعراء الأوائل في تلك الأسرة وهم ابو حفصة ويحيى بن ابي حفصة وسليمان ابن يحيى وإنما أصدر حكمه النقدي بدءاً بمروان .

والذي أراه هو أن آل ابي حفصة في اشعارهم وتفاوتهم قوة وضعفا وجودة ورداءة اشبه بالشمس تطلع من أول الصبح فتبدأ في الارتفاع واشعتها في اكتساب الحرارة ولكنها حرارة يحسها الانسان ولا يتأذى منها وهذا شعر ابي حفصة ويحيى وسليمان . ثم ترتفع الشمس حتى تبلغ الذروة وتصل القمة وتستوى على الأوج حيث تكتمل قوتها وفتوتها وشبابها ارتفاعا وحرارة وهذا شعر مروان الأكبر وابي الجنوب ومروان الأصغر ثم تأخذ الشمس في الزوال والانحدار نحو المغيب فتخف حدة حرارتها وشدة توهجها قليلا وهذا شعر يحيى بن مروان الأصغر وابنه مروان بن يحيى ثم تضعف الشمس وهي تتدلى في قبرها فلم يبق فيها إلا وميض من نور فلم تلبث أن ابتلعها الأفق ووارها القبر فلم يبق منها إلا احمر الشفق وهذا شعر محمود ابن مروان ومتوج بن محمود .

وختاما فإن تلك الأسرة فرضت نفسها نجما يتألأ في سماء الأدب العربي دعا النقاد والأدباء إلى تأمله واطاللة النظر فيه ويكفيها فخرا انه لم يكن هناك أسرة انجبت من الشعراء مثلها في الكثرة خلال مسيرة الشعر العربي منذ أكثر من الف واربعمئة سنة ولاغرابة فالعرق دساس فقد جذب تلك الاسرة وفتق اذهان افرادها ، وقدح زناد أفكارهم وألهمهم قريحة شعرية لم ينضب معينها واتصالها في النسب بالشاعر المجيد النابغة الجعدي (٢) .



(١) لطائف المعارف ص ٧٤ والأوراق للصولي ص ١١٦-١١٧ وهناك اختلاف في شخصيات الشعراء واسمائهم حيث ذكرت ففيه الأسماء التالية « عبد الله بن السبط » بدلا من ابي الجنوب بن ادريس مكان مروان الثاني ثم أورد اسم ابي الجنوب ثم ابنه مروان وقال (ولم يسمه) وفي الموشح ص ٣١٣ ورد الخبر على النحو التالي (كانه ماء اسخن لعليل في قدح ثم استغنى عنه فكان أيام مروان الأكبر على حرارته ثم انتهى إلى عبد الله السمط وقد برد قليلا ثم إلى إدريس بن ابي حفصة وقد زاد برودة وإلى ابي الجنوب كذلك وإلى مروان الأصغر وقد اشتد برودة وإلى ابي متوج وقد سخن برده وإلى متوج وقد جمد فلم يبق بعد الجمود شيء) . وانظر الخبر في ربيع الأبرار ٤ / ٢٧١ .

(٢) يحذف من العشرة ابو حفصة (كبير الأسرة) لانه ليس من سلالة النابغة الجعدي من جهة الأم فهو الذي تزوج لحناء بنت ميمون من نسل النابغة الجعدي إلا انه يضاف إليهم إدريس بن سليمان (اخو مروان) لانه من احفاد النابغة فيكون العدد عشرة شعراء .

ج - شعره

تهيد

منذ البدء يجب أن اعترف أن دراسة شعر مروان سوف تكون دراسة صعبة وأمرًا شاقًا وعسيرًا وحينما يتعرض الانسان لها فإنه كمن يجازف بنفسه بين أمواج بحر متلاطم لا يأمن على نفسه من الغرق وليس ذلك يعني ان مروان يختلف عن غيره من الشعراء في الفاظه وصوره وافكاره واخيلته واغراض شعره فهو شاعر كغيره من الشعراء كبشار بن برد وسلم الخاسر ومسلم بن الوليد وسواهم وإن اختلفت لغته الشعرية عنهم بسبب البيئة التي اختلف فيها معهم . فأين مكنم الصعوبة وخطر المجازفة ؟

الصعوبة تتمثل في حقيقة ما بين ايدينا من شعر مروان لان شعره ليس ما يوجد بين ايدينا فقط ولكنه ضاع وعفي عليه الزمن قبل أن يدون ومات بموت حفاظه ورواته وكل ما وصل إلينا منه إنما هي مقطعات حفظتها صدور بعض الأدباء وحررتها ايديهم ونجدها متناثرة في كتب الأدب واسفاره كالأغاني وحماسة ابن الشجري والعمدة وطبقات (ابن المعتز) وبعض كتب التاريخ مثل تاريخ الطبري والبداية والنهاية ، ولكنها لا تمثل مجموع شعره وإنما هي قليل من كثير . وغيض من فيض . خاصة إذا علمنا أن مروان نظم الشعر (٤٠) عاماً منذ اتصاله بالسري بن عبدالله والي اليمامة عام ١٤٢ هـ وحتى وفاته عام ١٨٢ هـ (١) ومن هنا تكمن الصعوبة ويكون الطريق عسيراً والمهمة شاقة لأن الأحكام التي سوف أصدرها رغم صحتها وصدق نظرتها أشبه بريشة في مهب الريح لأنها أحكام معرضة للنقد مهما أمرت ويكفي لنقضها أن يقع باحث على شعر جديد لم يعثر عليه بعد يستطيع به أن يقلب جميع الآراء النقدية التي صدرت بحق مروان . ولست أقول عن ضياع شعر مروان أوهاما ولا خيالاً ولكنها حقيقة اعترف بها كثير من الأدباء ودونوها في كتبهم .

فهذا ابن المعتز يقول (أما من ليس يوجد شعره إلا عند الخواص فنسضمن الكتاب (طبقات الشعراء) لهم قطعة صالحة وصدرا وافرأ ليكون أكمل للفائدة) (٢) ويقول عمر فروخ (قصر مروان شعره على المديح والرثاء وعلى عدد من الأغراض

(١) هذا في العصر العباسي علماً بأن مروان قد قال الشعر في العصر الأموي وكان عمره (٢٠) عاماً إلا أن شعره في ذلك العصر قد ضاع ولم يعرف منه سوى ثلاثة أبيات مدح بها الوليد بن يزيد راجع شعر مروان ص ٣٣ .

(٢) طبقات ابن المعتز ص ٤٨ .

الوجدانية(١) فأين هي الأغراض الوجدانية التي نظم فيها مروان ؟

إن ما بين أيدينا لا يمثل شيئاً من الشعر الوجداني

ويقول ابن النديم عن مروان (شاعر شعره نحو ثلاثمائة ورقة)(٢) وقال عنه ابن الغزي (له ديوان شعر)(٣) .

هذه آراء بعض الأدباء الذين كتبوا عن مروان التي تؤكد انه كان شاعراً مكثراً ولكن شعره تعرض للضياع .

ورأي هؤلاء الادباء يشكل في حد ذاته دليلاً أو لياً . ولكن هناك دليلاً ثانياً على ضياع شعر مروان ويتمثل ذلك الدليل في النقاط التالية :

١ - حينما مدح مروان المهدي بقصيدته الرائعة :

طرتك زائرة فحيّ خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالتها

زحف المهدي من صدره مصلاه وسأله كم هي قال مروان مائة بيت فأمر المهدي باعطائه مائة ألف درهم . ولا يوجد من هذه القصيدة سوى ثمانية وثلاثين بيتاً فقط (٤) .

٢ - مدح مروان الرشيد بقصيدته :

لعمرك ما انسى غداه المخصب إشارة سلمى بالبنان المخضب

سأله الرشيد كم هي ؟ قال ستون أو سبعون فأمر له الرشيد بعدد أبياتها الوفا ولا يوجد من هذه القصيدة سوى بيتين فقط . البيت المذكور آنفاً وآخر هو .

وقد صدر الحجاج إلا أقلهم مصادر شتى موكبا بعد موكب (٥)

٣ - قصيدة مروان في مدح السري بن عبدالله حيث قال :

اصاب الروى قوما تفتنوا لك الردى لانك اعطيت الجزيل وصردوا (٦)

(١) تاريخ الادب العربي (العصر العباسية ٢ / ١٣٢) . (٢) الفهرست ص ١٦٠ .

(٣) ديوان الإسلام ٤ / ١٠٩ رقم الترجمة ١٨٠٥ وقد علق محقق هذا الكتاب (سيد ذكري حسين) بقوله في الهامش (من كتبه - أي مروان - شعر في نحو ٣٠٠ ورقة) .

(٤) انظر القصيدة في شعر ص ٦١ وما بعدها . (٥) انظر المصدر السابق ص ٢٣ .

(٦) جاء في كتاب المحاسن والمساوي ١ / ٣٥٨ وسمط النجوم العوالي ٣ / ٢٦٩ وأن سبب اتصال مروان بخلفاء بني العباس أن جارية يمانية أهديت إلى ابي جعفر المنصور فأنشدته شعراً لمروان يمدح به السري بن عبد الله يذكر فيه وراثة العباس فسألها عن الشعر فأخبرته فأمر بإحضار مروان ومع ذلك لم يعثر من تلك القصيدة إلا على ثلاثة أبيات وليس فيها إشارة لبني العباس مما قد يعنى ضياع ذلك الشعر الذي أشار فيه لبني العباس (راجع في الابيات الثلاثة شعر مروان ص ٣٤) .

٤ - قصيدته التي اشار فيها إلى بنى أمية حيث قال :

بنو مروان قومي اعتقوني وكل الناس بعد لهم عيد
لا يوجد منها سوى هذا البيت (١)

٥ - قصيدته في مدح الوليد بن يزيد (الخليفة الأموي ١٢٥-١٢٦) حيث قال
إن بالشام بالموقر عزا وملوكا مباركين شهودا
لا يوجد منها سوى ثلاثة ابيات فقط (٢) .

٦ - مدح مروان معنا بقوله :

بنو مطر يوم اللقاء كانهم أسود لها في غيل خفان أشبل
ويقول عنها ابن خلكان « القصيدة اللامية تناهز ستين بيتا » (٣) ولا يوجد من هذه
القصيدة إلا أحد عشر بيتا » (٢) .

٧ - ورثي معنا بقصيدة يقول فيها :

يامن بمطلع شمس ثم مغربها إن السخاء عليكم غير مردود
قال عنها ابن المعتز « القصيدة مشهورة وهى طويلة » (٤) ولا يوجد منها إلا بيتان إلى
جانب البيت السابق .

٨ - مدح مروان المهدي بقوله من قصيدته السبعين (٥)

إليك قصرنا النصف من صلواتنا مسيرة شهر بعد شهر نواصله
اعطاه سبعين الفا ولم يعثر منها إلا على ستة عشر بيتا فقط

وكثير من قصائد مروان لم يعثر منها الا على بيت أو بيتين مع انه شاعر نفسه طويل
يقول قصيدة من مائة بيت فتأتي القصيدة على وتيرة واحدة من القوة والجزالة دون ضعف
من أول بيت حتى آخر بيت في حين يعتري الضعف كثيراً من الشعراء إذا ما حاولوا
الاطالة فتأتي قصائدهم على درجات متفاوتة من حيث القوة والضعف والجودة والرداءة

(١) شعر مروان ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣ .

(٣) وفيات الاعيان ٥ / ١٩٠ وانظر القصيدة في شعر مروان ص ٨٨ وما بعدها .

(٤) طبقات ابن المعتز ص ٤٧ وانظر البيتين في شعر مروان ص ٤٠ .

(٥) انظر شعر مروان ص ٩٤ وما بعدها وسميت (بالسبعين) لانها سبعون بيتاً .

وهو ما تبرأ منه مروان وتجردت منه قصائده . فأين شعر مروان إذن ؟ لقد ضاع جله وعفا عليه الزمن وطوته يد النسيان ومات حيث مات حفاظه .

ومن هنا يستطيع القارئ أن يتبين مدى الصعوبة التي تعترض طريق من يحاول دراسة شعر مروان لان الموجود منه لا يمثل إلا جزء من حياة مروان .

وأول من حاول جمع شعر مروان وتنسيقه وتدقيقه واصداره على هيئة ديوان هو الدكتور حسين عطوان وقد اعترف هو الآخر كما اعترف غيره بضياح شعر مروان حيث يقول :

(استكملت جميع شعر مروان بن ابي حفصة بعد أن استوثقت بان مخطوطة ديوانه قد فقدت أو انها لم يعثر عليها حتى وقتنا هذا) (١) وهو خير من يعتمد على رأيه لانه بذل جهدا كبيرا وسار بين اسفار الكتب بحثا وتنقيبا عن شعره حتى جمع لنا عصارة جهده في كتاب سماه (شعر مروان بن ابي حفصة) وقد اشتمل على مجموعة شعرية لا بأس بها على ان هذا لا يعني أن الدكتور حسين عطوان استطاع أن يجمع شعر مروان كاملا فلم يند عنه بيت واحد وإنما العكس الصحيح إذ فاته بعض القصائد والمقطعات والأبيات التي استطعت أن أعثر عليها ، وسيجدها القارئ مدونة في نهاية هذا الكتاب تحت عنوان (المستدرك على شعر مروان) .

ومن حقى أن استنير برأى الدكتور طه حسين في قضية ضياح شعر مروان حيث يقول بعد كلام طويل (ولعلك تريد الآن أن تعرف شيئا عن شعر مروان وانا آسف الأسف كله لاننا لانستطيع أن نتحدث في ذلك عن علم ولا بصيرة إذ لم يحفظ لنا الرواة من شعر مروان إلا أبياتا قليلة متفرقة) (٢) .

ويقول الدكتور محمد مصطفى هدارة أثناء حديثه عن الصنعة الشعرية عند مروان (أما مدى هذه الصنعة الشعرية ودرجتها وهل كان مروان يضاهي بحولياته وصناعتها حوليات زهير والمحككين من الشعراء القدماء وصناعتهم ؟ فهذا ما لا يمكن الجزم به بصفة قاطعة لضياح أغلب شعر مروان) (٣) ويذهب الدكتور مصطفى الشكعة إلى أن ظاهرة ضياح شعر بعض الشعراء ومنهم مروان كانت ظاهرة مقصودة خوفا من غضب خلفاء

(١) شعر مروان ص ٦ .

(٢) حديث الأربعاء ٢ / ٢٣٤ .

(٣) اتجاهات الشعر العربي ص ٥٨٠ .

الدولة الجديدة حيث قال (الذي لا شك فيه أن أغلب الشعراء المخضرمين كانوا يحرصون الحرص كله على أن يحجبوا قصائدهم التي قالوها في بني مروان عن بني العباس تفاديا للحرج ودفعاً للغيرة ودرءاً لحفيظة تتحرك في قلب الملك المتولي الأمر وصاحب السلطان ومن ثم فقد عمل أكثر الشعراء من مخضرمي الدولتين على حجب شعرهم في بني مروان وأدى عدم ترديده إلى إهماله وتبعاً لذلك إلى نسيانه فضاغ أكثره . وبضياغ شعر عدد من شعراء المخضرمين في بني مروان فقد الأدب العربي ثروة نفيسة من أرق وأمتع ما قيل في ملوك أحبوا الشعر واکرموا الشعراء وخصوصاً ذلك الذي قيل في الوليد بن يزيد وأنشد في ساحتہ) (١) .

وبهذه الأدلة اكتفي واقف عندها لاعترف واوضح بان أي أحكام نقدية اصدرها على شعر مروان إنما هي قاصرة على الجانب والجزء الموجود من اشعاره ولهذا فإنها ستكون ضعيفة المناعة وعرضة للنقد والتغيير من الأساس فيما لو تم العثور على بعض اشعاره المفقودة (خاصة في العصر الأموي) والتي ما زالت ضائعة وتائهة في مجاهيل الكتب والأسفار زمناً يتجاوز ألف وثلاثمائة سنة تقريباً .



(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي (مصطفى الشكعة ص ٣٧) .

د - الأغراض الشعرية

مقدمة :

عاش مروان في العصر الأموي جزءاً من حياته وعاش شطر كبيراً في العصر العباسي الأول فهو من الشعراء المخضرمين وليس يهمننا الجانب الأموي لأن مروان لم يكن قد برز فيه شاعراً وإن كانت بدايته في ذلك العصر . وإنما الذي يهمننا هو حياته في العصر العباسي الأول . الذي غرد فيه بشعره سنين طويلة كما يغرد طائر الأيك في دوحه .

والحكم في ذلك تم على أن شعر مروان الذي لدينا يغطي الفترة من عام ١٤٢ هـ إلى عام ١٨٢ هـ في حين انتهت الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ وهذا العصر نستطيع أن نسميه «عصر التكبس بالشعر» إذ أصبح الشعر مهنة كالكتابة والصياغة وسواهما من الحرف وما يميزها عن بقية الحرف أن الإنسان لا يخسر فيها سوى وقت يستغرقه تفكيراً في قصيدة ينظمها ، ولا شك أن في ذلك انحدار بالشعر عن مرتبة العالية وانحراف به عن رسالته السامية . ولكن العزاء في ذلك أن الشعر انحدر إلى هذا الإتجاه في جانب من جوانبه وهو فن المديح في حين ظلت جميع الأغراض الأخرى محافظة على غايتها وهدفها النبيل كما يتمثل ذلك في غرضي الغزل والثناء .

ونتيجة الانحراف بشعر المديح عن غايته والاتجاه به إلى التكبس اتجه الشعراء إلى ذوي الجاه والنسب والعرض يمدحونهم ويطرونهم فيستمطرون أكفهم بالعتاء والبذل وهذا الرأي يتجه للعصر الذي عاش فيه مروان وهو العصر العباسي الأول .

وكان طبيعياً أن يسلك مروان هذا المسلك مع بعض ممدوحيه لأنه إنسان كبقية الناس إذا جردناه من صفة الشاعر يريد أن يعيش وان يكتسب ولكن لاصنعة له إلا الشعر والشعر فقط فجعله مطيته ووسيلة كسبه كغيره من الشعراء خاصة وان مروان ممن يعشقون المادة ويلهثون وراءها ويعبدونها .

ولهذا اتصل مروان بالخلفاء والوزراء والولاة يمدحهم فأسهب وأطنب وإطال وعكف على شعره ينقحه ويهدبه ليوافق هوى من نفس ممدوحه ويقع منه موقفاً حسناً فيوفي له الكيل عند العطاء ويرجح له الميزان . فمدح معن بن زائدة وابنه زائدة والبرامكة والمهدي والهادي والرشيدي وسواهم . ، وأخذ منهم من المنح والهبات مالم يحصل عليه وأخذ شاعر قبله ومن

ثم اشتهر مروان شاعر مديح وثناء يحتل مرتبة عالية في مملكة المديح العربي ولهذا جاء هذا الغرض على قائمة الأغراض الشعرية التي طرقها ونظم فيها حتى إذا مات بعض من مدحهم (وليس كلهم) جاشت نفسه بمعاني الألم والحزن والأسى وترددت في صدره فعبّر عن تلك المشاعر والخلجات التي يحفل بها فؤاده ويجيش بها صدره بالحرف والكلمة فصاغ الكلمة رثاء يفيض حزناً وشجناً ووجداً يعبر عن شيء من الاعتراف بالفضل والجميل ويتضح ذلك في موقفه حينما مات معن بن زائدة حيث بكاه ورثاه .

وعلى هذا يكون الرثاء غرضاً ثانياً طرقه مروان لان الرثاء ردة فعل للمديح الصادق يحاول الانسان بواسطته أن يشكر صنيعه ويرد معروفاً إلى شريف قضى نجه .

ومن هنا يأتي الرثاء ليحتل مكان الصدارة بعد المديح في مملكة مروان الشعرية وهذان الغرضان « المديح والرثاء » هما اللذان يمثلان غالبية شعر مروان الموجود بين ايدينا ولهذا فإن لهما من المكانة ما يستوجب عقد فصل خاص بكل منهما والبدء بهما في دراسة شعره أما بقية الأغراض الأخرى فإنها من القلة بحيث لا تستوجب عقد فصل خاص بكل منها ولكنني اضطررت للحديث عن كل غرض منها في فصل خاص من أجل تأسيس قاعدة لدراسة تلك الأغراض دراسة مستفيضة فيما لو تم العثور على مجموعة وافرة من شعر مروان الضائع قد يكون لتلك الأغراض نصيب لا بأس به منها .، أما الآن فلنتجه لدراسة هذه الأغراض بدءاً بالمديح .



١ - المديح

سبق أن تكلمت من خلال دراسة حياة مروان ومراحلها عن اتصاله بكل من السري ابن عبد الله والمهدي والهادي والرشيد ومعن بن زائدة والبرامكة وزائدة بن معن .. الخ فماذا كان يقصد وراء اتصاله بهم وما الغرض الذي يرمي إليه ؟ ليس له من غاية ولا من غرض سوى استدرار أكف بعض هؤلاء الخلفاء والولاة عسى أن تخطر عليه فضة وذها أو الإعجاب ببعضهم قبل الرغبة في أموالهم كما هي الحال مع معن وابنه ، ولا سبيل إلى ذلك ولا طريق للوصول إليه إلا الشعر وفن المديح فقط فسلكه مروان كي يوصله إلى هدفه ومبتغاه فاتصل بهؤلاء جميعا ومدحهم ونال اعطياتهم على نحو ما هو مفصل في اطوار حياته في فصول سابقة إلا أن الملاحظ والواضح هو أن الذين اتصل بهم مروان ومدحهم بشعره ليسوا في مرتبة شرف واحدة ولكنهم مختلفي الرتبة والمرتبة إذ أن منهم الخليفة والوزير والوالي فالمهدي والهادي والرشيد يمثلون الخلفاء والبرامكة ومعن بن زائدة وابنه زائدة والسري بن عبد الله يمثلون الولاة والبرامة يمثلون والوزراء .

ومن الطبيعي ألا يسلك مروان في مديحهم طريقة واحدة وإنما سوف يسلك مع كل واحد منهم طريقا تلائمه وتناسب مقامه في مجتمعه وذلك لعمر لله قمة البلاغة حيث يخاطب مروان بمدوحه على قدر فهمهم وعقولهم ومراتبهم وما البلاغة إلا مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

لهذا أقول إن مروان سلك في مديحه طريقين مختلفين متباينين كل التباين والاختلاف الأول مدح الوزراء والولاة ، والثاني مدح الخلفاء .

ومن هنا يجب أن أبسط القول في كل قسم على حده .

القسم الأول :

مدح الولاة والوزراء وهو مدحه لمن بن زائدة والسري بن عبد الله والبرامكة وزائدة ابن معن وهذا ما يسميه طه حسين (المدح الشائع المعروف) (١) لأن مروان اتبع في مديحهم الأوائل من الشعراء الجاهليين والإسلاميين والأمويين كالأعشى وامرئ القيس

(١) حديث الأربعاء ٢ / ٢٣٥ .

والأخطل وجريرو وسواهم ، وترسم طريقهم وتتبع خطواتهم واقتضي آثارهم لا يكاد يعدوهم أو يفارقهم حتى لتخاله قطعة من عصرهم نددت حتى رمى بها الدهر في أتون العصر العباسي . ولهذا يقول الأصمعي في ميدان المفاضلة بين بشار بن برد ومروان (إن مروان سلك طريقا كثيرا من يسلكه) وقال (مروان لم يتجاوز مذهب الأوائل) (١) وهذا يعني أن مروان مدح هؤلاء بما مُدح به الأقدمون وضمن قصائده تلك المعاني التي طرقها هؤلاء الشعراء قبله ولاكتها ألسنتهم وعركتها أفكارهم واستخلصتها قبله منذ سنين خلت ولم يبق لمروان وسواه أي معنى يبرز فيه سابقا وكل ما يستطيع أن يبرز نفسه فيه ويميزها عن الآخرين هو حسن الصياغة وسكب تلك المعاني في أساليب شعرية لم يأت بها أحد قبله فيكون مروان في معانيه مقلدا متبعا ولكن له فضيلة السبق في التجديد بالنسبة للقدمات وليس التجديد بالنسبة للمولدين أو المحدثين .

وهذه المعاني الشائعة تنحصر في تعداد مآثر المدوح وصفاته ومزاياه وخصاله الطيبة وخلال الحميدة التي يتصف بها صدقا أو يلصقها به الشاعر كذبا وإن كان أبعد ما يكون عنها ، وذلك من أجل أن يستمطر الشاعر مدوحه ويستحلبه ويستدر نواله إلا أن ذلك لا يمنع وجود نوع من الإعجاب كان أسبق لدى مروان من الهدف المادي في دفعه للمديح كما هي الحال مع معن بن زائدة ، وجاء المال كأثر ونتيجة لحالة الإعجاب تلك .

مدح مروان معنا والبرامكة وغيرهم من الوزراء والولاة بتلك المعاني والصفات فهم أكرم من حاتم واشجع من عنترة وأشد ذكاء من إياس وأحلم من الأحنف .. الخ الأوصاف والنعوت التي وجد مروان فيها مسرحا لخاطره وأفكاراً يخلع منها ما شاء على مدوحيه في أساليب شعرية تتميز بالجودة والاحكام فخلد بذلك أسماءهم وسجلها على صفحات التاريخ عبر مسيرته الطويلة حية ناطقة بكل اعمالهم وأخلاقهم .

فهو يمدح السري بن عبد الله وإلى اقليم اليمامة من سنة ١٣٢ - ١٤٣ هـ فيقول :

اصاب الردى قوما تمناوا لك الردى	لأنك أعطيت الجزيل وصرودوا
سيذهب ما ضمت عليه أكفهم	ويبقى لهم في الناس ذم مخلد
وتبقى أياديك الكريمة بعدما	يواريك والجود الصفيح المنضد

(١) الأغاني ٣ / ٤٥ .

والقصيدة طويلة ولكنها ضاعت عدا الأبيات الآتية الذكر وهو فيها يتبع خطوات الأقدمين ويقف عند حدود المعاني التقليدية التي طالما غردوا بها وعزفوا على أوتارها لا يتجاوزها إلى سواها فهو يعرض بالبخلاء وبسلوكهم في الحياة ويتمنى لهم الموت لانهم يعدلون الكرماء ، ولكن ماذا يفيدهم ذلك ؟ إنهم سيموتون ويتركون مالهم وعرضهم ولن يبقى لهم سوى الدم والثلب تتناقله الألسن ويتندر بهم الناس في مجالسهم أما ممدوحه فكريم سيبقى له كرمه ذكرا خالدا وشموخا باذخا يقصر الكثيرون عن الوصول إليه وهي معاني عادية حتى في صياغتها اللهم أن طابعها على الأحكام والإجادة .

ولكن الذي يدعو إلى الغرابة هو مناقضة مروان لطبعه اذا يحث الناس على الكرم ويحذرهم مغبة البخل والشح مع انه في مملكة الشح علم في رأسه نار وفي سمائها نجم لا يتغير ولعل مروان اراد أن يحذر الناس من قبح البخل لانه ابتلي به ولايستطيع الانتصار عليه ولذا فإنه يريد من ممدوحيه وسامعيه ألا يقعوا في فخ البخل مثله .

وحينما اتصل مروان بمعن بن زائدة انقطع إليه لأنه وجد فيه جميع الصفات التي تدفع إلى المديح والثناء وقد اكتسبها معن عن حق وحقيق فهو جدير فأطنب وأسهب في نعت معن بها فخلع عليه منها حللا وثيابا من الثنا ومعن يغدق عليه العطاء وهو في ذلك مروان لم يتغير ولم يتبدل وإنما ظل أسير الماضي بمعانيه وأفكاره حتى اتنا نقرأ القصيدة فتتخيلها للناطقة الديباني في العصر الجاهلي أو حسان في العصر الإسلامي أو الأخطل في العصر الأموي لاغراقها في تقليد القديم لان مروان في كل قصيدة يدور حول نفسه يكرر ويعيد المعاني الماضية دون محاولة لتجديد معانٍ أخرى ودون ابتكار وكل ما عمله هو انه أضفي على تلك المعاني سمة من المبالغة المقبولة في محاولة لكسر جمود الماضي المائل في الصورة الشعرية عنده أو استعان ببعض المؤثرات والإشارات التاريخية التي امتلأت حياة ممدوحه معن بها خاصة ما يتعلق منها بشجاعته .

ولنقرأ قوله يمدح معنا :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم	أسود لها في غيل خفان أشبل
همُ يمنعون الجار حتى كأنما	لجارهم بين السماكين منزل
بها ليل في الإسلام سادوا ولم يكن	كأولهم في الجاهلية أول

فليس هنا سوى الثناء والاطراء لقوم معن وانهم أصحاب شجاعة وبأس وذوي عز شامخ باذخ يطاول اعنان السماء لهم من الشهامة والكرامة والنبل ما يدفعهم إلى حماية الجار والمحافظه على الدمار حتى أن جارهم في حماهم لأمنع من عقاب في قمة جبل شامخ الذرا فهذه معان تقليدية ولكنها تتميز بصفاتها وجودتها ونقاؤها ، وأهم من ذلك انها تحتوي على عنصر تجديد بالنسبة للأولوية في المدح وليس قياسا على التجديد الموجود عند الشعراء بعده وهو أن مروان عمد إلى مدح قوم معن كمقدمة لمديحه وإلى رفعة شانهم ففي ذلك مصدر فخره واعتزازه ومزيد شرفه وسموه وعلو منزلته وبذخ مرتبته فلم يعمد إلى مدح معن هكذا عفوا وإنما قدم له بمقدمات تجعله أكثر وضوحا في عقل الأديب بما يتميز به من كريم الخصال ولكي يقول للناس إن هذه الصفات الحسنة ازلية في أسرة مروان يتوارثونها كابرا عن كابر ولم تكن شيئا طارئا على معن دون افراد اسرته ليخرج من ذلك إلى مدح مروان فيقول :

تجنب - لا - فى القول حتى كانه حرام عليه قول لا حين يسأل
تشابه يوماه علينا فاشكلا فلا نحن ندري أي يوميه أفضل
أيوم نداه الغمراً يوم بأسه وما منهما إلا أغر محجل (١)

ففى هذه الأبيات تأكيد على ظاهرة الجود عند معن بن زائدة ولكن مروان يجعلها دائما بعد مرتبة الشجاعة وكانه يريد بذلك أن يؤكد للناس أن علاقته بمعن علاقة المعجب بشجاعته لا علاقة الطامع في ماله .

وإنى لأظنه في البيت (تجنب لا) إلى آخره قد أخذ قول الفرزدق :

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم (٢)

لانه أقرب الشعراء الأمويين إلى مذهبه الشعري الذى يتسم بالفخامة والجزالة .

ولنقرأ أيضا هذه القصيدة الأخرى ففيها نفس المعاني السابقة تظهر وتطفو على السطح وليس هناك من اختلاف سوى في القافية والروي حيث يقول :

(١) الأبيات الثلاثة وما قبلها في شعر مروان ص ٨٨ .

(٢) البيت من قصيدة يمدح به الفرزدق على زين العابدين منها :

والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفا على شرف بنو شيبان
 جبل تلوذ به نزار كلها صعب الذرا متمنع الأركان
 إن عد أيام الفعال فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعمان
 تمضى أسنته ويسفر وجهه في الروع عند تغير الألوان
 كلتا يديك أبا الوليد مع الندى خلقت لقائم منصل وعنان (١)

حيث أكد في تلك القصيدة أسلوبه السابق في الحديث عن الشجاعة قبل الحديث عن الكرم ، والمعاني هي معاني القصيدة السابقة كررها مروان دون إضافة شيء جديد سوى حرصه على الاتقان والاجادة وحسن السبك وكثرة الماء والرواء .

وأعتقد أن مروان وجد أن ممدوحه معنا قد اتصف بتلك الصفات عن جدارة فلم يشأ هو أن يتركها ليبحث له عن صفات أخرى . فليس أعظم منها ولا أجل فليعدها وليكررها ما شاء الله له ذلك ما طوعته قوافي الشعر وبنات الأفكار ليس من أجل التكرار في حد ذاته وإنما من أجل التلذذ بها عند ذكرها ومن أجل تأكيدها لدى المشككين في اتصاف معن بها ويرون أن أعجب الشعر اكذبه وكان مروان يقول لهم إنني لا أكذب . لنقرأ قوله :

كفي القبائل معن كل معضلة يحمى بها الدين أو يرمى بها الحسب
 كنز الخامد والتقوى دفاثره وليس من كنزه الأوراق والذهب
 انت الشهاب الذي يرمى العدو به فيستتير وتخبو عنده الشهب (٢)

هنا عكس طريقته في قصيدته اللامية حيث مدح قوم معن أولا ثم مدحه ثانيا وذلك في محاولة لالقاء الأضواء عليه وانه ينتمي إلى قبيلة شريفة منيعة فأثنى مروان عليها ومدحها أولا ثم خرج إلى مديح معن ولكن في هذه القصيدة والقصيدة النونية قبلها عمد إلى العكس فمدح مروان معنا أولا ثم مدح قبيلته وكانه يقول إن قبيلة منها هذا الشخص يحق لها أن تتباهى وتنافر وتفاخر به . ولنقرأ قوله من تلك القصيدة بمدح قوم معن :

(١) شعر مروان ص ١٦٠-١٠٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠ .

بنو شريك هم القوم الذين لهم في كل يوم رهان يُحرز القصب
 إن الفوارس من شيبان قد عرفوا بالصدق إن نزلوا والموت إن ركبوا
 قد جرب الناس قبل اليوم انهم أهل الحلوم وأهل الشغب إن شغبوا

وكانني بمعن قد اشتهر بين الناس حتى علا صوته وارتفع شأنه وشاع ذكره حتى اصبح
 اقرب إلى أذهان الناس من قومه فمن حق مروان أن يمدحهم به أولاً ويمدحهم هم ثانياً لان
 ذكره في الناس أسير وأشهر .

وحينما مدح زائدة بن معن عاد يفرد في دوحه السابق ويعزف على أوتاره التي طالما
 عزف عليها أروع الأحنان في مديح معن .. يمدح زائدة بنفس المعاني والأفكار وذلك لان
 تلك الصفات انتقلت من والده إليه كما ورثها والده من أجداده فالأولى أن يمدح بها
 لابسواها وما هو إلا صورة حية لوالده فيها روحه وكرمه وشجاعته وحلمه . يتخيل فيها
 إنسان أن معنا هو الممدوح وهو الشخص الجالس على كرسي الولاية في اليمن وليس ابنه
 زائدة .

ولنقرأ كافيته حيث يقول :

بابن معن يفك كل أسير مسلم لا يبيت يرجو الفككا
 وبه يعقص الرئيس لدى الموت (م) اذا اصطكت العوالي اصطكاكا
 مطري أغر تلقاه بالعرف (م) قـؤولا وللدخنا تراكا

وكانه خشي من أن يقول الناس له إنك تجاهلت ممدوحك وإن هذا تصرف لا يجوز
 منك حتى ولو كان الممدوح أباه فكان أن اختصه مروان بتلك الأبيات ليأتي في الأبيات
 اللاحقة ليصور للناس حال المطابقة التامة في الصفات الكريمة بين معن وابنه زائدة حتى
 لا يدري القاريء من المقصود بالمدح الابن أم والده ولنقرأ قوله :

إن معن يحيى الشفور ويعطي ماله في العلا وانت كذاكا
 ود كل أمرىء من الناس لو كان (م) ابوه لدى الفخار اباكا
 ان معنا كما اكساه ابوه عزه السابق الجواد كساكا

ونرى شدة الشبه المتكامل بين معن وابنه في هذا البيت الذي اجاد فيه مروان وأحسن التصوير .

كم به عارف يخالك إياه وطورا يخاله اياكا (١)

حيث نراه يشرك ابنه في كل صفة وكل خلق كما في قوله « وانت كذاكا » وقوله « كساكا » والبيت الأخير كذلك . وذلك ليخلق لنا مروان صورة الشبه التام المطلق بينهما وهذا هو التجديد المحدود في الصور الذي أتى به مروان في تلك القصيدة مع استمرار محافظته على المعاني والصور والأفكار التقليدية .

ولكي يكمل شرف زائدة ومحدّه فإن مروان لا يكتفي بمدحه ومدح والده بل وجد لزاما عليه أن يثني على قومهما كما كانت عادته في كل محفل ومناسبة كما في قوله :

وسما الفرع منك في خير أصل من نزار فطاب منه ثراكا
فبمعن تسمو وزائدة الخيرات (٢) وعبد إله كل تماكا
اعصمت منكم نزار بحبل لم يريدوا بغيره استمساكا
ورأبتم صدوعها بحلوم راجحات رفعن عنها الهلاك (٣)

ولذا نرى مروان يكثر من الالتفات في مخاطبة المدوح ليجدد نشاط السامع ويجتذبه إلى متابعة القصيدة حتى آخرها . إذ نراه يخرج عن مخاطبة زائدة وحده إلى مخاطبة قومه بواسطة ضمير الجمع كما في قوله « منكم ، رأيتم .. الخ » .

وعموما فإن هذه القصيدة التي استشهدت ببعض منها خشية الاطالة عبارة عن سجل ذهبي لمآثر معن وابنه زائدة وقبيلة بني شيبان جميعا .

وحينما مدح مروان يزيد بن يزيد حينما نقل خبر وقوفه على الباب إلى المهدي (٣) فقال :

يا أكرم الناس من عرب ومن عجم بعد الخليفة يا ضرغامة العرب

(١) الأبيات الكافية كلها في شعر مروان ٧٤ - ٧٥ .

(٢) شعر مروان ص ٧٥ .

(٣) انظر خبر نقل يزيد بن يزيد خبره إلى المهدي واستنجد مروان به في الحاسن والمساورى ١ / ٣٥٩ وانظر فصل

(علاقته بالمهدي) .

أفنيت مالك تعطيه وتنهبه يا آفه الفضة البيضاء والذهب

إن السنان وحده السيف لونطقا لا خبر عنك في الهيجاء بالعجب (١)

نجده يعيد نفس المعاني التي سبق ذكرها في مديح معن وابنه زائدة دونما تغيير واعتقد أن عدوى حبه لمعن وابنه سيرت في دمه وتأصلت في قلبه حتى أصبحت شأنه مع كل من ينتمي إلى شيبان بنسب وإن هذا هو سبب عكوفه على تلك المعاني معيدا مكررا إذ أنه لا يكاد يجد أعظم وأشرف منها ليمدح به . فله أن يعيدها مادام محافظا على تغير الأساليب الشعرية محافظته على التجديد والاحكام والاتقان في جميع مدائحه

إلا أن الملاحظ في مديح مروان للشيبانيين الثلاثة معن وابنه زائدة ويزيد بن مزيد أنه يعمد إلى قرن صورتين معاً . فلا يكاد يفرق بينهما في جميع قصائده هما الكرم والشجاعة وذلك لأنه يعتبرهما أكثر الصفات وضوحا على محيا هؤلاء الأجواد الثلاثة وأن الشجاعة في الحرب لا يشابهها ويمثلها وينظرها إلا الجود والكرم في السلم فهي شجاعة في انفاق المال، ونري ذلك في الأبيات الثلاثة السابقة وفي أبيات سبق أن أوردتها ولكن تجب اعاتتها ليستحضرها الذهن ويستوعبها الفكر فتصدق النظرة . وهذه الأبيات التي جمع فيها بين الكرم والشجاعة قوله في مدح معن :

تشابه يوماه علينا فأشكلا فلا نحن ندري أي يوميه أفضل

أيوم ندهاه الغمر أم يوم بأسه وما منهما إلا أغر محجل

وقوله :

(١) شعر مروان ص ٢٢ وفي وفيات الأعيان ٥ / ١٩١ ورد صدر البيت (يا أكرم الناس) عجز بيت بشيء من التغيير والبيت في مدح شراحيل بن معن .

أبا شراحيل بن معن يا ابن زائدة يا أكرم الناس من عرب ومن عجم

ونسب البيت إلى ولد مروان بن ابي حفصة واعتقد أنه (أبو الجنوب بن مروان لانه هو الذي اشتهر شاعرا) وفي شذرات الذهب ١ / ٣٠١ جاء قوله يا أكرم الناس منسوباً لمروان بمدح شراحيل بن معن ضمن ثلاثة أبيات كما ورد البيت باختلاف عن روايته في مدح يزيد بن مزيد والبيت برواية الشذرات هو قوله :

يا أكرم الناس من عجم ومن عرب ويا ذوى الفضل والإحسان والحسب .

إلا أنني أرى رواية العقد الفريد لشعر مروان في مدح يزيد بن مزيد أصح لأنها مقرونة بخبر يرويه مروان بنفسه .

إن عد أيام القعمال فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعمان
كلتا يديك ابا الوليد مع الندى خلقت لقائم منصل وعنان
وقوله من قصيدة أخرى :

له راحتان الغيث والختف فيهما ابي الله إلا أن تضرا وتنفعا (١)
إلى غير ذلك من الشواهد التي يزخر بها شعر مروان .

كما أن هناك ملاحظة يجب التنبيه عليها في الأبيات التي مدح بها مروان يزيد بن يزيد وهي شدة انتباه مروان واحترازه في شعره واحتراسه مما يدل على أنه يعرف أين يضع قدمه وأنه يزن الكلام قبل خروجه وهذا يدل على ملكة نقدية ذكية تحسن اختيار الألفاظ حسب درجة الممدوح ويتضح ذلك من قوله :

يا أكرم الناس من عرب ومن عجم (بعد الخليفة) يا ضرغامة العرب
وذلك لان مروان حينما مدح يزيداً كان يزيد من جلساء المهدي وكان قريباً منه
وحتما سوف تصل هذه الأبيات إلى مسامعه .

فقوله « بعد الخليفة » احتراز واحتراس يوضح مدى الثقافة البلاغية التي يتمتع بها مروان وهي ما تعز على كثير من الشعراء ، وذلك لأنه يريد الاستنجاد بيزيد لكي يساعده على الدخول على المهدي فلا بد أن يستثني الخليفة حينما يمدحه ويجعله مقدما عليه سابقا له في كل صفة حميدة لكي يضمن الوصول إليه . خاصة وأنه قد ذاق مرارة المبالغة ومدى ضررها حينما طرده المهدي عند دخوله عليه لأول مرة كما سبق تفصيله في فصل سابق وكما حدث له مع الرشيد فيما بعد هذا بالنسبة « لبنى شيان » .

أما شأنه مع البرامكة فإن البرامكة أسرة اشتهرت في عهد الرشيد ووصلت إلى منزلة عالية جاوزت السها وعلت الشهاب فكان لها العز الشامخ والذرا الباذخ يضاف إلى ذلك كرم وجود وحكمة وسداد رأي فاتجه إليهم الناس وتوافد عليهم الشعراء ولزموا ابوابهم ونظموا غرر القصائد وروائع القوافي التي تفيض بالحديث عن عزهم ورفعتهم وما اتصفوا به من صفات حميدة وخلال كريمة يعمد الشعراء إلى ادراجها في اشعارهم ليستندروا بها أكفهم فصار مروان إليهم شأنه شأن غيره من الشعراء يمدحهم ويثني عليهم معدداً خصالهم

(١) شعر مروان ص ٦٤ .

وخلالهم التي اوصلتهم إلى مرتبة الوزارة وهي المرتبة الاولى في الدولة بعد الخليفة لانها هي الصفات التي يجب توافرها فيمن يروم منصبا ويطلب عزا ويتسنى مكانا رفيعاً، ولهذا مدح كبارهم يحيى والفضل وجعفرأ ولم يقصر نفسه على واحد منهم حيث مدح يحيى بقوله :

إذا بلغتنا العيس يحيى بن خالد
سمت نحوه الأبصار منا ودونه
أخذنا بحبل اليسر وانقطع العسر
مفاوز يفتال النياق بها السفر (١)
ومدح جعفرأ بقوله :

أبر فما ترجو جيد لحاقه
وزير إذا ناب الخليفة حادث
ابر الفضل سباق اللهاميم جعفر
أشار بما عنه الخليفة يصدر (٢)
وقال في الفضل :

ما الفضل إلا شهاب لا أفول له
إن الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق
عند الحشروب اذا ما تأفل الشهب
يقتى على جود كفيه ولا ذهب (٢)
وقوله :

حمدنا الذي أدى ابن يحيى فأصبحت
وما هجعت حتى رأته عيوننا
بمقدمه تجري لنا الطير اسعدا
وما زلن حتى آب بالدمع حشدا (٤)

إلا أن الملاحظ أيضا انه عندما يمدح الفضل يتبع اسلوبه الذي سار عليه في مدح معن حيث يكثر استعمال الإشارات التاريخية التي زخرت بها حياة الممدوح خاصة فيما يتعلق بحروبه مع الخارجين على الخلافة العباسية . وبعد ذلك فكل شيء عادي لا يتجاوز حدود المعاني المألوفة التي طرقتها الشعراء الجاهليون والإسلاميون والأمويون والمحافظون من العباسيين، وإن كان ثمت جديد نلحظه في شعر مروان فهو شيء جديد قديم معا وهذا ما

(١) شعر مروان ص ٥٢ . (٢) المصدر السابق ص ٣٢ .
(٣) المصدر السابق ص ١٨ . (٤) المصدر السابق ص ٣١ .

يتعلق بكرم البرامكة فمروان مدحهم بالكرم وهو أمر عادي متعارف عليه منذ القدم . ولكن الجديد هو أن مروان أبرز صفة الكرم أكثر من غيرها وحاول توضيحها على حساب بقية الصفات وإن لم يهتمها وذلك لأنه يحب المال ويتهالك عليه ويبحث عنه ، ولهذا فإن أهم ما يحب أن يؤكد عليه في مديحه هو الكرم فهو الذى يشفي غليله أما بقية الصفات فهى عنده أشبه بالمقومات والمقويات التى تساعد على التوسع والانتشار في مديح البرامكة مع اهتمامه الشديد بصفة الجود واحلالها المكان الاول ، وهذه صفة واضحة ظاهرة في مديحه ليحیی والفضل وجعفر لانه ينشدهم وبريق الدراهم يخطف نور عينيه ، وهذا أمر يمكن أن يلاحظ في مديح السري بن عبدالله الذى سبق الكلام عنه فالشجاعة لاتهم والحلم لايهم لأنهما لا يخطران ذهبا ولافضة كما يطر ذلك الكرم كل ما في الأمر أنهما يساعدان على ذلك .

ومع ذلك فإننا نلمح مظهراً من مظاهر التجديد في مديح مروان للبرامكة ويتضح ذلك في انه سلك مع المدح التقليدي طريق المدح السياسي ولكن ذلك غير موجه لهم وإنما هو موجه للعباسيين فالبرامكة وزراء الرشيد ولكي يرضى عنه وطريقته فلا بد أن يجعله مروان نصب عينيه يثني عليه ويطريه وقومه العباسيين ولكن ليس عن طريق المدح التقليدي وإنما عن طريق المدح السياسي الذى اتبعه مع المهدي والهادي والرشيد ولهذا نجد أن مروان جمع بين هذين الفنين حينما مدح البرامكة لكي يأمن مغبة غضب الرشيد الذى طرده بسبب انقطاعه إلى معن بن زائدة ، وحري به أن يطرده إذا وقف نفسه على البرامكة . لهذا احترز مروان واحترس لنفسه فصال وجال مادحاً البرامكة ووجدها فرصة لان يثني على العباسيين بما يريدونه فدافع عنهم ونافح وذب وعرض بالعلوين مبطلا حججهم وبراهينهم التى تذرعوها بها في طلبهم للخلافة ويتضح ذلك في قوله حينما مدح الفضل بدليته :

حمدنا الذى أدي ابن يحيى فأصبحت بمقدمه تجرى لنا الطير اسعدا

إذ قال يمدح الفضل والعباسيين ولا يخفي ما في ذلك من تعريض :

يلين لمن اعطى الخليفة طاعة ويسقي دم العاصى الحسام المهندا

وشد القوى من بيعه المصطفى الذي على فضله عهد الخليفة قلدا

وقوله :

حام على ملك قوم عزم سهمهم من الوراثه في ايديهم سبب

أمست يد لبني ساقى الحجيج بها كتائب مالها في غيرهم إرب

وهذا الخط الذي اتبعه مع البرامكة هو نفس الخط الذي اتبعه حينما مدح يزيد ابن مزيد الشيباني حيث اشار في مدحه إلى المهدي وجعل ممدوحه اكرم الناس بعد الخليفة . فقد انتهز مروان الفرصة ليرفع من قدره عند العباسيين ويكبر منزلته في عيونهم ويدلل على حبه لهم ، وأنهم يعيشون في قلبه وعقله وفكره وذلك لانه يعرف الميول السياسية لديهم فكان لهم كما أرادوا ، وعزف اللحن الذي يطرب اسماعهم ويدخل الفرح إلى قلوبهم في كل شأن ومناسبة وليس بعيداً عن أذهاننا كيف استغل مروان فرصة مديحه لزائدة بن معن فمدح والد معن ليدلل على وفائه وحبه وتعلقه بمعن وهو بعيد عنه .

ولعل سائلاً يسأل . لماذا لم يتبع مروان هذا الاسلوب حينما مدح معن فيمدح العباسيين ؟ وجواب ذلك أن مروان حينما اتصل بمعن كان معن مقيماً باليمن فهو بعيد بهذا عن العباسيين وعاصمة ملكهم بغداد في حين أن البرامكة يعيشون في بغداد ، ولذا فهو بعيد كل البعد عن لوم العباسيين لبعده عن عاصمتهم حين مدح معن وليس ذلك هو السبب الوحيد إذ لو كان ذلك فقط لما ضره أن يمدح العباسيين رغم بعده عنهم ولكن هنالك سبباً آخر منع مروان عن ذلك هو انه اتصل بمعن فانقطع انقطاعاً كلياً إليه ولم يتصل بالعباسيين طيلة حياته ولم يحاول أن يمدحهم وهو حي يرزق وهذا يعني انه مازال يحقد عليهم لانه أموي الولاء . يضاف إلى ذلك سبب آخر هو أن معن وإن كان موالياً للعباسيين ظاهراً فإنه مبغض لهم في السر ولا يتعارض ذلك مع علاقته بهم لانه إنما وصل الولاية بحسن صنيعه الذي اسداه إلى العباسيين حين انقذ المنصور من أيدي الراونديه في موقعة الهاشمية المشهورة ، ورغم عداته للمنصور فلم يسع الأخير إلا أن يجازيه ويكافئه على افضاله وأياديه البيضاء ولهذا فإن معن لم يصل الولاية لكونه تابعاً للعباسيين وأداة في أيديهم يصرفونها كيفما شاءوا بل إنه في اول أمرهم وقيام دولتهم حاربهم وناوهم وعاداهم والتحق بابن هبيرة متزعماً العصيان ضدهم ثم اختفي حتى يوم الهاشمية ولهذا فإنه وإن لم يعلن كرهه للعباسيين في الظاهر فإنه يكرههم في السر ويكره أن يمدح مروان العباسيين فيما لو فرضنا أن مروان يرغب ذلك يضاف إلى ذلك أن معن وجد تجاوباً من مروان في عزوفه عن العباسيين ولهذا لم يذكر عنهم شيئاً يمدحهم به حينما مدحه بل إنه عرض بالمنصور ذاكرة فضل معن عليه حينما قال له :

مازالت يوم الهاشمية معلنا بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسانان

وليس في ذلك أي ثناء على المنصور وإن لقبه بخليفة الرحمن بمقدار ما فيه من غمز
لقناته ومن هنا ندرك سبب طرد المهدي والرشيده وأن الدافع إلى ذلك حسدهما لمن
وندرك سبب اصرار مروان على الثناء عليهما حينما مدح يزيد بن يزيد الشيباني والبرامكة .

أما من ناحية البرامكة فانهم عاشوا في العصر العباسي وترقوا في المناصب بكفاءتهم ،
ولم يكن ذلك كافياً وإنما عمدوا إلى شيء من التزلف والتملق حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه
ولهذا فإنهم من صنائع العباسيين ولهم فضل عليهم فهم بعكس معن ولذا فمن الطبيعي أن
يرحبوا بمدح العباسيين حينما يمدحون . خاصة وأن مروان قطع شوطاً بعيداً في ذلك وهذا
هو سبب اطراء مروان للعباسيين حينما مدح البرامكة .

وخلاصة القول هي أن مروان اتبع المدح التقليدي البحت حينما مدح السري ابن
عبدالله ومعن زائدة وابنه زائدة ويزيد بن يزيد واتبع هذا المسلك التقليدي حينما مدح
البرامكة ولكن زاد عليه بان مزجه بالمدح السياسي ليس لهم وإنما لاسيادهم العباسيين .

وفي نهاية الحديث عن مدح الولاة والوزراء اعود للتذكير بما سبق أن قلته عن مظهر
التجديد الوحيد في شعر مروان المادح وهو استعانه بالاشارات التاريخية التي زحرت بها
حياة ممدوحه سواء أكان معن أو البرامكة على وجه الخصوص ويتمثل ذلك في الشواهد
التالية :

١ - قوله يمدح معن ويشير إلى ما دخل فيه من حروب لتوطيد حكم العباسيين في
اليمن حيث قال :

جلب الجياد من العراق عوابساً قب البطون يقدن بالأرسان
جرداً مَحنية تعاضد في السرى باليد كل شِملة مدعان
حتى أغرن بحضر موت شوازبا مُقوره ككواس العقبان(١)

وقوله من نفس القصيدة عن يوم الهاشمية :

مازالت يوم الهاشمية معلنا بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكت وقاءه من وقع كل مهند وسان(٢)

(١) شعر مروان ص ١٠٧ . (٢) شعر مروان ص ٦٤ .

٢ - وقوله في قصيدة أخرى حينما انتصر معن على قوم تألبوا عليه بمكة :
تدراك معن قبة الدين بعدما خشينا على أوتادها أن تنزعا
ففى البيت إشارة إلى يوم الهاشمية .

وقوله في تلك القصيدة عن دور معن التاريخي في اليمن :

وطئت حدود الحضرميين وطأة لهم هُدَّ ركنا عزهم فتضعضعا
فأقعوا على الأذنان إقعاء معشر يرون لزوم السلم أبقي وأودعا
فلو مدت الأيدي إلى الحرب كلها لكفوا وما مدوا إلى الحرب إصبعا

وقوله في نفس القصيدة :

رأيت رجالا يوم مكة أجلبوا عليك فراموا منك طودا ممنعا
على غير شيء غير أن كنت منهم أعف وأعطى للجزيل وأشجعا
فأصبحت كالعضب الحسام وأصبحوا عبادية شتى شملهم قد تصدعا (١)

٣ - قوله من قصيدة يمدح بها معن :

عادت نزار نزاراً إذ تداركها مبارك من بنى شيان متخب (٢)
ففى ذلك إشاره إلى يوم الهاشمية

٤ - قوله يمدح الفضل بن يحيى البرمكي بعد ظفره بيحيى بن عبدالله العلوي :

وقالوا الطالقان يجن كنزا سيأتينا به الدهر المديل
فأقبل مكديا لهم يحيى وكنز الطالقان له زميل (٣)

٥ - وقوله حينما غزا الفضل خراسان سنة ١٧٨ هـ واتخذ بها جنداً أسماهم

(١) شعر مروان ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) مختار الأغاني ٤١١/٦ .

(٣) شعر مروان ص ٨٧ .

(العباسية) يصل عددهم إلى خمسمائة الف رجل :

كتائب لبني العباس قد عرفت
ما ألفت الفضل منها العجم والعرب
أثبت خمس مئين في عدادهم
من الألو ف التي أحصت لك الكتب
يقارعون عن القوم الذين هم
أولى بأحمد في الفرقان إن نسبوا (١)
٦ - وقوله مادحاً الفضل بن يحيى حينما عاد من خراسان منتصراً على الخرسانيين
التائرين مما جعل الرشيد يخرج لاستقباله :

نفي عن خراسان العدو كما نفي
ضحي الصبح جلباب الدجى فتعددا
لقد راع من أمسى بمرور مسيره
إلينا وقالوا شعبنا قد تبددا
على حين ألقى قفل كل ظلامه
وأطلق بالعفو الأسير المقيدا
إلى أن قال :

أبحت جبال الكابلي ولم تدع
بهن لئيران الضلالة موقدا
فأطلعتها خيلا وطئن جموعه
قتيلا ومأسورا وفلا مشردا
وعادت على ابن البرم نعماك بعدما
تحوب مخذولا يرى الموت مفردا (٢)

٧ - وقوله في إشارة أخرى إلى إنتصار الفضل بن يحيى على يحيى بن عبدالله العلوي
وظفره به في معركة الطالقان . كما أشار فيها إلى حادثة التحكم التاريخية بين علي بن ابي
طالب ومعاوية بن ابي سفيان رضي الله عنهما كما في الأبيات التالية :

للفضل يوم الطالقان وقبله
يوم اناخ به على خاقان
ما مثل يوميه اللذين حواهما
في غيروني تواليا يومان
سد الثغور ورد ألفة هاشم
بعد الشتات فشعبها متدان
عصمت حكومته جماعة هاشم
من أن يجرد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التي عن غيرها
عظم البلاء وتفرق الحكمان (٣)

(١) شعر مروان ص ٨٧ . (٢) شعر مروان ص ٣١ ، ٣٢ .

(٣) مختار الأغاني ٤١١/٦

القسم الثاني : مدح الخلفاء العباسيين وهم المهدي والهادي والرشيد والأمين في عهد أبيه وهو ما يسميه طه حسين (المدح السياسي) (١) ومروان في هذا القسم يساير عصره وما تمليه عليه ظروفه السياسية في وقت احتدم فيه الصراع بين العباسيين وخصومهم أبناء عمهم العلويين .

وكان للعلويين شعراؤهم الذين يدافعون عنهم وينافحون ويدعون الناس إلى تأييدهم ومناصرتهم كالسيد الحميري وغيره فأخذ هؤلاء يضربون أوتاراً ويعثون انغاما شجيرة ذات صبغة دينية بحثه في محاولة لاطلاع الناس على مدى صلة العلويين بالنبي (ﷺ) فهم خلفاؤه وعشيرته وأهل بيته وأحق الناس بالأمر بعده .

ولهذا وجد العباسيون انفسهم أمام مأزق وموقف محرج لا يكفي للخروج منه طعن الرماح ورمي النبال والضرب بالسيوف ولكنهم يحتاجون إلى سلاح أشد قوة ومضاء يؤثر في الناس ويسحرهم وليس هناك غير سلاح الحرف والكلمة يسحر الناس ويؤثر فيهم أكثر من السيوف البواتر والرماح الشواجر والكلمة تصاغ شعرا ، والشعر له أثره الكبير على سامعيه يخلبهم ويدعوهم إلى التأثر والاستجابة وكم رفع قوما وخفض آخرين .

لذا احتاج العباسيون إلى لسان سياسي ينافح عنهم ويدافع ويذب ويدعو الناس إلى مناصرتهم كما يفعل دعاة العلويين . يريدون شاعرا يجعله من لسانه وشعره صخرة تتفتت عليها قوة الحجج والبراهين التي تدرع بها العلويون ، وجبلا تتحطم أمواج دعايتهم المتلاطمة عليه يقارع الحججة بالحجة ويقابل البرهان بالبرهان لان الشعر هو الوسيلة الدعائية حيث لاصحف ولا إذاعات ولا مجلات إذا فلا غير السنة الشعراء يضربون بها أنوفهم .

اشترى العباسيون السنة الشعراء وسخروها لأغراضهم السياسي دون النظر إلى قلوبهم إذ لا يهمهم ما تنطوي عليه من بغض أو حب ماداموا لا يفصحون عنه .

ومن هؤلاء الشعراء « مروان » الذي اتصل بالعباسيين بعد أن طلبوه وبعد أن ظل منقطعا عنهم ست سنوات بعد وفاة معن من سنة ١٥٢ - ١٥٨ هـ فقد ذهب مروان إليهم وقد ملأ جعبته بهذا المديح التقليدي الذي نسج منه حللا ألبسها معنا قبلهم فجاء ليخلعها على الخلفاء العباسيين فلم يقبلوا منه أن يساويهم بغيرهم من الناس ففي ذلك حظ من قدرهم وخفض لمنزلتهم ومساواة لهم بالعامه ورفعة لشان معن بمساوته معهم في الصفات والمزايا يضاف إلى ذلك افتقارهم إلى اللسان السياسي ولهذا وجد مروان صعوبة في لقاء أول خليفة عباسي

(١) حديث الأربعاء ٢٣٥٢ .

دخل عليه وهو المهدي الذي طرده لمبالغته في رثاء معن حينما قال :

اقمنا باليمامة إذ يئسنا مقالا لانريد له زيالا

فقال له المهدي (قد ذهب النوال كما زعمت فلم جئت تطلب نوالنا جروا برجله) (١)
طرده المهدي لانه وإن كان حاسدا لمن وحاقدًا عليه إلا أن ذلك ليس السبب الوحيد ولكنه أراد أن يفهم مروان قصده وهدفه وأي مديح يريد ، وقد فهم مروان ذلك وأدرك بإحساسه المرهف وذكائه الوقاد أن العباسيين يريدون مديحا غير ذلك المدح التقليدي يريدون المدح السياسي ، وإنهم لم يطرده بسبب مبالغته في رثاء معن وإلا لما طلبوه وحرصوا عليه .
وكانت النتيجة أن سار مروان في ركابهم يأتمر بأمرهم وينتهي بنهيهم ويدور في فلکهم محاولا إرضاءهم ليرضوه ويجزلوا له العطاء فانبري يذب عنهم وجعل من لسانه سيفا ذا حد قاطع يفتك بكل من يحاول النيل من شرف العباسيين أو دحض حججهم وهضم حقهم في الخلافة ومفندا حجج العلويين وبراهينهم التي تشبه خيوط العنكبوت في ضعفها ورداءتها من وجهة نظره .

ولكن مروان استطاع أن يسلك في طريقه هذا مسلك المناظرة الشريفة والدفاع السليم القائم على الاحتجاج والاستدلال المدعوم بالثقافة الدينية وتغليب نظرية العباسيين على نظرية العلويين دون أن يؤدي خصومه بكلمة نابية أو لفظ فاحش أو لهجة تحمل طابع الهجاء الحقيقي القائم على الثلب والذم والتشنيع ، ولاشك أن ذلك يحمل في طياته صعوبة لا يطيقها إلا من يملك قريحة شعرية وقادة وعقلية مثقفة قادرة على التصرف في فنون الكلام وأنواع الأساليب فليس ذلك الفن التقليدي الذي يجيده غالب الشعراء ، وعن هذا يقول طه حسين مصورا صعوبة المهمة (هو مدح إن شئت ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السياسي الذي يحتاج إلى مهارة وفطنة ودقة وخفة والذي كان يضطر صاحبه إلى أن يقهر العلويين دون أن يؤديهم وإلى أن ينصر العباسيين دون أن يزدرى خصومهم) (٢) .

وهو ما أجاده مروان وبرع فيه وفاق فيه الشعراء الذين سلكوا هذا المسلك حيث وقع شعره على العلويين أشد من ضرب السيوف ووخز الرماح وخبط السهام . فأوقع النقاد في لبس حملهم على الاعتقاد بان مروان يحب العباسيين من أعماق قلبه ويغض العلويين من سويداء فؤاده وفي هذا يقول المرزباني (مذهبه في العدول عن أهل البيت مشهور متعارف) (٣)

(٣) معجم الشعراء : ٣٩٦ .

(١) الأغاني : ٤٢ / ٩ . (٢) حديث الأربعاء ٢٣٥ / ٢ - ٢٣٦ .

ويقول عمر فروخ (كان مروان بن ابي حفصة مشهوراً بالميل عن العلويين)(١) .
والملاحظ أن مروان يستند في مناصرته للعباسيين على الناحية الدينية مستشهداً بالقرآن
الكريم ، الذي فضل ابناء العم وقربهم وأدناهم في الميراث على من سواهم من وجهة نظر
مروان حتى ولو كانوا بني البنات ويتضح ذلك في قوله :

الوحي بين بني البنات وبينكم قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الانعام (٢)
ألغي سهامهم الكتاب فحاولوا ان يشرعوا فيها بغير سهام
وقوله :

أم تجحدون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الانفال آخر آيه بتراثهم فأردتم ابطالها (٣)
ومن أمثلة دفاعه السياسي قوله للرشيد :
على ثقة ألفت إليك أمورها قريش كما ألقى عصاه المسافر
أمور بيمرات النبي وليتها فانست لها بالحزم طاو وناشر
ليهنكم الملك الذي اصبحت بكم أسرته مختالة والمنابر
أبوك ولي المصطفى دون هاشم وإن رغمت من حاسديك المناخر (٤)
وقوله مخاطباً المهدي :

أيادي بني العباس بيض سوابغ على كل قوم باديات عوائد
يزين بني ساقى الحجيج خليفة على وجهه نور من الحق شاهد
كان أمير المؤمنين محمد لرأفته بالناس أكرم والد (٥)
على انهم من خالف الحق منهم سقته به الموت الختوف الرواصد

(١) تاريخ الأدب العربي - الأعصر العباسية ١٣٢/٢ .

(٢) الآية قوله تعالى ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ الانعام آية : ١٦٥ .

(٣) الآية قوله تعالى ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ الانفال آية : ٧٥ .

(٤) شعر مروان ص ٩٥ .

(٥) المصدر السابق ٣٧ ، ٣٨ .

وساقي الحجيج هو (العباس بن عبد المطلب) عم الرسول صلى الله عليه وسلم وفي البيت الأخير إشارة إلى العلويين .

وقوله :

فإنك بعد الله للحكم الذي تصاب به من كل أمر مفاصله
كفاكم بعباس ابي الفضل والدأ فما من اب إلا ابو الفضل فاضله (١)

وقوله يمدح الفضل بن يحيى البرمكي :

عصمت حكومته جماعة هاشم من أن يجرد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التي من غيرها عظم البلا وتفرق الحكمان (٢)

وفي البيت الأخير إشارة إلى التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ويهدف مروان من وراء ذلك إلى التعريض بالعلويين .

وكذلك قوله في مدح الفضل بن يحيى البرمكي حين ظفر بيحيى بن عبدالله العلوي

يقارعون عن القوم الذي هم أولي بأحمد في الفرقان إن نسبوا (٣)

على أن مروان رغم اتجاهه السياسي الواضح حينما مدح العباسيين لا يعني ذلك أنه تخلي عن المديح التقليدي ونسيه ولم يفكر فيه بل ظل أسيراً له لا يروم عنه فكأكا إلى جانب المدح السياسي فمدح العباسيين بالكرم والشجاعة والحلم .. الخ ، ولكنه لم يجعل لهذا المديح الأثرة والتفضيل على المدح السياسي وإنما جعله مقدمة له ومكملاً لمنهج يعتمد عليه في تبرير أحقية العباسيين للخلافة وكأن مروان ينظر في جمعه بين النوعين من خلال منظار ثاقب وفكر متوقد وذوق أدبي ممتاز إذ لا بد لرجل الخلافة في نظر مروان أن يكون متحلياً بتلك المزايا والصفات التي هي قوام المدح التقليدي لأنها من ضرورات الخلافة ومؤهلاتها . فالخليفة لا بد وأن يكون شجاعاً في قلبه وعقله ورأيه لأن وجود تلك الصفات فيه يكون سبباً في توليه أمور المسلمين وقيادة سفينتهم وتوجيهها نحو شاطئ السعادة والأمان .

(١) شعر مروان ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) مختار الأغاني ٦ / ٤١٣ وقد نسبها الدكتور عبد السلام هارون في البيان والتبيين (الهامش) ٣ / ٣٥٥ إلى ابي ثمامة الخطيب نقلاً عن الطبري (٥٥١٠) .

(٣) شعر مروان ص ١٨ .

وهذا المدح التقليدي لاتكاد تخلو منه قصيدة من قصائد مروان التي مدح فيها العباسيين ، ومن أمثلة ذلك قوله للمهدي :

ثبت على زلل الحوادث راكب من صرفهن لكل حال حالها
كلتا يديك جعلت فضل نوالها للمسلمين وفي العدو وبالها
وقعت مواقعها بعفوك أنفوس أذهبت بعد مخافة أو جالها
فهذا مديح تقليدي صرف بالشجاعة والكرم والعفو جعله مقدمة مديحه السياسي الذي بلغ قمة جذوته في قوله :

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالتها (١)

حيث يصل مروان في هذين البيتين ذرجة التحدي .

وقد حمل ذلك المهدي على أن خرج عن وقاره فزحف من صدر مصلاه حتى وقف عند قدمي مروان من فرط إعجابه .

ومن حق مروان أن يجعل زعيماً لشعراء النضال السياسي بسبب تلك القصيدة حيث يقول طه حسين عنها (يظهر أنها خلبت أهل عصره وكان من حقها أن تخلبهم فإنها آية من آيات الشعر السياسي وآية الجودة في اللفظ والمعنى وصفاء الأسلوب ورقته في غير ضعف ولا ركاكة) (٢)

ومن أمثلة مديحه التقليدي قوله للهادي :

تشابهتما حلما وعدلا ونائلا وحزماً إذا أمر أقام واقعدا
تنازعتما نفسين هذي كهذه على أصل عرق كان أفخر متلدا (٣)
وقوله للرشيد :
إلى مثله تسمو العيون وما سمت إلى مثل هارون العيون النواظر
إذ فقد الناس الغمام تتابعت عليهم بكفيك الغيوم المواطر (٤)

(١) شعر مروان ص ٦٩ وما بعدها . (٢) حديث الأربعاء : ٢٢٣/٢ .

(٣) شعر مروان ص ٣١ وما بعدها . (٤) انظر شعر مروان ص ٥٣ وما بعدها .

حيث يتضح لكل قارئ أن مروان كان كاذباً في عاطفته حينما مدح العباسيين يفوح ولاؤه السياسي لهم بالزيف والخداع والنفاق والحب المصطنع ، وذلك لأنه لم يمدح العباسيين بحالهم وإنما حبا في مالهم ورغبة في عطائهم ، ومما يؤكد هذا اعترافه على نفسه حينما سئل عن سر تعامله على العلويين فقال (والله ما حملني علي ذلك بغض لهم) (١) وقوله حينما سأله محمد بن عبد الحميد قائلاً (ما أغراك ببني علي ؟ قال ما أحد أحب إليّ منهم ولكني لم أجد أنفع عند القوم منه) (٢) .

والحقيقة أنه مبغض للفتن وإنما دفعه إلي العباسيين شرهه إلى المال وعبادته وتقديسه ، وهم ذوو السلطان بيدهم الحل والعقد وهو ما افتقده العلويون إذاً لمدحهم وأثنى عليهم وهو كما يقول دكتور / طه حسين (فلو أдал الله للأمويين أو للعلويين لسا مع الدولة الجديدة) (٣) فهو يركض من حيث يري بريق الدرهم يخلب عقله ويخطف نور عينيه ومما يزيدنا تأكيداً ووثوقاً نظرته المالية الصرفة ونزوعه الظامئ له فهو لا يكاد يفتر عن ذكر المال وجعله في قصائده قطب الرحي وعمود الخيمة وهذا شأنه مع كل خليفه عباسي ، ويزيد على ذلك بافتخاره في شعره بما أعطاه السلف وكأنه يقول للخلف ألا يقصر في اعطيته ولنقرأ قوله مخاطباً الهادي :

بسبعين ألف شد ظهري وراشني
 وإن أمير المؤمنين لوائح
 أبوك وقد عاينت من ذاك مشهدا
 بأن لا يرى ثوبي لديك مصردا (٤)
 وقوله مخاطباً سلم الخاسر :

جيب بأوقار البغال وإنما
 وقوله متحدثاً عن عطاء المهدي له :
 وما نلها في الناس من شاعر قبلي (٦)
 بسبعين ألفا راشني من جئاته

فأي شاعر ينطوي قلبه ولو على مثال حبة خردل من حب يقول هذا ؟ الجواب لا أحد، ولكن مروان قد استبد حب المال بقلبه وملك عليه إحساسه وعواطفه فلم يعد هنا مجال للحب أو الاعجاب لغيره .

(١) تاريخ بغداد ١٣/١٤٢ . (٢) العقد الفريد ١/٣٠١ .
 (٣) حديث الأربعاء : ٢/٢٣٠ . (٤) شعر مروان ص ٣١ .
 (٥) المصدر السابق ص ٧١ . (٦) انظر شعر مروان ص ٩٣ .

وما يزيد ذلك تأكيداً موقفه حينما مات المهدي إنه لم يستطيع أن يقول فيه قصيدة تستحق أن تسلك في باب الرثاء في حين بكى معنا برائعات القصائد ذلك لأن مروان تجاه المهدي لا يملك سوى عاطفة مادية تقوى في مواطن المال وميادين البذل أما إذا انقطع ذلك فإن العاطفة تدبل كالزهرة وتختضر كشجرة قطع الماء عنها فلا تستطيع تلك العاطفة أن تصعد إلي المشاركة الوجدانية فتفاعل مع المصيبة وتتأثر بها وتنصهر فيها فتبكي وتبكي وتنظم الشعر يحزن ويشجي فظل عاجراً أمام المهدي حيث رثاه بقصيدة منها قوله :

لقد أصبحت تختال في كل بلدة بقبر أمير المؤمنين المقابر

وقد جعلها وسيلة وذريعة للدخول علي الهادي ولو استطاع الدخول بدونها لما توانى عن ذلك وهي قصيدة حكم أقرب منها إلي الرثاء (١) .

كما رثاه بقصيدتين أخريين ما وجد منهما يوحى بأن أسلوبهما أسلوب القصيدة السابقة وكذلك الهدف منهما (٢) كما أن هاتين القصيدتين لم تكونا مقصورتين علي الرثاء وإنما جاء الرثاء فيهما عرضاً من خلال مدح الخليفة الجديد .

فضعف مروان يبرز لنا ماديته واضحة تطفو علي السطح لاغشاة عليها ، وذلك لأ مواطن الحزن تصهر العواطف كما تصهر النار الذهب فتتفي زائفها ومناقفها والمرائي منها بحيث لا يبقى إلا الخلاصة الصادقة التي تحكي الذهب في صفائه والسيف بعد صقله .

ولما مات الهادي جمود الصخر والماء في زمن الشتاء فلم يبح بكلمة رثاء ، وذلك لأنه يعلم أن موت الهادي يسر الخليفة المنتظر وهو الرشيد لأن الهادي قد حاول خلعه من ولاية العهد ، ولذا كان من الخطأ وسوء التقدير أن يتقدم للخليفة الجديد برثاء سلفه وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه إذ لو كان مروان صادقاً في مديحه للهادي خالياً من الدوافع المادية لبادر إلى رثائه بغض النظر عن موقف الخليفة الجديد منه .

وقبل اقفال الحديث في غرض المدح عند مروان أحب أن أشير إلى ظاهرة تبرز واضحة للعيان في جميع مدائحه سواء أكان ذلك لمعن أو للخلفاء العباسيين أو للبرامكة وهي استعمال مروان للإشارات التاريخية التي ترمز إلي حوادث مهمة في حركة التاريخ الإسلامي لخدمة الفكرة التي يريد أن يقولها للناس لأنها تنطوي علي صفة إيجابية لممدوحه مثال ذلك :

(١) انظر شعر مروان ٤٨ .

(٢) انظر في ذلك فصل علاقة مروان بالمهدي الذي سبق وفصل المستدرك علي شعر مروان في نهاية هذا البحث .

١ - إشارته إلى معركة « الهاشمية » بين المنصور وفرقة الراوندية حيث يقول في سياق مديحه لمعن :

مازلت يوم الهاشمية معلنا بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسانان

٢ - قوله في مدح الفضل بن يحيى معرضاً بالعلويين وقد ظفر الفضل بزعيمهم يحيى ابن عبدالله :

عصمت حكومته حكومة هاشم من أن يجرد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التي من غيرها عظم البلا وتفرق الحكمان

في إشارة إلي قصة التحكيم الشهيرة التي اعقبت معركة صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما وكانت سببا في ظهور حركة الخوارج .

٣ - قوله في مدح المهدي :

يزين بني ساقى الحجيج خليفة علي وجهه نور من الحق شاهد

في إشارة لاختصاص العباس بن عبد المطلب بسقيا الحجاج في الجاهلية والاسلام .

٤ - قوله في مدح المهدي معتذراً إليه من وشاية يعقوب بن داود :

وقل مثلما قال ابن يعقوب يوسف لإخوته قولاً له القلب فائع
تنفس فلا تثريب إنك آمن وأنى لك المعروف والقدر جامع

في إشارة إلي دخول يعقوب عليه السلام إلي مصر مع ابنائه وافداً على ابنه النبي يوسف عليه السلام .

٥ - وقوله مخاطباً سلم الخاسر :

فما اعولت أم علي ابن ولا بكى علي يوسف يعقوب مثل بكائك

في إشارة إلي قصة يعقوب عليه السلام مع ابنه يوسف عليه السلام حين أبلغ إخوة يوسف اباهم أن الذئب أكله فبكى عليه السلام حتي ابيضت عيناه من الحزن .

وأمثال تلك الشواهد كثيرة في شعر مروان الوجود بين أيدينا مما جعل ذلك ظاهرة جديرة بالإشارة إليها وتدل دلالة واضحة على ثقافة مروان التاريخية وقدرته الفائقة على استعمال تلك الثقافة لخدمة الغرض الشعري الذي يتطرق إليه كما كانت تلك الثقافة عاملاً مهماً في احتلال مروان مكانته اللائقة بين شعراء عصره المادحين .

٢ - الرثاء

الرثاء هو الغرض الثاني بعد المديح الذي جعله مروان عرضاً مستقلاً لا يربطه إلا بالمقدمات التي تؤدي إليه وتناسبه ولأنني لا أحسب مروان في مجال الرثاء إلا قصائده التي قالها في معن فقط فإنني أذهب إلي أن السبب الرئيسي لجعله غرضاً مستقلاً هو حجم الأحزان التي سيطرت عليه بسبب فقدته لأعز الناس عنده فوجد نفسه بحاجة إلى قصيدة مطولة بل قل إلى قصائد ينشر بين ألقاظها ومعانيها وحروفها أمواج الحزن التي تتلاطم بين ضلوعه واحسب أيضاً أن مروان لو سلك في شعره أسلوب القصيدة القصيرة لما استطاع تفريغ همومه ، وإنما ستظل تنهش قلبه حتى يصل إلى لحظة الانفجار ، كما أنه أراد من وراء إطالة قصائد الرثاء إعطاء نفسه مساحة أكبر للحديث عن أصيب معه بوفاة معن من الخيول والسيوف والأموال واليتامى والفقراء والأسرى والمواشي والقوافي من أجل نقل أحزانه واحزانهم إلي جميع من يتواجد على هذه الأرض من إنسان وصحراء وجبال وإلى الرمال والشمس والقمر والنجوم . إنه يريد أن يجعل الحزن على معن حالة جماعية لا حالة فردية .

لذا فإنني حينما أناقش عرض الرثاء عند مروان أؤكد في البداية أن ليس لديه رثاء سوى ما قاله في معن وإن كنت في ذلك سأتطرق في تلك الدراسة إلى مواقف ثلاثة .

الأول : رثاؤه لمعن بن زائدة .

الثاني : رثاؤه للمهدي .

الثالث : موقفه من وفاة الهادي .

القسم الأول : رثاء معن بن زائدة :

فمروان انقطع إليه مادحاً له مثنيا عليه مطرباً له في شعره يكسوه من الثناء حلالاً ويصفيه وده وإخلاصه ليس ذلك طمعا في المال والنوال وإن كان مروان يعبهه ويقدمه ولكنه جعله شيئاً ثانوياً وطاقة رافدة للطاقة الرئيسية المحركة لشعره وهي نظرة الأعجاب والحب فهي أجل وأسمى وأعلى شأنًا مما سواها لأن مروان كان معجبا به في كل شيء وكل اتجاه فسحره وجذبه إليه بما تحلى به من كريم الخلال وحميد الخصال فمدحه وأثنى عليه ، وكان معن معجبا به وبمدحه فاعطاه واجزل له واصطفاه على جميع الشعراء حتى

أوذى فيه وأنب بسبب كثرة ما اعطاه كما حدث من شأن المنصور معه حينما دخل عليه (١) ولكن معنا لج في هواه واستمر في غلوائه متحديا إرادة الخلفاء فاستمر يبذل لمروان العطاء ومروان يبذل له المديح .

يضاف إلي إعجاب مروان بأخلاق معن وصفاته اتفاهما في المذهب السياسي لأنهما يدينان بالولاء للأمويين دون العباسيين وهذا السبب يكفي وحده لأن يحب مروان معنا فيصدق في حبه .

و شاء الله أن يموت معن قتيلا علي يد الخوارج سنة ١٥٢ بسجستان فرأى مروان في موت معن موت صفات حسنة كثيرة كانت ماثلة فيه إذ مات الكرم الحاتمي والحلم المنقري والشجاعة العنترية إلى غيرها من الصفات الكريمة التي تحلى بها معن وبها اشتهر وطالما تغنى بها مروان وعزف عليها الحانا رائعة تفيض حبا وإعجابا . تأسر الناس وتستحوذ عليهم وتحملهم علي الاعجاب . فلما ماتت تلك الصفات بموت من تمثلت فيه انقلب صداح مروان إلى نواح والحانه العذبة إلى الحان حزينة شجية وأنات مكلومة تنم عن فؤاد مجروح وقلب مشحون بالأسى لا يملك إلا أن يبوح .

لقد انقلب النهار ليلا في عيني مروان واستحال النور ظلاما والسرور حزنا والضحك بكاء ، وانتكس تفريد مروان عويلا وهزيجه نعيًا وفرحه ترحا واحتدم قلبه بهذه المشاعر جميعا فترجمها لسانه وارسلها عبر الأثير قصائد باكية وكلمات مجروحة تكاد تفيض دما ، وهو يعني معنا إلى الناس حيث يقول :

زار ابن زائدة المقابر بعدما ألفت إليه عرى الأمور نزار
وفيها صور ردود الفعل عند قبائل العرب في تأثرها بالفادحة قللاً :

إن القبائل من نزار أصبحت وقلوبها أسفا عليه حرار
ودت ربيعة أنها قسمت له منها فعاش بشطرها الأعمار

فأي إنسان يتمني الناس لو أعطوه شطرا من أعمارهم ؟ إنه ولاشك رجل عظيم .
وتبلغ المصيبة يمروان قمتها ويصل الحزن به أوجه فيقسم بأنه سيظل يبكي معنا ما تتابع ليل ونهار ودجا ظلالم وشع اسفار حيث يقول :

(١) انظر القصة في فصل (علاقته بالمنصور) .

فألكين فتى ربيعة مادجا ليل بظلمته ولاح نهار
إن الذي مات ليس شخصا عاديا وإنما هو رجل ذو شأن عظيم وخطر جسيم لأنه
يموته ماتت كل صفة معنوية تزين أخلاق البشر وتحلي أعناقهم ولنقرأ قوله :

لازال قبر أبي الوليد تجوده بعهادها وبوبلها الأمطار
قبر يضم مع الشجاعة والندى حلما يخالطه تقي ووقار
ففي تجسيم مروان لتلك الصفات المعنوية الكريمة وتشخيصها حتى أحالها صورا
محسوسة ملموسة تقبر ويهال عليها التراب يبرز لنا الأسى في أوضح صورة وأجلاها .
وهكذا يستمر مروان يصدر زفراته الحارقة وأناته الحزينة من قلب مكلوم وفؤاد مزقته
الأحزان والهموم ولكنه في النهاية يخلد إلى إيمانه بالقدر خيره وشره فالموت في نظره حق
ومقدر ولو هاب أحدا وخافه لهاب معنا .

لو كان خلفك أو أمامك هائبا أحدا سواك لهابك المقدار
وفي قصيدة أخرى تتلاطم أمواج الحزن في قلبه كأموج بحر زاخر حيث بدأت وتيرة
الحزن عنده في الارتفاع فإذا به لا يكتفي بنعي معن إلى نفسه أو إلى القبائل ولكنه ينعاه الآن
إلى جميع الأنحاء ومختلف الاصقاع والبقاع وكأنني به واقف على ربوة ليسمع صوته إلى
من له أذن فيسمع وقلب فيخشع حيث يقول :

بكي الشام معنا يوم خلى مكانه فكادت له أرض العراقين ترجف
ثوى القائد الميمون والذائد الذي به كان يرمى الجانب المتخوف
ولم يقتصر البكاء والحزن على ذوي العقول والألباب ولكنه تعداها إلى كل أعجم
فالخيل افتقدت شخصا طالما لوى اعنتها وألهب ظهورها وأمرى جلودها من كثرة الركوب
• وأحال ألونها حمراء كالورد من كثرة الدماء كما بكته شجرة النبع ونعاه الرمح :

بكته الجياد الأعرجية إذ ثوى وحن مع النبع الوشيح المشقف
وانظر كلمة (حن) التي حاول بها مروان استنطاق أشياء جامدة لا تملك تعبيرا عن
حزنها لو حزنت ليصور لنا شعوره الحزين تجاه شخص عظيم ومصاب جليل استنطق فقه
الجماد وأسأل دموع الصافنات الجياد .

ولنأخذ أبياتا من قصيدته اللامية « التي تعتبر بحق » من روائع المراثي التي كتب لها

الخلود ولو لم يكن مروان سواها لكفاه فخرا .

لنقرأ قوله مصوراً حزن البلدان الاسلامية لفقد معن لتخيل وتصور صدق عاطفته

وأظلمت العراق وأورثتها مصيبتها المجللة اختلالا
وظل الشام يرجف جانباه لركن العز حين وهى فمالا
وكادت من تهامة كل أرض ومن نجد تزول غداة زالا

والشمس ماذا أصابها؟ لقد أعلنت حدادها وتحجبت بالسواد وحجبت عن الناس
ضياءها وكأني بمروان يتخيل أن ضياء الشمس وشعاعها مستمد من بهاء معن وضياء نفسه
واشراقها فلا غرابة أن تظلم إذا فقدت مصدر نورها ومنبع إشراقها .

كأن الشمس يوم أصيب معن من الإظلام ملبسة جلالا

قد يقول قائل إن في ذلك مبالغة ، وأقول إنها مبالغة ولكنها مبالغة مقبولة لا يابأها
الذوق ولا يرفضها مادامت لم تخرج عن تعاليم الدين أو ترسم المرثي في صورة فوق
مستوى البشر أو تخترع من شيء مستحيل ، وذلك لأن مروان بكى واستبكى فحجب
الدمع بغزارته ضياء الشمس عن عينيه فلم يعد يرى نوراً ولا ضياء فتخيل أن الشمس قد
غاض نورها واختفى اشراقها حزنا علي معن . أف يكون مروان مغاليا مبالغا خارجا عن حدود
المعقول؟ الجواب لا ، لأنه وإن بالغ إلا أن المبالغة تلك تدور في حدود معقولة يستوجبها
غرض الرثاء فهي مبالغة تنزع إلي المثالية التي تريد أن تصل الأحزان إليها لأن من بكاه
الشاعر، كان مثاليا .

والآن تخيل معي مروان بعد أن أمضه الحزن وآله الفراق فقلبه يكتوي بنار الحزن
واحشاؤه تشتعل اشتعال النار حتى استحال نحيفا ناحلا يكاد النسيم أن يلقيه أرضا إذا مر
به لأنه بلغ من الضعف حدا أوقفه على حرف من الموت هكذا اتخيله واتصوره فهذه حال
كل من استبد به حزن وأمضه فراق وهذا مروان نفسه يحيل الخيال حقيقة حيث يقول :

فلست بمالك عبرات عين
وفي الأحشاء منك غليل حزن
وقائلة رأيت جسمي ولوني
رأت رجلا مراه الحزن حتى
أرى مروان عاد كذى نحول
أبت بدموعها إلا أنهمالا
كحر النار يشتعل اشتعالا
معا عن عهدا قلبا فحالا
أضر به وأورثه خبالا
من الهندي قد فقد الصقالا

هكذا أضر به الحزن ولم يبق منه إلا حشاشة نفس تردد في جسم بدت عظامه واصفر لونه وحري به أن يذوب حتى لا يبقى منه باقية .

وفي تكرر مروان كلمة « لهف » في الأبيات الآتية نحس أن الحزن بلغ منه مبلغه وحطم روحه المعنوية وأضناه حتى أننا لتتخيل مروان ينتزع نفسه انتزاعا ويجتذب الآهات من أعماق فؤاده بصعوبة حيث يقول :

فلهف ابي عليك إذا العطايا	جعلن منى كواذب واعتلالا
ولهف ابي عليك إذا الأسارى	شكوا حلقا بأسوقهم ثقالا
ولهف ابي عليك إذا اليتامى	غدوا شعنا كأن بهم سلالا
ولهف ابي عليك إذا المواشي	قرت جدبا تمات به هزالا
ولهف ابي عليك لكل هيجا	لها تلقي حواملها السخالا
ولهف ابي عليك إذ القوافي	لمتدح بها ذهبت ضلالا
ولهف ابي عليك لكل أمر	يقول له النجي إلا احتيالا

وأحرى به أن يذوب كمدا وهما وغما فلقد جمع في فؤاده احزاناً شتى فهناك أحزان المجتدين والأسارى واليتامى والمواشي والحرب والشعر وغيرها . أحزان كثيرة تجعل الدنيا سوداء لأجمال فيها وجدباء لاخصب فيها وجامدة لا حياة فيها استجمعها مروان وعبر عنها جميعاً فهو شاعر يملك الكلمة التي يعبر بها وهي عدته وسلاحه وهؤلاء لا يملكون شيئاً فجعل نفسه وقفا عليهم ونصيرا لهم فاصطلحت على فؤاده علل شتى واحزان مختلفة تكفي كلمة « لهف » معبرة عنها إذ نحس فيها مدى الألم الذي يعتصره ومعاني الحزن التي تستخدم في قلبه وكلها تريد أن يعبر عنها فكان أن كرر كلمة (لهف) حتى أنقطع نفسه واضناه التعب فلم يجد بدا من القاء عصا تسياره في بلاد اليمامة إذ لا يخطر بباله أن يجتدي أحداً ولا أن يشتد الرحال إليه لأن كل معنى كريم مات بموت معن حيث يقول :

أقمنا باليمامة إذ يئسنا	مقاماً لانريد به زيالا
وقلنا أين نرحل بعد معن	وقد ذهب النوال فلانوالا
حياك أخو أمية بالمرائي	مع المدح اللواتي كان قالا
وألقي رحله أسقفا وآلى	يمينا لا يشد له حبالا

وكان أن استراح مروان ست سنوات من ١٥٢ - ١٥٨ هـ وفاء لمن وتخليدا لذكراه .

بعد هذا يجب أن نتساءل أي عاطفة سيطرت علي مروان في رثائه ؟ .

لا شك أنها كانت عاطفة الصدق والإخلاص التي منحتها هذه القدرة على تصوير الحزن والمبالغة فيه ، وهي الانقلاب الحتمي لعاطفة الإعجاب في المديح وهذه العاطفة هي التي أورثته النفس الطويل حتى استطاع أن يصور أحزانه وأن يعبر عن مشاعره التي تحتدم في فؤاده دون أن يضعف أو يهن أو ينضب معينه لأن العاطفة كانت قوية دافعة دافقة كالنهر متلاطمة كالبحر تحس فيها حرارة النار ، والأصالة تدفعه إلى أن يقول ويطلق ويسهب في رثائه كما كان في مديحه ومع ذلك جاء عملاقا كالجبل في شموخه ومحلقا كالنسر في عليائه فاستطاع أن يحافظ علي الجودة والقوة والاتقان وقوة الأسر والأحكام والصفاء والنقاء دون أن يعكف على التنسيق والتهديب والتحكيك والعكوف زمنا طويلا قبل أن ترى قصائده الرثائية النور ، وذلك لأن الرثاء فن يجب أن يكون الأثر الناتج عن الانفعال معه وليد ساعته ، ولهذا فإن الشعور بالوفاء والإخلاص من مروان تجاه معن حرضه وأعانه في ملامته فاستطاع أن يعبر بصدق واحساس عن حزنه كما عبر قبل عن اعجابيه ، وما كان ذلك حاصلًا لولا صدق العاطفة فهي قوام العمل الأدبي ، وبها يكتسب قوته في الرثاء من قوتها .

وختامًا أقول : لقد كان مروان عملاقا في مديحه ورثائه لمن ، وليس بدعاً أن يعجب جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي بقصيدة مروان اللامية (أقمنا باليمامة) فيمنحه عليها عطاء جزيلًا (١) .

القسم الثاني : رثاء المهدي :

وهو في حد ذاته ليس رثاء وليس فيه ما يدل علي الرثاء ولكنني أحببت الإشارة إليه وذلك من أجل انصاف مروان ممن ظلموه في رثائه معنا رغم إجادته في ذلك لأنه قد مدح الاثنين مدحا أفاض فيه وعد بحق من زعماء المديح العربي وفرسان حليته رغم اختلاف الطريق التي سلكها في مدح كل منهما ، ولكننا نجده مدح كل واحد منهما بعاطفة تختلف عن عاطفته تجاه الثاني إذ أن لمروان مع معن عاطفة وله مع المهدي عاطفة أخرى فهي مع معن صادقة ومع المهدي مادية كاذبة ، وإن كان أجاد في مدح المهدي فمرد ذلك إلى أنه كان ينقح شعره ويهدبه ويعكف عليه طويلا ثم يعرضه على الأدباء والنقاد .

(١) انظر الخبر مفصلا في (فصل علاقته بمعن) من هذا البحث .

ومن هنا ذهبت للحديث عن رثائه للمهدي فإذا كان مروان في مديحه لمعن يختلف عنه في مديحه للمهدي فهل يعقل أن يكون في رثائه لهما على نمط واحد أي متكلفا متعسفا لأن المعاني لاتأتيه طوعا وإنما كررها كما يتهم في رثائه لمعن ؟

لو قلت عن رثائه لمعن إنه رثاء مصطنع وعاطفته كاذبة وإن مصدر القوة فيه من نتاج التمحيص والتهديب فماذا يقال عن رثائه للمهدي إنني أعجز عن وصف ينم عن الضعف والكذب اطلقه علي رثاء مروان للمهدي .

وإذا كان مروان قد خالف طريقته في مدح كل منهما لاختلاف المشاعر والأحاسيس فهل يعقل أن يوحد بينهما في رثائه ؟ لا وألف لا . إن الشواهد والقصائد هي التي تحكم فيما شجر وتوضح مدى الفرق بين رثاء مروان لمعن ورثائه للمهدي .

لقد ناقض الدكتور طه حسين نفسه حينما تكلم عن موقف مروان من وفاة المهدي حيث قال : (على أن رثاءه لمعن ليس بالرديء ، وكذلك رثاؤه للمهدي) ثم قال (وهل نستطيع أن نعد رثاءه للمهدي رثاء ؟) (١) لا أدري بماذا أعلل قول طه حسين هذا سوى أن أقول إنه قول ذهني أطلقه الدكتور دون ترو وتدقيق فأوقعه ذلك في التناقض . أما أنا فأقول عنه إنه رثاء ضعيف رث مهلهل بارد كالثلج ، خال من العاطفة بل إنه أضعف ما قاله مروان من شعر وليته ما أنشده لسانه ، وهذا الشعر هو قوله :

لقد أصبحت تختال في كل بلدة	بقبر أمير المؤمنين المقابر
أنته التي ابتزت سليمان ملكه	وألوت بذى القرنين منها الدوائر
أنته فغالت المنايا وعدله	ومروفه في الشرق والغرب ظاهر
ولو كان تجريد السيوف يرددها	ثنت حدها عنه السيوف البواتر
بأيد بها تعطي الصوام حقها	وتروى لدى الروع الرماح الشواجر
ولو لم تسكن بابنه بعد موته	لما برحت تبكي عليه المنابر

فأي رثاء في ذلك وأي حزن وأي تألم ؟ أين بكاء اليتامى والجياد والأرض الذي سكبته حينما مات معن ؟ ، وأين ارتجاف العراق والشام ونجد وتهامة وهي الأماكن التي

(١) حديث الأربعاء ٢ / ٢٣٥ .

ارتجفت حينما مات معن ؟ ، وأين الشمس التي اظلمت واحتجبت ؟ لماذا لم تحتجب ؟ أليس المهدي هو الخليفة وأعظم شأنًا في دنيا السياسية من معن ؟ إني لأتخيل أن الشمس سوف تحتجب نهائيًا لأن الحزن علي الخليفة أعظم ، والأرض سوف تميد بأهلها لأن مصابها أجل ، ومع ذلك لم نجد مروان يحكي من ذلك شيئًا ، وإنما سلك جانبًا فلسفيًا محضًا هو فيه أشبه بالمعري والمنتبي وجعل مروان من نفسه حكيمًا واعظًا يذكر بالموت والقرون التي مضت وأن الموت حق لا يقف أمامه رادع ولا يغله سيف ولا رمح ، وهذه حكم مبتذلة لاكنها الألسن كثيرا فأصبحت شيئًا عاديًا ليس فيه تجديد وليس فيها حرارة تأتي من أي إنسان ينصب نفسه واعظًا زاجرًا لأنها لا تنفجر إلى عاطفة وكثيرًا ما رأينا وعاظًا تخالف الستهم أفقدتهم .

فليس غريبًا أن تأتي الحكمة والوعظ من مروان ، ولكن عن طريق الشعر الذي يخدع به الناس على أنه رثاء .

فهذه الأبيات لم ولن تبعث في نفس أي قارئ حزنًا ولا شجنا لأنها لم تبعث في نفس قائلها شيئًا من هذا فكيف لانسان أن يثور حزنه من أبيات لم تتعد إطار الحكمة المبتذلة .

والأكبر والأدهى من ذلك كله تصويره حالة المقابر وافتخارها بالمهدي في قوله :

لقد أصبحت تختال كل بلدة بقبر أمير المؤمنين المقابر

أهكذا يكون شعور الحزين ؟ إن الحزين يجب عليه أن يصور حزنه وحزن الناس من حوله والحيوان والجماد ليكون حزينًا حقيقيًا ، وهو ما فعله مروان في رثائه لمعن أما أن يصور فرح المقابر واختيالها فهذا يدل علي عدم التأثر والافتقار إلى الاحساس المرهف والشعور الصادق النبيل ، وما أخال مروان إلا فرحًا بموت المهدي فبدلاً من أن يعبر عن فرحه عبر عن فرح المقابر أليس في فرحها . إخبار بموته وفرح به .

لقد كانت غاية مروان غير الرثاء ، وإنما جعل الرثاء وسيلة إلى ذلك لأنه جعل تلك القصيدة سبباً لدخوله علي الهادي . فهي أبيات عزاء وتهنئة وليست قصيدة رثاء وترزئة وهذا يعني أن الدافع إلي قول هذه الأبيات ليس العاطفة الصادقة وإنما هي العاطفة المادية ولهذا جاءت باردة مهلهلة رديئة النسج ضعيفة المعاني ولولا تلك المناسبة لما جاءت قريحته بشيء أنها على طريقة الغاية تبرر الوسيلة .

وشيء آخر يؤكد ما قلت وهو أن هذه الأبيات لم ينظمها مروان حين وفاة المهدي مباشرة وإنما جاء ذلك بعد أن تمت المناسبة التي يريدتها وهي تولي الهادي الخلافة والرثاء

الحقيقي إنما يكون وليد الانفعال الناتج عن التأثير الفوري والتجاوب السريع مع الحادثة ومن هنا جاءت هذه الأبيات عرضاً من خلال غرض المديح الذي بدأ طريقه مع الخليفة الجديد إلا أن المديح ضاع عدا بيت واحد ، وبقي ماسمي مجازاً بالثناء .

وقد يقول قائل إن في ذلك تحامل على مروان ؟ وإن هذه الأبيات لاتدل علي بقية قصائده فربما أنه جاء بقصائد تفيض دمعاً وشجناً ؟ وليس الحال كذلك لأن هذه الأبيات هي أول ردة فعل من مروان تجاه وفاة المهدي ، وعليه يجب أن تكون في مستوى الحادثة وقوة التأثير لأن عامل الحزن يخف مع الأيام فكيف يجيد فما بعد وتلك أولى قصائده .

إنه لم يقل شيئاً ولو فرضنا أنه قال شيئاً (ما) فإنه لا يعدو أن يكون رثاء تافها ساقطاً الغاية منه توثيق الصلة مع الخليفة الجديد .

وعموماً كيف نطالب شاعراً كاذباً في عاطفته تجاه العباسيين حينما مدحهم بالثناء ألم يقل حينما سئل عن سبب تحامله علي بني علي (ما أحد أحب إليّ منهم ولكن لم أجد أنفع عند القوم منه) (١) .

كما يصدق هذا الرأي علي مقطوعتين قالهما مروان في رثاء المهدي (مجازاً) وكان الهدف منهما التزلف للخليفة الجديد (الهادي) وهما :

(الأولي)

أفنى البكاء علي الإمام محمد	ماء العيون فاسعدت بدمائها
إن القبور قديمها وحديثها	بصدك فاضلة علي أصدائها
ما حفرت اسنى وأكرم ساكنا	من حفرة حدروك في أرجائها
إلا التي أمسى النبي محمد	فيها فإن لتلك فضل سنائها (١)

أهذا النظم يمكن أن يقال له رثاء في خليفة نال مروان من عطاياه مالم ينله شاعر سواه باعترافه هو . كل ما في هذه الأبيات مشاركة وجدانية للخليفة الجديد لأن المتوفى والده

(١) العقد الفريد ٣٦٨/٥ .

(٢) تاريخ الموصل ص ٢٥٥ ويظهر أن هذه الأبيات الأربعة جزءاً من قصيدة أورد منها الدكتور حسين عطوان بيتاً واحداً هو

إن خللت بعد الإمام محمد نفسي فما فرحت بطول بقائها

انظر شعر مروان ص ١٥ .

ولاشيء سوى ذلك وهي مشاركة ينتهي أثرها بعد أن ينال من ذلك الخليفة عطاءه لينصرف إلي مدحه فقط .

(الثانية) : وهي عبارة عن بيتين فقط هما :

وأكرم بقبر بعد قبر محمد نبي الهدى قبر بما سبذان
عجبت لايد هالت الترب فوقه ضحى كيف لم ترجع بدون بنان (١)
كل ما في هذين البيتين مجرد تكرار للفكرة التي تناولها مروان في المقطوعة الاولى
وهي أن قبر المهدي يفضل جميع القبور التي ضمت الموتى عدا قبر واحد هو قبر النبي صلى
الله عليه وسلم ، وفي اعتقادي أن التعبير بمثل هذا ليس بمستحيل أن يقوله شخص لم ير
المهدي في حياته ولم ينل منه درهما فكيف يمكن إذاً أن نحسبه لمروان رثاء .

القسم الثالث : موقفه من وفاة الهادي :

لم تستمر خلافة الهادي أكثر من عام واحد حيث تولى الخلافة عام ١٦٩ هـ وقتل
عام ١٧٠ هـ بسبب محاولته ابعاد أخيه الرشيد عن ولاية العهد .

وبدراسة شعر مروان الخاص بغرض المديح نجد أن مدح الهادي بعدة قصائد خلال
سنة حكمه منها القصيدة التي يقول فيها :

تشابهتما حلماً وعدلاً ونائلاً وحزماً إذا أمر أقام وأقعدا
تنازعتما نفسين هذي كهذه على أصل عرق كان أفخر متلداً (٢)

وقصيدته (الرثيه) التي جعل مقدمتها رثاء للمهدي وفيها يقول :

ولو لم تسكن بابنه بعد موته لما برحت تبكي عليه المناير
ولو لم يقم موسى عليها لرجعت حينئذ كما حن الصفايا العشائر (٣)

وقصيدته (اللاميه) التي يقول فيها :

تشابه يوماً بأسه ونواله فما أحد يدري لأيهما الفضل
يه أياه منظراً وخليقة كما حذيت يوماً علي أختها النعل (٤)

(١) وفيات الأعيان : ٣٤١/٥ . (٢) شعر مروان ص ٣٠ .

(٣) البيت الأول في شعر مروان ص ٤٨ والثاني في سمط النجوم العوالي ٢٧٢/٢ وتاريخ الخلفاء ص ٣٨٢ .

(٤) شعر مروان ص ٨٥ .

كما مدحه من خلال مدحه لوالده المهدي وذلك حينما بويح له بالعهد حيث يقول
في قصيدته الميمية :

عقد لموسي بالرفافة بيعة شد الإله بها عرى الإسلام (١)

وهذا يدل على أنه استطاع الدخول علي الهادي في سنة واحدة ما لا يقل عن ثلاث
مرات ، ولو قسنا عدد مدائح مروان قياساً بالزمن الذي قيلت فيه ومن خلال علاقته
بالممدوحين لوجدنا أن الهادي هو أكثر ممدوحيه حظاً من مدائحه قياساً على قصر مدته
وهذا يعني أن الهادي كان حاضراً في ذهن مروان الذي يشغله بين حين وآخر بأعداد
قصيدة ليمدحه بها .

وحينما مات الهادي لم نسمع من مروان رثاء للخليفة الذي مات فجأة ولو بيتا
واحداً، ولو قل مستواه الفني عن الأبيات التي عزاه فيها بوفاة والده .

واعتقد أن هذا أكبر دليل علي أن مروان لم يكن شاعر رثاء بالنسبة للخلفاء العباسيين
وأن أبياته التي قالها في المهدي إنما كانت من باب المشاركة الوجدانية للخليفة الجديد
ولكي يمهّد بها الطريق للدخول عليه ومدحه وأخذ العطاء منه ، ونظراً لأن الخليفة الجديد
هارون الرشيد كان يكره أخاه الهادي بسبب محاولة إبعاده عن ولاية العهد فإنه ما كان
يسمح لشاعر مهما كان محباً للهادي حباً صادقاً بأن يقول فيه كلمة رثاء فكيف إذا كان
الشاعر يحب الخليفة ماله .

لقد عرف مروان ذلك وهذا يدل علي أنه يدرك خفايا العلاقات الاجتماعية
والسياسية التي قد تجمع وقد تفرق أبناء الأسرة العباسية لذا فإنه نظر إلى مستقبله وأصبح
ماضيه مع الهادي ذكرى كم يود لو يمحوها ، خاصة وأنها جرت عليه المصائب في بداية
علاقته بالرشيد ، ولو كان مروان محباً للهادي قياساً علي كثرة مدائحه له لسمعنا له رثاء
ولعبر بذلك عن وفائه للخليفة المتوفى مهما كان المستقبل الذي ينتظره من الخليفة الجديد
أسوداً ، كما رأينا من صنيعه حين مات معن بن زائدة حيث تفجر بأروع قصائد الرثاء رغم
معرفة المسبقة بعدم استحباب الخلفاء العباسيين لذلك ، وقد يقول قائل ، ربما أن عذر مروان
أن الهادي مات ولم يكن عنده علم بوفاته وبالتالي فهو معذور على عدم رثائه له ! .

(١) تاريخ الخلفاء ٢٧٤ ومختار الأغاني ٤٠٨/٦ من ضمن (خمسة أبيات) في حين وردت بقية القصيدة

في شعر مروان ص ٤٠

وأقول : إن ذلك تعليل غير منطقي لأن موت الخليفة لا بد وأن يبلغ مسامع مروان ولو كان في اليمامة فالمتوفى لم يكن رجلاً عادياً يموت مثله (ألوف) من البشر في اليوم الواحد دون أن يتأثر بهم أو يسمع بهم أحد . كما أن لدينا شاهداً من علاقة مروان بمعن ينسف هذا التعليل من أساسه ، وذلك أن معن بن زائدة قد قتل بسجستان ومروان باليمامة ، ولم يثبت في أي مصدر أدبي كتب عن حياة مروان أنه كان مرافقاً لمعن لحظة مقتله وسجستان أبعد عن منطقة اليمامة من بغداد التي توفي بها الخليفة الهادي كما أن معن من الناحية السياسية أقل شأنًا من الهادي وهذا يعني أن موته لم يهز الناس وينتشر بينهم مثل ما يحدث عند موت أحد الخلفاء .

أقول مع ذلك سمعنا من مروان عدة قصائد رثائية في معن حول فيها الحزن عليه من حالة فردية إلى حالة جماعية ولم يقف الزمن الذي يفصل بين موت معن ووصول خبره إلى مروان حائلاً دون تأثر مروان لفقده . كما لم تقف المسافة عائقاً بين مروان وبين الحزن .

إن هذا يعني أن مروان لم يكن على استعداد لرياء أي خليفة عباسي إلا بمقدار ما يستحسن ذلك الخليفة الجديد ، أما إن كان يرفض ذلك فإن مروان سينزل على رغبة فمهمته مع الخلفاء العباسيين هي انتظار الدرهم والبحث عنه بدلاً من البكاء على خليفة مضى زمنه ولو امتد العمر بمروان فشهد وفاة الرشيد أو الأمين أو المأمون فإنه سيظل وفياً للدرهم فقط ولن يشغل ذهنه بوفاة الخليفة .



٣ - الوصف

عاش مروان في إقليم اليمامة ، وهو عبارة عن أرض واسعة مترامية الأطراف مشهورة بكثرة جبالها وأوديتها وفيها الواسعة ورمالها التي تمتد مئات الأميال كما أنه يغلب عليها التصحر وندرة الماء والكلأ إلي درجة تصل إلي حد الخوف ، ومن هنا أعطت مجالا للشعراء بسبب عوامل نفسية إلي أن يتخيلوا وهم يقطعون أرجاءها أنهم يسمعون عزيف الجن وصراخ السعالي فيصفون ذلك في قصائدهم كما يبالغ أكثرهم فيدعون أنهم خاطبوا تلك الأشباح أو تزوجوها أو قاتلوها كما حدث من الشنفرى وتأبط شرا ، ومحل ذلك يعود إلى قسوة الصحراء وندرة الحياة فيها .

فالتبيعة فيها وهي مبعث الوصف طبيعة جافة طبعت ساكنها بطبعها فأهلها أعراب أصحاب خشونة وشطف ، وفي منطقتهم أصحاب جزالة وصلف وقوة ، ومن هنا كان حريا أن يتأثر الشاعر بتلك البيئة فتطغى عليه الجزالة والفخامة ولا تكاد تجد عنده الرقة والعدوبة في وصفه كما هي الحال بشعراء الشام التي كانت بلادهم ذات ماء ونماء وأشجار وثمار تسحر القلوب وتخلب العيون .

وفي صحراء اليمامة تعيش حمر الوحش والبقر الوحشية والظباء والوعول ، وسفينتها ووسيلة المواصلات فيها الإبل فهي التي تصبر على حرها وبرودتها وطولها وعرضها وندرة مائها وعشبا .

وهذه المكونات تضاف إلي طبيعة الأرض من جبال وأودية ... الخ ، فتوضح لنا طبيعة اليمامة طبيعة جافة تكاد تميل إلي الجمود . تمنح ساكنيها قوة وصلابة وخشونة ومن هنا تأثروا بها فوصفوا رمالها وجبالها وشيخها وقيصومها وكان مروان من هؤلاء الذين وصفوا وصوروا ولكن على قلة .

يقول صاحب تاريخ بغداد (كان - أي مروان - يطيل في تصوير الصحراء ورحلته فيها إطالة شديدة حتي أنه وصف في مدحه له في الرشيد ناقتة من خطامها إلى خفيها كما وصف الفيافي من اليمامة إلى بابه أرضاً أرضاً ورملة رملة) (١) .

(١) تاريخ بغداد ٢٥٨/٦ واعتقد أن القصيدة هي قوله :

لعمرك ما أنسى غداة المحصب إشارة سلمى بالبنان المخضب

ولكنها للأسف ضاعت ، كما أنه اطال هذا الوصف في قصيدته في مدح المهدي (طرتك زائرة) انظر شعر مروان ص ٩٧

ومن وصفه قوله يصف حديقة وهبها له المهدي :

نواضر غلبا قد تدانت رؤوسها من النبت حتي ما يطير غرابها
تري الباسقات العم فيها كأنها ظعائن مضروب عليها قبابها
تري بابها سهلا لكل مدافع إذا اينعت نخل فأغلق بابها
يكون لنا مانجنتي من ثمارها ربيعاً إذا الآفاق قل سحابها (١)

فهو في هذه القصيدة لا يصف خرير الماء وتغريد البلابل وحفيف الأشجار . فهذه معان رقيقة لاتلائم مع روحه ، ولكنه يميل إلي التفخيم والجزالة في الوصف التي تتلائم وروح الشاعر الذي يعيش في إقليم كاليمامة فيتحدث عن طول النخل والتفافه ، ويصفه بصورة تلازم كل راحل . إنها صورة الظعينة فوق الهودج وباب الحديقة مفتوح لكل محتاج تدفعه ظروف الجوع إلى البحث عما يأكله عندما ينضح ثمرها الذي يريد أن يكون له (ربيعاً) إذا قل المطر الذي يعتبر صفة لازمة لإقليم اليمامة فيحيل الحياة فيها إلى خشونة وشظف تجبر الإنسان علي الاحتفاظ بالتمر ليكون معاشه في أوقات الجفاف . حتى أن أسلوب مروان الوصفي هذا جعل الدكتور مصطفى الشكعة يعتبره شعراً ساذجاً لم تفارقه طبيعة الشاعر المستجدي حيث يقول (إننا ونحن نقرأ وصفاً لحديقة يملكها مروان نتوقع أن نقرأ شعراً أنيقاً أناقة الزهر مخضلاً إخضلال الروض يفوح بالأرج وينشر الشذا وظل النداء ونتوقع الصورة الحلوة والخيال الخصب) (٢) .

ولنقرأ هذه المقطوعة في وصف ناقته من قصيدته (طرتك زائرة)

وكأنما طرقت بنفحة روضة سحت بها ديم الربيع ظلالتها
باتت تسائل في المنام معرسا بالبيد أشعت لايميل سؤالها
في فتية هجعوا غراراً بعدما سئموا مراعشة السرى ومطالها
فكأن حشو ثيابهم هندية نحلت وأغفلت العيون صقالها
وضعوا الحدود لدى سواهم جنح تشكو كلوم صفاحها وكلالها
نزعت إليك صواديا فتقاذفت تطوي الفلاة حزونها ورمالها

(١) شعر مروان ص ٢٥ .

(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٨ ، وفي اعتقادي أن الدكتور مصطفى الشكعة قد أخطأ التشخيص حيث يطالب شاعرنا بأن يخرج من جلده الحشن ويخلع عنه غبار البداوة لكي يحسبه واصفاً .

يتبعن ناجية يهز مراحها بعد النحول تليها وقذالها
هو جاء تدرع الربا وتشقها شق الشموس إذا تراع جلالها
تنجو إذ رفع القطيع كما نجت خرجاء بادرت الظلام رئالها
كالقوس ساهمة أتتك وقد ترى كالبرج تملأ رحلها ورحالها

والملاحظ عند مروان أنه يكثر من وصف ناقته ونعته بصبرها وجلدها وهي تقطع الفيافي وتطوي القفار والسباب مطنيا في تعداد خصالها ولأريب في أن يطنب ويطيل فهي نعم الصاحب والرفيق أيام السفر تؤنس الوحدة وتطرد الوحشة تناجي راكبيها وتمنحه إلهاما شعريا يدفع به الملل وينفي عنه الكلل فينطلق لسانه بالشعر حاديا مغنيا فيزيد من نشاط الراحلة وينعشها ويعطيها قوة لاشعورية تدفعها إلي مواصلة السير ومتابعة الرحلة دون تعب ولا نصب .

ومن ذلك قوله مخاطبا جعفر البرمكي :

إلى جعفر سارت بنا كل جسرة طواها سراها نحوه والتهجر (١)
وقوله من قصيدة أخرى مخاطبا بها المهدي :
إليك أمير المؤمنين تجاذبت بنا الليل خوص كالقسي شوارد
يمانية ينأى القريب محله بهن ويدنو الشاحط المتباعد
تجلى الرى عنها وللعيس أعين سوام وأعناق إليك قواصد (٢)
وقوله في قصيدة يمدح بها معن بن زائدة :
لولا رجائك ما تخطت ناقتي عرض الدبيل ولاقرى نجران (٣)
وقوله من قصيدة أخرى في مدح معن :
والعيس قد علت الدبيل وخلفت بطن العقيق بنا وحسي كباب (٤)

(١) شعر مروان ص ٥١ .

(٢) المصدر السابق ٣٦ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠٦ .

(٤) صفه جزيرة العرب ص ١٥٢ .

وقوله من قصيدة ثلاثة في مدح معن :

تحن فلوصى نحو صنعاء إذ رأت سماء الحيا من نحو صنعاء تبرق
تحن إلى مرعى بصنعاء مخصب وشرب رواء ماؤه لا يرنق (١)

وهذه النماذج تؤكد على أن هناك اتحاداً وجدانياً يكاد يصل درجة العشق المثالي بين مروان وناقته جعله يكسر الحديث عنها وكأنه لا رفيق له سواها في الصحراء المترامية الأطراف بين اليمامة واليمن وبصورة أدت إلى تلاشي مرافقيه من البشر .

وبعداً أن يفني مروان الناقة حق الصحبة وجميل الألفة وكأن لا رفيق له سواها نراه يخرج من وصف ناقته إلى وصف الصحراء ومعالمها من سهول وأودية وجبال هي بمثابة اطمار على أقمار وأسماط علي حسان معطال فالصحراء تحويه وتناجيه وتوحي إليه بمعاني الرصانة والقوة والخوف حيناً والسعادة حيناً آخر . يري بأعينه معالمها فيندفع واصفاً جبالها في شموخها وبذخها ووديتها في تعرجها وتلويها ورمالها في سكونها وتحركها وهي تحاكي الذهب صفاء ولمعانا ثم يصف تلك الصحراء بطولها وعرضها وندرة مائها وعشبتها ليوظف ذلك كله في معنى يراود فؤاده وهو وصف ناقته بالقوة كما يتطرق إلي نعت رفقاء الرحلة بالشدّة والبأس والشجاعة وهي معان اكتسبوها من الصحراء .

وليس من الضروري أن يكون لمروان رفقاء في كل رحلة وربما يكون وحيداً ولكنه يتخيل أن معه رفقاء يحادثهم ويحدثونه يعينونه على طول السفر ومشتقته على سبيل التشخيص الذي كان منتشرًا في أشعار القدماء الذين كان مروان بهم أشبه كما نلاحظ ذلك في بعض الشواهد الشعرية التي سبق ذكرها .

ولكن مروان في وصفه صاحب مذهب واقعي فكل صورته واقعية حسية مأخوذة من البيئة التي يعيش فيها الشاعر تشبيهاته كلها محسوسة تري بالعين ولا ينزع منها إلى شيء من الخيال الذي يعتمد على الصورة المعنوية الاماندر فهو يشبه بالظعائن والروضة والسيوف والقوس ، وهذا أقصى ما يصل إليه مروان وأقصى ماتساعده به الطبيعة لأنها طبيعة جامدة صامتة محدودة تجعل الإنسان واقعياً في صورته وأفكاره وأخيلته فلا يصف إلا ما يري ويشاهد ويلمس ، أما الخيال بصوره المعنوية المخترعة فإنه من خواص الطبيعة المتحركة وريثة الترف والحضارة والنعيم والرقّة ، ومروان أشبه بمن يعيش في الجاهلية لأنه

(١) شعر مروان ص ٦٨ .

لم يتصل بالحضاره ولم يتأثر بها في شعره وإنما ظل أسير بيئته التي تنزع إلي القديم ولا تكاد ترتبط بالحضارة التي وجدت في العصر العباسي الا بالزمن .

ونرى هذه الصورة الحسية في قوله :

أمسى المشيب من الشباب بديلا ضيفا أقام فلا يريد رحىلا
والشيب إذ طرد السواد بياضه كالصبح أحدث للظلام أفولا (١)

وربما اعتمد مروان على شيء من المبالغة في وصفه ، وذلك كي يحرر نفسه من الواقعية الجامدة التي كونتها عنده بيئته محاولا أن يضيفي على وصفه شيئا من الحركة ويغذيه بدفقة حياة حديثة ولكن هذه مبالغة مقبولة لأنها لا تنبؤ عن الذوق ولا يجها سمع أو تأنف منها أذن لأنها في مجال الرثاء حيث يقول :

كأن الشمس يوم أصيب معن من الإظلام ملبسة جلالا
وعطلت الثغور لفقده معن وقد يروى بها الأسل النهالا
وأظلمت العراق وأورثتها مصيبة المجلة اختلالا
وظل الشام ترجف جانباها لركن العز حين وهى فمالا
وكادت من تهامة كل أرض ومن نجد تزول غداة زالا

ورغم كثرة الوصف في شعر مروان إلا أنه لم يكن غرضا مستقلا بنفسه ولكنه يتبع في وصفه خط الشعراء القدماء فهو بهم أشبه وأمثل ، وهم لم ينظموا الوصف مستقلا وإنما جعلوه مقدمة لسواه من الأغراض كالهجاء والمدح والفخر وسواها . ثم أنه وصف لا يعدو وصف البيئة وما يكمل هذه البيئة وهو ما نلاحظه عند مروان لأنه وصف ناقته حين ركبها مسافرا ووصف الغيافي لأنه مر بها والنجد لأنه ارتفع معها والوهاد لأنه انحدر معها ونراه وصف الشيب حين حل به ضيفا وألم برأسه وهو من مستلزمات الغزل الذي هو مطلع القصيدة الجاهلية في غالب الأحيان . لذا قال الدكتور طه حسين عن مروان (هو أقرب إلي شعر الجاهليين والإسلاميين منه إلى شعر المحدثين) (٢) .

وصفوة القول أن الوصف في شعر مروان لم يكن غرضا مستقلا ولا يستحق أن يكون كذلك لأنه لا يمثل شخصية مروان ولا يبنىء عنها تماما وإنما هو متابعة للشعراء

(١) شعر مروان ص ٩٧ .

(٢) حديث الأربعاء ٢٣٦/٢ .

القدماء من جاهليين وإسلاميين ومواصلة للسير في طريقهم كما أنه وصف واقعي صرف لم يتجاوز ذلك إلى الخيال المجنح والصور المعنوية الابتدائية منها والوهمية ، وهذا يعني ضيق افق مروان الوصفي نظر لضيق بيئته وافتقارها إلى الطبيعة التي تحمل الشعراء على التحليق والابداع الوصفي في عالم الخيال ذلك لأنه شعر يجرى بمعزل عن الحضارة وينغرس في بيئة اقليم اليمامة التي هي للبدواة أقرب .

وهذه نماذج من الوصف في اتجاهات شتى توضح ما ذهبنا إليه

١ - قال مروان من قصيدة يمدح بها معن بن زائدة :

ويوم عسول الآل حام كأنما لظى شمسه مشبوب نار تلهب
نصبنا له منا الوجوه وكنها عصائب اسمال بها تتعصب
إلى المجتدى معن تخطت ركابنا تائف فيما بينها الريح تلعب
كأن دليل القوم بين سهوبها طريد دم من خشية الموت يهرب (١)

٢ - وقال من قصيدة يمدح بها المهدي :

إليك أمير المؤمنين تجاذبت بنا الليل خوص كالفسي شوارد
يمانیه ينأى القريب محله بهن ويدنو الشاحط المتباعد
تجلى السرى عنها وللعيس أعين سوام وأعناق اليك قواصد (٢)

٣ - وقال من قصيدة يمدح بها معن بن زائدة :

ولما سرى الهم الغريب قرينه قرى من أزال الشك عنه وأزمعاً
عزمت فعجلت الرحيل ولم أكن كذى لوثة لا يطلع الهم مطلعاً
فأمت ركابى أرض معن ولم تزل إلى أرض معن حيثما كان نزعا
نجائب لولا انها سخرت لنا أبت عزة من جهلها أن تورعا
كسونا رحال الميس منها غواربا تدارك فيها التي صيفا ومربعا (٣)

(١) شعر مروان ص ١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦ .

والمتبع لشعر مروان يجد أن ذلك الوصف وإن كان إشارات متفرقة جاءت كمقدمات لغرض المدح عنده كونت ظاهرة وصفية جديدة بالإشارة إليها وإن لم يجعله في عداد شعراء الوصف وهذا ما ذهب إليه د. مصطفى الشكعة حيث قال : (إذا وردت له - أي مروان - مقطوعة شعرية تبدو من ملامحها أنها قيلت في غرض آخر فإن البحث لا يلبث أن يلحقها بقصيدة مديح أو رثاء فأكثر الأبيات التي رويت له منفردة في غزل أو وصف شيب أو طيف خيال كلها أنشئت في الأصل في ركاب مديحه في هذا أو ذاك من الكبار الذين كان يمدحهم مروان) (١) .



(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٢٩ .

٤ - الفخر

الفخر فن طالما تغنى به الجاهليون وغرد به الاسلاميون وعزفوا عليه ألحان المجد والعظمة لأن هؤلاء الشعراء من سلالة عربية عريقة في نسبها أصيلة في حسبها ، وكل شاعر منهم ينتمي إلى قبيلة لها من المفاخر والمحامد مما يدفعه إلى مباهاة الآخرين والتعالي عليهم في شعره وإن كان دور ذلك الغرض قد تضاعف نسبياً في العصر الاسلامي الذي عمل علي إنهاء العصبية القبلية التي تعتبر المؤجج الرئيسي لغرض الفخر ، واتجه به إلى معاني أخرى .

كان العرب عظماء في نفوسهم كرماء وشجعان أصحاب رأي وسداد وإغاثة ونجدة وهذه أمور وجد فيها الشعراء عطاء ثرا ، ومنهلا عذبا ومعينا لا ينضب يمدهم بمقومات تفاخرهم ، ففاخر العربي بأبائه وعدد خصالهم وخلالهم ومناقبهم كي يبني لنفسه مجداً ويعلي مكانته ، واتخذ الشعر مطية ووسيلة إلى ذلك لأن الشعر هو وسيلة التخاطب وهو الإذاعة والصحافة وهو وسيلة الإعلام التي تؤثر في الناس وتخلبهم وتسحرهم . فغرد الشاعر العربي في دوحه وعزف ألحان عزه ومجده فتغنت طيء بكرم حاتم وقيم بحلم الأحنف وعبس بشجاعة عنترة وفاخرت قريش سواها بلغتها ومكانتها بين القبائل ، وهكذا كانت جميع القبائل العربية في كل صقع ومكان ، وكان الشاعر المتحدث الرسمي باسمها المدافع عنها المفاخر بأمجادها فأين مروان من ذلك ؟

لم يكن من ذلك في شيء لأنه يشكو عقدة النسب فلم يكن عربيا يفخر بقبيلته وعراقة وأصالة وإنما كان مولى أصله من سبي اصطخر كما سبق تفصيله في الكلام عن نسبه وعاشت أسرته تنن تحت ثقل قيود الرق والذل حتي نفضها الله الحرية من القيد والخلاص من رق العبودية علي يد مروان بن الحكم حين أعتق ابا حفصة ، ولذا فإن عقدة النسب لا تزال تلاحق شاعرنا مروان ، ومن هنا لم يستطع أن ينسب بنت شفه أو يتفوه بكلمة فخر بأسرته لأن قيمة النسب تكمن في كونه عربيا وهو ما يفتقده . وكل ما قاله في هذا المجال بيت واحد يفخر فيه ببني أمية وجعلهم له قوماً حيث قال :

بنو مروان قومي اعتقوني وكل الناس بعد لهم عيد (١)

(١) شعر مروان ص ٣٥ .

ومن الطبيعي أن يفتقر مروان إلى بقية الصفحات المعنوية التي تباهى بها العرب وتفاخروا بها ونظموا منها قلائد حلوا بها أعناقهم وعلقوها أو سمة علي صدورهم .

لم يفاخر مروان بشجاعة ولا كرم ولا سواهما من الصفات وذلك لأنه يعيش عضواً غريباً على الجسم العربي والمجتمع العربي لم يشتهر بالكرم ولم تشتهر أسرته لأن الأسرة رغم تحريرها من الرق ظلت أسيرة الولاء للأمويين ينفقون عليها ويجرون عليها الأرزاق فكرمها من كرم الأمويين وجودها من جودهم . والشجاعة مثلاً لم يفاخر بها مروان لأنه كان جباناً ولم يؤثر في أسرته شجاع عدا مروان بن يحيى عم أبيه ، والشاعر لا يفتخر بشجاعة سواه إلا إذا افتخر بشجاعته قبلاً ، ولم يكن مروان في ذلك شيئاً يذكر ، وإنما كان ذا فؤاد يخفق عند رنين الدرهم والدينار ويضطرب رعباً عند سماعه قعقة السلاح .

ورغم وجود إشارات قليلة إلى معاني الشجاعة في شعره إلا أنه تطرق إليها علي سبيل الادعاء لا الصديق وربما أن مروان جعل من موقف جده الأعلى (أبي حفصة) في معركة الجمل ويوم الدار وموقف عم أبيه (مروان) في حرب ابن الأشعث مبرراً للفخر كما يفعل كثير من الناس الذين يعرضون نقصهم وحاجتهم إلى خصلة كريمة بالبحث عنها في تاريخ أجدادهم . (١)

وقد يتساءل انسان (ما) لماذا لا يفاخر مروان بنسبه وحسبه رغم أنه مولى ؟ فكم شاعر مثله فاخر بنسبه الفارسي والرومي في العصر الذي عاش فيه مروان .

والجواب : صحيح فقد تباهى بشار وأبو نواس ومهيار الديلمي وسواهم بأنسابهم واحسابهم وفاخروا العرب وفخروا عليهم بأنهم جمعوا بين أصالة النسب العجمي والدين الذي جاء به محمد العربي . بل وجدوا أذناً صاغية وعقولا واعية تتلقف ما يقولون فالمجتمع الذي عاشوا فيه كثر فيه أشباههم من الموالى من الفرس والروم وسواهم ووجدوا التشجيع من الوزراء الذين ينتمون إلى الشعر العجمي كيعقوب بن داود والبرامكة والبويهيين ممن كانت لهم الدالة والسيطرة فعملوا جهدهم على إثناء الشعبية واشعالها وهي حركة قامت هدفها النيل من العرب والانتقام منهم والإساءة إليهم .

مع ذلك لم يتجاوب مروان مع تلك الحركة ولم يحاول أن يفخر بها ويتباهى

(١) انظر الأغاني ٣٤/٩ بالنسبة لموقف جد مروان (أبي حفصة يوم الدار ومعركة الجمل) ٣٥/٩ وبالنسبة لموقف عم أبيه في حرب الحجاج مع ابن الأشعث حينما بعثه عبد الملك إلى الحجاج وقال له بعثنا إليك مولاي ابن أبي حفصة وهو يعدل ألف رجل .

بعظمتها وذلك لأنه يعيش في بيئة عربية صرفة ومجتمع عربي قح حافظ علي تقاليده وعاداته ومثله التي ورثها عن أجداده ومنها التعصب العربي وهذا كاف لان يقف سداً منيعاً في وجه مروان .

كذلك فإن المجتمع ظل منقطعاً عن الحضارة التي وجدت والنهضة التي حدثت لبعده عن مواطن تلك الحضارة وكانت تفصله عنه هوة . فلم ينخر في جسم ذلك المجتمع شيء من اتون تلك الحضارة ، وإنما ظل مجتمعاً يضرب بأصالته وعرويته في أعماق العصر الجاهلي . فلم تنسرب إليه الشعوية التي حملت الموالي علي التباهي والتفاخر بعد أن طال كتبهم في العصر الأموي ومروان كان عضواً في ذلك المجتمع اليمامي الموغل في جاهليته فلم يتأثر بحضارة ولا ترف ولانعيم ولهذا لم يتأثر بما جلبته تلك الحضارة خاصة « نزعة الشعوية » لأنه عاش حياته في اليمامة وانقطع إلى معن طويلاً في اليمن وهو في حياته يحاكي اليمامة وإن حدث أن سافر مروان إلى « بغداد » عاصمة الخلافة والحضارة فإنه لا يلبث أن ينكفيء راجعاً إلي « يمامته » بعد أن يمدح ويأخذ نواله .

إذا لم يكن له نسب قديم ولا حسب عريق بالمقاييس العربية ولهذا لم نجد له فخراً ولم يتأثر بالشعوية فنجد له شعراً يمجّد النسب العجمي الفارسي فهل فاخر مروان أم لا ؟ والجواب نعم فاخر بشيء بزفيه غيره وتعالى فيه عمن سواه بعد أن عدم أسباب الفخر الحقيقي والمجد الأصيل . أليس الشاعر يفاخر بشجاعة قومة ونسبهم وكرمهم لأنهم بزوا سواهم وفاقوا غيرهم ؟ . إذاً فمن حقه ذلك لأنه فاق سواه وتعالى عليهم وبزهم ولكن ليس في مجال الكرم والشجاعة وإنما في مجال المال والمادة .

فالمشهور عن مروان حبه للمال وتهالكه عليه وغرامه الشديد به ولهذا مدح وأكثر المديح ونال من الأعطيات ما لم ينله سواه فأخذ من المهدي مائة ألف درهم وأصبح رسمه عند الخلفاء العباسيين بكل بيت ألف درهم فجعل المال مدار فخره ومباهاته حيث فاخر بكثرة ما أخذ من الخلفاء من العطايا والأموال .

ومن هذا قوله مفاخراً سلم الخاسر ويغيره بقلة جائزته :

واني لسباق إذا الخيل كلفت	مدى مائة أو غاية فوق ذلكا
طلبت من المهدي شطر حباته	فقال لك المهدي لست هنالكا
فما أعولت أم علي ابن ولابكي	علي يوسف يعقوب مثل بكائكا

فدع سابقا إن عاودتك عجاجة
وفيها يقول :

حببت بأوقار البغال وإنما
وقال أيضا مفاخرأً بعطيته من المهدي :
بسبعين ألفا راشني من حباته
وقوله مفاخرأً بشعره وعطائه :

ولقد جريت مع الجياد ففتها
ما نالت الشعراء من مستخلف
عزت معا عند الملوك مقالتي
ولقد حببت بألف ألف لم تشب
مازلت آنف أن أولف مدحة
ماضوني حسد اللثام ولم يزل
وربما فاخر بكرمه كاذبا حيث يقول

أروى الظماء بكل حوض مفعم
وتظل للاحسان ضامنة القرى
اعطى الله متبرعا عودا على

والله يشهد إنه لكاذب وربما دفعه لذلك صيت جده (يحيى) الذي اشتهر بالكرم
والجود مما دعا الشاعر الأموي جرير إلى مدحة بذلك (٤).

سنابكة أو هين منك سنابكا

سراب الضحى ماتدعي من حباتكا (١)

وما نالها في الناس من شاعر قبلي (٢)

بعنان لاشبم ولا مبهور
مانلت من جاه وأخذ بدور
ماقال حيهم مع المقبور
إلا بسبب خليفة ووزير
إلا لصاحب منبر وسرير
ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

جودا وأترع للسغاب قدوري
من كل تامكة السنام عقيري
بدء وذاك علي غير كثير (٣)

والله يشهد إنه لكاذب وربما دفعه لذلك صيت جده (يحيى) الذي اشتهر بالكرم

والجود مما دعا الشاعر الأموي جرير إلى مدحة بذلك (٤).

(١) انظر شعر مروان ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ٩٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٥ وما بعدها .

(٤) يقول جرير في مدح يحيى :

ألا أن يحيى نعم زاد المسافر
إذا أنفضوا أو قل ما في الغرائر

ازاداً سوى يحيى تريد وصاحباً
وما تأمن الوجناء وقعة سيفة

ديوان جرير ص ١٨٣ .

وقد يدعي الشجاعة (كاذبا) كما في هذا البيت .

وإذا هدرت مع القروم محاضرا في موطن فضح القروم هديري (١)

ولم يكن يعطي « اللها » ولكن يعطي « الدوانيق » ، وما كان شجاعا وإنما كان يخاف من ظله ، ولكنه لما افتخر بكثرة عطائه خشي أن يتبادر للأذهان سؤال عن أمواله ماذا يفعل بها فافتخر بالكرم ليقول للناس إنه ينفقها في البذل والمنح والعطاء مع أن المشهور عنه أنه كان بخيلا ممسكا . وأحرى به أن يعد من أشهر بخلاء العرب .

ومما يدل علي ذلك قوله مفتخراً بكرمه من خلال قصيدة قالها واصفا حديقة اهداها له المهدي حيث قال :

تري بابها سهلا لكل مدافع إذا اينعت نخل فأغلق بابها

حيث جره افتخاره المزعوم بكرمه إلى الحديث عن كيفية حصوله علي تلك الأموال وأنها جاءت من طريق حلال . حيث يقول .

ولكن عطاء الله من كل مدحة جزيل من المستخلفين ثوابها

أو أنها كانت غنائم من اشترك آباءه واجداده في حروب المشركين حيث يقول :

ومن ركضنا الخيل في كل غارة حلال بأرض المشركين نهابها

حوت عنمها أباؤنا وجدودنا بضم العوالي والدماء خضابها (٢)

ويبدو أن مروان أحس بأن الناس لن يصدقوا حديثه عن شجاعته وإشارته إليها في قوله « وإذا هدرت مع القرون محاضرا - البيت » فكان أن تغنى بشجاعة آباءه وأجداده .

ولما كانت الشجاعة خلق معنوي كريم يستحق المفاخرة به فاخر بها وتباهى ليضيفها إلى كرمه المزعوم فيبني لنفسه مجداً باذخا يطاول عنان السماء حتي يشق الحجب ، وقد خالطه شيء من الخجل لاعتقاده الجازم أن الناس له مكذبون ، ولهذا جاء حديثه عن شجاعته نزرأ في شعره حيث لم يفاخر بالكرم والشجاعة إلا في هاتين القصيدتين ، وهذا يعطينا دليلا قاطعا أنهما ليسا خلقا له ولا طبعاً ، وإنما فاخر بهما عرضاً وكذبا خاصة وأن هذا الفخر لم يكن في قصائد مستقلة وقفت عليه وإنما جاء مبعوثاً ضمن قصائد تجمع اغراضاً شتى .

(١) شعر مروان ص ٥٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٦ .

وخلاصة القول أقول « كان مروان خاضعا لعاطفة مادية بحثة ملكت لسانه وعلقت فكره واستحوذت على فؤاده فلم يكن ليتصرف بمعزل عنها فلثم في مديحه أيدي ممدوحية من العباسيين استجابة لنداء المادة مفضلا مواضع الذل والهوان مع كثرة العطاء علي مواضع الشرف والكرامة مع ندرة السخاء .

وكان حريابه وخليقا أن يبقى أسير تلك العاطفة مرهونا لديها مدعنا لها مسلسا قياده طوعا إن شاء أو كرها حينما فاخر وكابر حيث جعلت تلك العاطفة آثار بصماتها واضحة على فخره إن استحق أن يسمى ذلك فخراً فلم يجد بدا من الافتخار بكثرة المال والعرض من درهم ودينار وهذا ما يرضي تلك العاطفة الدنيئة لأن لا شيء يرضيها سوى هذا طالما أنه قد حرم شرف النسب وعراقة الأصل والحسب فلم يجد بدا أن يفخر بالمال وكثرة العطاء .

وحينما ذكرت « طرفا » من فخره فلا يعني ذلك الاعتراف به شاعر فخر ، ولكنني أردت أن اشير إلى أن الناس تفاخر حسب مدارك عقولها وأخلاقها ، ومن حق مروان من (وجهة نظره) وهو شاعر يحب المال أن يفخر به وكثرة ما نال منه فهو أبرز صفة فيه وأظهر طبع تخلق به ، ومن قبله فاخر حاتم بكرمه لأنه طبع فيه وعنترة بالشجاعة لأنها طبع أصيل جرى في دمائه ، ولذا فإن مروان كان شاعر فخر بمقاييسه هو لا بمقاييس الشعر والنقد والبيئة .

ولنقرأ هذه الأبيات التي يفخر فيها بشعره وبأعطياته ومكانته عند الملوك وقد قال تلك الأبيات حينما (حضر) فقيل له قل لا إله إلا الله فقال :

تبقي قوافي الشعر ما بقيت	والشعر منسي إذا نسيت
لم يحظ في الشعر كما حظيت	جمع من الناس ولا شتيت
كم ملك حلتته كسيت	ومن سرير ملكة أذنت
إن غبت عن حضرته دعيت	وإن حضرت بابه حيت (١)

ومن هنا يتضح لنا أن جميع الأبيات التي فخر فيها بنفسه وشعره ومكانته (وكرمه) وشجاعته لا تتجاوز (٢٣) بيتا فقط ماثورة في جميع قصائده وهي من القلة بحيث لا تجعله شاعر فخر ، وهذا في إطار الرؤية العامة لحياة مروان وأخلاقه وصفاته ومن خلال شعره أمر طبيعي لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

(١) شعر مروان ص ٢٦ .

والشيء الوحيد الذي يمكن تسجيله لمروان في هذا المجال هو واقعيته في التعامل مع نفسه فقد عرف مقدارها فعزف بها عن الفخر كما يجب أن يكون وكما هو مشاهد لدى عنترة بن شداد أو المتنبي أو الفرزدق أو جرير كما أنه لم يحاول أن يسلك في ذلك مسلك كثير من الشعراء الذين أكثروا من الفخر بأنفسهم وبقومهم وبصفاتهم وأخلاقهم وهي غير موجودة إلا في أشعارهم ، ورحم الله امرأة أعراف قدر نفسه . ويكفي للدلالة على أن مروان فاقد للمعاني الحقيقية التي يحق للإنسان أن يفتخر بها قول ابن المعتز وهو من أفضل من كتب عنه (ليس له فخر قديم ولا حديث غير الشعر) (١) ، وما ذهب إليه الدكتور طه حسين حينما قال : (ثم لانعرف لمروان فخراً وما نحسب أنه فاخر أو مال إلى الفخر فقد كان رجلاً عملياً يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة) (٢) والفخر الذي يريده طه حسين هو الافتخار بالحسب والنسب والجاه والمكانة والكرم والشجاعة .



(١) طبقات الشعراء ٤٦/١ .

(٢) حديث الأربعاء ٢ / ٢٣٥ .

٥ - العزل :

الغزل غرض وفن رقيق يلامس شغاف القلوب ويناجي سويداءها يهمس إليها بمعان حلوة عذبة رقيقة ، وهو لحن طالما عزف عليه الشعراء اشجى الألحان واعذبها وارقتها وروضة طالما غرد الشعراء في أيكها وتحت ظلالها لأنه غرض مصدره حب من أعماق الفؤاد يجيش به القلب ويترجمه اللسان كلمة ولفظة ومعنى لتتألف لنا قصائد رائعة تصور ذلك الحب العفيف في أسمى مظاهر طهره وصفائه تطرب اسما عنا وتناجي قلوبنا .

والغزل فن أصيل وغرض نبيل طالما التزم بحدود التعفف . يصور لنا الحب الحقيقي وقد لبس برود العفة واكسية الطهارة وتوشح بوشاح النقاء والصفاء والإخلاص ، ويصور لنا النفس العربية حيث تهيم وتحب وتغرم وتكون في حبها وفيه مخلصمة نقية كالتلج صافية كالمرآة مشرقة بنور هذا الحب الوادع السامي الذي يربط بين القلوب ويكون سببا في انتظام الجنس البشري . لأن الحب سماء يعيش تحت ظلالها جميع البشر .

وشعرنا العربي طالما حفل بأروع قصص الحب « العذري » وبالقصائد الرائعة والاغاريد المنعشة التي تفيض بكل ما يحتدم به قلب الحب من غرام وهيام ، وطالما تغنى قيس بليلي وكثير بعزة وجميل ببثينة وعروة بعفراء . وعشرات غيرهم .

فأين وقفت قدم مروان به من هذا الفن ؟ ، وأي مرحلة قطعها في مملكته ؟ ، وهل تنزل أم لا ؟ وإن كان كذلك فما نوع غزله ؟ أسئلة كثيرة تطرح نفسها ومثيلاتها عالقة بالشفاه كلها تنتظر جوابا شافيا يروي الظمأ ويشفي العليل فعسى ألا يعز الجواب .

لقد سبق وأن أوضحت أن مروان عاش في ، اقليم اليمامة وهو اقليم طالما عبقت اجواؤه بعطور قصص الحب العذري الطاهر فكم درج على أرض اليمامة من عاشق ، وكم رضع رحيق الحب والظهر من صحرائها من صب معنى كلف ، وكم شبه هؤلاء العاشقون المحبون عيون من أحبوا بعيون ظباء اليمامة وآرامها وكم بكوا ديار من أحبوا ورثوا أطلالها ، وكم كان جديراً بمروان أن يكون محبا « صبا دنفا » تعلق قلبه وتصبى فؤاده ربه خدر ولكنه لم يكن كذلك رغم أنه عاش في بيئة هي الحب العفيف كله في اسمي معانيه .

لم يتعلق قلبه بمهارة من البشر ولم يعن بحبها ولم تأسر عقله ولبه وقلبه هند ولا دعد ولا

عنيزة ، وإنما عاش وقلبه مليء بكل شيء إلا الحب الذي لم يجد له طريقاً إلى قلب مروان ولو وجد الطريق لعدم المكان وقصى مروان عمره لم يحب وما عشق بقلبه ، وإن كان عاشقاً محباً بلسانه كما يدعي في شعره فما العلة التي منعت أن يكون عاشقاً ؟

إن العلة المستعصية التي أعييت الحب وحطمتة قبل أن يجد طريقه إلى قلب مروان علة عريضة لم يرم مروان عنها فكاكا ولا خلاصاً كانت العلة هي البخل وكان المرض هو «الشح» وكان الداء هو التقدير .

فالبخل يورث الانسان حب المال والخلاص له والهيام به ولهذا فلن يجد الحب الحقيقي إلى القلب طريقاً .

والمرأة تريد فيمن يحبها ويهيم بها أن يكون جميلاً في مظهره الخُلقي والخُلقي في ملبسه ومأكله ومشربه ولم يكن مروان محظوظاً في هذا .

والمعشوقة تريد من محبوبها أن يهيم بها فقط ويتجرد من أجلها من كل عرض ويتخلص من كل حب يعارض الحب العذري الطاهر . تريد من محبوبها أن يكون شجاعاً كريماً متلاًفاً ولكنها لا تريده بخيلاً محباً للمال لأنه سوف يسلبه عنها ويتشاغل به عن حبها حتى يطوي حبهما النسيان . كما أنها ترى الكفاءة في النسب شرطاً مهماً في هذا المضمار .

هكذا تريد المرأة المحبوبة المعشوقة فقيس هام بليلى ولم ينشد سواها حتى أصيب بالهوس من فرط المحبة فصاحب الوحوش في البراري ، وعروة بكى وتألم ونفت الاحزان في أشعار غزلية رائعة خللته في تاريخ الحب وصنفته مع مشاهير المحبين ، وغيرهم عشرات بل مئات العاشقين الذين تحدثت عنهم كتب الأدب ، ولكن مروان لم يرد ذلك من المرأة ولهذا أعرض عنها وهجرها ومنحها الصدود والمرأة لم ترض منه أن يخلط حبها الطاهر العفيف بحب المال فهو حب دنيء ، ولهذا لم تقبل عليه أو تهيم به ، ولكونه رجلاً واقعياً عرف حدوده فلم يتحدث ولم يدع يوماً أنه أحب حباً حقيقياً يستحق أن يقول فيه أشعاراً تخبر الناس بمعاناته .

لقد حرم مروان نفسه من ملذات الحياة المباحة التي يعشقها كل من وجد المال وترددت بين جنبه روح الشباب وحيويته الدافقة وكان حرياً أن يبذل المال ويلبس الجميل من الأكسية والثياب حتى يكون ذا مظهر حسن ومنظر جميل يلفت به انظار الكواعب ولكنه قتر على نفسه وبخل على غيره فلم يعرف قلبه لذة الحب وناره ولوعته .

ولهذا يقول طه حسين (لأنعرف لمروان مجونا ولاعبثا ، فلم يكن كما قلنا ما جنا ولا عابثاً وإنما كان بخيلاً والبخل والعبث شيئان لا يتفقان ومن ضمن على نفسه باللحم وطيبات الطعام لم يستبح لنفسه خمرا ولا ماتبعه الخمر) (١) . وأقول : إننا لا نريده محبا حب المجون كابي نواس ووالية بن الحباب ، ولا نريده يشرب خمرا ولكن كم نتمنى أن يكون مروان من « العذريين » في حبهم النقي الطاهر لأنه عاش في بيئة عاشوا فيها ومن الحب ارضعتهم ، ولكن قاتل الله البخل الذي أطفأ جذوة الحب في قلبه فما استكان لكاعب وما خضع لسوداء الذوائب .

ولكن هل يعني ذلك أن مروان لم يتغزل ؟ ، وهل كان حجراً أصلدا لا يتأثر ؟ وجماداً لا يحس ؟ أحساساً يخرج عن دائرة الجمود ، وإن قل عن درجة المحب العاشق ؟
الجواب لم يكن مروان جماداً ولم يكن حجراً وإنما كان إنسان له مشاعر وأحاسيس مثل غيره من البشر ولكنها مشاعر وأحاسيس فيها صلابة وصمود أمام مواطن الرقة وفيها ثورة علي الحب ومعانيه ولكنه لم يكن كذلك بلسانه وإنما كان محبا دفنا هائما لأنه تغزل « بأم مالك » « وبليلي » وإن كان في ذلك يخالف القلب الذي لا يعرف من هي « أم مالك » « وليلى » لقد كان تجريديا في حبه .

لقد كان مروان مزدوج الشخصية والعاطفة فهو حينما مدح العباسيين تجلى في شخصيتين شخصية المبعوض وشخصية المحب ، ومدحهم بعاطفتين عاطفة الكره من أعماق قلبه والحب من طرف لسانه ، وكان هكذا في غزله إذ تغزل منطلقا من هاتين العاطفتين حيث كان محبا بلسانه دنفا ولم يكن كذلك بقلبه ، وإنما كان يتبع خطى الشعراء الجاهليين والاسلاميين الذين يعتبرون أهل عصر واحد لأن الأغراض التي نظموا فيها واحدة وطريقة بناء القصيدة واحدة لم تتغير إلا لما تشابه البيئة والمؤثرات ، ومروان كان واحداً من هؤلاء ندعهم وشد عن عصرهم بزمنه لا بثقافته فعاش في العصر العباسي ولكنه تأثر بهم لأن بيئته كانت قديمة صرفا في لهجتها وحضارتها . فهو شاعر عباسي يتشع ببرود الجاهلية واكسية عصر الإسلام لا يمت للعصر العباسي بشيء اللهم إلا بسنة والوفاة .

ولما كان الشعراء الجاهليون والاسلاميون يبدوون قصائدهم بالغزل وإن كانت مديحا أو وصفا أو هجاء أو فخرا فإن مروان تغزل مثلهم لاعن حب ولكن محاكاة وتقليدا وجعل

(١) حديث الأربعاء / ١ / ٢٣٥ .

ذلك الغزل مقدمة لأغراض شعرية أخرى فاذا ما استرسل قليلا مثلهم انتقل للغرض الاساسي مقلدا لهم تماما إذ يقول « دع ذا » (عد عن ذا » كما يقول الجاهليون ، واخترع اسماء وهمية جعلها ابطال حبه ومدار غزله متغزلاً بأُم مالك وليلى وأُم بكر وأُم السمط كما تغزل الأعشى بهريرة وامرؤ القيس بعدد من الأسماء ، وبكى المحبوبة كما بكوا ، ووقف علي اطلالها كما وقفوا كما تحدثنا الشواهد التاليه في قوله :

أعادك من ذكر الأحبة عائد ؟
تذكرت من تهوى فأبكاك ذكره
وقوله : مرى العين شوق حال دون التجلد
وقوله : خلعت بعدنا من أهل ليلي المصانع
وقوله : كأن التي يوم الرحيل تعرضت
وقوله : تصد لكحول المدامع لابن
وقوله : هاجت هواك بواكر الأضعان

وقد يصور للناس دور البرق في إثارة حنينه إلى ديار المحبوبة أو زيارة طيفها في منامه فيؤرقه كما في قوله :

كأنه من دواعي شوق صبيب
وما يلمع البرق إلا حن مغترب
ونحن لاصدد منها ولا كشب (٦)
اهلا بطيف لام السمط أرقنا
وللموت خير من هوى لايساعد (٧)
وتحن وتأبى أن يساعذك الهوى
وإن كان من عهد الصبا قد تمتعا (٨)
أرى القلب أمسى بالأوانس مولعا
هاج شوقا عليك فاستبكاكا (٩)
يقوله : ماترى البرق نحو قران إلا
يضاء تخلط بالحياء دلالتها (١٠)
وقوله : طافت الخيال فحيه خيالها
أنى المم وليس حين لمام (١١)
وقوله : طاف الخيال فحيه بسلام

- (١) شعر مروان ص ٣٦ . (٢) المصدر السابق ص ٣٩ . (٣) المصدر السابق ص ٦٦ .
(٤) المصدر السابق ص ٨٨ . (٥) المصدر السابق ص ١٠٦ . (٦) المصدر السابق ص ٢٠ .
(٧) شعر مروان ص ٣٦ . (٨) المصدر السابق ص ٦٨ . (٩) المصدر السابق ص ٧٣ .
(١٠) المصدر السابق ص ٩٦ . (١١) المصدر السابق ص ١٠٤ .

وقد يتحدث عن هجران محبوبته له فيقول :

أفي كل يوم أنت صب و ليلة إلى أم بكر لا تفنيق فتقصر
أحب على الهجران اكناف بيتها فيالك من بيت يحب ويهجر (١)
إن من يقرأ هذه الأبيات التي جاءت (مطلعاً) لقصائده المادحة ليشعر أنه امام شاعر
يتلون حيناً في ملابس امرىء القيس وحيناً في ملابس النابغة ومرة في ملابس لبيد ابن ربيعة
وأخرى في ملابس الأعشى ، وهذا ما جعل الدكتور طه حسين يقول (وهو محق في ذلك)

(لم يكن مروان متصرفاً في فنون الشعر لعله لم يعد فناً أو فنين فليس نعرف له غزلاً إلا
هذا الغزل الذي عادة الشعراء أن يبدؤوا به مدائحهم) (٢) ويؤيده في رأيه الدكتور شوقي
ضيف حيث يقول (وليس له وراء المدح والرثاء شعر مذكور) (٣) مما جعل هذا الشعر شعر
تقليد وغزل محاكاة ليس فيه من الغزل الحقيقي إلا لفظ الحب والهيام والصدود وعيون
الظباء والآرام وسواها من الأوصاف التي نطق بها الشعراء قبله ، ولكنه غزل يفتقر إلى
الحرارة والصدق وهما نتاج معاناة الحب الحقيقي الذي لم يكن له أثر عند مروان فغزله بارد
بكل ما تحمله الكلمة من معنى . قاله مقلداً للقدماء ولو ترك هؤلاء الغزل في مطالع القصائد
ووصفوا الخمر لتبعمهم حذو القذة بالقذة ومن هنا كان الأولى أن يقال عن مروان إنه كان
واصفاً لا متغزلاً كما يتضح ذلك منالشاهد التالي :

- يقول مروان متغزلاً من قصيدة يمدح بها زائدة بن معن بن زائدة :

لام في أم مالك عاذ لاكا ولعمر الإله ما انصفاكا
وكلا عاذ ليك أصبح مما بك خلوا هواه غير هواكا
عذلا في الهوى ولو جرباه اسعداً اذ بكيت أو عذراكا

إلى أن يقول :

- (١) شعر مروان ص ٥١ .
(٢) حديث الأربعاء ٢ / ٢٣٤ .
(٣) العصر العباسي الأول ص ٣٠١ .

كنت ترعى عهدهن وتعصى فى هواهن كل لاح لـاكا
عد عن ذكرهن واذكرهما بقوى حبله عقدت قواكا (١)

فانظر كيف اعتمد كاف الخطاب في كلامه وكنى بها « عاذلاكا » « انصفاكا »
« عاذليك » « هواكا » ... الخ إني لا أحسبه يتكلم عن نفسه واصفا مغامراته في دنيا العشق
والغلام ولكنه يحكي لنا قصة إنسان يخاطبه ويصور لنا حبه وعشقه وهذا يضيف علي النص
برودا متناهيا لأن الشاعر لا يستطيع أن ينقل مشاعر غيره من المحبين وما يتلظون به من هيام
ووجد وغرام ويكون في ذلك حرارة وصدق وشعور وإحساس لأن الإنسان لا يستطيع إلا أن
يترجم المعاني التي يزرع بها قلبه هو ويصور الحب الذي يعيشه هو والغرام الذي يتلظي بناره
ويكاد يحرق فؤاده ، وبمقدار اتسام شعره بالحرارة يكون متغزلا حقيقياً لا مقلداً وما أحسب
مروان في تلك القصيدة إلا واصفا يصف حب سواه ، وإن كان يكنى بكاف الخطاب عن
نفسه ، وأن قصيده من قوله (عاذلاكا) (عاذلي) (أتصفاكا) (منصفي) « فليست الكناية هي
التي توحى بصدقه وتصوير حرارة حبه بمقدار ما تعطي دليلا على عدم إهتمامه بالحب .
فهناك فرق حين يقول الإنسان « الحب أحرقتني أو يقول والحب أحرقتك » ويعني نفسه
فالأولى قد تتحمل الصدق حيناً لأنه يتكلم عن نفسه أما الثانية فلا تتحمل غير الكذب لأنها
تعبير وصل من البرودة حد الجمود .

ثم يقول مروان (عد عن ذكرهن) وهنا تقليد محض للقدماء « ولو لم يكن من مظاهر
التقليد إلا هذه الكلمة لكانت كافيته للدلالة على أنه كان في ميدان الحب مقلداً تقليدا ينم
عن جفاء وغلظة لا يتخلق بها من يحب حبا حقيقياً ويتغزل صادقاً مما يعني أن هذا الشاعر
يريد أن يصرف النظر بسرعة عن الغزل لأنه لا يهيمه إلا المديح فإنه مطلبه ومقصده ، ولو تتبعنا
قصائد قيس بن الملوح وعروة بن حزام وهما عنوان الحب العذري الحقيقي لما وجدنا فيها
كلمة « عد » أو كلمة « دع » لأنها كلمتان توحيان بعدم الإهتمام بالحب .

ولنقرأ هذا الشاهد الثاني من قصيدة يمدح بها معن بن زائدة :

أمسى المشيب من الشباب بدليلا ضيفا أقام فما يريد رحيلا
والشيب إذ طرد السواد بياضه كالصبح أحدث للظلام أفولا
إن الغواني طالما قتلتنا بعيونهن ولا يدين قتيلا

(١) شعر مروان ص ٧٣ وما بعدها .

أرددين عروة (١) والمرقش (٢) قبله
 ولقد تركن أباذؤيب (٣) هائما
 وتركن لابن ابي (٦) ربيعة منطلقا
 إلا أكن من قتلن فإنني
 كل أصيب وما أطاق ذهولا
 ولقد تبن كثيرا (٤) وجميلا (٥)
 فيهن أصبح سائرا محمولا
 من تركن فؤاده مخبولا (٧)

إنه أشبه بالخبر الذي يحدثنا عن فعل العشق بالعاشقين ولو أنه قال بدل (قتلنا) قتلهم لكان أولى به فهو واصف ومخبر وليس متغزلا، وهذا يعني أنه غير عاشق ولكنه يعرف زعماء العشق في دنيا الأدب ولما حاول أن يحدثنا عن فعل العشق بهم حاول أن يقرن نفسه بأصحاب هذا المذهب لكونه محاكيا لهم متتبعا لمعانيهم الغزلية .

والكلام عن المشيب أصبح معني مبتذلا لا يدل على حب ولا عشق فالكل يدرك أن المشيب يمحو سواد الشعر كما يمحو الصباح الظلام سواء أكان المتكلم عاشقا أم لا يعرف عن العشق شيئا لأن هذه صورة حسية تكرر كل يوم في رؤوس الآلاف من البشر ويمكن أن يتحدث عنها كل إنسان ، وإن تكن الغواني قد جعلن لابن أبي ربيعة منطلقا فذلك لأنه كان

(١) هو عروة بن حزام من بني عذرة كان محبا لابنة عمه عفراء لأنه نشأ معها في بيت واحد إذ أن أباه خلفه صغيرا ولما كبر خطب عروة عفراء فأغلى أبوها مهرها فذهب عروة إلى عم له باليمن وأتى بالمهر فوجدها متزوجة فأكرمه زوجها ولما انصرف من عندها مات قبل أن يصل حيه وكانت وفاته سنة ٣٠ هـ .

(٢) هو ربيعة بن سعد بن مالك « ولقبه المرقش » الأكبر لوجود مرقش اصفر وهو أحد عشاق العرب وصاحبه أسماء بنت عوف ابن مالك ولكنه لم يتزوجها وإنما زوجها أبوها وجلا من مراد المرقش غائب وسمي المرقش لقوله :

الدار قفر والرسوم كما
 رقص في ظهر الأديم قلم

(٣) هو أبو ذؤيب الهذلي (خويلد بن خالد) أسلم وقدم على الرسول فوجده قد مات . كان يهوى امرأة من قومه وكان رسوله إليها يقال له خالد بن زهير فخانه فيها كما أن أبا ذؤيب قد خان ابن عم له فيها وقد اشتهر أبو ذؤيب بقصيدته في رثاء ابنائه الخمسة وقد ماتوا في عام واحد ومطلما « أمن المنون وربها تنوجع » .

(٤) هو كثير بن عبد الرحمن أحد كبار الشعراء الأمويين عاش في المدينة وتقل بن الحجاز والشام ومصر والعراق ومدح الخلفاء الأمويين واشهر بحب عزة الفجرية وكان مشكوكا في إخلاصه لها وكان دميمة الخلقه قصيرا . كان مروان بن ابي حفصة يحبه ويحجب بمذبه في المديح وقدمه الحجاز يون على شعراء عصره .

(٥) جميل بئينة هو جميل بن عبد الله العنبري ولد بوادى القرى شمال المدينة عشق بئينة وتغزل بها وتقدم لخطبتها فرفض أهلها وزوجوها بنية بن الأسود فلم يكف جميل عن التغزل بها فشكاه أهلها الى الراي فأهدر دمه فهرب إلى اليمن ثم رجع ثم سافر إلى مصر ليمدح عبد العزيز بن مروان ومات بها .

(٦) عمر بن ابي ربيعة أشهر غزلي عرفته رياض الشعر العربي ولد بالمدينة سنة ٢٣ هـ يوم مات عمر بن الخطاب فقيل (رفع حق ووضع باطل) كان يتعرض للنساء في طريقهن إلى الحج ويتغزل بهن ولما استفحل أمره نفاه عمر بن عبد العزيز إلى جزيرة (دهلك) بالبحر الأحمر وقد زهد وتنسك في نهاية حياته وكان يحلف بالله ويقول « ما حلتل سواويلي علي حرام قط » .

(٧) شعر مروان ص ١٧٧ .

عاشقاً بل كان زعيم العاشقين والشعراء الغزليين فلماذا لم يترك مروان شيئاً أليس يدعى أنه محب دنف؟ بلى ولكنه كان محباً بلسانه لا بجنانه ولم يكن ذلك الحب طبعاً أصيلاً فيه.

ولست أدري لماذا قتلن الغواني من عشق ورمينه بسهام الحب ولم يقتلن مروان؟ لست أدري سبباً لذلك إلا سبباً واحداً هو أن حب من قُتل كان محباً حباً خالصاً ومن الحب ما قتل وقدما قال الشاعر:

ألا أيها النوم ويحكمُ هبوا أسائلكم هل يقتل الرجل الحب؟

والجواب نعم إذا كان صادقا في حبه أما مروان فلم يقتله الحب ولم تقتله الغواني لأنه لم يكن عاشقاً ولا محباً لهن، وإنما كان محباً للمال ولهذا صرعه المال حتى لثم أقدام العباسيين وهم أعداؤه. أما أن يكون قتيل العشق فلم يكن كذلك لأن الحب لم يتجاوز طرف لسانه والكلام إن خرج من القلب لمس شفاف القلب وأن خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان.

وغريب حقاً أن يصبح فؤاده مخبولاً. إذاً هو يدعي أنه محب وهذا يعني أنهم لم يقتلوه (أي الغواني) رفقاً به فما الذي فضله على بقية العاشقين؟ ثم هل كان مخبول الفؤاد؟ كلا. وإنما كان كلامه هراء في هراء ثم أن قوله:

إن الغواني طالما قتلنا
بعيونهن ولا يدين قتيلاً
هو عين قول جرير الخطفي:

إن العيون التي في طرفها حور
قتلنا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله أنسانا

والحقيقة أن مروان سطحي في غزله ليس عميقاً في الفكرة وهذا يعود إلى أنه لا يتمتع بلذة العشق التي تحرقه بنارها وتدفعه إلى أن يقول شعراً يتسم بحرارة العشق وتوهج ناره وصدقه هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إمعانه في التقليد حتى أنه لم يأبه ولم يبالي هل أتى بجديد أم لا؟ وهذا أوقعه في التكرار وإعادة المعاني في كل غزل يقوله دون تغيير ومن ذلك إصراره علي ذكر المشيب في كل قصيدة كالقصيد أنفة الذكر وفي القصيدة التي مدح بها معن والكافية التي مدح بها زائدة بن معن حيث يقول:

بث في الرأس حرثه الشيب لما
حان إبان حرثه فعلاكا

وقوله من قصيدة مدح بها المهدي :

وقال الغواني قد تولي شبابه وبدل شيبا بالخضاب يقاتله

وذلك لأن مروان لم يلم بشيء من العشق ومذاهبه إلا بشيء واحد هو موقف الغواني من لاح المشيب بعارضيه وهو لاشك موقف الاعراض والصدود والهجران ، وربما كان ذلك سببا في عزوفه عن خوض بحر الحب والغوص في اعماقه إضافة إلى ما تميز به مروان من صفات تشكل في مجملها عدوا لدودا للعشق كالبخل وسوء المنظر وقبح المظهر والهيئة .

وعموما فإن مروان لم يكن متصرفا في غزله ولم يكن لمعانيه عمق أو تجديد فكل الأفكار التي ردها مروان في غزله كانت أفكارا مرددة مبتذلة طالما عاجلها الشعراء وطرقوا بابها ، وهذا شيء متوقع من شاعر كمروان لم يتعلق بامرأة ولم يهو خريدة ولم تتبل فؤاده غانية ولا حسناء معطال . فقد العمق والاصالة والحرارة وامعن في التقليد وجعل غزله مقدمة لمديحه في معن وابنه والمهدي والرشيذ تأسياً بامرئ القيس والأعشي وطرفة وسواهم بل زاد على ذلك أن ظل أسير هواهم وخطتهم بحيث وجدناه يخلص إلى المديح مثلهم وينتقل إلى الغرض الأساسي كما ينتقلون باستخدام أشهر عبارتين في ميدان التخلص من غرض إلى غرض وهما (عد عن ذا) ، (دع ذا) .

وعموما لم يكن مروان في غزله معانيا ولا مشتاقا ولا محباً ، وإنما كان متأثراً بالقدماء مبالغاً في محاكاتهم ، وإن كان لمروان فضل في غزله يستحق الذكر فإن ذلك يتضح في شدة أسر القصيدة عنده واحتفاظها بقوتها في جميع أبياتها مع حسن الاحكام والإلتقان وحسن اختيار الألفاظ الملائمة للمعاني مع احتفاظها بجزالتها واصالتها البدوية وسلامتها ، ولا غرابة في ذلك حيث لم يكن ذلك وقفا على غزله وإنما كان ذلك هو الطابع الذي اتسم به شعره على اختلاف اغراضه .

وفي اعتقادي أن مروان أكثر من الأطناب في ذكر المشيب بسبب عامل نفسي يريد من خلاله أن يصرف الغانيات عن الأقبال عليه لأنه مشغول بحب آخر وعشق أحلي طعماً . إنه عشق المال فقط فما دام حب الغانية يملك فؤاد العاشق فإن المال عنده الغانية التي لانهزم ولا تشيخ ، ولهذا سلك هذا الطريق ربما لأن نفسه المريضية قد أوحى إليه بأن النساء يحببهن وهو لا يريد ذلك منهن فأكثر من ذكر المشيب لكي يصرفهن عنه وهذا الأسلوب ينسجم مع النفس البخيلة التي ترى في الحب ضياعاً للوقت عن اكتساب المال ، وضياع للمال بعد كسبه حتى لو كان الحلال مجال انفاقه بل وصلت به الحال إلى أن يغمز من قناة من

يخضبون شعرهم الأبيض بالسواد من أجل أن تعشقهم النساء ، ولم يكن دافع مروان من وراء ذلك نقاء السريرة التي ترفض الغش والخداع ولكنه دافع البخل الذي يرى أن في الحب اهدار للشروة ، ومما يؤكد هذه النظرية الأمثلة التالية :

كلما قلت بعض ذا اللوم قالاً
بث في الرأس حرثه الشيب لما
وقوله :

أمسى المشيب من الشباب بديلاً
والشيب إذا طرد السواد بياضه
وقوله :

ولا أغير شيبى بالخضاب وهل
وقوله :

وقال الغوانى قد تولى شبابه
يقاتله كيما يحول خضابه
ومن مد في أيامه فتأخرت
وقوله :

حل المشيب فلن يحول رحله
عني وبان فلن يؤوب شبابي (٥)

لقد أصبح مروان بذلك (فيلسوف الاعراض عن الحب) كما كان فيلسوف البخل وإلا فمن الذي يرفض في أعماقه أن تعشقه النساء حتى لو كان يدب علي العصا .

وقد يقول قائل إن عدم وجود الغزل الحقيقي في شعره يعود لأنه أعرض عن الحب لدوافع دينية ولكن هذه النظرة نظرة غير مقبولة لأن هذا النزاع الديني غير موجود لديه اطلاقاً بدليل أنه قد يقتنص اللذة أحياناً إذا وجد إلى ذلك سبيلاً بشرط ألا يكلفه ذلك درهما واحداً .

وقد سبق أن أوردت عدداً من الاخبار التي تتحدث عن تلك الظاهرة عند الحديث عن

(١) شعر مروان ص ٧٣ . (٢) المصدر السابق ص ٧٧ . (٣) المصدر السابق ص ٩١

(٤) المصدر السابق ص ٩٤ (٥) مختار الأغاني ٤١٠/٦ .

شخصيته و اخلاقه . ثم إن الدين لا يقف حائلا دون تسلل الحب إلى القلب ولكنه يحول دون هبوطه إلى درجة الغريزة الحيوانية .

ولو جاز لأحد أن يفسر أعراض مروان عن الحب والغزل لدوافع دينية فهل يجوز لنا والحالة تلك أن نفسر بخله المتناهي بذلك الدافع فنقول : إنه رجل يعشق الزهد . لا . وألف لا . إن مروان كان رجلا (مفراكا) مكروها من المرأه لأن قصصه فى البخل انتشرت بين الناس مثل انتشار قصائده المادحة .

على أن هذا لا يمنع أن يكون هناك سبب آخر وهو عقدة النسب عند مروان . حيث ثبت أنه مولى من ناحية ابيه وهذا جعل النساء العربيات صريحات النسب ينتعدن عنه خوفاً من أن تربط بينهن وبينه علاقة حب تكون سببا في تغزله بهن غزلا حقيقيا متوهج العاطفة تتضح فيه النزعة الوجدانية الطاغية التي تعتبر ابرز سمات الغزل الحقيقي بحيث تصرفه تلك النزعة عن الخلط بين الغزل وغرض آخر لكي لا يعتقد الناس أنه محاك في ذلك الاتجاه ومن ثم تعود تلك العلاقة بأثر سلبي على المرأة التي تكون مدار غزله بحيث يتعد اكفاؤها في النسب عن طلب يدها وهذه النظرة كانت نتيجة حتمية لجميع علاقات الحب والغزل التي كانت بين فتى عربي وفتاة عربية حيث كان العرب يمنعون زواج ابنتهم ممن تغزل بها وأحبها خوفا من ألسنة الناس التي ربما تدعي أن هذا الزواج تم لإخفاء علاقة آثمة . فإذا كانت هذه النهاية المأساوية هي مصير الحب الذي يربط بين قلبين تجمع بينهما عروبة النسب فكيف تكون الحال إذا كان المحب والشاعر المتغزل ليس عربيا . خاصة فى اقليم اليمامة الذي عاش فيه مروان حياته كلها . أقول ربما أن هذا السبب اجتمع مع الأسباب الأخرى التي سبق الحديث عنها ولكون مروان رجلا واقعياً وعملياً قطع الأسباب التي تؤدي به إلى طريق الحب والغزل واتجه إلى الغزل بالمال الذي لا يشترط كفاءة ولا نسبا .



٥ - الهجاء

حفظ لنا الأدب العربي أسماء كثير من الشعراء الهجائين الذين خافهم الناس واعطوهم لارغبة في مديحهم وإنما رهبة من هجائهم كبشار والخطيئة وسواهما .

فأين مروان الذي بلغ في المدح قمته . من الهجاء ؟ هل ياترى بلغ فيه القمة وقطع فيه شوطاً بعيداً ؟ أم لا ؟ هذا ما سأحاول الأجابه عليه .

لقد كان التاريخ الأدبي صارماً في احكامه فما جعل شاعراً في قمة المادحين وصنفته في قائمة ابرز الشعراء الممتاحين إلا صنفته أيضاً في مرتبة مضادة مناوئة للمديح إذ خلد اسمه في عداد الهجائين المتسلطين فكان المتنبي شاعر مديح وكذلك بشار والبحتري ودعبل ومثأت غيره ولكنهم ايضاً شعراء الهجاء .

ولكن التاريخ الأدبي اصاب هذه المرة في حكمه علي مروان فصنفته شاعراً يصدح بالمديح ولكنه لم يذكره هاجياً ملاحياً . واقعن بذلك (الهجاء الشخصي) .

إذا من أول وهلة أقول إن مروان لم يكن شاعر هجاء ولم يحاول أن يكون كذلك رغم انني اعتقد اعتقاداً جازماً بأنه يملك الموهبة والدافع والماطفة وهي الأسباب التي تنير له الطريق ، ومع ذلك لم يكن في الهجاء شيئاً يذكر ولم يكن ذلك ترفعاً وإنما وراء الأكمة ما وراءها . هنالك علل عقلت لسانه عن أن يتفوه بكلمة سوء وفحش وازدراء . وتتخلص هذه العلل والأسباب فيما يلي :

١ - مكانة الأشخاص الذين مدحهم ومعدنهم الذي خرجوا منه فالمعروف أنه مدح معنا وابنه زائدة والمهدي والهادي والرشيد والبرامكة وما فيهم شخص إلا وهو سيد كريم شريف نبيل يجعل عن الهجاء والإيذاء ، ولم يتركوا له فرصة يغمز قناتهم منها ويعيب شرفهم من خلالها ويهدم مجدهم بها ، وإنما اقبلوا عليه ورحبوا به واستمعوا إلى شعره وأعطوه عطايا قطعوا بها لسانه عن أن يتفوه بكلمة تنم عن ثلب وهجاء ، وصبر على أذى الطرد والضرب الذي ناله من بعضهم مثل ما حدث له مع المهدي والرشيد .

ولو نظرنا من زاوية أخرى لوجدنا مروان دائماً يمدح معنا لأنه صادف هوي من نفسه إذ أنه يدين بولائه لبني أمية مثله فانقطع إليه سنوات طوال واصطفاه بمدحه عن اعجاب به حتى

إذا مات رثاه وظل ست سنوات من ١٥٢ - ١٥٨ محافظا علي وفائه فلم يمدح أحدا وهذا يمنحنا دليلا قاطعا على أن مروان ما كان ليقلب لمن ظهر المجن ويلبس جلد النمر ويجعل من لسانه سيفا يهبر به عرض معن ويمزق مجده ويفري لحمه فيما لو فتر معن عن عطائه ، ولن يجعل من كلماته سهاما يرسلها فيقتل بها مرؤة معن وشجاعته وكرمه وما تحلى به من صفات .

أما بالنسبة للعباسيين فعلى الرغم من طرد المهدي له وجلده في مجلس الرشيد فإنه لم يأبه بهذا الطرد والإبعاد والجلد ، ولم يتخذة سلما لهجائهم وثلبهم رغم كرهه لهم ولكنه كان مدركا لحقيقة هامة وهي أنه يطلب المال ولو سلك غير المديح لحرم منه فعليه أن يقبل الذل والضميم في سبيل اشباع غريزته المادية وطبعه الطماع خاصة وإن الاذلال لم يأت من عامة الناس وإنما من خلفائهم ، ولهذا أقبل على مديح العباسيين بما أرادوا وهو كاذب ولكنه على أي حال وجد التجاوب منهم والاصطفاء ، وما بدر منهم بعد أن توثقت صلته بهم اساءة إليه ولا حقد عليه يستوجب منه أن يتبدل أو يتغير ويقلب صداحه نواحا ومدحه ثلبا وإنما ظل وفيا للعباسيين بلسانه وبقي مخلصا لعاطفته المادية التي تحتم عليه أن يقف هذا الموقف مادحا مدافعا عن العباسيين فلا مصدر للمال سواهم ولا سقاية إلا من حوضهم .

وحتى لو سلمنا أن مروان أراد أن يهجوهم حنيما طردوه بصرف النظر عن « عاطفته المادية » فإنه لن يستطيع ذلك فهم الخلفاء والحكام ، وسيجر ذلك غضبهم عليه كما جرتة مبالغته في رثاء معن ومن ثم لا يستطيع هربا ولن يروم ملجأ منهم فهم كليل النابغة لا يفوته هارب يخشى عقابهم ويخاف غضبهم فاجتمع الخوف منهم والرغبة في نوالهم فجعلاه شاعر المديح ولم يجعلاه منه شاعر الهجاء .

(٢) الصفات الشخصية : فمروان في صفاته الشخصية مصدر عجب ومثار سخرية وقد سبق لنا استعراض ذلك في الكلام عن شخصيته فهو بخيل لثيم يأكل ردى الطعام ويلبس بالي الثياب حتى بدا للناس في أشنع صورة وأسوأ منظر وهذه الصفا الأخلاقية اللامحمودة تجعل منه هدفا لألسنة الشعراء الهجائين ومصدر إلهام لقرائهم التي تعشق بذية الكلام وسقطه فلو هجا لانبرى الشعراء لمهاجاته وذمه وثلبه مركزين على ما أتصف به من أخلاقيات غير محمودة فجعلوه منه هدفا لنبالهم وشارة لسهام أشعارهم .

كان مروان يدرك ذلك فلم يشأ أن يدخل في معارك جانبية مع الشعراء على المستوى الشخصي ولم يحاول أن ينال من عرض أحد فيذمه ببخله وتقتيره ولؤمه مثلا . لأن الناس لن

يصدقوه من ناحيه وهو كمن يهجو نفسه من جهه ثانية لأنه بلغ في ذلك الغاية والمنتهي فكيف يهجو بشيء اتصف به أما الشعراء فإنهم سيجدون ما يثلبون به مروان وينقصون بواسطته من حقه وقدره وسوف يصدقهم الناس فما اشتهر به مروان من صفات تنافي صفات المجد والرجولة أصبحت معروفة ومشهورة لجميع الناس لا يملك القدرة على احتوائها وطمسها عن طريق هجاء غيره قدرا ما يساعد على اشهارها وإظهارها أقوى مما كانت فهي به أمثل والصق . كما حدث له في بعض المواقف مثل قصته مع ضيفه الذي نزل عليه في اليمامة فهرب منه وتركه في البيت مما اضطر الضيف إلى الخروج واحضار طعامه بنفسه ثم ترك مروان هذين البيتين :

يا أيها الخارج من بيته وهارب من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له فارجع وكن ضيفاً علي الضيف (١)
وما حدث له من شاعر يسمى (الجنبي) حينما هجاه قائلاً :

ثوى اللؤم في عجلان يوماً وليلة وفي دار مروان ثوى آخر الدهر
عدا اللؤم يبني مطرحاً لرحاله فنقب في بر البلاد وفي البحر
فلما أتى مروان خيم عنده وقال رضينا بالمقام إلى الحشر
وليست لمروان على العرس غيرة ولكن مروان يغار على القدر

وفي اعتقادي أن في هذا الهجاء من الإيلام والازعاج لمروان ما يجعله يكف عن ملاحظة ومنافرة أي شاعر . بل إن هذه الأبيات دفعته مروا إلى أن ينزل على طلب الشاعر الجنبي كما يحدثنا أبو الفرج الأصفهاني عن ابن الأيهم الحنفي حيث يقول (فقال له مروان ناشدتك الله ألا كفت فأنت أشعر الناس فيحلف الجنبي بالطلاق ثلاثاً ألا يكف حتى يصير إليه بنفر من رؤساء أهل اليمامة ثم يقول بحضرتهم قاق في () بيضه (٢) فجلبهم مروان وفعل ذلك بحضرتهم وكان فيهم جدي يحيى بن الأيهم فانصرفوا وهم يضحكون من فعله (٣) .

(١) انظر عيون الأخبار ٣ / ٢٤٩ ، والحاسن والمساويء ٤١٩ / ١ بشيء من الاختلاف وزيادة بيتين هما :

إذا اشتهى الشضيف طيبخ الشتا اتاه بالشهوة في الصيف
وإن دنا المسكين من داره شد على المسكين بالسيف

وانظر العقد الفريد ٧ / ٢٠٥ .

(٢) هنا كلمة نائية لاداعي لذكرها . (٣) الأغاني ٩ / ٤٥ وكذلك الأبيات التي قالها الشاعر (الجنبي) .

فهذا الموقف يدل دلالة واضحة على هوان مروان وذله وخوفه من مرارة الهجاء الذي ألمه من ذلك الشاعر فكيف تكون حالة لو أنه رفع راية العدا لجمع من الشعراء صوبوا إليه سهامهم كما يؤكد ذلك موقفه حينما داعبه صديقه عباد بن شبل بهجاء بغلته الشهباء قائلاً :

أرى الشهباء تخبز كل يوم برجليها وتعجن باليدين
ورد عليه مروان قائلاً هاجيا بغلته (القطاة) بقوله :

أرى خلق القطاة فأزدريها ويملاً منظر الشهباء عيني
ثم يقول مخاطباً هذا الصديق ويلمح إلى خوفه من الهجاء :

لعمر أبيك لو غير ابن شبل هجا الشهباء قطعة الهجاء
ولكن عرضه عندي وعرضي إذا ميلت بينهما سواء (٣)

هذا هو السبب الذي جعل مروان يعزف عن الدخول في معارك هجائية كما حدث لكثير من الشعراء فلم نجد عنده من الشعر الهجائي ذلك النوع المسمى الهجاء الشخصي إلا لماماً وفي مواقف محددة .

يضاف إلى ذلك انشغال مروان بحب المال وجمعه وتكديسه عنده وهذا سرق منه جميع أوقاته فاستغرقها في نظم المدائح وتجويدها وتنسيقها حتى ينال بها كثير عطاء وفضل نوال فكان ذلك سبباً في انقطاعه عن الناس والاختلاط بهم من ناحية وعدم وجود الفرصة التي يستغلها مفكراً في نظم قصيدة يهجو به شخصاً « ما » هذا لو سلمنا بأنه يحب الهجاء رغم أن لا وجود لذلك في الواقع إذ اجتمع خوفه من الهجاء بسبب الصفات الشخصية من ناحية والانشغال بالمديح من ناحية أخرى فصرف مروان عن النوع الثاني والأشهر في الهجاء وهو الهجاء الشخصي .

٣ - ضعف الملكة وفتور العاطفة : وهذا السبب الثالث نتاج السببين الأولين ورجع صدي لهما فالعاطفة إنما تكون جياشة وطاقة محرّكة إذا وجدت تجاوبا وانفعالا من النفس الإنسانية ولهذا جاء مروان شاعر مديح لأن العاطفة كانت قوية جياشة أغراها المال حيناً والاعجاب حيناً آخر وجذبها إليه تجاوبا مع إرادة صاحبها ، ولكنها لم تكن كذلك في الهجاء وإنما كانت ضعيفة والملكة فاترة واهية لا تعين علي هجاء ولا تقدح فكراً ولا توري

(٣) ربيع الأبرار ٤/ ٣٩٩ .

زنادا . فقد انهكها واوهنها ذلك التهالك المخيف على المال حتى استغرق ذلك من مروان جهده وفكره لا يبعث نشاطه سوى الدرهم والدينار ودفعته نفيه البخيلة إلى تحمل الطرد والجلد والإهانة من كل من المهدي والرسيدي ولو كان يحمل بين جنبيه نفساً كريمة لثأر لها بلسانه مهما كلفه ذلك من طرد وابعاد وإيذاء ولكنها النفس البخيلة لاتنمو إلا فى موطن الذل كما تنمو الطحالب الطفيلية فى مياه المستنقعات .

ثم إن الهجاء يقوى فى مواطن الشر والشر إنما يحدثم ويصطلى بناره وشدة لهيبة إذا كان فارساه يحملان قلبا واحدا فى قوته وعاطفة متحدة فى وهجها وعشقا للصراع والنزال فى كل مكان .

ولكن مروان كان ضعيفا فى مواطن الشر لا يقدر على المقاومة وكان محطما لا يقدر على الدفاع إذ اجتمع عليه أمران أولهما إغراقه فى المديح حتى استغرق جهده ووقته وطاقته وثانيهما صفاته الشخصية مما يجعله يخاف من أن يكون هدفا يصوب إليه الشعراء سهامهم ولهذا أصبح جبانا فى مواقف الهجاء خائفا من أن يوجه إليه ثلب ولوم فائز السلامة والأمن وتجنب طرق الشر ومصارعة أصحابه من الشعراء بسلاح اللفظ والمعنى واستمر قانعا بوقته يصرفه فيما يدر عليه فائدة من درهم ودينار لا فيما يجلب عليه ضرراً من فحش وإيذاء .

ورب قائل يقول : كيف تحلل وتعلل وتخرج بنتيجة هي أن مروان لم يكن شاعر هجاء رغم ضياع أغلب شعره ؟ والجواب أن الأسباب التي أوضحتها كانت منطقية ومعقولة ولا ينقصها ضياع أغلب شعره فى عالم النسيان . إذ أن تهافتة على المديح كان امرا واقعا ومن مدحهم ليسوا فى الناس بنكرة وما اتصف به من لؤم وبخل هو حديث الناس . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن شعر مروان الضائع لم يكن فى الهجاء وحده وإنما كان فى المديح والثناء وقد يكون فى غيرها من الفنون الأخرى ومن ضمنها الهجاء ولكنه على أي حال لن يوازى ويساوي المديح فى كثرته ولن يقارب الرثاء فى غزارته بل إنه سيكون إزاءهما غيضا من فيض وقليلاً من كثير وما احسب من يوازى بينهما فى الكثرة إلا كمن يعدل البحر الزاخر بمستنقع والسيل العارم بالرداذ .

هذه هي الأسباب التي منعت مروان وحالت بينه وبين أن يكون شاعر هجاء كما أن هذا الهجاء لو وجد سيكون موجها لاشخاص يماثلونه فى المرتبة الإجتماعية .

إلا أن ذلك لا يعنى عدم وجود هذا النوع فى شعره بل إنه قد يوجد ولكن لا يحمل على الاعتقاد الجازم بأن قائله يعتبر فى مقدمة شعراء هذا الغرض .

لقد وجدت في شعره الذى عثرت عليه بعض المقطعات التى لا تتجاوز عدد أصابع اليد وَايَّاتِهَا لا تكاد تتعدها أيضا ، ولكنها فى غالبها أبيات تحمل طابع السخرية والمرح والتطرف أكثر من أن تعني أن المراد منها الهجاء ومن ذلك قوله فى شخص اسمه رباح :

لقد كانت مجالسنا فساحا
مبعثرة الأسافل والأعالي
وقوله :

يا وجوه من لا يرتجى نيله
كأنه القرد إذا ما مشى
وقوله فى قوم يكثرون من رواية الأشعار :

زوامل للأشعار لا علم عندهم
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا
بأوساقه أراح ما فى الغرائر (٣)

فهذه الأبيات أقرب إلى الهجاء الشخصي ولكنها ليست منه لأن بعضها لم يتطرق إلى أحد بعينه هذا من جهه ومن جهة أخرى فإن مواضع الهجاء الشخصي هى تصوير الشجاعة خوفا والكرم بخلا أو اسرافا .. الخ وما فى تلك الأبيات شيء من هذا فهى تتراوح بين لغة « التطرف » و « التعريض » ولا ترتقى للهجاء لأن لغة الهجاء ولهجته أشد إيلا ما وأعظم جرحا . ومن هذا النوع قوله فى يعقوب بن داود الذى منعه من الدخول على المهدي حيث يقول :

سيحشر يعقوب بن داود خائبا
خيانتة المهدي أودت بذكره
بدا منك للمهدي كالصبح ساطعا
وهل لبياض الصبح إن لاح ضوءه
أمنزلة قوق التى كنت نلتها

وقوله فيه أيضا من قصيدة أخرى مخاطبا المهدي :

(١) شعر مروان ص ٢٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٥٥ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٦ .

أتيت إمرأاً اطلقته من وثاقه وقد انشبت في اخدعيه المجامع
فقلت وزير ناصح قد تابعت عليك بأنعام إلامام الصنائع
وما كان لي إلا إليك ذريعة وما ملك إلا إليه الذرائع
وإن كان مطويا على الغدر كشحه فلم ادر منه ما تجن الأضالع (١)

وعموماً فإن هذه الأبيات والأبيات التي قبلها لم تكن قد جاءت في غرض هجائي محض مستقل وإنما جاءت من ضمن أبيات يستشفع فيها الخليفة المهدي الذي منعه من الدخول عليه واوعز بذلك إلى وزيره يعقوب حتى إذا سقط هذا الوزير من عليائه بسبب الصراع السياسي بين الخليفة العباسي وخصومه وأصبح شخصاً لا يؤبه به ولا يرجى نفعه وظف مروان هذا الموقف لمصلحته الشخصية لأن (المعرض به) لن يستطيع أن يمسه بسوء. كما أن ذلك سيجد قبولا وترحيباً من الخليفة فيما بعد ولذا فإن هذه الأبيات دخلت من ضمن الهجاء الشخصي الذي قاله مروان (رغم قلته) لأنها موجهة ضد شخص فقد مكانته ووجاهته وحظوته عند الخليفة ومن الخطأ أن تحسب ضمن الهجاء السياسي الذي أبدع فيه مروان (وسياتي تفصيله) لأن هجاء مروان السياسي كان موجهاً لآناس أقوياء بنسبهم ومجدهم الديني والاجتماعي. كما إنه كان عفواً ومجرداً من الألفاظ المرذولة (كالغدر والكفر والخيانة) وسواها من الألفاظ التي نعت بها مروان يعقوب بن داود.

ومن أمثلة الهجاء الشخصي (القليل) الذي أثر عن مروان قوله يهجو ولي امرأة من أهله زوجها وليها من شخص ينتمي إلى قوم يعرفون (ببني مطر) لم يكن مروان راضياً عنهم حيث قال:

لو كنت اشبهت يحيى في مناكحة لما تنقيت فحلا جده مطر
لله درجيات أنت سائسها ضيعتها وبها التحجيل والغرر
نبئت خولة قالت يوم انكحها قد طال ما كنت منك العار انتظر (٢)
وقوله مخاطباً سلم الخاسر وقد عبره بقلة جائزته:

أسلم بين عمرو قد تعاطيت خطة تقصر عنها بعد طول عنائك

(١) شعر مروان ص ٦٧.

(٢) شعر مروان ص ٤٩ وهناك من ينسبها إلى القلاح يهجو مقاتل بن طلحة حينما زوج ابنته (خولة) ليحيى جد مروان. انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦٤٩ وطبقات الشعراء. لابن المعتز ١/٤٤١.

فدع سابقا إن عاودتك عجاجة سنا بكة أو هين منك سنا بكا
 رأيت امرأ نال اللها فحسدته فلم يبق إلا أن تموت بدائكا
 طلبت من المهدي شطر حباثه فقال لك المهدي لست هنالكا
 فما اعولت أم علي ابن ولا بكى على يوسف يعقوب مثل بكائككا
 عضضت علي كفيك حتى كأنما رزئت الذي اعطيت من صلب مالكا
 حبيت بأوقار البغال وإنما سراب الضحى ما تدعى من حباثكا (١)

وعموما فإن مروان لم يكن شاعر الهجاء الشخصي بمعناه الصريح والظاهر ولو جاز لنا أن ندعي أنه بسبب هذه الأبيات شاعر هجاء فكيف إذاً يقال عن فرسان الهجاء الثلاثة جرير والفرزدق والأخطل وسواهم من الشعراء النابيين في هذا المجال .

ولكن هناك هجاء اسمي من ذلك وأوسع دائرة بلغ فيه مروان منزله لا يكاد يبلغها سواه بل لنقل إنه احتل القمة بسبب ذلك ألا وهو (الهجاء السياسي) ، ويظهر ذلك واضحا في تعريضه بيني علي من خلال مدائحه للعباسيين حينما طالب بنو علي بالخلافة ودعوا الناس إلى مبايعتهم مبرزين حججهم وبراهينهم وأنهم أحفاد الرسول واولاد ابنته فأنبرى مروان لهم . ففند حججهم مبطلا براهينهم قاضيا عليهم لا لهم اذ نصب نفسه قاضيا بين العلويين والعباسيين فقضى للعباسيين على العلويين ولكنه قضى بغير عدل ولا انصاف وإنما كان ذلك نزولا عند شهوة النفس ومطلب العاطفة حيث رشاه العباسيون بالمال واشتروا لسانه فحكم لهم حينما نافرهم العلويون وجعل من نفسه سيفا يذب عنهم ومن لسانه رمحا ونبلاً يرمي به أعداءهم ، ولكنه سلك في ذلك طريقا شريفا اعتمد فيه على نزاهة الكلمة وبراعة التصرف فسل العباسيين كما تسل الشعرة من العجين ولم يحاول ايذاء العلويين بكلمات بذيئة أو مفرطة في الفحش لأن هجاءهم « تصريحا » إنما هو هجاء للعباسيين فهم أبناء عمومته ومن أصل أرومتهم ولهذا سلك مروان طريق المناظرة الشريفة وهو طريق صعب دقيق لا يقدر عليه إلا من يحسن التصرف واذعنت له الكلمات واسلمت له المعاني القياد .

ولهذا جاء تعريضه للعلويين في محله وبلغ غايته ووقع عليهم كوقع السهام في جنح الظلام فآلمهم ذلك وآذاهم ونال منهم وكان سببا في عزوف الناس عنهم ، وهو ما لم يكن

(١) شعر مروان ص ٧١ .

ليستطيعه مروان لو سلك طريق الإيضاح فى الهجاء والايذاء ، ولهذا خلب عقول الناس واستحوذ عليها بروعة بيانه وشدة تعريضه وسلامة مسلكه وقد تجلّى هذا التعريض السياسي فى جل القصائد التى مدح بها العباسيين .

ومن أروع ما قال . قوله حينما بويح الهادي بولاية العهد :

ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثه الأعمام
الغى سهامهم الكتاب فحاولوا أن يشرعوا فيها بغير سهام
ظفرت بنو ساقى الحجيج بحقهم وعررتهم بتوهم الأحلام (١)

فهو يقصد بالنساء العلويين لأنهم نسل فاطمة الزهراء والرجال العباسيين لأنهم نسل العباس بن عبد المطلب . وقوله يمدح المهدي ويخاطب العلويين :

هل تظمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية بتراثهم فأردتم أبطالها (٢)

وقوله مخاطبا لإدريس بن عبدالله العلوي حينما فر إلى أرمينية خوفا من الرشيد :

أتظن يا ادريس أنك مفلت كيد الخلية أو يقيك فرار
فليأتينك أو تحل ببلدة لا يهتدي فيها اليك نهار
إن السيوف إذا انتضاها سخطة طالت وتقصر دونها الأعمار
ملك كأن الموت يتبع أمره حتى يقال تطيعه الأقدار (٣)

وقوله مادحا الفضل بن يحيى حينما عاد من خراسان ظافرا بيحى بن عبد الله العلوي :

سد الثغور ورد ألفة هاشم بعد الشتات فشعبها متدان
عصمت حكومته جماعة هاشم من أن يجرد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التى عن غيرها عظم البلا وتفرق الحكمان (٤)

(٢) المصدر السابق ص ٩٩ .

(١) شعر مروان ص ٦٦ .

(٤) مختار الأغاني ٤١٢/٢ ، ٤١٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٠ .

حيث استعمل مروان في تعريضه بالعلوين إشارة تاريخية هي قصة التحكيم التي جرت بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان رضى الله عنهما بعد معركة صفين وما نشأ بعدها من خلاف بين جماعة علي ادي إلى ظهور فرقة الخوارج التي أرتت الخلافة الاسلامية في فترة الحكم الأموي والعباسي .

فانظر إليه مليا لتعرف مدي براعته لأنه استطاع أن يستعمل الأحكام الفقهية في ميراث المال ويطبقها في الأمور السياسية فهو يصوغ حق العباسيين في الخلافة صياغة فقهية متكاملة الصورة ولا سبيل إلى جحودها فإذا كان الرجال أحق من النساء في النصيب الأكبر من ميراث المال فهم أحق بميراث الحكم لأنه أجل واخطر . ثم اعتماده على الشواهد القرآنية مما يدل على سعة اطلاع وثقافة دينية عالية فأية سورة الأنعام هي قوله تعالى ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ (١) . وآية الأنفال هي قوله تعالى ﴿ والذين ءامنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم ﴾ (٢) .

لقد استطاع مروان أن يحول حق العلوين في الخلافة من واقعته إلى عالم الأحلام والأوهام في قوله وغررتم بتوهم الأحلام فما اعظم التعريض إنه يسخر من عقول العلوين الذين ظلوا سادرين في غيهم يركضون وراء السراب والأوهام حتى إذا تعبوا ونصبوا لم يجدوا شيئاً . كما أنه وظف قصة التحكيم بين علي ومعاوية رضى الله عنهما لمصلحة العباسيين حيث ادعى أنها سبب البلاء للمسلمين وأن العلوين ممثلين في جدهم الأعلى (علي ابن ابي طالب رضي الله عنه) يتحملون المسئولية كاملة وانهم بذلك غير صالحين لتولي أمور المسلمين والخلافة مرة أخرى ، واعتماده على الاستفهام « هل تطمسون » ؟ انما هو أسلوب انكاري غايته التعجيز وكذلك في قوله (أتظن) ؟ والمعنى لا سبيل لطمس النجوم ولا الهلال فهذا أمر يعجز من يحاول ذلك لأن حق العباسيين في الخلافة أشبه بالهلال لا يستطيع العلويون اخفاء نوره وبريقه كما أن الفرار من أيديهم غير ممكن حتى لو لجأ خصمهم (إدريس) إلى مكان لا يصله النهار .

ولئن فات مروان أن يكون شاعر هجاء شخصي « صريح » يعتمد على الفحش والايذاء والاسفاف حيناً نظراً لتكالب عوامل سياسية ونفسية واجتماعية قرب ضارة نافعة

(١) آية ١٦٥ سورة الأنعام .

(٢) آية ٢٥ سورة الأنفال .

إذا أصبح زعيم الهجاء السياسي (١) الذى جذب إليه عداوه بعض المناصرين للعلويين . وهو فن يعلو على الهجاء الشخصي ويفوقه بدرجات لأن طريقه المناظرة والاحتجاج ومقارعة البرهان بالبرهان دون لفظ ولا اسفاف .

ولئن كتب لهذا الفن أن يؤرخ ويدون فإن الأجدد بمن يتصدي لذلك . أن يجعل مروان عميد الشعراء فى هذا المجال .

ويحسن بنا فى نهاية البحث أن نستأنس برأى الدكتور طه حسين عند حديثه عن ظاهرة الهجاء السياسي عند مروان حيث يقول (سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيين الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم) (٢) .

ويعلل الدكتور طه حسين ذلك السبب فى إرتقاء مروان فى هجائه السياسي عن الفاظ الشتم والقذف بقوله (لم يكن هجاء العلويين يسيرا كان الدين يأباه فى ذلك الوقت وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضا فالعلويون من بني هاشم وهجاؤهم هجاء للعباسيين (٣) .



(١) وهذا ما ألب عليه كثير من الشعراء العلويين فهجوه وردوا عليه ومن ذلك قول دعبيل الخزاعي :

قل لابن مخائنة البعول وابن الجوادة والبخيل
إن المذممة للوصي هي المذممة للرسول
أمودة القرى تحاولها بدم مستحيل ؟
أتذم أولاد النبي وأنت من ولد النضر ؟

شعر دعبيل ص ١٧٣ والجوادة التى تجرد بعرضها والنفل فاسد النسب .

وقول آخر يرد على مروان حين قال بيته المشهور أنى يكون ... ألخ فقال :

للبنت نصف كامل من ماله والعجم متروك بغير سهام

(٢) حديث الأربعاء ٢/٢٣٤ .

(٣) المصدر السابق ٢٣٤ .

هـ - العوامل المؤثرة في شعره

لم يكن مروان عن ساحة المؤثرات والعوامل بمنأى ولم يكن بعيداً وإنما هو كأبي شاعر فنان اجتمعت عليه عدة عوامل فوجهته ورسمت طريقه الذي سار عليه في فنه وعبر عنه بوسيلة الشعراء وهى الحرف والكلمة والمعنى فجاء شعره نتاج لها وتتخلص هذه العوامل في أمور أربعة هى :

١ - البيئة التى عاش فيها مروان وفيها تربي وترعرع وأعني البيئة الإقليمية حيث ولد سنة ١٠٥ فى منطقة اليمامة بأقليم نجد وقد كانت مهد آبائه واجداده إذا كانت لهم معقلا وموتلا ومنزلا من سنة ٦٥ هـ وكانت مغرفة فى حياتها القديمة التى ظلت محافظة عليها طوال العصور الجاهلية والإسلامية والأموية والعباسية ولانزال ذات تأثير عظيم على سكان هذا الأقليم فى جميع القرون .

كما كانت اليمامة منقطعة انقطاعا تاما عن سواها من الأقاليم ولم يكن بينها وبين هذه الأقاليم أي اتصال خاصة الشام الذى شهد الحضارة الأموية والعراق التى شهدت الحضارة العباسية ، ولهذا ظلت اليمامة محافظة على تقاليدها « القديمة » وعاداتها دون تغيير يذكر فلم نجد فيها تلك الحضارة الناعمة المترفة الرقيقة التى عصفت بالشام فى ظل الأمويين والعراق فى ظل العباسيين ، ولم ينتشر فيها الغلمان والجواري والجنسيات المختلفة من روم وفرنس وغيرهم مما يترك آثاره واضحة فى نواحي الحياة المختلفة وإنما ظل ساكن اليمامة « بدويا » بكل ما تعنيه الكلمة من معنى « بدوي » فى مأكله ومشربه وملبسه يحمل طابع الخشونة والشظف كما كان يمتاز بالصلابة والقوة التى تنطق بها قسما وجهه . ترى على مجياه سمرة جبال اليمامة وحرارة شمسها وقساوة طبيعتها ولهذا فإنه امتداد للعربي الاول فى العصر الجاهلى فى عاداته وتقاليدته ومن حقه أن يكون امتداداً له فى شعره لأن الشعر نتاج المؤثرات والبيئة من أشدها وأعظمها وبرزها .

هكذا كان مروان كأنه رجع صدى لألحان امرئ القيس والنابعة والأعشى فى الجاهلية وحسان والأخطل وجريير فى العصر الأموي ولم نجد عنده رقة معاصريه ممن عاشوا فى خضم الحضارة العباسية كبشار وابي نواس وغيرهما لأنه ظل فى اليمامة معتكفا لا يتجاوزها إلا لماما ريثما يمدح ويأخذ ثم يكر راجعا إليها ولهذا يقول عمر فروخ (كان

يلم ببغداد ثم يعود سريعاً إلى اليمامة ولذلك لم يتضح عنده التأثير بالحضارة العباسية وما ترجم من ثقافات أجنبية (١) .

وقال طه حسين (إن مروان لم يكن عراقياً ولم يرض الإقامة في العراق ولم يطل عشرة العراقيين من أهل المجون والعبث وإنما كان من أهل اليمامة أقام فيها لا يبرحها إلا وافداً على أمير أو وزير أو خليفة فاذا أنشد قصيدته وظفر بجائزته عاد إلى اليمامة وأقام فيها عامه ثم استأنف الرحلة ، ولهذا أثره في شعر مروان فهو أقرب إلى شعر الجاهليين والإسلاميين منه إلى شعر المحدثين من شعراء الحضارة العباسية تفرؤه فتجد عليه هذه المسحة التي تخلو أو تكاد تخلو من الدعابة والخفة وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، وهو تمثيل البادية تمثيلاً صحيحاً) (٢) ولم يقف مروان عند هذا الحد ولم يكتف بهذا التأثير وإنما امعن وزاد وتابع ذوي الصنعة من الجاهليين والإسلاميين الذين يعشقون تنقيح الشعر وتهذيب ألفاظه ومعانيه وينشدون قوة المعاني وجزالة الألفاظ وصلابتها وقساوتها التي استمدتها من صلابة البيئة وخشونتها .

ومن هنا رأينا مروان ينظم القصيدة الواحدة في أربعة أشهر وينقحها في أربعة أشهر ، ويذيعها في أربعة أشهر ، ونتيجة لهذا فأنتج مروان واصنفه شاعراً جاهلياً أو إسلامياً لأن الزمن ليس مقياساً للعصر وإنما المعتمد والقياس إنما هو تأثيره ومذهبه الشعري فهو أشبه بالجاهليين ومن هنا نحوهم من الشعراء حتى قال عند الأصمعي (إن مذهبه أشبه بمذهب الأوائل) (٣) وحتى ختم به ابن الأعرابي الشعراء لأن مذهبه كان يحمل طابع التعصب للقدماء من جاهليين وإسلاميين ولم يجد أحداً يحمل تلك السمة في العصر العباسي سوى مروان ففضله وختم به الشعراء لأنه صادف هوى من نفسه وكذلك فعل أبو عمرو ابن العلاء الشيباني (٤) .

وسبب تعصب «النقاد» من هذا النمط له أنهم ينقدون الأثر الأدبي من وجهة نقد لغوية هدفها سلامة اللغة في ألفاظها ومعانيها ولهجتها من الدخيل وقد وجدوا بغيتهم في شعر مروان . يقول طه حسين (ولهذا أثره من جهة أخرى فقط رضي علماء اللغة جميعاً عن مروان وأحبوه من هذه الناحية وما أشك أنا في أنهم كانوا يودون لو اسطاعوا إشارته على بشار وابي نواس لأنه أقرب منهما إلى الأسلوب البدوي القديم) وقال عن مذهب ابن

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر العباسية) ١٣٢/٢ . (٢) حديث الأربعاء ٢٣٦/٢ .

(٣) الأغاني ٢٥/٣ . (٤) انظر أمالي المرتضى ٥١٨/١ .

الأعرابي (على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعاً شريفاً في فنه لا يخاف ولا يهاب فصدق نفسه وصدق الناس وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين وأبى أن يدون لأحد من المحدثين بعده) (١) وقد بدأ أثر البيئتين واضحاً من ناحية أخرى هي « ضعف الخيال الشعري » فنحن لا نجد مروان ولا نكاد نحس في شعره ذلك الخيال المنحج في الوصف الذي يعتمد على الغلو في التشبيه والاستعارة والصورة المعنوية وإنما نجد عنده الوصف الواقعي المحسوس الذي استوحاه من جبال اليمامة ونجدها ووهابها وأوديتها لأن طبيعة اليمامة جافة لا يمكن أن تهب الشاعر خيالاً مطلقاً لأنه من خواص البيئة المتحركة المترفة الناعمة الرقيقة ، ولهذا كثر عند بشار وابي نواس وسواهما من شعراء الحضارة العباسية ، وإلى ذلك ذهب الدكتور مصطفى الشكعة حيث قال (إننا ونحن نقراً وصفاً لحديقة يملكها شاعر مرموق مثل ابن أبي حفصة نتوقع أن نقراً شعراً أنيقاً أنيقة الزهر مخضلاً أخضلال الروض يفوح بالأرج وينشر الشذا وطل النداء وتتوقع الصورة الحلوة والخيال الخصب ، ولكن لا نلبث أن نقع على شعر ساذج لم تفارقه طبيعة الشاعر المستجدي) (٢) .

كما أثرت فيه هذه البيئة فوجهته الى الأغراض الشعرية التي تعتمد على الجزالة والصلابة والضحامة في الجرس الموسيقي وقوة الترابط والاحكام كالرثاء والمدح في حين صرفته عن الأغراض التي تعتمد على الرقة في الألفاظ وخفتها ورنه جرسها الموسيقي وعذوبته كالغزل والوصف ، وصف « الخمر » و « الطبيعة » ، وإن كان هذا لا يعود إلى أثر البيئة لوحدها وإنما إلى سبب آخر هو الصفات الشخصية وسيأتي تفصيله .

٢ - المنابخ السياسي : فلقد شهد مروان بعينه وسمع بأذنيه حقيقة الصراع السياسي على الخلافة بين الأمويين والعباسيين كما شهد أفول شمس الأمويين وقيام دولة العباسيين على أنقاض أسلافهم سنة ١٣٢ هـ وكان مروان يدين في ولاته للأمويين لأنهم أهل المنة والفضل عليه وأسرتهم حيث أعتقوا جده « ابا حفصة » ، ومن الطبيعي أن يمنحهم الولاء والإخلاص وينأوى أعداءهم ، وقد سبب هذا عزوف مروان عن العباسيين والاقبال عليهم ومدحهم وإنما يمدحهم شطراً ممن الذي يجمعه معه هوى واحد وولاء واحد للأمويين فمدحه وحين مات ظل ست سنوات حتى سنة ١٥٨ هـ لم يقبل على أرباب الدولة الجديدة أو يلقي بيده في أيديهم ويدعن لهم ويسلس لهم القياد وإنما ظل شامخاً في كبريائه

(١) حديث الأريعاء ٢/٢٣٦ . (٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٨ .

كالجبل محافظاً على ولائه حتى طلبه المنصور سنة ١٥٨ هـ فأقبل عليه ، ومات المنصور قبل أن يراه فطرده المهدي ، ولكنه عرف حقيقة الوضع السياسي الذي اشتد فيه الصراع بين العلويين والعباسيين وأدرك مدى حرص العباسيين على إيجاد لسان يدافع عنهم ويحاج أعداءهم فسار مروان إليهم لأنهم أصحاب الأمر والنهي وبأيديهم مقاليد الأمور ووجه لسانه وجهة سياسية فقهية معاً تقوم على إثبات الحق للعباسيين وإبطال حجج أعدائهم العلويين لا عن حقيقة وحب ولكن عن نفاق ومجاملة ومراء فرضه حب الدرهم وعبادة الدينار إذ لم يكن العباسيون أثر عنده من العلويين ولا أقرب إلى قلبه فكلهم عدوه ولا سيادة الأول بني أمية ولكن صروف الدهر ادالت من أسياده وألقت به في يد أعدائهم ليدون بشعره مجدهم وخلودهم وإلا فإنه مبغض للعباسيين باعترافه حينما سئل عن سر تحامله على العلويين فقال (ما أحد أحب إلي منهم ولكني لم أجد أنفع عند القوم منه) (١) . والله يعلم أنه لم يحب أحدا منهم وإنما كان مبغضاً لهم على حد سواء .

هذه حقيقة الوضع السياسي الذي وضع أمره في شعر مروان وظهرت بصماته على سماته وملامحه . كان أشبه بالبحر المضطرب ومروان فيه أشبه بربان سفينة تسير مع الموج أنى دفعها ، ولهذا رأينا يتجه إلى المدح ويتهالك عليه رغبة في المال مما سبب قصوره في بقية الأغراض ثم رأينا أن شعره في المدح جاء يحمل نظريتين . نظرية المدح التقليدي الذي خص به معنا وابنه زائدة والبرامكة ، والمدح السياسي الذي خص به العباسيين ، وقد سبب هذا الاختلاف اضطراباً وتنوعاً وازدواجاً في عاطفته فكان المحب الحقيقي لمعن والمنافق الحقيقي للعباسيين وقد أورث هذا الازدواج أمراً ثالثاً يتعلق برثائه إذ رثى معنا وأجاد في ذلك أيما إجادة لأنه يحبه في حين فترت عاطفته وضعفت وذبلت تجاه موت الخلفاء العباسيين لأنه أحب دنائيرهم ودراهمهم فقط ولم يكن محباً لهم فلم يحسن رثاء من مات منهم . كما كان ذلك سبباً في اتباع مروان أصحاب الصنعة الشعرية في الوقوف على شعره تنقيحاً وتهذيباً واحكاماً في مدحه للعباسيين ليعوض به عن فقدان العاطفة من ناحية ويطمئن إلى سلامة شعره ومن ثم يطمئن على حصوله على الجائزة من ناحية أخرى وكانت النتيجة أن استغرق المديح وقته واستنفد طاقته وجهده فقصر نفسه وعليه وعلى الرثاء او كاد لتأتي الأغراض الشعرية الأخرى مثل الفخر أو الوصف أو الغزل كمقدمة لغرض المدح عنده او مبثوثة بين ابيات القصيدة .

(١) العقد الفريد ٣٦٨/٥ .

٣ - الصفات الشخصية :

وقد سبق الكلام عن هذا المؤثر (ضمنا) عند بسط القول في غزل مروان ولكن تجب الإشارة إليه لكونه مؤثراً يستحق الاهتمام . فمروان كان بخيلاً مقترراً على نفسه شحيحاً بماله على ذاته والناس أجمعين يلبس من الثياب رثها ويأكل من الطعام أخشنه مفضلاً حياة الخصاص والخشونة على حياة الرغد والرفاهية في وقت كان مال الخلفاء ينساب بين يديه كالنهر الجارف .

وكان أمراً عادياً أن يقصر في فنون شعرية هامة طالما برع فيها معاصروه من الشعراء كالغزل والوصف فالغزل قوامه المرأة يصف الشاعر حبه لها وهيامه بها وحسنها وجمالها المتمثل في حور العينين إلى غير ذلك من المفاتن التي تحرق قلوب العاشقين ، والمرأة بدورها تريد في محبتها أن يكون حسنا في مطهره ومخبره حسنا في صورته الخلقية والخلقية تريده جميلاً وسيما تريده حسنا في ملبسه كريماً في مأكله ومشربه إن كان غنياً ، وكان مروان من ذلك براء لذا لم يتعلق قلبه بكاعب ولم يهتم بعذراء فعد منا لذلك شعر الغزل الحقيقي عنده ولما حاول مروان أن يكون « متغزلاً » ما استطاع ذلك إلا مقلداً محاكياً للسابقين من الشعراء الجاهليين الذين يبدأون قصائدهم بالغزل عادة وليس تأثراً . ورأيناه مروان يهيم بالمرأة كاذبا ويصور حبه مقلداً خطى السابقين الذين شابههم في مواقف كثيرة ومنها ابتداء القصيدة بالغزل فكان غزله متصفاً بالبرودة ممعناً في التقليد لأنه افتقد الدافع والمحرك وهو الحب الحقيقي الذي لم يكن ليأتي لشاعر بخل على نفسه وحرمها طيبات الحياة ، وعدمنا الوصف الرقيق في شعر مروان أيضاً لأن مروان عاش في بيئة جافة وذات طبيعة صامتة من ناحية ولأن مروان حرم نفسه من طيبات الحياة فلم يكن ماجناً ولا عابثاً ولا لاهياً وهي الأمور التي تقوي خيال الشاعر وتلهمه الوصف فلم يصف الطبيعة متمثلة في الأشجار والطيور والمياه لأنه لم يدخل بستنانا للهو لأن ذلك يتطلب منه أشياء هو عنها في غنى إذ تآبها نفسه وينافيتها طبعه لأن الطبيعة تستوجب منه الأنس فيشرب الخمر ويأكل اللحم ويسمع الغناء وهكذا يستطيع أن يكون واصفاً كما كان أبو نواس. ولكنه حرم علي نفسه الخمر واللحم والغناء بخلا لاتدينا فلم يصفها وهو الشاعر الذي لولا بخله لوجدناه عازفا يعزف أروع الألحان ومغردا يغرد بأعذب القصائد وأرقها .

ولما حاول مروان أن يقول الوصف وأن يصبح واصفاً كما هو شأنه في الغزل سار على طريقة أتبعها في غزله سابقاً هي طريقة التقليد والمحاكاة متأسياً بالسابقين من الشعراء فوصف

الناقة مثلهم ووصف السهل والحزن والوادي والنجاد والوهاد ولم يستطع أن يتجاوز تلك المعاني إلى معان أخرى لأنها هي التي تناسب أخلاقه في جفائها وحشونتها التي كانت نتاج البخل وحياة الترحال معاً . فوصف الناقة والرمل والجبل وغيرها من أمور لا تكلفه شيئاً ولا تغرمه درهما . وما عليه إلا أنه يمتطي راحلته يقطع بها الفيافي والسباسب والقفار فيرى ويشاهد ويصف كما فعل امرؤ القيس وليبد بن ربيعة والأعشى .

صحيح أن للبيئة أثراً في انعدام وصف الخمر مثلاً في شعره نظراً لأنه عاش في بيئة محافظة ولكن لو فرضنا أنه عاش في أتون الحضارة العباسية بما فيها من لهو وخمر ونساء وغناء فالنتيجة واحدة فهو لن يتأثر ولن يرق وإنما سيظل على طبعه بخيلاً شحيحاً على نفسه وعلى الآخرين لأن الطبع يغلب التطبع ، ولو فرضنا أنه حاول وصف الخمر فعلاً فإنه لن يستطيع لأن مشاهدتها لا تكفي لوصفها وإنما بيت القصيد في وصف كأسها وقدها وشربها وشاربها ومجالسها ولونها وأثرها على الجسم والعقل وهذه أمور لا تحصل إلا عن معايشة حقيقية لأُم الحباثت وما ينشأ عن وجودها من مغريات أخرى من غناء ولهو ورقص واسراف وهي الأمور التي رفضها ببخله وشحه لا تدينه وترفعه فقتل مواهب الوصف والغزل عند مروان حتى المباح منها ، وهي أمور كان جديراً به أن يفتح عليه ذهنه وينطق بها لسانه وكم كان للبخل من دور عظيم في رجوعه لليمامة فوراً اتصاله بممدوحه وأخذ عطائه حيث لا يلبث في بغداد تلك المدينة المترفة سوى الوقت الذي يقضي فيه غرضه خوفاً من أن ينقص ماله على ملذات الحياة التي لا يمنع نفسه عن التمتع بها واقتناص لذاتها إذا كانت على موائد الآخرين .

٤ - الثقافة النقدية :

كنت أود الكلام عن الثقافة النقدية في فصل لاحق عند الحديث عن مروان في ميزان النقاد إلا أنني رأيت أفراد فصل خاص للحديث عنها في هذا الموضوع لأن الثقافة النقدية التي اشتهر بها مروان من أهم العوامل المؤثرة في شعره .

لقد وهبه الله عبقرية شعرية فذة ودعمها بملكة نقدية ساعدته على تقويم أود شعره ومعوجه فإذا كانت المهوبة تصنع من الأنسان شاعراً فما بالك بالمهوبة التي تدعمها ثقافة نقدية أتاحت له اطلاق آراء نقدية جريئة على كثير من الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه كانت مثار اعجاب النقاد الذين جاءوا بعده .

لقد كان يملك هذه الموهبة وهذه الثقافة التي عز نظيرها عند شعراء طبقته واتضح عنه بحيث لفتت إليها الأنظار وسجلها الأدباء والنقاد كظاهرة لها الدور العظيم في جودة شعره وانتشار ذكره .

كان مروان ينقد سابقه ويدي رأيه في أشعارهم ، ويحكم عليهم ولهم ولا يمينه ذلك من تفضيل شاعر « ما » لأنه صادف هوى من نفسه ، ويدعم آراءه بالأدلة القاطعة موضحا الأسباب التي دعت له لتفضيل ذلك الشاعر مما يوحي بملكة نقدية عظيمة أثرت في شعره فيما بعد .

وتجلت آراء مروان في مجال النقد في نظراته إلى الشعراء الجاهليين واصداره احكاما عليهم هدفها نقدا آراء من يقول بتفضيل أحد على سواه بدون دليل ودحض هذه الآراء لأن هؤلاء الشعراء كل منهم أجاد في غرض لم يبدع فيه سواه وقصر في غرض عمن سواه ولهذا فهم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

روي صاحب الأغاني (أن مروان أنشد يوما شعر زهير فقال ثم قال زهير أشعر الناس ثم أنشد للأعشى فقال الأعشى أشعر الناس ثم أنشد شعرا لامرئ القيس فقال امرؤ القيس أشعر الناس ثم قال الناس والله أشعر الناس) (١) فهذا رأي نقدي يحمل السخرية من آراء النقاد التي تحكم لشاعر على سواه وتهكما على هؤلاء النقاد الذين يقولون بتفضيل النابغة أو زهير أو الأعشى أو امرئ القيس على صاحبه (٢) . فكلما فضل مروان واحدا أدلى الثاني بحجته التي تبطل حجة سواه فإذا كان زهير أشعر في غرض فالأعشى أشعر في آخر وامرؤ القيس في ثالث وهكذا ولهذا فإنهم قد اجتمعوا في نظر مروان في مرتبة واحدة من زاوية الرؤية العامة لا يغلب أحدهم غيره ولا يبرز سواه .

هذا هو رأي مروان الذي يعطي كل ذي حق حقه في حين ليج الناس في الخصام حول أي الجاهليين أشعر ؟ لذا فهو في ظني الناقد المتقف الذي يحكم عقله قبل عاطفته وبصره قبل هواه .

وضاع النقاد في زحمة تفضيل الشعراء الأمويين بين الثلاثة جرير والفرزدق والأخطل حتى قالوا في ذلك شططاً من القول ففضلوا أحدهم على صاحبيه وقدموه ولم يقبلوا منهما

(١) الأغاني : ٤٠/٩ .

(٢) وإلى ذلك ذهب الدكتور طه حسين حيث قال عن رأي مروان (ولست أعرف رأيا كهذا يمثل الشك في نقد الناقد المعاصرين والسخرية بذلك النقد) حديث الأربعاء ٢٣٨/٢ .

أن ينازعه مرتبة الشرف والأسبقية .

أما مروان فلم يك مثل هؤلاء وإنما نظر إلى الثلاثة من ناحية الأغراض الشعرية فوجد كل واحد منهم برز في بعض وقصر في بعض فكان أن أفضل كل واحد منهم على صاحبيه فيما برع فيه وأجاد ولكنه لم يفضله في كل شيء .. ولهذا فإنه حينما سئل عنهم قال « أحكم فيهم بشعر فإن الكلام يرويه كل قوم بأهوائهم فقال (١) :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلو القصيد ومره جريير
ولقد هجاء فأمض أخطل تغلب وحوى اللها ببيانه المشهور
كل الثلاثة قد أجاد بمدحه وهجاؤه قد سار كل مسير (٢)

إذن فمروان فضل كل شاعر على صاحبه حسب نظريته فيما برع وأبدع فيه فالفرزدق أعظم فخراً وجريير أرق شعراً والأخطل أشد هجاء وهلم جرا .

ولعمر الله إن هذا رأي صائب يعطى صورة مشرقة عن مروان الناقد والشاعر الفنان وأي كلام أبلغ؟ وأي ناقد يستطيع أن يدرك ما أدرك مروان من أن الناس ربما يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يستطيعون أن يحرفوا الشعر لأنه محكوم بالقافية والروي؟ إن قوة الإدراك دليل قاطع على بصر مروان بالشعر وصحة نقده ولكنه يميل إلي تفضيل نفسه عليهم ولا غرابة فكل عنده حب الذات وعقدة (الأنا) الطاغية . ولنقرأ قوله :

ولقد جريت مع الجياد ففتها بعنان لاشبم ولا مبهور

وأعتقد أن سبب ذلك هو أن مروان فاقد للأسباب الداعية للفخر الحقيقي فلم يجد أمامه سوى أن يفتخر بشعره وأن يفضل نفسه على الشعراء وإن لم يكن محققاً في ذلك .

ولكن مروان في النهاية يقول بتفضيل الفرزدق حيث يقول (كان جريراً إذا أخذ الناس غلبهم وإذا أخذ الفرزدق جريراً غلبه الفرزدق ومن نظر في النقائص تبين له ذلك وعلم أن جريراً لم يقدّم فيها للفرزدق) (٣) ولا أعتقد أن في ذلك تعارضاً مع رأيه السابق فهو حينما يفضل الفرزدق فإنه يعتمد على ذوقه الأدبي الذي يحتم عليه تفضيل شاعر على آخر ولكنه أحب الفرزدق لأنه أقرب إلى نفسه وأشبه به شعراً إذ أن كلاهما يعتمد الجزالة والرصانة

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٣١٨ .

(٢) انظر الأبيات في شعر مروان ص ٥٥ .

(٣) الموشح حيث أيد المرزبانى رأيه فقال وصدق مروان في هذا القول والأمر فيه ظاهر غير مستتر . ص ١٢١ .

والقوة والفخامة ورنين الجرس الموسيقي في الألفاظ وقديماً قيل (الفرزدق ينحت من صخر) ولهذا فضله مروان لتقاربهما في المذهب الشعري ، ونظراً لأن مجال النقائص كان مقصوراً على غرضي الفخر والهجاء فقد كان الفرزدق أعظم فخراً ومع أن جريراً كان أشد هجاء إلا أن هجاءه لم يستطع أن يجاري فخر الفرزدق نظراً لأن الفرزدق كان صادقاً في فخره في حين كان جرير يتأرجح في هجائه وهذا مادعا مروان في النهاية إلى الحكم بتفضيل الفرزدق على جرير ولكنه في مجال الفخر فقط .

وكان مروان يحب كثير عزة ويعجب به ويدافع عنه ولتقرأ هذا الخبر الذي يصور لنا مدى إعجابه به كما يصور لنا حضور بديهة مروان وسرعتها مما يعينه على التصرف في أخرج المواقف ويتضح ذلك من الخبر التالي :

روي ابن سلام قال (تعلق الناس كثيراً بقوله):

فإن أمير المؤمنين هو الذي غزا كامنات الصدر مني فنالها
تري بن أبي العاصي (١) وقد صف دونه ثمانون ألف قد توافت كمولها
يقلب عيني حية بحارة إذا مكنته شدة لا يقيلها

قال محمد « فقلت لابن أبي حفصة أمن جودة مديحه أن جعل دونه ثمانين ألفاً وجعله يقلب عيني حية وجعل أمير المؤمنين غزا كامنات صدره فقال (أي مروان) هذا النابغة قال الملك العرب (٢) .

واحكم كحكم فتاة الحبي إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الثمد
فأمره أن يحكم بحكم فتاة (٣) .

هذا ما يدلنا على سرعة بديهة مروان في تشبيه موقفه بموقف وحضور ذهنه مما يوحي بإلمامه بأداب العرب وحفظه لأشعارها مما ساعه على تكوين تلك الثقافة النقدية حتى دفعه ذلك إلى التعريض بمن يحفظون الأشعار ولا يحسنون روايتها وإلى الغمز من قناتهم فقال :

زوامل للإشعار لا علم عندهم يجييدها إلا كعلم الأباغر
لمرك ما يدري البعير إذا عذا بأوساقه أوراخ ما في الغرائر (٤)

(١) المقصود عبد الملك بن مروان . (٢) ملك العرب النعمان بن المنذر .

(٣) الموشح ١٤٣ وأنظر زهر الأدب ص ٣٥٨ والفتاة هي زرقاء اليمامة المشهورة بقوة بصرها .

(٤) شعر مروان ص ٥٥ .

والآن إلى أي حد أفاد « مروان » من تلك الثقافة الأدبية ؟ لن أطيل ولن أسهب في ذلك لأنني قد استعرضت ذلك في الكلام عن مروان من خلال حديثي عن فنونه الشعرية .

لقد دفعه بصره بالشعر ونقده له إلى إخضاع شعره والنظر إليه بمجهر النقد عنده ، ودفعه ذلك إلى أن يفحصه فحصاً دقيقاً وينقيه من كل رديء ويهذهبه من كل شائبه حتى إذا استوثق من ذلك أخرج القصيدة وعرضها على النقاد والأدباء . كما حدث له مع خلف الأحمر ويونس بن حبيب حينما عرض عليهما قصيدة (طرتك زائر فحيّ خيالها) ، وكما حدث له مع بشار إذ كان يعرض شعره عليه ، وهذا ما حدا به أن يتبع مذهب شعراء الحوليات وأصحاب الصنعة في شعرنا العربي فيقول القصيدة في أربعة أشهر وينقيها في أربعة أشهر ويذيعها في أربعة أشهر فكانت القصيدة تمر بفترة حمل ومخاض وولادة مقدارها سنة حتى يتأكد مروان من جودتها وادئتها للغرض الذي قيلت من أجله وأحكامها والتأكد من سلامتها من الغث والهجين فهو ناقد ينقد عيوب الشعراء وفهمها فمن الواجب عليه أن يتحرر من كل النقائص والعيوب كي يقبل الناس نقده ويعتمدوا حكمه ، وإن كان هذا الأسلوب متبع عند مروان في مجال المدح لأنه أبرز الأغراض عنده وفيما يتعلق به من مقدمات شعرية من غزل تقليدي أو وصف لراحلة أو فخر أما بالنسبة للثناء فإن طبيعته تتنافى وأسلوب التحكيك لأن سمة الصدق فيه مرتبطة بالتأثر المباشر .

من هنا جاء مديح مروان وراثؤه في مرتبة واحدة من ناحية الجودة والاتقان والجزالة والرصانة والفخامة التي استوحاها من ملكته النقدية ومن تأثره ببيئته .

ولعل الملاحظ أيضاً أن ظاهرة تنقيح الشعر عند مروان (خاصة في مجال المدح) لم تكن اكتشافاً من قبل النقاد الذين تحدثوا عن مروان بمقدار ما كانت اعترافاً صريحاً منه حيث يقول :

إني أقول قصائدًا حوالة	أبدأً تجول خوالعاً أرسانها جمحت
من كل قافية إذا أجديتها	فلم تملك يداي عنانها
سارت بيوتي في البلاد فأمعنت	ويوت غيري لم ترم أوطانها (١)

وختاماً للحديث عن هذه الظاهرة أرى أنه من الضروري الإشارة إلى عدة آراء نقدية سوى ما سبق أطلقها مروان على بعض الشعراء من معاصريه وسابقيه كي لا يظن الناس أن

(١) الأشباه والنظائر ١/ ٢٢٦ .

تلك الآراء من القلة بحيث تدخل في إطار العشوائية التي قد يطلقها بعض من ينتسبون إلى النقد ادعاء لا حقيقة وتمثل تلك الآراء في المواقف التالية :

١ - موقفه من شعر أبي الشمقمق حينما مدحه فقال له مروان وأنت شاعر وأنا شاعر وغايتنا السؤال (١) .

٢ - قوله البشار بن برد (أنت باز والشعراء غرائيق) (٢) .

٣ - قوله حينما سأله دعبل الخزاعي قائلاً (من أشركم جماعة المحدثين) قال أسيرنا بيتاً قلت من هو قال الذي يقول :

لشتان ما بين اليزيديين في الندى يزيد تميم والأغر ابن حاتم (٣)
(يقصد ربيعة الرقي) .

٤ - إعجاباه بشعر كثير عزة عل نحو ما رواه ابن سلام حيث قال (ورأيت ابن ابي حفصة يعجبه مذهبه في المديح وكان يقول كان يستقصي المديح) (٤)

٥ - ما رواه صاحب الأغاني عن قصة مروان مع إبراهيم الموصلي حيث قال (دخل مروان ابن ابي حفصة يوماً على إبراهيم الموصلي فجعلنا يتحدثان إلى أن أنشد اسحق ابن إبراهيم مروان بن أبي حفصة لنفسه :

إذا مضى الحمراء كانت أرومتي وقام بنصري حازم وابن حازم
عطست بأنف شامخ وتناولت يداي الثريا قاعداً غير قائم

قال : وجعل إبراهيم يحدث مروان وهو عنه ساه مشغول فقال له مالك لا تجيبني قال (والله لا تدري ما أفرغ إبتك هذا في أذني) (٥) .

٦ - قوله لحفص بن مسلم وقد دخل على الفضل بن يحيى بعد عودته من خراسان وبين يديه بدر تفرق بخواتيمها فما فضت بدره منها فقال حفص :

كفى الله بالفضل بن يحيى بن خالد وجود يديه بخل كل بخيل
فقال مروان له وددت إنني سبقتك إلى هذا البيت وأن عليّ غرم عشرة آلاف (٦) .

(١) البصائر والذخائر ٥١/٣ . (٢) المصدر السابق ٥١/٣ .

(٣) وفيات الأعيان ٣٢٣/٦ . (٤) طبقات الشعراء لابن سلام ٥٤٠/٢ .

(٥) الأغاني ٩٤ / ٥ . (٦) تاريخ الطبری ٤٦٥/٤٦٤/٦ .

٧ - قوله ليونس بن حبيب بعد أن عرض عليه قصيدته (طرقتك زائرة) وفضله يونس على الأعرشى . (سررتني وسؤتني فأما الذي سرنني فارتضاؤك شعري ، وأما الذي ساءني فتقديمك إياي على الأعرشى) وكذلك قوله في نفس الموقف مخاطبا يونس بن حبيب (أني لأرى أقواماً يقولون الشعر لأن يكشف أحدهم عن سواته ثم يمشى كذلك في الطريق أحسن له من أن يظهر مثل ذلك الشعر) (١) . والأمثلة والشواهد على آراء مروان النقدية كثيرة (٢) .



(١) الأغاني ٣٩/٩ .

(٢) انظر مزيدا من الشواهد في أمالي المرتضى ج ٢/ ٤٣ ، ٤٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(هـ) مروان في ميزان النقد

حينما تتناول ألسنة النقاد شاعراً (ما) تقریباً وتحليلاً ونقداً فلا يعني ذلك الاحتقار لذلك الشاعر وتدني منزلته وضعة قدره وهوانه عليهم فالنقد عامل بناء وهو مبدأ متزامن مع مسيرة الشعر منذ أن قال الإنسان أول بيت منذ القدم ، وما ظهرت الحقيقة واضحة والصواب جلياً لولا النقد بغض النظر عن بعض النظريات النقدية التي تقوم على التعصب فتخرج عن اطار النقد إلى اطار الانتقاد .

لذا كان طبيعياً أن يتعرض النقاد لدراسة شعر مروان خاصة وأنه عاش في عصر تطورت فيه النظريات النقدية وعاصر فيه نقاداً أفذاذاً أمثال يونس بن حبيب وابي عمرو بن العلاء وابن سلام الجمحي وخلف الأخرم وسواهم واتفقوا حوله حيناً ، واختلفوا حيناً آخر .

اختلف هؤلاء الأدباء والنقاد في شأن مروان وتحديد مكانته الشعرية وهذا خير دليل على علو مكانته في مملكة الأدب ودولة الشعر مما جعله محط أنظارهم يتناولونه بمشاريط النقد ، ويتضح ذلك من تلك الآراء النقدية التي اصدرها هؤلاء النقاد حول شعره كما نقدوا من قبله وكما اختلفوا حول الشعراء الجاهليين أيهم أشعر ؟ امرؤ القيس أم النابغة أم زهير والأمويين أيهم بالإمامة أحق وأجدر الفرزدق أم الأخطل أم جرير وأجمعوا في النهاية على أن هؤلاء جميعاً شعراء مجيدون .

ومن هنا كان لا بد من الاختلاف حول طبقة ظهرت في أواخر العصر الأموي واشتهرت شطراً من العصر العباسي كبشار ومروان وابي نواس ومسلم بن الوليد وسواهم من الشعراء خاصة وأن مدرسة النقد قد اتسعت وتعددت فنونها وارتفع عدد النقاد الذين انضوا تحت لوائها وكل ناقد منهم يتميز بمنهج نقدي يتباين مع كثير من المناهج النقدية في عصره وله من الآراء ما لا يتفق فيها إلا مع من أشبهوه في ثقافته وما ثلوه . فتعددت النظريات النقدية وتنوعت نظراً لتباين وجهات النظر وتعدد مصادر الثقافة واشتمال الحواضر العربية على فئات متباينة من جنسيات سكانها من عرب وروم وفرس واثراك .. الخ . كان لها الأثر الكبير في النقد خاصة إذا علمنا أن أغلب هؤلاء النقاد قد عاشوا في تلك الحواضر العربية فكان تقديم صورة معبرة عن الثقافة التي تموج بها تلك الحواضر .

ففي هذا العصر كثر الجدل اللغوي حول مقومات اللغة ومقاييسها بعد أن دخلها اللحن نتيجة للإختلاط مما جعل النحاة يحددون آخر من يستشهد بشعره من الشعراء على سلامة اللغة فقامت مدرسة نقدية تقوم على التعصب للغة والانتصار لها كما حدثت ثورة في الشعر العربي فتغيرت المقاييس وخرج كثير من الشعراء على النمط العربي القديم في بناء القصيدة كما يتضح لنا ذلك من شعر ابي نواس وابي تمام . كما تكونت مدرسة نقدية أخذت بنظرية هؤلاء الشعراء وتبنتها ودعت إليها وتعصبت لها .

وفي مقابل تلك المدرسة نشأت مدرسة نقدية مضادة تعصبت للقديم وتحاملت على الجديد كما جاءت مدرسة نقدية سلك اصحابها طريقة تختلف عما عداها من المدارس النقدية الأخرى فقامت آراؤها النقدية على النظر إلى الشعراء من ناحية تعدد فنونهم وتأثرهم بالبيئة التي يعيشون فيها دون النظر إلى عصرهم وجدتهم وقدمهم كما تطرقت إلى دراسة مذاهبهم وميولهم السياسية التي ظهرت جلية في أشعارهم نتيجة للتجاذب السياسي بين القوي السياسية المتصارعة .

وقد تطرقت ألسنة النقاد إلى مروان من وجهات نظر عدة : من ناحية ميوله السياسية وأغراضه الشعرية ، واتجاهه ومسلكه الشعري في عصر شهد صراعاً بين المتضادين القديم والجديد فتحامل ضده بعض النقاد وثلبوه وتعصب بعضهم له ومدحوه ووقف بعضهم وسطاً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ورغم ذلك أجمعوا على القول بأنه شاعر مجيد متقدم بين شعراء طبقتهم .

وأكثر النظريات النقدية التي تطرق النقاد إلى مروان من خلالها وعبروا عن طريقها لدراسة شعره هي نظرية الموازنة بينه وبين بشار بن برد من ناحية الاجادة وتعدد الأغراض الشعرية والمذهب الشعري الذي سلكه كل من الشاعرين وذلك للتقارب الواضح بينهما من ناحية اللغة الشعرية التي يغلب عليها طابع الجزالة واتحاد عصرهما الزمني وتأثرهما بالصراع السياسي الدائر في تلك الفترة . فأبو عبيدة معمر بن المثنى (١) يقول وقد سئل عن مروان وبشار أيهما أشعر قال (حكيم بشار لنفسه بالاستظهار أنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد

(١) من أئمة الأدب واللغة ولد بالبصرة سنة ١١١ ومات بها سنة ٢٠٩ استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد ١٨٨ قال عنه الجاحظ (لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه وكان شعوبياً يفيض العرب وصنف كتباً في ثلبهم وحينما مات لم يحضر جنازته أحد له ما يقرب من مائتي مؤلف منها « مجاز القرآن » و « المثالب » و « مآثر العرب » و « نقائص جرير والفرزدق » و « معاني القرآن » و « طبقات الشعراء » و « النوادر » و « الزرع والإنسان » و « القبائل » و « الأمثال »

ولا يكون عدد الجيد من شعر الشعراء الجاهليين والاسلام مثل هذا العدد وما أحسبهم برزوا في مثلها . ومروان مدح للملوك (١) .

وذهب الأصمعي (٢) إلى تقديم بشار على مروان حينما حكم بينهما وعلل ذلك (بأن مروان سلك طريقا كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره وبشار سلك طريقا لم يتجاوز مذهب الأوائل) (٣) وقلا في موضع آخر (أن أهل بغداد قد ختموا به - أي بمروان - الشعراء . والشعراء أحق بأن يختموهم به - أي بشار - من مروان فقليل له : ولم ؟ قال وكيف لا يكون كذلك وما كان مروان في حياة بشار يقول شعرا حتى يصلحه له بشار ويقويه) (٤) وهذا سلم الخاسر من طبقة مروان يراحمه بين ايدي الخلفاء ويساويه في الجوائز وسلم معترف بأنه تبع لبشار) (٥) وقال الأصمعي أيضاً كان - أي مروان - مولدا ولم يكن له علم باللغة . حضرته في حلقه يونس (٦) وسأل يونس عن قول زهير :

فبتنا عراة عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله

قال : فقال مروان « من العرواء » من البرد قال فقلت له أخطأت لو كان من العرواء لقال فبتنا معرورين اتما عني أنهم باتوا مشمرين كما يقال تجرد فلان للأمر (٧) وفي هذا يقول يزيد المهلب (٨) (ليست لأهل اليمامة فصاحة ولا لأشعارهم سهولة) (٩) ، وقال

(١) الأغاني ٢٤ / ٣ .

(٢) الأصمعي عبد الملك بن قريب الباهلي ولد سنة ١٢٢ في البصرة واشتهر بالرواية والحفظ مع الصدق حتى قال الأخفش (مارأيت أحدا أعلم بالشعر من الأصمعي) وقال الأصمعي عن نفسه (أحفظ عشرة آلاف أجزاء منها البيت والبيتان ومنها المئة) وكان متعصبا للباسيين مات سنة ٢١٦ بالبصرة ومن اشهر كتبه الأصمعيات وكتاب الخليل .

(٣) الأغاني ٢٥ / ٣ ، الموشح ص ٢٥١ باختلاف بسيط .

(٤) المصدر السابق ٢٥ / ٣ وفي الموشح ص ٢٥١ . الكوفة بدل بغداد .

(٥) المصدر السابق ٢٥ / ٣ وفي الموشح ص ٢٥١ . باختلاف بسيط .

(٦) يونس بن حبيب البصري ولد سنة ٩٠ هـ من أصحاب ابي عمرو بن العلاء وروى عنه سيبويه وأصبح من كبار علماء عصره نحاس في علم النحو وكانت له حلقة يجتمع إليه فيها طلاب اللغة والشعراء مات سنة ١٨٢ وعمره اثنان وتسعون سنة .

(٧) الموشح ص ٢٥١ .

(٨) هو يزيد بن محمد بن المهلب شاعر راجز من الرواة من أهل البصرة مات سنة ٢٥٩ في بغداد مدح اسحق بن ابراهيم الموصلبي واتصل بالمتوكل وأصبح سميره ونديه حتى قتل سنة ٢٤٧ .

(٩) الموشح ص ٢٥١ .

أبو زيد الأنصاري (١) (مروان أجد وبشار أهزل) (٢) ولما سمع ذلك الأصمعي قال (بشار يصلح للجد وللهزل ومروان لا يصلح إلا لأحدهما) (٣) .

واعتقد أن تلك الآراء النقدية في المفاضلة بين بشار ومروان كانت على حق حينما فضلت بشاراً على مروان نظراً لأن بشار استطاع أن يزاوج بين المحافظة والتجديد في شعره في حين أن مروان كان قاصراً نفسه على المدرسة المحافظة فلم يكن في شعره أي ملامح تجديد وان كان لكل من الشاعرين أسبابه التي حددت اتجاهه .

وذهب المرتضي في أماليه (إلي أن مروان أشعر بكثير من أهل زمانه وطبقته وأشعر شعراء أهله ويجب أن يكون دون مسلم بن الوليد في تنقيح الألفاظ وتدقيق المعاني وحسن الألفاظ ووقوع التشبيهات ودون بشار بن برد في الأبيات السائرة النادرة فكانه طبقة بينهما وليس بمقصر دونهما شديداً ولا منحط عنهما بعيداً) (٤)

وجاء اسحق الموصلي فقدم مروان على بشار إذ كان لا يري بشار شيئاً ويقول عنه كثير التخليط في نثره وأشعاره مختلفه لا يشبه بعضها بعضاً أليس القائل :

إنما عظم سليمانى حبتي قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا ادنيت منها بصلاً غلب المسك على ربح البصل

لو قال كل شيء جيد ثم أضيف إلى هذا زيفه) وقال عن مروان (أشد استواء شعر منه (أي بشار) وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها) (٥) .

أما ابن الأعرابي فحتم بمروان الشعراء وأبى أن يدون لأحد بعده وحينما سمع قصيدته التي يقول فيها :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها في بطن خفان أشبل

(١) هو سعيد بن أوس الأنصاري الخزرجي . قال عنه ابن النديم ولا أعلم أحداً من علماء البصريين في النحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة شيئاً من علم العرب إلا أبا زيد فإنه روى عن المفضل الطيبي وقال سيبويه سمعت الثقة ويقصد (ابا زيد) مات سنة ٢١٤ وعمره ثلاث وتسعون سنة ودفن بالبصرة وكان مولده سنة ١٢١ هـ .

(٢) الموشح ص ٢٥٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(٤) أمالي المرتضى ٥١٨/١ ولكنه سماه مروان بن يحيى والصحيح مروان بن سليمان .

(٥) الأغاني ٤٣/٩ .

قال (لو اعطاه - أي معن - كل مايملك لما وفاه حقه) (١)

هذه أهم الآراء النقدية التي تناولت مروان بالمديح حيناً والانتقاد حيناً والتوسط بين المنزلتين حيناً آخر إلا أن هذه الآراء يجب أن لا تمر دون النظر فيها والتعليق عليها ومناقشتها .

فرأي ابي عبيدة الذي نقله عن بشار حينما قال (حكّم بشار لنفسه) إلخ يعطى دليلاً على أن أبا عبيدة يبدي رأيه حول الشعارين متمثلاً ذلك في اتجاهين :

الاول : أن أبا عبيدة يقدم بشار بن برد على مروان من ناحية كثرة القول وهو رأي صائب فمروان لا يقف ندا لبشار في هذا المجال ولا يقف ضياع شعر مروان مانعاً دون ابداء رأي قاطع في تلك الناحية فمهما أطال مروان فإن باعه يقصر عن بشار لأن بشار تصرف في كل الفنون ومروان قصر نفسه على بعضها ومن هنا يظهر الفرق بينهما من ناحية الكثرة نظراً لاختلاف البيئة التي عاش فيها كل منها .

الثاني : أن أبا عبيدة يقدم مروان على بشار من جهة نقدية أخرى هي قوله (مروان أمدح للملوك) ويبدو أنه هنا قد أصاب من الأمر مفاصله إذ أن مروان يبدو متفوقاً في هذا المجال فقد مدح المهدي والهادي والرشيد والأمين (في عهد أبيه) والبرامكة ومعن بن زائدة وابنة زائدة وهو مالم يتوفر لبشار .

أما قول بشار بأنه قال (ثلاثة عشر ألف بيت كلها جيدة) ففيه شيء من المبالغة التي يهدف بشار من ورائها إلى تعظيم نفسه لعوامل نفسية كثيرة منها عقدة النسب وقبح المنظر وإلا فإننا لو جمعنا شعر بشار جيده وردية فإنه قد لا يصل إلى هذا العدد كما أننا سنجد عند مروان رغم قلة شعره بالنسبة لبشار قصائد فاق فيها بشاراً وغيره من الشعراء خاصة في المديح .

أما الأصمعي فحكّم بينهما وفضل بشاراً على مروان وكان الحكم من جهة المذهب وتعدد الأغراض الشعرية وما من شك في صحة ما ذهب إليه فبشار مدح ورثى وتغزل ووصف وهجا وعلى العموم خاض جميع ميادين الشعر إلا لماماً فبشار من تلك الناحية أشعر .

ومن ناحية المذهب الشعري تصرف بشار وبرع رغم كونه أعمى وذلك لشدة ذكائه

(١) الأغاني ٩ / ٤٣ .

فأتى بصور ومعان واخيلة وأفكار عجز عنها المبصرون ، وتوسع في مذهب البديع مطبوعاً لامتكلفا في حين أن مروان أغرق في تأثره بالعصور الماضية فجاء في مسلكه الشعري أشبه بالشاعر الجاهلي رغم أنه يعيش في العصر العباسي ، وهذا راجع إلى البيئة التي يعيش فيها كل منهما لأن بشار يعيش في العراق حيث الحضارة ورقة الحياة ونعومتها أما مروان فيعيش في اليمامة حيث البداوة وخشونتها إلا أن الأصمعي أخطأ حينما قال عن مروان (إنه لم يلحق بمن تقدمه) فهو في المديح فإن معظم الشعراء السابقين إن لم نقل أنه سبقهم جميعاً وإن كان ثمة تقصير عن السابقين فهو في رثائه من ناحية الكثرة لا الجودة الذي لم يتجاوز فيه معن بن زائدة على اعتبار أن رثاءه للمهدي ليس بذئ قيمة يمكن إضافتها لرصيده الشعري أما مناقضة الأصمعي لأهل بغداد وعدم موافقته لهم في ختم الشعراء بمروان فلم يكن موقفاً فيه لأنه وإن كان مولداً من ناحية النسب فإنه كان عربياً محض الثقافة والبيئة .

كما جانب الصواب الأصمعي حينما ذهب إلى وجوب ختم الشعراء ببشار لأنه لا يملك ولا غيره حق الحكم الصائب في هذا فالشعر باب لا يمكن اغلاقه ولكل عصر مجيدوه ، ولا يستطيع أحد أن يقول « فلان خاتم الشعراء » ويكون رأيه صائباً خاصة وأن الأصمعي لم يدون الاتجاه الذي يمكن أن يكون بشار بسببه خاتم الشعراء هل هو الاتجاه اللغوي أم السياسي أو اتجاه التجديد في الشعر فإن كان الأصمعي يقول ذلك من وجهة نظر لغوية فاعتقد أن بشار لا يصلح لأن يختم الشعراء به لأن بيئة العراق التي عاش فيها كانت مولدة اللغة بسبب كثرة الجنسيات الوافدة وتأثيرها على سلامة النطق اللغوي وسوف يكون لها تأثير واضح على بشار رغم دراسته اللغوية المتعمقة ومروان أولى منه بهذا الشرف وكذلك من الناحية السياسية .

وأما القول بأن مروان يعرض شعره على بشار وأنه يصلحه له فما من شك في هذا وقد اعترف مروان بذلك ولكنه علي وجه مغاير لرأي الأصمعي إذ لم يكن يصلح شعر مروان ولكنه يقول له (يعطونك عليها كذا وكذا) ولا يقول له أنها جيدة أو رديئة . أما ما يزعمه الأصمعي حين قال (إن سلم الخاسر يزاحم مروان) فلا يعني ذلك قصوراً في مروان لأنه إن فضل عليه سلم مرة فقد فضل مروان عليه عشرات المرات . أما اعتراف سلم بتبعيته لبشار فصحيح لأنه تتلمذ على يده وحفظ شعره وتعلم منه أما مروان فلم يتعلم على يد بشار فاعتراف سلم اعتراف التلميذ بفضل استاذه إلا أن الأصمعي اتخذ من ذلك الاعتراف سبباً للتقليل من شأن مروان وأنه ليس نداءً لبشار وهو الصحيح من خلال النظرة العامة لما قاله

علي فعلته (انظر ذلك في فصل مع المنصور) .

إن الخبر مكذوب مختلق الهدف منه النيل من سمعة مروان وتشويهها والاساءة اليها
ويدل على ذلك ما يلي :

١ - نسبة الخبر إلى اسحق الموصلي وهو صديق مروان ومعجب به أيما أعجاب حتى
أوصله اعجاب به إلى انكار بشار وتقديم مروان عليه وفي نسج الخبر على لسان أهمية قصوى
لأن الناس سوف يصدقون الرواية لأن راويها الصق الناس بمروان وليس معقولا أن يكذب
عليه فالخبر كاذب ولكنه ألبس لباس الحق في نسبته إلى اسحق الموصلي وأن مروان اعترف
له بذلك .

٢ - إهمال الخبر لشأن بقية القصيدة ما عدا البيتين كما اعترف بذلك مروان ، وإنه لم
ينل العطاء إلا بسببها وفي هذا مكيدة وأي مكيدة وهي أن مروان لا يحسن المديح لأنه نظم
قصيدة من مائة بيت لم ينل بها عطاء إلا بهذين البيتين فقط ولولاها لرجع بخفي حنين
فأحكمت الرواية ذلك حيث جعلت مروان يقول (انصرفت بحباء الأعرابي لاجبءاء معن) .

٣ - أن البيتين هما من أبرع ما قال مروان بل إنهما أحسن أبيات القصيدة جميعا وقد
أثارا حفيظة المنصور على معن ووبخه حينما دخل عليه بسبب اغداقه على مروان فمن
الطبيعي أن يصبح عقدة الخبر ومدار الرواية في محاولة لاسقاط مروان من عليائه واطفاء
نوره بعد ضيائه لأن من يشتري بيتين يتصف بضعف الملكة الشعرية مما حدا به إلى الاستعانة
بغيره من الناس حتى لو كانوا دونه (١) .

(١) وفي تاريخ الإسلام السياسي ١٤٩/٢ يذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن رأيا غريبا لا أدري من أي مصدر استقاه فقد نسب
البيت .

مروان يا ابن محمد أنت الذي زيدت به شرفا بنو مروان

نسبه إلى (مروان بن ابي حفصة) بل وتعدى ذلك إلى القول عن مروان « قربه إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وأصبح من
خاصة المقربين إليه وشهد معه جميع مواقف السياسية والحربية كما كان ساعده الأمين في الأعمال التي تولها قبل وصوله إلى
عرش الخلافة بعده ، ولا أدري من أي مصدر أتى بهذا الكلام وأي كتاب اعتمد عليه ، ولا شك في خطأ هذا الزعم وطلانه
إذ كيف يصبح مروان الشاعر ساعدا لمروان الخليفة الأموي ولا يطلبه العباسيون كما طلبوا بقية أعوان الأمويين ، وفي نسبه
البيت إلى مروان لا بد وأنه اعتمد على رواية الأغاني التي جاء فيها (ويقال إنه صنع قصيدة في مدح مروان بن محمد ولكن
بعد فوات الأوان) وهي رواية أوردتها الدكتور طه الحاجري في شروح وتعليقات ص ٣٥١ ملحقة بكتاب البخلاء ، وفيها نقل
الخبر عن الأغاني ولم أجد شيئا من ذلك ، وما دام الدكتور حسن ابراهيم حسن قد وقع في الخطأ بأن مروان قد وجد حظوة
عند مروان بن محمد فلا مانع لديه من أن ينسب البيت إلى شاعرنا مروان دون تمحيص وتدقيق نظرا لوروده في مدح مروان
بن محمد لأن شاعرنا هو أقرب إلى الذهن . ولا شك أن الدكتور حسن ابراهيم حسن قد وقع في خطأ وقع فيه قبله جرجي
زيدان فخلط بين ام مروان الشاعر ومروان بن يحيى عم لمروان الشاعر كان بطلا شجاعا الحقه عبد الملك بن مروان بجيش
الحجاج حينما كان يقاتل عبد الرحمن بن الأشعث . انظر تاريخ آداب اللغة العربية ٣ / ٨٥ .

هذه أهم أوجه التناقض بين الروایتین . وكما تكلمت عن الرواية الأولى لابد أن اتكلم عن الرواية الثانية مناقشاً ومدققاً . ففي هذه الرواية نلاحظ التناقض الغريب بين طياتها فبعد أن أخذ الأعرابي الدراهم وانصرف يقول الخبر على لسان مروان مخاطباً الأعرابي (إني أصدقك) ثم أخبره بالسبب الذي دفعه إلى شراء البيتين فكيف يعقل أن ينصرف الأعرابي ثم يناديه مروان ليخاطبه؟ إن في هذا تناقض يوحى بكذب الخبر واختلاقه . ثم كيف يخبر مروان الأعرابي عن السبب الذي دعاه إلى اشتراء البيتين؟ ليس معقولاً أن يفصح مروان عن نيته . ثم كيف يرضى الأعرابي لنفسه أن يجعل من شعره وسيلة لارتقاء مروان سلم المجد والشهرة لقاء حفنة من الدراهم ومبلغ زهيد من المال؟ إنني أعتقد أن للأعرابي من النخوة والشهامة ما يمنعه من أن يصعد الناس على اكتافه مراتب المجد والشرف ثم كيف يجرؤ مروان على الدخول على معن والأعرابي لا يستطيع ذلك؟ هل كان الأعرابي ذا حياء؟ . إنه لو كان كذلك لما افكر في القdom على معن ولما ورد ذلك بخاطره أو راوده أما إذا كان يجد في نفسه الجرأة فماذا يمنعه لكي يرضى بأبخس الأثمان؟ هل كان يظن أن بيته أقل من المستوى المطلوب؟ الجواب لا . إن الأعرابي قال : (إني جمعت فيهما ما يسره) ثم لماذا لم يحلف مروان الأعرابي هل أمن جانبه . وأيقن أنه لن يقول شيئاً؟ هكذا جاء الخبر لم يفرض مروان على الأعرابي قسماً وأغلاظاً من الإيمان ألا ييوح بشيء وأعتقد أن مختلق الحكاية لم يدرك ذلك .

ثم كيف يرضى مروان لنفسه بالذل والهوان والخزي . فيعترف بما يسيء إلى سمعته ويحط من قدره وينقص من قيمته الأدبية وهو ما كان يخافه في الرواية الأولى حينما استحلج الرجل الباهلي؟

إن مروان إنما اشترى البيتين لأنهما جمعا من المعاني كثيراً في لفظ قليل فأنفق المال في سبيل الشهرة فهل من المعقول أن يسلب نفسه بواسطه اعترافه شهرة عمل طويلاً على الحصول عليها وانتشارها . الجواب لا . لا ثم لا .

وأتسأل مرة أخرى ألم يصل الخبر إلى معن؟ إن لمروان من الحساد وذوي الأحقاد من سوف يعملون على إيصال الخبر إليه ومن الطبيعي أن يغضب على مروان ويبعده ويطرده وهو مالم يحدث منه طيلة حياته .

ويحدثنا الخبر أن معناً أعطى مروان ألف دينار في حين أن الاخبار التي تحدثت عن دخوله عليه أفادت أنه اعطاه عشرة آلاف دينار مما سبب غضب المنصور على معن وتأنيبه

أزل ارفق به حتى بذلت له (مائة وعشرين درهما) فأخذها وانصرف فقلت : اني أصدقك قال : والصدق بك أحسن قلت إني قد حكمت قافية توازن هذا الشعر وإني أريد أن أضم هذين البيتين إليهما قال : سبحان الله لقد خفت امرا لا يبلغك ابدا فأتيت معن بن زائدة وجعلت البيتين في وسط الشعر وانشدته فأصغى نحوي فوالله ما هو إلا أن بلغت البيتين فسمعهما فما تمالك أن خر عن فرشه حتى لصق بالأرض ثم قال : أعد البيتين فأعدتهما فنادى يا غلام إئتني بكيس فيه ألف دينار فما كان إلا لفظه وكيسه فقل صبا على رأسه ثم قال هات عشرين ثوبا من خاصة كسوتي ودابتي الكذا وبغلي الكذا قال فانصرفت بحباء الأعرابي لابهجاء معن (١) .

هذه هي الرواية الثانية والاختلاف بينهما كبير والبون شاسع ولكن لا بد من تلخيص الفوارق الرئيسية بين الروایتين فيما يلي :

- ١ - في الرواية الأولى كان صاحب الرواية باهليا وفي الثانية اعرابيا .
- ٢ - في الرواية الأولى اجتاز مروان بالباهلي وهو في مجلس قوم باليمامة ينشدهم ثم لحقه إلى منزله وفي الثانية التقى بالأعرابي مصادفة وكانا خارجين للقاء معن .
- ٣ - في الرواية الأولى اشترى مروان قصيدة كاملة أما في الرواية الثانية فاشترى مروان بيتين فقط .
- ٤ - اختلف غرض القصيدة ففي الرواية الأولى كانت القصيدة الأولى في مدح مروان ابن محمد أما الثانية فالبيتان في مديح معن .
- ٥ - اختلف مقدار الثمن ففي الرواية الأولى كان المبلغ ثلاثمائة درهم وفي الثانية بلغ مائة وعشرين درهما فقط .
- ٦ - في الرواية الأولى استحلف مروان الباهلي أما في الثانية فصرف النظر عن ذلك لأن الأعرابي بادره بقوله : (لقد خفت امرا لا يبلغك أبدا) فأمن مروان جانبه .
- ٧ - في تلك الرواية كان الراوي اسحق الموصلي وفي الأولى كان الراوي على بن محمد النوفلي عن أبيه .
- ٨ - في هذه الرواية افشى مروان الخبر إلى اسحق الموصلي فرواه للناس أما في الرواية الأولى فلا ندرى من افشى السر وأذاع الخبر .

وهناك أمر يحول دون صحة الخبر وهو أن مروان اشترى القصيد بثلثمائة درهم والمعروف أن مروان من أشد الناس بخلا وتقتيرا وشحاً لا يكاد ينفق دانقا فكيف يخسر ثلاثمائة درهم دفعة واحدة . هل دفع المبلغ لشدة إعجابه بالقصيد ؟ قد يكون ذلك وهذا يعني أن مروان ضعيف في ملكته الشعرية ضعفا اضطره إلى شراء القوافي ولكن لمروان من الشعر الجيد بل الذي بلغ القمة مالم ينظم مثله شاعر سبقه ، وهذا يعني أن ملكته الشعرية قوية غنية وذات معين أدبي لا ينضب وعلى تلك الحال لا بد أن يترفع عما يدنس ويسيء إليه ويشوه سمعته وليس هناك أكبر اضرار بسمعة الشاعر من اشتراؤه القوافي اللهم إلا أن كانت هذه التهمة قابلة للتوسع لتشمل شراء جميع الشعر الذي قاله مروان ، وهذا أمر محال كما أن كتب الأدب لم تتحدث عنه . ناهيك عن المسافة الزمنية التي تفصل بين مقتل مروان ابن محمد عام (١٣٢هـ) واتصال مروان بمعن بعد ولايته على اليمن عام (١٤٢هـ) .

وإلى هنا أصل إلى النتيجة والحقيقة وهي أن الخبر مكذوب على مروان ، وليس له أساس من الصحة ، وربما كان القصد من ورائه النيل من سمعة مروان والخط من قيمته الأدبية والشعرية معا والذي دعاني إلى اصدار هذا الحكم هو أن جميع الأوجه والاحتمالات التي حاولت أن تظهر صحة الخبر كانت توصل إلى نتيجة سلبية لا تقنع أو تشفي غليلا أو تروي ظمأ من تعطش لمعرفة الحقيقة .

وما يدعم صحة ما ذهبت إليه في تكذيب الخبر أن الخبر روي في الموشح بصيغة مغايرة للصيغة الأولى التي جاءت في الأغاني تماما ومناقضة لها متباينة معها وفيها من التناقض والزيف ما يحمل على تكذيبها من البداية فماذا تقول الرواية الأخرى ؟

جاء في الموشح عن اسحق الموصلي قال : (قال مروان بن ابي حفصة خرجت اريد معن ابن زائدة فضمني الطريق وأعرابيا فسألته أين تريد ؟ فقال هذا الملك الشيباني قلت فما أهديت له ؟ قال بيتين قلت فقط قال : اني جمعت فيهما ما يسره فقلت هاتهما فأنشدي :

معن بن زائده التي زيدت به شرفا على شرف بنو شيبان
أن عد أيام الفعّال فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعمان

قال (أي مروان) ولي قصيدة حكمتها بهذا الوزن فقلت تأتي رجلا قد كثرت غاشيته وكثر الشعراء ببابه فمتى تصل إليه ؟ قال فقلت : تأخذ مني ما أملت بهذين البيتين وتنصرف إلى رحلك قال فكم تبذل قلت خمسين درهما . قال ما كنت فاعلا ولا بالضعف . قال فلم

ووفدبها إلى معن فملاً يديه وأقام عنده مدة حتى أثرى (١) .

هذا هو الخبر كما ورد في الأغاني ولكن هل نعتد عليه ؟ وهل نعتبره صحيحاً ؟ وهل نحكم على مروان بسببه ؟

الجواب . لا . فلا بد من مناقشة الخبر ووضعه تحت المجهر لمعرفة دخائله وخفاياه ومن ثم نأخذ به أولاً نأخذ به . حسب الحقيقة الضالة بين السطورها والتي نبحت عنها عسى أن نجد فيها فهي التي تهدينا وترشدنا إلى الحكم الذي نصدره لمروان أو ضده .

الخبر جاء في الأغاني ولا يعني وروده في الأغاني صحته لأن صاحب الأغاني لا تهمة صحة الخبر الذي يرويهِ وعدمها لأنه مخبر يهيمه أن يجمع أكبر قدر من الأخبار التي تشكل سيرة من يكتب بصده دون تمحيصها وتدقيقها فذلك من اختصاص القراء والنقاد ولكن الخبر يقول : (إن مروان أتى الباهلي في منزله وأن مروان حلف الباهلي بالطلاق والأيمان ألا يخبر أحداً ولا ينسب الأبيات إلى نفسه . وهنا يبدو شيء من الارتباك في صحة الخبر فإذا كان مروان استخلف الرجل ألا يقول شيئاً فمن الذي أخبر ؟ هل كان الخبر شخصاً ثالثاً ؟ إن الخبر مل يذكر شخصاً ثالثاً معهما خاصة وأن مروان من شدة حرصه على كتمان الخبر ذهب إلى الرجل في منزله ولم يطلب منه ذلك في محفل من الناس ، وليس من سبيل إلى ذلك إلا أن يكون الباهلي غير متزوج فهو في حل من الحلف بالطلاق فرجماً أخبر بناء على ذلك ولكن مروان استخلفه بالإيمان المحرجة فهل نكت الرجل بوعده واذاع الخبر ليس إلا هذا الحل فقط لأن مروان لن يذيع شيئاً يعرف أنه سوف يعاب به ويؤخذ به ويلام بسببه ولهذا حرص على كتمان من جهته واستخلف الباهلي لكي يستأمنه فلا يغدر به .

ولنفرض أن الباهلي أخبر بما كان له من شأن مع مروان هل كان مروان غائباً فلم يسمع الخبر خاصة وأن الرجلين يسكنان في اليمامة ولا بد أن تتناقل الألسن الخبر ولا ريب أنه سيصل إلى مسامح مروان ؟ أم أخبر به بعد أن مات مروان ؟ لم يذكر الخبر شيئاً من ذلك ولنفرض أن مروان سمع وسكت لأنه لن يلجم أفواه الناس ويمسك عليهم حرية الكلام فأين معن ؟ ألم يصل الخبر إليه ؟ لا شك أن الناس سوف تنقله إليه حسداً وحقداً على مروان الذي نال عنده منزلة لم يصل إليها شاعر غيره ولهذا سوف يؤنبه معن وربما طرده لأنه لا يمدحه بشعره وإنما بشعر غيره . ولم يأت مصدر يتحدث عن شيء من هذا .

(١) الأغاني ٩ / ٢٤٠ الموشح ٢٥٣ (باختصار) .

ح - مروان وشراء القوافي

لم تنته رحلة بعض النقاد مع شعر مروان ومازال بعضهم يرى أن شعره يعاني مرضاً لا يمكن علاجه وادى بهم هذا التصور الى اصدار احكام نقدية تفتقر إلى التشخيص السليم والتفكير الموضوعي فجاءت تلك الأحكام مجحفة بحق مروان كما أنها الحققت ضرراً به ومكانته عند من يقرأ شعره من خلال هؤلاء النقاد .

ويتضح ذلك في مأخذ كبير اتهمه بعض النقاد بارتكابه عن سابق معرفة واصرار وهذا المأخذ هو « اشتراؤه القوافي » فهو كما يدعى بعضهم اعتماداً على بعض الاخبار يشتري الشعر من الناس وينسبه لنفسه ويستحلفهم بالله ألا يدعوه وبالطلاق الا ينتحلوه لأنفسهم ، وما من شك أن هذا عيب يصدع حصن مروان الأدبي وسوف يحيله مع الأيام أنقاضاً ، ويتحول بسببه من شاعر قمة إلى شاعر حضيض ويسقطه من عليائه التي تعانق السها ويدنس سمعته التي بناها بقوة شعره وعكوفه عليه تنقيحاً وتهذيباً . أوقول هذا فيما لو صدق ما ينسب اليه واصبح حقيقة لامراء فيها ولا غبار عليها ، ولكن هل مانسب إليه صحيح أم لا لنرو الخبر الذي أثار زوبعة الشك والريب ومن ثم ناقشه بحكمة وروية .

جاء في الأغاني عن علي بن محمد النوفلي عن أبيه قال : (اجتاز مروان بن ابي حفصة برجل من باهله من أهل اليمامة وهو ينشد قوما كان جالسا إليهم شعراً مدح به مروان ابن محمد وأنه قتل قبل أن يلقاه وينشده آياه أوله :

مروان با ابن محمد أنت الذي زیدت به شرفاً بنو مروان

فأعجبت القصيدة فأمهل الباهلي حتي قام من مجلسه ثم أتاه في منزله فقال له اني سمعت قصيدتك واعجبتي ومروان قد مضى ومضى أهله وفاتك ما قد رمته عنده اتبعني القصيدة حتى انتحلها ؟ فإنه خير لك من أن تبقي عليك وأنت فقير قال : نعم قال : بكم قال بثلاثمائة درهم قال : قد ابتعتها وحلفه بالطلاق ثلاثا وبالايمان المحرجة ألا ينتحلها ابدا ولا ينسبها إلى نفسه ولا ينشدها وانصرف بها إلى منزله فغير منها ابياتا وزاد فيها وجعلها في معن وقال في ذلك :

معن بن زائدة التي زیدت به شرفاً على شرف بنو شيبان

عصره وعن شعرائه فهو يمت إلى الماضي بروابط وصلات تفصله عن الحاضر فكرياً رغم وجوده فيه جسدياً وهو أشبه بيدوي يعيش في قصر من المرمر ومع ذلك يتلحف شملته ويتمسك بخشونته ولا يرضى عنها بديلاً .

ومرة أخرى أكرر وأقول يحق لمروان العكوف والتأمل في نظم قصائده قبل البدء فيها والتنقيح والتهديب بعده ولا يحق لأحد أن ينتقده أو ينتقص منه بسبب تمذهبه بهذا المذهب إذ لم ينتقض شاعر جاهلي أو ينتقد لهذا الأسلوب لأن مروان من تلك الناحية جاهلي في ثياب عباسية واحكام الشعر وتجويده وان استغرق زمناً طويلاً خيراً من شعر مسف مهلهل متهالك متفكك ردىء النسيج نظم في سرعة البرق فافتقد الروعة والبراعة التي تحمل على الإعجاب والاطراء والثناء على الشاعر .

وايم الله فإن الشمس لا تصل الأوج وتنتهي إلى كبد السماء وتكسب حرارتها منذ بزوغها وظهور قرننها من المشرق ، ولكن لا بد لها من زمن حتى ترتفع وتشتد حرارتها . والبدر لا تكتمل استدارته منذ أن هل ولكنه لبث أياماً حتى وصل إلى منتهاه واكتمال استدارته والشعر بهما اشبه يحتاج الى زمن كي يأتي شعراً مكتملاً من جميع جوانبه ونواحيه .

ومما تجدر الإشارة إليه أن مروان لم يترك للنقاد فرصة الكشف عن هذه الظاهرة (ظاهرة الحوليات) في شعره فيتعرض لسهام نقدهم ولكنه اعترف بوجود تلك الظاهرة عنده عن طريق حديثه عن قصته مع كل من يونس بن حبيب وبشار بن برد كما أنه أشار إليها شعراً حين قال :

أنى أقول قصائدنا حوالة	أبدا تجول حوالها أرسانها
من كل قافية إذا احديتها	جمحت فلم تترك يداي عنانها
سارت بيوتي في البلاد فأمعنت	وبيوت غيري لم ترم أوطنها (١)



(١) الأشباه والنظائر ١/ ٢٦٦ .

لا تحمد عقباه كذلك فإن مروان سوف يقدم على ممدوح يقف بين يديه عشرات الشعراء يمدحونه ويطلبون نواله فكيف ييزهم مروان ويغلبهم مديحا وعطاء؟ لا طريق إلى ذلك إلا تحكيك الشعر وتنقيته وصقله حتى يصبح في صفاء المرآة ونقاء السيف ولو نظرنا إلى العاقبة لوجدنا مروان أخذ من المنح والعطايا ما لم يأخذ شاعر عباسي رغم وجود شعراء اتصفوا بقوة الشعر وجزالته وخاصة في المديح، ويرجع السبب في ذلك إلى عكوف مروان على شعره يهذه وينقيه في حين اختصر هؤلاء الطريق فنظموا ولم ينقحوا فحلوا دون مروان في مديحه وعطائه .

واعتقد أن هذا الاعتكاف على تحكيك الشعر ساعد على الوصول إلى الاختيار الأمثل للفكرة التي ترضي ممدوحيه فتطرق إليها وكررها في كل قصيدة ، ويتضح ذلك في تأكيده أحقية الخلفاء العباسيين للخلافة دون العلويين .

يقول طه حسين متحدثا عن جودة شعر مروان (كان بطيئا متمهلا) كان يجيد الشعر لأنه كان يسلك هذه الطريقة التي تزعم الرواة أن زهيراً يسلكها في هذه القصائد التي يسمونها (الحوليات) كان ينفق أشهرا في إنشاء القصيدة وأشهرا في صلاحها وأشهرا في عرضها حتى إذا استقام له هذا كله انشد قصيدته لممدوحه خليفة كان أو وزيرا أو أميراً فليس عجبا مع هذه الأناة ، أن يخلو شعره مما يستنكر وأن يبرأ من الضعف والوحشية معا (١) .

إذا فهو (أي مروان) لا يمدح إلا خليفة أو وزيرا وهو الصحيح لأنه مدح معن وابنه زائدة والبرامكة والهادي والمهدي والرشيدي ولا بد من انتقاء القاطن تناسبهم بحكم مناصبهم إذ لا يجوز أن يمدحوا بألفاظ مبتذلة يجوز أن ينعت بها العامة من الناس ودهماؤهم .

لقد كان لجوء مروان إلى هذا المسلك وسيره في هذا الطريق سببا في تشبهه بالأوائل حتى أصبح قطعة منهم رغم اختلاف الزمن وتقدم العهد ومرور الأيام والشهور والأعوام فهو شاعر جاهلي بألفاظه ومعانيه وافكاره وصوره ، ولكنه يعيش في عصر آخر هو العصر العباسي كما أن ولكن نزعتة إلى القديم ومحاكاة الأقدمين واقامته في اليمامة التي لم تتبدل مظاهر الحياة فيها عن ماضيها الجاهلي والاسلامي حالا دون غرقه في أتون الحضارة الجديدة التي قلبت موازين الشعر في كل مكوناته من صور واخيلة وافكار فأصبح مروان غريبا عن

(١) حديث الأربعاء ٢/٢٣٧ .

فيه أشعر من الأعشى في قوله (رحت سمية غدوها إجمالها) (١) فقال مروان سررتني
وسؤرتني فأما الذي سررتني به فارتضاؤك الشعر وأما الذي ساءني فتقديمك إياي على
الأعشى وأنت تعرف محله فقال إنما قدمتك عليه في تلك القصيدة لا في شعره كله . لأن
قال فيها (فأصاب حبة قلبه وطحاله) (٢) والطحال لا يدخل في شيء إلا أفسده وقصيدتك
سليمة من هذا وشبهه) (٣) .

ويبدو أن مروان لم يطمئن ولم يقتنع بما قاله يونس فذهب إلى بشار وعرض القصيدة
عليه فرجما كان لبشار وجهة نظر تختلف بحكم كونه شاعرا عن وجهة نظر يونس ابن
حبيب .

جاء في الموشح عن مروان قال (لما قلت قصيدتي) « طرقتك زائرة فحي خيالها »
قصدت باب الخليفة فجعلت طريقي على البصرة فمررت ببشار فأنشدته اياها فقال أحسنت
أنت أشعر فيها من الأعشى في قصيدته التي رويها) (٤) .

وكان عرض مروان شعره على النقاد سببا في نقائه وصفائه وخلوه من الحشو المستكره
والمعاظلة لأن من يعكف على شعره هذه هذه المدة تنقيحاً وتهذيباً لا بد وان يأتي شعره قمة
في الجودة والإحكام والانتان ، وأقول إن لمروان العذر في سلوك هذا الطريق لأنه شاعر
مديح وفن المديح يقتضى احترازا من الشاعر خوفاً أن يجافي صواب القول فيقع في خطأ

(١) صدر بيت تمامه (غضبي عليك فما تقول بدالها) ديوان الأعشى ص ٣ .

(٢) عجز بيت صدره ك فرميت غفلة عينه عن شأنه ، ديوان الأعشى ص ٣ .

(٣) الأغاني ٣٩/٩ ، الموشح ص ٢٥٦ معجم الأدباء ٣١١ / ٧ ، العقد الفرید ١٥٦/٦ باختصار وجاء فيه زيادة هي فقال .
(أي يونس) (يا ابن أخي أن هنا خلفا ولا يمكن لاحدنا أن يسمع شعرا حتى يحضر فإذا حضر فاسمعه فجلست حتى اقبل
خلف الأحمر فلما جلس جلست إليه ثم قلت ما قلت ليونس فقال أنشد يابن أخي فأنشدته حتى أتيت على آخره . فقال له
: أنت والله كأعشى بكر بل أنت أشعر منه حيث يقول :

رحت سمية غدوة أجمالها غضبي عليك فما تقول بدالها

فقال له مروان أتبلغ إلى الأعشى هكذا ؟ ولا كل ذا ؟ قال (أي خلف) ويحك أن الأعشى قال في قصيدته (فأصاب حبة قلبه
وطحاله) والطحال مادخل فط في شيء إلا أفسده ، وأنت قصيدتك سليمة كلها .

وفي الأغاني ٣٩/٩ روي حماد الأرقط خيرا قبل الخبر المذكور في أعلى الصفحة وهو قوله (جاءنا مروان بن ابني حفصة إلى حلقة
يونس فأخذ بيد خلف الأحمر فأقامه واحد خلف بيدي فقمنا إلى دار أبي عمير فجلسنا في الدهليز فقال مروان لخلف
نشدتك الله يا ابا محرز إلا نصحتني في شعري فإن الناس يخدعون في أشعارهم وأنشد قوله

طرقتك زائرة فحي خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالاتها

(٤) الموشح : ص ١٢١ .

موجود محك للشعر) (١) ومن الأدباء المعاصرين أيضا قال عمر فروخ عن مروان (شاعر
مكثّر من الشعراء المجيدين والفحول المتقدمين المحكّكين للشعر على مذهب زهير بن ابي
سلمى) (٢) .

وقال عنه شوقي ضيف (كان يحكم صنعته بعيدا ويروي عنه أنه كان يحوك القصيدة
في سنة أما في الأشهر الأربعة الأولى فكان ينظمها وكان في الأشهر الأربعة الثانية
يصقلها وينقحها أما في الأربعة أشهر الأخيرة فكان يعرضها على الرواة والنقاد) (٣) وقال
بروكلمان (كان يطيل تنقيح شعره وتجويده فلم يكن يتم القصيدة إلا في أربعة أشهر) (٤) .
والمهم هنا آراء النقاد القدماء الذين اتفقوا على وجود تلك الظاهرة في شعر مروان أما
بالنسبة للنقاد المحدثين فهم في آرائهم إنما اقتفوا آثار القدماء نظرا لاعتنائهم بما ذهب إليه
هؤلاء .

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، ولكن مروان لكي يكون أكثر اطمئنانا على قصائده وما
بلغته من جوده واتقان واحكام لا يكتفي برأيه الشخصي فقد يخطيء لأن الرأي الواحد
كالخيط الضعيف لا يعتمد عليه وكوميض السراج الضعيف لا يكاد يضيء ، ولهذا لجأ مروان
إلى النقاد لكي يطمئن فؤاده على سلامة شعره بعد مرحلة اعداد استغرقت سنة كاملة فعرض
اشعاره على هؤلاء النقاد ليقرؤها ويعرفوا جيدها من رديتها ويميزوا غنها عن سمينها وينقوها
من كل شائبة ويطلعوا مروان على معوجها لكي يقوم أودها فتكتسى حلة قشيشية من الجودة
والانتقان وتصبح كالسيف له لمعان بعد أن صقلته أسنة اللهب ومن ثم يقدم بها وينشدها
مدوحة فينال عليها عطاءً وافراً ومالا جزيلا .

روى صاحب الأغاني عن الأصمعي قال (جاء مروان بن ابي حفصة إلى حلقة يونس
فسلم ثم قال لنا : أيكم يونس ؟ فأومأنا إليه فقال له أصلحك الله إنني أرى قوما يقولون الشعر
لئن يكشف أحدهم عن سوائه ثم يمشي كذلك في الطريق أحسن له من أن يظهر مثل ذلك
الشعر ، وقد قلت شعرا اعرضه عليك فإن كان جيدا أظهرته وإن كان رديئا سترته فأنشده
قوله (طرقتك زائر فحي خيالها) (٥) فقال له يونس يا هذا اذهب فاطهر الشعر فأنت والله

(١) تاريخ بغداد ١٣/١٤٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربي (الأعصر العباسية ٢/١٣٢) .

(٣) العصر العباسي الأول : ٣٠١ . (٤) تاريخ الأدب العربي ٢/٢١٠ .

(٥) صدر بيت وعجزه (بيضاء تخلط بالجمال دلالتها) .

ز - مروان وتنقيح الشعر

تناولت مشاريع النقد ومقارض الأدباء مروان نظرا لاتباعه مذهب زهير في حولياته حتى أصبح من عبيد الشعر شأنه شأن طائفة من الشعراء في العصر الجاهلي والإسلامي كانوا يهتمون اهتماما كبيرا بأشعارهم ويحاولون إبرازها في صورة متكاملة متجانسة لا يتطرق إليها نقد ولا ثلب . كما حرص هؤلاء الشعراء على جودة قصائدهم وجزالتها وملائمتها للغرض الذي قيلت فيه ومطابقة الألفاظ للمعاني وشمولها لها دون زيادة ولا نقصان ، وكان هؤلاء الشعراء يعرفون أن القوة والجزالة في القصيدة لا تأتي جزافا ولا عفوا ولهذا عكفوا على أشعارهم بالتهذيب والتنسيق يزيدون عليها ومنها يحذفون ويقدمون ويؤخرون حتى تستوي القصيدة في إطارها المثالي ، وكان ذلك يستغرق منهم زمنا طويلا يصل مداه إلى سنة بكل أيامها ولياليها فعرف هؤلاء الشعراء . (بعبيد الشعر) وقصائدهم (بالحوليات) .

وقد تزعم هذا المذهب في العصر الجاهلي عبيد بن الأبرص وزهير بن ابي سلمى والحطيئة الذي كان مخضرمًا بين العصرين الجاهلي والإسلامي .

أما في العصر العباسي فورث الخلافة من الشعراء السابقين شاعرنا مروان بن ابي حفصة فأصبح زعيم الشعراء المنمقين للمحككين للشعر وقد أجمع النقاد والأدباء على وجود هذه الظاهرة واضحة بارزة جلية في شعره كما اعترف مروان بذلك .

فهذا طه الحاجري يقول عن مروان إنه (من أهل الصنعة الشعرية) (١) وروى حماد الأرقط (٢) عن مروان نفسه قوله (إذا أردت أن أقول القصيدة رفعتها في حول أقولها في أربعة أشهر وانتخلتها في أربعة أشهر وأعرضها في أربعة أشهر) (٣) وقال ابن المعتز (إن مروان من المحككين للشعر) (٤) وفي تاريخ بغداد قال البغدادي (مروان بن سليمان شاعر

(١) البخلاء ٣٥١ (شروح وتعليقات) .

(٢) ولد سنة ٩٥ ومات سنة ١٥٥ وكان مولده بالكوفة أول من لقب بالرواية وهو أعلم الناس بأيام العرب وأيامها وأشعارها كان أول أمره صعلوكا ثم انصرف إلى الأدب قال للوليد بن يزيد حين سأله عن حفظه (انشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى الملقات وحينما انقرضت الدولة الأموية أهمله العباسيون . كان منهما بالإنتحال والكذب والتصحيف ومات ببغداد .

(٣) الأغاني ٩ / ٣٩ .

(٤) طبقات ابن المعتز ص ٥٤ .

٣ - أن شعر مروان أقوى لغوياً من شعر بشار وجميع شعراء البيئة العراقية الذين فاضل النقاد بينهم وبينه لأنه عاش في اقليم اليمامة الذي كان منعزلاً عن الاختلاط بالحضارات الوافدة على البيئة العراقية . فجاءت لغة هذا الاقليم لغة عربية سليمة ، ولم يكن لنسب مروان (المولد) تأثير عليه من تلك الناحية .

٤ - أن مروان أكثر شبهاً بالشعراء الجاهليين والإسلاميين منه بشعراء الدولة العباسية رغم أنه عاصرهم زمنياً .

٥ - أنه كان من عبید الشعر وأصحاب الحوليات المحكمين للشعر بحثاً عن القوة والجزالة وخوفاً من السقوط في دائرة الضعف والابتذال ، وهذا يظهر واضحاً في غرض المديح فقط دون الرثاء ، وهما الغرضان اللذان افتصر مروان على النظم فيهما تقريباً أما بقية الأغراض من وصف أو غزل أو هجاء أو فخر فلم تكن إلا جزءاً من قصائده المادحة وتقليداً للقدماء ومحاكاة لهم .

٦ - أن مروان يتميز عن شعراء عصر بثقافة نقدية واسعة أهلته لأن يصدر أحكاماً نقدية صائبة وان تعدد آراؤه النقدية ، وأن تكون لها شهرة أجبرت من كتب عن مروان من أدباء ونقاد على الاعتراف بها والإشارة إليها ، واحترامها كما أنها ساعدت على الارتقاء بمكانته الأدبية عن يماثلونه شعراً .



بالأمر الفصل والحكم الذي لا غبار عليه وما أحسب أن ناقدا سوف يصدر حكما ويقول رأيا يمثل الدقة والواقعية معا كما فعل ، وهذا ما جعلني اعتمد رأيه من بين آراء النقاد المعاصرين هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن النقاد المعاصرين الذين كتبوا عن مروان كشوقي ضيف و برو كلمان وجرجي زيدان وعمر فروخ ونجيب البهيتي لم يتطرقوا إلى تلك الناحية التي خاض فيها النقاد الأقدمون وكل ما كتبوه عنه عبارة عن سيرة حياة تتخللها بعض الآراء النقدية الموجزة والتي تتطرق إلى شعر مروان من الناحية العامة وتراه شاعرا جاهليا فقط واهملت الحديث عن الموازنة بينه وبين بشار أو التفصيل عند الحديث عن مكانته الشعرية .

وختاما يحسن أن أعود مرة أخرى لتدوين رأي آخر لطله حسين في شعر مروان وهو رأي مكمل لما سبق ذكره يحدد بدقة خلاصة الآراء النقدية القديمة والحديثة التي تكلمت عن أثر البيئته في الشعر حيث يقول (إن مروان دائما لم يكن عراقيا ولم يرض الإقامة في العراق ولم يطق عشرة العراقيين من أهل الحجون والعبث وإنما كان من أهل اليمامة أقام فيها لا يبرحها إلا وافدا على أمير ووزير وخليفة فإذا انشد قصيدته وظفر بجائزته عاد إلى اليمامة واقام فيها عامه ثم استأنف الرحلة ولهذا أثره في شعر مروان فهو أقرب إلى شعر الجاهليين والإسلاميين منه إلى شعر المحدثين من شعراء الحضارة العباسية (١) .

بقي أن أشير إلى ظاهرة أخرى تكلم عنها النقاد وهي مكانة مروان الشعرية بين افراد أسرته التي انجبت عشرة شعراء وحق أن يطلق عليها (بيت الشعر) وقد سبق أن بسطت القول عن تلك الظاهرة وآراء النقاد حولها في فصل (بيت الشعر) .

وختاما لهذا الفصل أرى أنه من الضروري تدوين النتيجة النهائية لمكانة مروان بين شعراء عصره ، وسماته التي انفرد بها عنهم انطلاقا من تلك الآراء النقدية القديمة والحديثة التي تمت الإشارة إليها ومناقشتها . سواء أوقفت معه أو ضده وذلك في النقاط التالية :

١ - أن بشار بن برد أشعر من مروان من ناحية تعدد الأغراض الشعرية وتنوعها والتوسع في النظم عليها ، والتجديد في مسيرة الشعر العربي .

٢ - أن مروان أشعر من بشار وجميع معاصريه من الشعراء من ناحية رصانة اللغة وجزالة الفاظها وقوتها ، وقربها من المنبع اللغوي السليم كما أنه أشعر في غرضي المديح والثناء .

(١) حديث الأربعاء ٢ / ٢٣٦ .

كذلك فإن رأي ابن الأعرابي في شعر مروان يبطل ادعاء الأصمعي الذي قال (إن مروان مولد ليس له علم باللغة) فالخبرة باللغة إنما تتوفر في شعر مروان ، وابن الأعرابي لم يقل زورا حينما ختم بمروان الشعراء من الناحية اللغوية فهو من اشد المتعصبين للغة العربية تهمة سلامتها فكيف إذا يختم الشعراء بمولد لا علم له باللغة كما يرى ذلك الأصمعي ؟ إذن فمروان ليس كما قال عنه الأصمعي وإنما كان كما قال عنه ابن الأعرابي فقدمه وفضله ولا اعتقد أن أحدا يشك في ابن الأعرابي وثقافته اللغوية العميقة التي صدر عنها هذا الرأي .

هذه هي أهم الآراء النقدية القديمة التي قيلت عن مروان وشعره . أما في العصر الحديث فإنه خير من يمثل النظرة النقدية السليمة التي نبحت عنها فهو الدكتور طه حسين الذي اصدر رأيا نقديا رائعا في قضية الموازنة بين مروان وبشار لم يقله ناقد قبله ولم تتجمع فيه الحكمة والدقة والنظرة السليمة لاحد مثل ما تجمعت له حيث يقول عن شعر مروان (هو أقرب إلى شعر الجاهليين والاسلاميين منه إلى شعر المحدثين من شعراء الحضارة العباسية تقرؤه فتجد عليه هذه المسحة التي تخلو أو تكاد تخلو من الدعابة والحفظة وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة وهو يمثل البادية تمثيلا صحيحا ولهذا أثره في وجهة اخرى فقد رضي علماء اللغة جميعا عن مروان واحبوه من تلك الناحية وما أشك أنا في أنهم كانوا يودون لو استطاعوا ايثاره علي بشار وابي نواس لانه كان أقرب منهما إلى الأسلوب البدوي القديم ، ولكن أنى لهم ذلك وقد سلط الله عليهم لسان بشار وابي نواس فاضطروا إلى أن يحابوا هذين الشاعرين ويتملقوهما واجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم بشار وايثاره على مروان ، ومع ذلك فليس إلى المقارنة سبيل بين الشاعرين إذ اتخذنا وجهة البحث والنقد هذه الوجهة التي كان يعني بها علماء اللغة وهي وجهة المتانة والرصانة في اللفظ والأسلوب لا يقاس إلى مروان في هذا احد من شعراء العراق أما اذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد إذا اتخذنا اختلاف الفنون التي طرقها الشاعر وقرب المأخذ والدنو من اذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم فليس مروان يقاس إلى بشار ولا إلى ابي نواس بنوع خاص . على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعا شريفا في فنه لا يخاف ولا يهاب فصدق نفسه وصدق الناس وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين وهذا العالم اللغوي هو ابن الأعرابي الذي ختم الشعر بمروان وأبى أن يدون لأحد من المحدثين بعده) (١) .

هذا هو رأي طه حسين وحسبي أن أقول « قطعت جهيزة قول كل خطيب » فإنه جاء

(١) حديث الأربعاء ٢٣٦/٢ .

وفي النهاية حكم بأنه أقل شأنًا من بشار (لأن بشار له من الأبيات السائرة التي سبق اليها جميع الشعراء ولم يلحقه فيها أحد ما يعجز عن مثله مروان) (١) فكان بشار صاحب الترتيب الأول مقدما على مروان إلا أن مروان يتفوق على مسلم بن الوليد فهو طبقة بينهما وهي المرتبة اللائقة بمروان التي اختارها له الشريف المرتضى .

وهذا هو الرأي الذي لا يحمل في طياته شكًا ولا ارتيابًا لأنه اعتمد على الحجة والدليل والبرهان وجعلها أساسًا لنقده . كما أن صاحب الأمالي تجرد من عاطفته وهواه وإلا لكان جديرا بأن يظل أسيرا لهما فيتعصب ضد مروان ويتحامل عليه لأنه علوي في نسبه وهواه ومروان كان يتحامل على العلويين ومع ذلك لم يغمط مروان حقه وينقص قدره لأنه صاحب نظرة نقدية سليمة تمنح الحق لكل مستحق بتجرد من العاطفة والهوى « فآفة الرأي الهوى » لأنه يحمل صاحبه على الضلال وتعمية الحقائق والابتعاد عن المنهج الموضوعي في النقد .

أما رأي اسحق الموصلي فرأي تعصب وتحامل وتعمية يدل علي مبلغ حقه علي بشار وما احسب ناقدا أهمل بشاراً ولم يعتد به سواه وأجمل بنا أن نخرجه عن دائرة النقد الهادف الذي يرمي إلى اظهار الحقائق واضحة جلية وذلك لأنه اسير الهوى والعاطفة فخرج بذلك عن موضوعية النقد السليم ، ولهذا فإنه رأي لا يجوز الاعتماد عليه رغم أن الذي دفع اسحق إلى ذلك تعصبه لمذهب الأوئل لأشعارهم .

أما ابن الاعرابي فانه ينطلق في رأيه من منهج لغوي صرف يهيمه سلامة اللغة العربية من كل شائبة ولحن بعد أن كثر الاختلاط بين العرب والموالي فأدار نظره وأعمل فكره ليرى من الشعراء من هو أقرب للماضيين فلم يجد غير مروان لأن جميع الشعراء كبشار وابي نواس وسواهما دخل شعرهم التجديد وتأثر بموجات الحضارة الفارسية واليونانية في الفاظه ومعانيه ومقاييسه في حين ظل شعر مروان يصدر عن فكر شاعر جاهلي تأخر به زمانه إلى العصر العباسي ففي شعره سمة البداوة وجزالة الجاهلية وقوتها وأسرها ، ولاشك أن شعر مروان هو أقل اشعار شعراء العصر العباسي المجيدين تأثرا بالحضارة بل نجزم بأنه لم يتأثر بها ، ولهذا حق لابن الأعرابي أن يختم به الشعراء لأنه خير من يمثل مدرسة نقدية تتعصب للغة ومروان خير شاعر يمثل سلامة الشعر العربي من المؤثرات التي سادت في العصر العباسي « ومن هنا يكون رأي ابن الأعرابي الذي يذهب إلى تقديم مروان على غيره من الشعراء المعاصرين له صحيحا إنما من الناحية اللغوية الصرفة فقط .

(١) أمالي المرتضى : ١ / ٥١٨ .

الشاعران ، ولكن الأجد بالأصمعي لو سلك في تفضيل بشار على مروان اتجاهاً لا يتحمل نقضاً ولا نقداً .

أما ادعاء الأصمعي بأن مروان مولد فصحيح من ناحية النسب أما من ناحية عدم علمه باللغة فذلك باطل من اساسه لأن عجز مروان عن تصريف كلمة لايعني جهله باللغة ، ولو كانت الكلمة مقياساً لكان الجاهلون باللغة كثير . فاللغة العربية بحر لا شاطئ له كل من تعمق فيه ازداد خوفاً من الغرق لأنه لايعرف له نهاية . ثم إن عدم الامام بقواعد اللغة لايعني أن يكون الانسان غير فصيح لأن مهمة الشاعر أن ينطق نطقاً فصيحاً صحيحاً وإن جهل التعليل .

وتبدو نظرة الأصمعي الواقعية حينما سمع رأي أبي زيد الأنصاري (بأن مروان أجد وبشار أهزل) فقال (بشار يصلح للجد والهزل ومروان لا يصلح إلا لأحدهما) ذلك لأن بشارا سلك طريق الجد في مديحه وراثته والهزل في ملحه ونوادره التي تضمنها شعره أما مروان فقصر نفسه على الجد في مديحه وراثته وإن كان بشار سلك طريق الهزل والسخرية ، وجعلها ظاهرة بارزة في علاقته بالناس لكي تغطي بشاعة مظهره ووجهه فلا ينفر الناس منه كما أن مروان سلك هذا المسلك ولكن بشكل أقل وضوحاً منه عن بشار وذلك بسبب بخله .

أما رأي المهلبي (بأن ليس لأهل اليمامة فصاحة) ففيه إجحاف وفيه اعراض عن الحق لأن الفصاحة استوطنت اليمامة بعد أن تحضرت سائر الأمصار . فإن لم توجد في أهل اليمامة فصاحة فمن تتوفر فيه إذاً ؟

والصحيح من رأي المهلبي هو قوله عن اليماميين (ليس فى شعرهم سهولة) لأن البيئة تحتفظ بشيء من اصالتها وبدائيتها ومن الطبيعي أن تطبع أشعار أبنائها بخشونتها وشظفها وجزالتها ولكن صعوبة شعر أهل اليمامة تكون قاصرة على فهم اهالي البيئة المتحضرة لها فقط . أما أهل هذا الشعر فهم به أعلم .

والرأي السليم المبني على الاستقراء الصحيح والتدقيق السليم هو ما ذهب إليه المرتضى في أمالية حين قال (إن مروان أشعر شعراء أهله بإجماع النقاد وأشعر من كثير من طبقتة ومروان كان ينقح شعره ويعرضه على العلماء حتى أصبح من شعراء الحوليات وعبيد الشعر إلا أن هناك من فاقه في تلك الناحية) (١) واستشهد صاحب الأمالي بمسلم ابن الوليد ،

(١) أمالي المرتضى : ٥١٨/١ .

٤ - أن الخبر برواية علي بن محمد النوفلي عن ابيه وهذا الشخص قد سبق له وأن روى عن صالح بن عطية الأضجم قصة قتله لمروان وهي قصة مكذوبة من اساسها (راجع وفاته) مما يوحى بأن علي بن محمد النوفلي قد كذب في رواية قصة شراء القوافي وربما أنه يهدف من وراء ذلك إلى الغرض من مكانة مروان الأدبية لحاجة في نفس يعقوب (١) .

وختاماً أقول إن مروان شاعر مديح من الطراز الأول يربأ بنفسه عن مواضع الذل والهوان التي تدنسه وتنال من شرفه الأدبي ، وله من المدائح ما يدل على أنه قادر على نظم ما هو أروع من هذين البيتين ، وأن له من الملكة الشعرية القوية ما تجعل قوافي الشعر وألفاظه ومعانيه تخضع له وتقاد وتسلس له القياد طوعاً لا كرها . فليس معقولاً والحالة تلك أن يدنس سمعته ويعفوها في الرغام فهو أكبر من ذلك وأجل ولكنها النفوس التي تعمد إلى الطرق الملتوية والزيغ والخذاع لإسقاط من تمقتة وتحسده .

وقد لا أعدو الحقيقة حين أقول: إن الخبر مصنوع ونتاجه من عقلية حاقدة آلها تعريض مروان بالعلويين في شعره فلم تجد سبيلاً للنيل منه إلا طريق الكذب والاختلاف واختارت لذلك فن المديح الذي برع فيه لكي تسيء إليه في مدائحه كلها . ولقد ساعد على تعلق الناس بالحادثة وتصديقهم تلك الرواية أسلوب مروان في النظم . ذلك أن تحكيكة شعره وحرصه على تجويده ونقاوته حتى أصبح يعكف على القصيدة سنة وحتى أصبح من شعراء الحوليات وعبيد الشعر صور هذا الأسلوب لدى مروان لبعض النقاد أنه لا يملك قريحة شعرية قوية ولا يملك احساساً مرهفاً يساعده على القول وليس له قدرة على المعاني والألفاظ فغوره قريب ومعينه قليل لا يلبث أن ينضب وملكته الشعرية ضعيفة لا تلبث أن تموت وحري بشاعر هذا شأنه يعكف شهوراً طويلاً قبل أن يخرج قصيدة وينشرها على الملاء أن يعمد إلى طرق ملتوية أخرى يكثر بها شعره وينني عليها فخره فيعمد إلى ما عمد إليه مروان يشتري القصائد والمقطعات الشعرية من الشعراء المغمورين وينسبها لنفسه بعد أن يأخذ عليهم أيماناً مغلظة الا ييوحوا بسر .

هذا هو السبب الذي شوه سمعة مروان في أذهان بعض النقاد وجعل أفكارهم تتقبل كل ما نسب إليه بصدور ربح وتصدر على اساسه حكمها ضده دون أن ينظر هؤلاء إلى مثل هذه الأخبار بعين ثاقبة تملك التمييز وتحسن التفريق بين الجيد والردي . والصحيح والسقيم .

(١) حديث الأربعاء ٢/٢٣٢ .

ومع ذلك فإن جميع الأدباء المتقدمين ممن نشروا تلك الاخبار في كتبهم وذكروها لم يحاولوا تحليلها ومناقشتها قدر ما صدقوها واخذوها بها ، وإن ذلك ليحز في الصدر ويؤلم الفكر ألا يكلف أي ناقد قديم أو متأخر نفسه عناء البحث والتنقيب عن الحقيقة الضائعة وإنما يكتفي من الأمور بظواهرها .

ويتضح صدق قولي فيما ذهب إليه الدكتور طه حسين عندما تصدي للكتابة عن حياة مروان وشعره في كتابه حديث الأربعاء فاسهب وأطال وأطنب في مناقشة مذهبه وشعره واصدر آراء نقدية سليمة لم يصدرها ناقد قبله خاصة فيما يتعلق بقضية مروان وبشار ولكن رغم ذلك ظل أسير خبير (اشترى مروان الشعر) فصدقه ورواه ولم يحاول نقده ثم تفنيده بعد ذلك أو تصديقه فضلاً عن أن يكذبه وهو ما كرره طه حسين حينما روى قصة مقتل مروان، وفي هذا مجانبه للصواب ومناقضة لروح النقد السليم (١) .

وختاماً لهذا الكلام يجب التأكيد على أن التهمة التي ألصقت بمروان وهي تهمة (شراء القوافي) تهمة باطلة الهدف منها النيل من مكانة الأديبة كما أنها تدخل ضمن دائرة الصراع بين العباسيين والعلويين في جميع المجالات السياسية والأدبية والدينية ، وقد كان الدافع إلى إلصاقها بمروان معاقبته ومحاولة لتحطيم دوره البارز في الدفاع عن حق العباسيين في الخلافة بغض النظر عن صدقه أو كذبه في هذا المجال .



ط - الخصائص الفنية

تعتبر الخصائص الفنية لأي شاعر تعرض حياته وأشعاره على مجهر النقد مطلباً ملحاً يبحث عنه النقاد وذلك من أجل تقريب ذلك الشاعر إلى أذهان القراء عن طريق تحديد تلك الخصائص فهي خلاصة موجزة لشعر الشاعر الذي يجري الكلام حوله ، تتلخص فيها الأفكار الرئيسية والصفات البارزة والمزايا الظاهرة التي اتسم بها شعره واختص بها دون سواه من الشعراء مما جعله فرداً في ميدان جديراً بمكانته .

والخصائص الفنية عند مروان هي خلاصة البحث والدراسة لشعره وهي عبارة عن خيوط دقيقة تربط بين مختلف الأغراض الشعرية التي طرقها ونظم فيها وتركت بصماتها وآثارها واضحة جليلة في شعره نستطيع من خلالها أن نعرف طريقته ونحدد مكانته التي تليق به ونحكم من خلالها على قوة شاعريته وضعفها وطبعها وتكلفتها .

فما هي أهم خصائص شعر مروان ؟

تتلخص هذه الخصائص في ست نقاط رئيسية هي :

١ - بساطة الصورة الشعرية :

وذلك أن مروان قد قصر نفسه على غرضين أساسيين هما المدح والثناء ولم يتجاوزهما إلى غيرهما إلا نادراً وهذان الغرضان يعتمد الشاعر فيهما على أفكار معينة يجعلها محور مدحه وقطب رثائه وهي الخصائص المعنوية الكريمة من كرم وشجاعة ونبل حلم ووفاء . فإن مدح . شبه ممدوحه بالبحر إذا زخر والأسد إذا زأر ، وإذا رثى بكى الكرم الحاتمي والشجاعة العنترية ، ولهذا فإن مروان في شعره يدور حول معان محدودة لا يتجاوزها إلى سواها كما أنها لم تكن وقفاً عليه وإنما هي معان ملقاة في الطريق يأخذ منها البدوي والحضري ويستقي منها العربي الصرف والمستعرب وليس هناك مفاضلة إلا في قوة الأسر وحسن السبك وكثرة الماء والرواء كما يقول الجاحظ في حديثه عن المعاني .

وقد سبق الشعراء الجاهليون والاسلاميون والأمويون مروان إلى تلك المعاني ونظموا منها قلائد در وعقيان حلوا بها اعناق ممدوحيهم ونسجوا منها ثياب عز وفخر كسوهم اياها حين مدحوهم ، وكانت مصدر بكاء وسبب نواح حينما رثوهم ، لذا فإن مروان لم ولن

يستطيع أن يأتي بجديد من المعاني ولا حديث إلا لاما . بل سيظل أسير معاني الأقدمين ورجع صدى لهم فيها يكرر ما تعنى به زهير، ويعيد ما شدا به الخطيئة وجرير ولهذا نجده غير قادر على التصرف بعد زمن طويل لاكت السنة الشعراء خلاله هذه المعاني وروضتها لافانين القول والابداع وقديما قال زهير :

مانرانا نقول الامعارة أو مامادا من قولنا مكرورا
وقال عنتره :

هل عادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

فاذا كانت تلك حال الجاهليين فما بالك بالشعراء العباسيين ومروان منهم ؟ لم يجد مروان بدا من الاعادة والتكرار لهذه المعاني كلما عن له أن يمدح أو يرثي ولهذا نجده في شعره يعيد تلك المعاني تماما ولا اختلاف إلا في القافية والوزن والروي أما روح القصيدة فواحدة وليس مروان فى ذلك بلام بل له العذر كل العذر فهذا ما يسعه عقل شاعر وتقدر عليه ملكة ناظم وقف نفسه على المديح والرثاء وعاش فى بيئة بدوية المظهر غير قادرة على تجاوز ذاتها لأن الحضارة لم تصلها بعد ، ولذا كان من الطبيعى أن يسلك مروان مسلك سابقيه فى معانيه التى يتطرق إليها مع محاولة أن يضيف عليها شيئا يميزه عن سبقه فى طريقة التناول واستعمال الألفاظ المعبرة ، ومن أمثلة ذلك جمعه بين الثواب والعقاب فى بيت واحد وهو معنى كرهه كثيرا إذ يقول مادحا معنا :

له راحتان الغيث والحتف فيهما أبى الله إلا أن تضرا وتنفعا
ثم يكرر المعنى وهو يمدح معنا فيقول :

إن عد أيام الفعالم فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعمان
ثم يقول مادحا الفضل بن يحيى :

كم غاية فى الندى والبأس أحرزها للطالبن مداها دونها تعب
يعطى الله حين لا يعطى الجواد ولا ينبو إذا سلت الهندية القضب
ثم يمدح الرشيد فيقول :

بأيدي عظام النفع والضرلاتنى بها للعطايا والنايا بوادر

وقوله لزائدة بن معن :

— فرف البأس كما من نداء نداكا

بك من فضل بأسه يع —
ويقول لمعن :

فلا نحن ندرى أي يوميه أفضل
وما منهما إلا أغر محجل

تشابه يوماه علينا فأشكلا
أيوم نداء الفمر أم يوم بأسه
فاذا به يقول للهادي :

فما أحد يدري لايهما الفضل

تشابه يومما بأسه ونواله
ويقول للمهدي :

للمسلمين وللعبدو وبالها

كلتا يديك جعلت فضل نوالها

وحينما يتكلم مخاطباً بمدوحه نجده يشبهه بسلفه كثيرا ، ويستعمل في ذلك صورة كثيرا ما أعادها وكررها الأولون وهي صورة النعل مع أختها ليرينا صدق المشابهة وتتام المطابقة بين السلف والخلف ومن ذلك قوله بمدح المهدي :

نعلا ورثت عن النبي مثالها

ولقد حذوت لمن أطاع ومن عصى
ويقول للهادي :

كما حذبت يوماً على اختها النعل

شبيهه أيه منظرا وخليقة

وكم كنت أتمنى لو أن مروان حيفا تحدث عن المشابهة بحث عن صورة مقارنة أكثر شفافية ، وأرقى مستوى من هذه الصورة التي استعملها ، والتي هي بغرض الهجاء الصق .

وهكذا كان مروان في ثائه وكذلك كان في رثائه حيث يصور لنا صدى الفاجعة وعظم الفادحة التي عمت وشملت أرجاء العالم الإسلامي في وفاة معن فيقول :

مصيبته المجللة اختلالا

وأظلمت العراق وأورثتها

لركن العز حين وهي فمالا

وظل الشام يرجف جانباه

ومن نجد تزول غداة زالا

وكادت من تهامه كل أرض

ويقول معيدا ما سبق ولكن بإيجاز :

فكادت له أرض العراقين ترجف

بكي الشام معنا يوم خلى مكانه

وحتى « غزله » التقليدي الذي جاء في مطلع قصائده يقف صامدا جامدا أمام صورة واجدة لا يعدوها هي صورة البياض في السواد والمشيب في الشباب رغم أن الغزل مجال رحب فسيح لأن يسبح الشاعر فيه في عالم الخيال ولكن ماذا يعمل مروان وهو مقلد في غزله لا شيء سوى التكرار والإعادة كما فعل في المدح والرثاء ولنقرأ قوله :

أمسى المشيب من الشباب بديلا ضيفا أقام فما يريد رحىلا
والشيب اذا طرد السواد بياضه كالصبح أحدث للظلام أفولا
ويقول :
ولا أغير شيبى بالخضاب وهل في العقل تغيير شيب الرأس بالحيل
ثم يقول :

وقال الغواني قد تولى شبابه وبدل شيبا بالخضاب يقاتله
يقاتله كيما يحول خضابه وهيهات لا يخفى علي اللحظ ناصلة
فهذه صورة لا جديد فيها ومعنى طالما حكاه الشعراء قبل مروان ولا يعدو كونه مقلدا سابقه في ذلك . خاصة أن غزله كله محض محاكاة وتقليد ، ومن الغريب والعجيب أن يذهب الدكتور محمد مصطفى هدارة إلى الاشارة بمعاني مروان الغزلية ويحله مكانة ليست له ويصفه بنعوت تدل على ذكائه ونبوغه وقدرته على تكييف المعاني وادراك العلاقة بين الجزئيات والكليات . حيث يقول عن مروان (ومع ذلك لو نظرنا إلى القليل الذي بين ايدينا منه لوجدنا فيه نزوعاً إلى الصنعة الجديدة التي لا تقتنع بالصورة المفردة والتشبيه أو الإستعارة القرية بل التي تعتمد على الصور المركبة مع التوسع في توضيح الجزئيات ورسم الألوان والادراك الواسع للعلاقة بين الشبه والمشبه به فهو يقول مصورا المشيب بأنه ضيف نزل برأسه ولكن لا يريد الرجيل ومصورا زحف المشيب على سواد شعره بضوء الصبح حين بدد الظلمة .

أمسى المشيب من الشباب بديلا ضيفا أقام فما يريد رحىلا
والشيب إذا طرد السواد بياضه كالصبح أحدث للظلام أفولا

وهو حين يرثي معن بن زائدة يجعل الشمس ومظاهر الطبيعة المختلفة تلبس الحداد حزنا عليه :

كأن الشمس يوم أصيب معن من الإظلام ملبسه جلالا

إلى غير ذلك من الصور المعنوية التي نجدها في القليل من شعره الذي وصل إلينا (١) ولا أدري سببا في إطلاقه لهذا الحكم رغم اعترافه بأنه لم يصل من شعر مروان إلا القليل سوى التسرع فقط وعدم دراسته لشعر مروان دراسه وافية .

ولست أدري أى صور معنوية ارادها الدكتور هداره وأي علاقة فهمها مروان ؟ الكلام لا يدل على شىء من ذلك وتشبيه الشيب بضيف وتصوير طرد البياض للسواد معان حسية حقيقية ندرتها بأبصارنا وليست منتزعة من الخيال لتكون معنوية كما أنها معاني طالما تغنى بها أمرؤ القيس والأعشى وعمر بن ابي ربيعة ومئات من الشعراء الجاهليين والأسلاميين والأمويين قبل مروان .

ولهذا فإن مروان لم يكن مدركا ولا فاهما للعلاقة بين هذه الصور قدر كونه مقلدا فالبيئة التي عاش فيها لا تجود عليه بالقدرة على الربط بين الصور فعل الشاعر المدرك المفكر ولو فرضنا جدلا وجود تلك الظاهرة فهي حالة فردية قد تكون جاءت من الشاعر عفوا .

ولهذا فإنه لا عمق ولا غوص على المعاني لديه وإنما يتوخى منها قريبا وأقربها إلى ممدوحه فلا يكلف نفسه عناء بحث واستقصاء فهو شاعر مديح ورناء ومعانيهما محدودة .

ولكن مروان استطاع أن يبعد اللوم عن نفسه وأن يصبح بمنأى عن التوبيخ والانتقاد حينما كرر واعاد تلك المعاني وقد خلع عليها ثيابا مفوفة وموشاة ومزخرقة بحسن الاختيار مدعومة بالقدرة على تنويع الصياغة اللفظية واحكام الربط بين أجزاء القصيدة وجزالة الألفا وقوتها المعنوية فى جاهليتها واحتفاظ قصائده بهذه الروح من أول بيت حتى آخر بيت فى القصيدة دون وهن ولا فتور مما جعله من زعماء المدح التقليدي . خاصة كما أن هذا هو الدافع الذى دفعه إلى الصنعة الشعرية حينما من الزمن يستعين بها على فتور العاطفة وبرودها وجمودها وذلك حينما مدح العباسيين ، وحدا به ذلك إلى أن يعكف على القصيدة حولا كاملا نظما وتنقيحا وتهديبا حتى ترضى بها نفسه ويطمئن على سلامتها ثم يعرضها على أطباء النقد ونطاسى الأدب وعباقرة اللغة كيونس بن حبيب وكما فعل مع بشار بن برد مما سبق تفصيله ولا حاجة لاعادته .

وعموما فإن كان لسابقي مروان من الشعراء فضل سبق الى المعاني فإن لمروان حق ظاهر فى قدرته على التلاعب بتلك المعاني فى عدة اساليب لفظية عديدة نسمعها فلا نتمجها

(١) اتجاهات الشعر العربي فى القرن الثانى ص ٥٨٠ .

ونقرأها فنستسيغها حتى نظنها معاني جديدة لم يسبق إليها شاعر قط قبل مروان ويظهر ذلك في الربط بين تلك المعاني التقليدية والاتجاه السياسي في شعره عندما بدأت علاقته بالعباسيين حيث لم يقصر مروان نفسه على مدحهم بتلك المعاني التقليدية ، ولكنه تطرق إليها وجعلها مقدمة للفكرة السياسية التي يحاول الدعاية لها ونشرها وهي أحقية العباسيين للخلافة دون العلويين لكي يقول للناس إن من يتمتع بتلك المعاني والصفات الكريمة من نبل وشجاعة وكرم وسماحة حسن خلق جدير بالخلافة في حين قصر مدحه لما عدا الخلفاء مثل معن وابنه والبرامكة على تلك المعاني التقليدية فقط .

ولكن حدث ووجد شيء من التوظيف السياسي لتلك المعاني في بعض مدائحه للبرامكة فإن القصد هنا يتجه للرشيدي لكونه خليفة وليس للبرامكة .

ويحسن بنا هنا أن نختم الحديث عن هذه الفكرة برأي الشريف المرتضى الذي ذكره في أماليه وهو خير من تحدث عن شعر مروان وأطنب في ذلك منصفاً له رغم كونه علويًا حيث قال عنه (افرط بعضهم في وصفه وتقريره وآخرون في ذمه وتهجينه والازدراء على شعره وطريقته واستخبروا عما اعتقده فيه فقلت لهم : كان مروان متشابه الألفاظ غير متصرف في المعاني والأغراض فيها وهو غزير الشعر قليل المعنى إلا أنه مع ذلك شاعر تجويد وحذق وهو أشعر من كثير من أهل زمنه وطبقته) (١) .

إلا أن هذا لا يمنع من العثور على صورة شعرية يلمح فيها إلى معنى لم يسبق إليه مثل قوله مخاطباً هارون الرشيد حين كان الفداء بين المسلمين والروم عام ١٦٥ هـ .

وفكت بل الأسرى التي شيدت لها
محاس ما فيها حميم يزورها
على حين اعيى المسلمين فكأكها
وقالوا سجون المشركين قبورها (٢)

حيث جعل السحن قبراً .

وقوله مخاطباً زائده بن معن :
رأيت ابن معن انطق الناس جوده
وأرخص بالعدل السلاح بأرضنا
فكلف قول الشعر من كان مفحماً
فما يبلغ السيف المهند درهما (٣)

(١) أمالي المرتضى ٥١٨/١ .

(٢) شعر مروان ص ٦١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠١ .

حيث يتضح ذلك من خلال تعبيره برخص السلاح عن استتباب الأمن وهذا ما جعل قدامة بن جعفر وهو من أشهر نقاد العصر العباسي يعترف لمروان بالبراعة في ذلك حيث قال :

(أوما أبو السمط مروان بن ابي حفصه في مدحه شرا حبل (١) بن معن بن زائدة ايماء موجزاً طريفاً أتى على كثير من المدح باختصار واشادة بديعة) (٢) .

وأقول إن اقتصار مروان على صورة أو صورتين في شعره كله يمنع من اعتبار ذلك ظاهرة لديه تستحق الاعتراف بها على أنها من خصائص شعره تميزه عن شعراء طبقته .

٢ - محاكاة الأقدمين :

وأعني بهم الشعراء الجاهليين والاسلاميين والأمويين ، وإن كان بالجاهليين أشبه وأمثل واليهم أقرب فالشاعر في طريقتهم ومسلكه الذي يتبعه يجب أن يلحق بمن يماثله من الشعراء ومن يقاربه في مذهبه حتى لو فصل بينهم وبينه عشرات السنين إذ لا يقاس بعصره ولا يسلك في قائمة شعرائه ما دام لا يحتفظ بروحه ومؤثراته ، وهكذا كان مروان شاعراً عباسياً بزمانه ولكنه جاهلي في نزعته وطريقته وعباسي الوقت والعصر ولكنه يلتحف برود الجاهلية ويشرب من معينها بكل ما تمثله من قسوة وخشونة وصلابة وجزالة في حياتها وفي شعر شعرائها فالأقليم الذي يعيش فيه مروان وهو إقليم اليمامة كان موعلاً في قدمه وكان مروان عاشقاً عاداته وتقاليده مغرماً بمؤثراته ، ولم تكن له بالجديد صلة ولا رابطة نسب وإنما ظل بعيداً عن مواطن الحضارة العباسية ومؤثراتها التي كانت نتاج الاختلاط بالفرس والرومان واليونان وحضاراتهم التي امتزجت بالحضارة الاسلامية في الحواضر الاسلامية الكبرى بما تمثله من ترف ونعيم ورقة وسواها من المؤثرات التي لم تكن موجودة في البيئة العربية قبل ذلك وعصفت رياح تلك الحضارة الجديدة ببغداد وسائر مدن العراق والشام ولكنها هدأت فلم تذر رمالها ولم يعصف رغامها باليمامة فبقيت عذراء في حياتها بكرّاً في اصالتها .

والشعر تعبير عن النفس ينقله اللسان ويصوغه في أساليب واغراض متنوعه من غزل ومدح ورتاء ... الخ ، ولكنه مع ذلك يظل أسير البيئة والطبيعة والأقليم ومقيدا بالعادات

(١) اخظاً قدامة في ذلك فالمدوح زائدة بن معن وليس شرا حبل لأن زائدة تولى اليمن بعد والده عند ذهابه واليا على سجستان انظر كتاب (الشيبيانيون في العصر العباسي الأول ص ٦٨) .

(٢) شعر مروان ص ١٠١ .

والتقاليد السائدة التي تؤثر على مشاعر الشاعر واحساسه ، وتظهر جلية واضحة على صفحات شعره ومن هنا طبعت اليمامة شعراءها بطبيعتها حتى إننا لنجد فيهم صلابة ارضها وشموخ جبالها وقساوة طبيعتها وبداءة أهلها وعموما كانت غارقة في جاهليتها لولا بعض المعاني الاسلامية المتناثرة فى بعض قصائد شعرائها التي تشعنا بأن الشاعر قد انتقل من البيئة الجاهلية إلى بيئة بها أشبه خاصة في مجال الصياغة اللفظية .

وكان مروان أحد شعرائها وبلا بلها الذين غردوا فى دوحها وتغنوا بالقصائد الحسان التي صورت اخلاقهم وطبيعتهم أصدق تصوير كما فعل الاسلاف من الشعراء كامرئ القيس والأعشى وزهير ، ولهذا نراه يعزف الخانهم وعلى أوتارهم حذو القذة بالقذة مرددا تلك النغمات التي رددوها من مئات السنين باعنا الحياة فيها ومعيدا نظرة البهاء إلى وجهها وكأنه أبى إلا أن يحافظ على أصالته العربية التي يحاول كثير من ابنائها وأدها فى أتون الحضارة العباسية الجديدة .

فهو حينما انتجع مادحا يضرب فى مسالك الأرض ومجاهلها يتتبع اسلافه من الجاهليين فيبدأ قصيدته بالغزل كما فى قصيدته فى مدح المهدي :

طرقتك زائرة فحيّ خيالها بيضاء تخط بالجمال دلالتها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصبا فأمالها
ويخرج من ذلك إلى وصف الصحراء وطولها ناعنا ناقته بصبرها وجلدها :

نزعت إليك صواديا فتقاذفت تطوي الفلاة متونها ورمالها
يتبعن ناجية يهزمراحتها بعد النحول تليلها وقذالها
هو جاء تدرع الربا وتشقها شق الشموس إذا تراعى جلالها
كالقوس ساهمة أتتك وقد ترى كالبرج تملأ رحلها وحبالها

إن فى ذلك رائحة شعر زهير ونغمة الأعشى ولحن امرئ القيس وروح لبيد بن ربيعة وانظر إليه وهو يردد كلمة الطيف فى مقدمات قصائده وطرقة له فى المنام كما فى القصيدة السابقة وقوله فى مدح المهدي :

طاف الخيال فحيه بسلام أنى ألمّ وليس حين لمام

وقوله في إحدى مدائحه في معن :

أهلاً بطيف لأم السَّمط أرقنا ونحن لا صدده منه ولا كَثب
إن هذا الاعتكاف على تردد الطيف والخيال يصور القديم بكل ما تحمله الكلمة من
معنى رغم فارق الزمن وتباعد ما بين العصرين وذلك لأن عصر مروان ما هو إلا امتداد طبيعي
لعصر زهير والنابعة .

وربما بدأ مدائحه بكاء الأطلال حيناً من الزمن كقوله في مدح المهدي :

أعادك من ذكر الأحبه عائد أجل واستخلفتك الرسوم البوائد
وقوله :

خلت بعدنا من آل ليلي المصانع
فكأنه ليبد ينشد قصيدته التي مطلعها :
بلينا وما تبلى النجوم الطوالع
وقوله يمدح معنا :

هاجت هواك بواكر الأضعان يوم اللوى فظلمت ذا احزان
ولندقق النظر جيداً في كلمة (يوم) اللوى حيث نرى شخصية امرئ القيس ماثله
أماننا وكأنه ينشد :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل (٢)
وحينما يريد مروان التخلص والانتقال من المقدمة إلى الغرض الأساسي من القصيدة
نجدّه يستعمل ألفاظ القدماء المستخدمة عند التخلص من غرض إلى سواه مثل (عدعن)
و (دع ذا) .

ومن ذلك قوله في مديح زائدة بن معن :

عد عن ذكرهن واذكر هماما بقوى حبله عقدت لواكا
إن في ذلك روح زهير حينما يمدح هرم بن سنان فيقول :
دع ذا وعد القول في هرم غيث البداية وسيد الحضرة (٣)

(١) ديوان لبيد ص ٨٨ . (٢) شرح ديوان امرئ القيس ص ١٢٤ .

(٣) ديوان زهير ص ٢٧ .

وشىء آخر ندر كه هو محاولة مروان معارضة الجاهليين فى قصائدهم وفى وصفهم
وكأنه يريد أن يوازن بينه وبينهم هل يجاريهم أم يقصر عنهم أم يزههم فلا يلحقون به ، ومن
ذلك قوله يعارض النابغة فى قصيدته التى يعتذر فيها الى النعمان بن المنذر ومنها هذا البيت .

وتلك التى تستك منها المسامع (١)

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى
فإذا بمروان يعارضه ويقول للمهدي معتذرا :

به أحتز أنفى مدمن الضغن جادع

أتانى من المهدي قول كأثما
ويقول النابغة :

من الرقش فى أنيابها السم نافع
لحلى النساء فى يديه قعاقع

فبت كأني ساورتني ضئيلة
يسهد من ليل التمام سليمها
ويقول :

وهل يأتمن ذو أمة وهو طائع
ولا حلقي على البراءة نافع
وأنت بأمر لا محالة واقع
وإن خلت ان المنتأى عنك واسع
وتترك عبدا ظالما لك ضالع
وسيف اعيرته المنية قاطع (٢)

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة
فإن كنت ذو الضغن عني مكذب
ولا أنا مأمون بشيء أقوله
فإنك كالليل الذي هو مدركي
أتوعد عبداً لم يخنك أمانة
وأنت ربيع ينعش الناس سيبه

فالنابغة يعتذر ويمدح ويحلف ويعرض بالكذابين الواشين وهذا ما أتبعه مروان اذ يقول :

بلا حدث : إنى إلى الله راجع
سوى حلمه الصافي من الناس شافع
بغير الذى يرضى به لي صانع

وقلت وقد خفت التي لاشوى لها
ومالي إلى المهدي لو كنت مذنبا
ولا هو عند السخط منه ولا الرضا

ويمدح المهدي فيقول :

وللحمد نور بين عينيه ساطع
على غيره من خشية الله خاشع

عليه من التقوى رداء يكنه
يغض إليه طرف العيون وطرفه

(٢) المصدر السابق ص ٨١ .

(١) ديوان النابغة ص ٨١ .

ثم يقول معرض بيعقوب بن داود لأنه حبسه عن المهدي :

هل الباب مفض بي إليك ابن هاشم
أتيت امرأ أطلقتته من وثاقه
فقلت وزير ناصح قد تابعت
وما كان بي إلا إليك ذريعة

فمروان يتتبع خطى النابغة في اعتذاره ويتبع نفس الأسلوب - اعتذار فمدح - فتعريض.
وقد وصل التشابه بينهما إلى أننا لو وضعنا القصيدتين بجانب بعضهما لصعب التفريق بينهما
لولا المعاني الإسلامية في قصيدة مروان التي تميزه عن النابغة والتي تحفل بها بعض الأبيات
دون بعضها الآخر .

ووجه آخر يتابع فيه مروان خطى القدماء عامة والنابغة خاصة ، وهو الحديث عن
الهموم والأحزان ومحاولته الهرب من مخالبتها والتسلي بشيء عنها . فحين يقول النابغة
معتذرا إلى النعمان :

كليني لهم يا أميمة ناصب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض

وليل أقاسيه بطيء الكواكب
وليس الذي يرعى النجوم بأيب (٢)

يقول مروان في مديحه لمعن بن زائدة :

ولما سرى الهم الغريب قريته
عزمت فعجلت الرحيل ولم أكن

قرى من أزال عنه الشك وازمعا
كذى لوثة لا يطلع الهم مطالعا

وجينما يتكلم مروان عن اليوم الشديد الحرارة نجده يتقمص شخصية الشنفرى وسواه
من الصعاليك الذين امضوا حياتهم ترفعهم نجاد وتخفضهم وهاد يجرون خلف الظباء
والآرام يلهبهم الصيف بناره وتحرقهم شمسهم بسياط حرارتها فهم أصدق الناس تصويراً له
وتشبيهاً به حيث يقول مروان في ذلك المعنى :

ويوم عسول الال حام كأثما
لظى شمسهم مشبوب نار تلهب

(١) شعر مروان ص ٦٦ .

(٢) يلاحظ وجه الشبه بين تلك القصيدة وقصيدة مروان السابقة في الطريقة والمعنى والوزن دون القافية وانظر ديوان

النابغة ص ٩ .

نصبنا له منا الوجوه وكنها عصاب أسمال بها نتعصب (١)

فأي شبه وأي تماثل بينه وبين الشنفرى حين يقول فى نفس المعنى : ؟

ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفاعيه من رمضائه تتململ

نصبت له وجهي ولاكنّ دونه ولا ستر إلا الأتحمي المرعبل (٢)

إنهما حينما يتكلمان فى هذا المعنى روح واحدة وينزعان من بحر واحدة .

كما أن مروان اشتهر بين النقاد بأنه صاحب صنعة شعرية حتى عد من أصحاب الحوليات حيث يستمر فى تأليف وتنقيح واخراج القصيدة عاملا كاملا فهو فى ذلك تابع للقدماء من الجاهليين الذين كان أول من ابتدع هذا المذهب وابتكر تلك الطريقة ، وكان ذلك على يد زهير وعبيد بن الأبرص والحطيئة ، وهذا هو السر الذي يكمن وراء شبه مروان بالجاهليين شبها تاما . ذلك أنه يحرص على أن وجود شعره مثلهم ويحكمه ويوشيه بأجزل الألفاظ وأصلبها ليدلل على قوته وشاعريته فلا يجد لذلك إلا أساليب الجاهليين أنفسهم وطريقتهم ومن هنا أشبههم فى معانيهم والفاظهم وطريقة نظمهم فهو جاهلي فى فكره عباسي فى عصره وليست العبرة بالزمن وإنما هي بالمؤثرات حتى قال عنه الأصمعي (مروان لم يتجاوز مذهب الأوئل) (٣) (ومن هنا رضى علماء اللغة عن مروان) كما يقول طه حسين (٤) ، وآثروه على غيره من شعراء طبقته المعاصرين وذلك لأن شعره يمثل حياة الأقدمين بكل بساطتها وسهولتها وخشونتها ، وأسلوبه اسلوب البدوي بكل ماتركته الصحراء من مظاهر صلابتها وقسوتها فهو يمثل الرصانة والجزالة والفضامة .

وكان سبب عزوف هؤلاء العلماء عن سواه أنهم علماء لغة ينظرون إلى النصوص الأدبية من خلال مجهر لغوي وينقدونها انطلاقا من فكر لا ينظر إلى الرقة أو النعومة أو السهولة أو الجزالة يقدر ما ينظر إلى النص من ناحية سلامته اللغوية والنحوية وعدم خضوعه لمقاييس الحضارة الجديدة التى تركت أثرها واضحا فى شعر بشار وابي نواس وسواهما .

(١) شعر مروان ص ١٦ .

(٢) قطوف من ثمار الأدب ص ٩١ وهما من لامية الشنفرى المشهورة ومطلعها .

أقيموا بنى أمي صدور مطيكم فاني إلى قوم سواكم لا ميل

والشعرى كوكب يظهر بعد الجوزاء .

(٣) الأغاني : ٢٥/٥ .

(٤) انظر حديث الأربعاء ٢٣٦/٢ .

يقول المرتضى (ولهذا فلن يجد هؤلاء من يناسب نظريتهم ويلائم مذهبهم النقدي سوى مروان فقدموه . ويمثل هذه الطائفة ابن الأعرابي الذي أبى أن يدون لأحد بعد مروان) (١) (وابو عمرو الشيباني واسحق الموصلي اللذان يفضلانه على بشار ومسلم ابن الوليد) (٢) .

وأقول إنه لولا وجود بعض الإشارات والصور المستمدة من القرآن الكريم ومن التاريخ الإسلامي والتي وظفها مروان توظيفاً جيداً لخدمة الفكرة التي يدافع عنها ويشيد بها لولا ذلك لحنى لنا أن نحسب مروان شاعراً جاهلياً صرفاً تأخر به زمنه .

وتتمثل تلك الصور والإشارات القرآنية في قوله يمدح المهدي :

شهدت من الأنفال آخر آية بترائهم فأردتم إبطالها (٣)
وقوله من قصيدة أخرى :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات ورائة الأعمام
ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام (٤)
وقوله مخاطباً المهدي ومعتزراً إليه :

وقل مثل ما قال ابن يعقوب يوسف لإخوانه قولاً له القلب فائع
تنفس فلا تثريب إنك أمن وانى لك المعروف والقدر جامع (٥)
وقوله مخاطباً الرشيد :

إن أمير المؤمنين المصطفى قد ترك الصفصاف قاعاً صفصافاً (٦)

(١) أمالي المرتضى ١/٥١٨ .

(٢) انظر الأغاني ٩/٤٣ .

(٣) شعر مروان ص ٩٩ والآية هي قوله تعالى : ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾ (الأنفال : ٧٥) .

(٤) شعر مروان ص ١٠٤ والآية هي قوله تعالى : ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ (الأنعام : ١٦٥)

(٥) المصدر السابق ص ٦٧ وفى البيتين إشارة إلى قصة النبی يوسف عليه السلام مع أبيه وإخواته .

(٦) تاريخ الموصلى ص ٢٩٠ وفى البيت إشارة الى قوله تعالى : ﴿فيذرها قاعاً صفصافاً﴾ (طه : ١٠٦)

أما الاشارات التاريخية فمنها قوله مخاطبا معن بن زائدة :

مازلت يوم الهاشمية معلنا بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسان (١)
وقوله مخاطباً الفضل بن يحيى ومعرضاً بقصة التحكيم بين علي ومعاوية رضى الله
عنهما :

عصمت حكومته جماعة هاشم من أن يجرد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التي عن غيرها عظم البلا وتفرق الحكمان (٢)

ومن الإشارات الفقهية ايضاً قوله فى وصف حديقة وهبها له المهدي :

حظائر لم يخلط بأثمائها الربا ولم يك من أخذ الديات اكتسابها
وقوله عن اعطيته :

وفي ركضنا الخيل فى كل غارة حلال بأرض المشركين نهابها (٣)
وقوله مخاطباً المهدي :

إليك قصرنا النصف من صلواتنا مسيرة شهر بعد شهر نواصله (٤)

فى حين نجد مروان يؤكد نزعة الجاهلية فى استعمال بعض الاشارات الجاهلية التي لم
يستطع تجاوزها رغم مرور فترة زمنية طويلة بين العصر الجاهلي الذي يحن إليه والعصر
العباسي الذي يعيش فيه ويتمثل ذلك فى الشواهد التالية :

قوله فى مدح زائدة بن معن :

عد عن ذكرهن وأذكر هماما بقوى حبله عقدت قواكا (٥)

فقوله (عد عن) أشهر عبارة يستعملها الجاهليون للانتقال من غرض شعري إلى آخر
داخل إطار القصيدة الواحدة إضافة إلى عبارة أخرى هي (دع ذا)

(١) شعر مروان ص ١٠٧ وفى البيتين إشارة إلى معركة الهاشمية عام ١٤١ هـ بين أبى جعفر المنصور والراوندية .

(٢) مختار الأغاني ٤١٣/٦ وفى البيتين إشارة الى قصة التحكيم بين علي ومعاوية رضى الله عنهما .

(٣) شعر مروان ص ٢٥ .

(٤) المصدر السابق ص ٩٤ وفى البيت إشارة إلى قصر الصلاة فى السفر .

(٥) المصدر السابق ص ٧٤ .

ومن الصور الجاهلية قول مروان أيضا في مدح الفضل بن يحيى :

حمدنا الذى أدى بن يحيى فأصبحت بمقدمة تجرى لنا الطير أسعد(١)

فقوله (الطير أسعدا) إقتداء بالجاهليين فى التفاؤل والتشاؤم بالطيور .

ومن الصور الجاهلية أيضا قوله فى مدح الفضل بن يحيى من قصيدة أخرى :

وما زال قدح الملك يخرج فائزا لكم كلما ضمت قداح المساهم (٢)

فضرب القداح من أجل العزيمة على فعل أمر أو تركه أو الاختيار من عدمه بين شيئين

صورة جاهلية .

٣ - الصنعة والطبع :

أعني بالصنعة عكوف مروان على قصيدته عاما كاملا ينظمها ويهذبها ويجلوها من دنسها حتى تصبح كالمرآة فى الصفاء ويضفي عليها ثوبا من الفخامة والجزالة وكأنه ينحت ابياتها من صلد ويقدها من صخر وليست الصنعة التى يقصد بها استعمال المحسنات البديعية لأن هذه الأخيرة لا تأتي فى شعر مروان إلا لماما وعفوا بدون تكلف شأنه شأن الشعراء القدماء الذين هو بهم أشبه وهو إليهم أقرب ولذا فإنها لاتستحق أن تكون ظاهرة جديرة بالدراسة .

وأعني بالطبع استرسال مروان على سجيته وتدفق الشعر من لسانه تدفق الماء فى جدوله والنهر فى مجراه دون عائق بحيث تنساب المعاني منه عفوا وطبعاً وكأنه يغرف من بحر .
والمعروف أن الشعراء بطبيعتهم إما أن يكونوا ذوي صنعة وإما أن يكونوا ذوي طبع مع عدم اجتماع هاتين الخصلتين إلا نادراً فى شعر شاعر .

وقد تطرق النقاد فى مسألة الطبع والصنعة عند مروان وأشبعوها قولاً وخرجوا بنتيجة معناها أن مروان صاحب صنعة فى جميع أشعاره ، ولكننى من خلال رحلتي الطويلة مع مروان أرى أن هؤلاء النقاد قد أخطأوا الطريق حيث حكموا على شعر مروان حكماً واحداً

(١) شعر مروان ص ٣١ .

(٢) شعر مروان ص ١٠٣ والملاحظ من الصورة الجاهلية فى (٤) والصورة الجاهلية فى (١) أن مروان استعملها عند مخاطبة الفضل بن يحيى البرمكي ، ولم يستعمل أى صورة جاهلية فى مخاطبة العباسيين وربما يكون ذلك بسبب مكانتهم الدينية والسياسية وقربانهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على أن مروان يجيد (حسن التصرف) .

في حين أرى أن ذلك يستحق التفصيل والنظر في شعره من خلال علاقته بمن اتصل بهم والحقيقة التي استطاعت التوصل إليها هي أن مروان لم يكن مطبوعاً دائماً ولم يكن ذا صنعة دائماً يتناوبه هذان العاملان فينتصر عامل الصنعة حيناً وينتصر عامل الطبع حيناً آخر .

كان مروان صاحب صنعة شعرية حينما مدح العباسيين واثنى عليهم رغبة في فضول أموالهم فهو في ولائه منافق فقد لإحساس والشعور والدافع ، واتصف ببرود العاطفة فلجأ إلى الصنعة يحوك القصيدة في أربعة أشهر ويهذبها ويجودها في أربعة أخرى ويعرضها على النقاد في الأربعة الأخيرة كما هو شأنه مع يونس بن حبيب حينما عرض عليه قصيدة (طرتك زائرة) فأمره بإظهارها ونشرها .

والمتبع لأخبار مروان وأشعاره يرى أن مروان إنما يعرض للتهذيب والتنقيح مدائح في العباسيين أما قصائده في مدح معن فإنها لا تخضع إلى شيء من ذلك إلا نزراً يسيراً إذ يجري عليها بعض اللمسات التي لا تستغرق وقتاً وهي صفة مشتركة عند جميع الشعراء في حين أن ذلك يستغرق مع العباسيين حولا وهذا دليل على طبعه حينما يمدح معن وأنه يرسل الكلام على سجيته لأنه يحبه حبا نزيها عن كل هدف مادي مهذبا عن كل طمع دنيوي كما يجمع بين قليهما ويربط بين فؤاديهما حب الأمويين ، ولهذا فهو يمدح مدح المعجب لا المتكسب ، ومن هنا فإن ظاهرة التنقيح لا توجد عنده إلا بمقدار ما توجد عند جميع الشعراء لا تكاد تتجاوز الحد المعقول نظراً لأن العاطفة الصادقة لديه تجاه ممدوحه تكون عاملاً مؤثراً في إثراء فكره بالأفكار والمعاني والصبغة اللفظية . يضاف إلى ذلك الفرق الواضح بين أسلوب مديح مروان لكل من معن والعباسيين من جهة أخرى . فهو يمدح معن بمعان تقليدية هي عصب المديح ومادة الثناء وروح الاطراء كالكرم والشجاعة ومع ذلك نراه مجيداً محللاً . أما حين يمدح العباسيين فنجده يطرق فناً جديداً هو المديح السياسي ورغم أنه بلغ الغاية ووصل القمة إلا أنه لم يصل مرتبة مديحه في معن ووقف دونها .

وحقيقة أخرى تؤكد هذا الكلام هو موقفه في مواطن الحزن والرتاء .

فحينما مات معن قتيلاً سنة ١٥٢ هـ بكى مروان وناح وعزف على أوتار الحزن والأسى وبكاه بأروع القوافي التي تفيض ألماً وشجناً وتنم عن فؤاد مكلوم وقلب مصاب بفقد أعز

حبيب وخير رفيق ، وجاءت مراثيه فى معن بتلك القوة التي سرت فى مديحه والتي بعثت الحياة فى مدائحه فيما سبق حتى أصبح مديحه وراثوه فى معن كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، وهذا دليل قوة العاطفة وصدقها وتأججها ودليل على نبل الشعور وصادق الوفاء وقد بما قال الباحثري (من تمام الوفاء أن يعلو على المدح الرثاء) وراثاء مروان لمعن لم يفق مديحه له بل كان مساويا له . كما لبث مروان ست سنوات منذ ١٥٢ - ١٥٨ لم يركب ناقته قاصدا ممدوحا جديداً وفاء لمعن .

وحينما اتصل مروان بالمهدي والهادي والرشيدي ومات الأولان وهو يرى ، وبعد أن توثقت صلته بهما لم تجد قريحته إلا ببعض الأبيات التي رثى بها المهدي فى بعض القصائد التي مدح بها الهادي فى حين لم ييك الهادي ولم يرثه بيت واحد لأن الخليفة الجديد وهو الرشيدي لا يريد ذلك .

ويتضح التكلف والصنعة فى أول قصيدة اتجه بها مروان للخليفة الجديد الهادي حينما حاول أن يرثى المهدي فقال :

لقد أصبحت تختال فى كل بلدة بقبر أمير المؤمنين المقابر

حيث سكب كلامه فى قناة الحكمة المتبذلة (١) ولم نجده ينوح ويولول مصوراً حزن الشمس وارتجاف مصر والشام ونجد والعراق ولهف اليتامى والبائسين كما فعل مع معن . ذلك لأن مروان فقد الدافع والاحساس وخائته عاطفته المادية التي ازدهرت فى ميدان التسابق على العطاء ولكنها ذبلت فى موطن الرثاء ، وذلك لأن المصائب تصهر العواطف وتميز الصادق من الكاذب ، ولذا كان مروان صادقاً مع معن كاذبا مع العباسيين فهو معهم ينتظر الحدث المقبل ويرسم طريقه للتعامل معه متناسياً الحدث الماضي ولو لم يمض على ذهابه سوى زمن قصير ، ومن هنا فلا مجال للصنعة أو عبادة الشعر وظهور ما يسمى بالحوليات فى الرثاء إذ ليس معقولا أن يظل الناس عاما ينتظرون حتى يخرج إليهم شاعر (ما) قصيدة رثاء لأن الحزن والانفعال يقل ويتلاشى حتى يندم مع مرور الأيام .

وحتى لو فرضنا ذلك فإن القصيدة لن تأتي فى قوة قصيدة قيلت لحظة وقوع المصيبة

(١) سبق الكلام عن تلك القصيدة وتحليلها عند الحديث عن علاقة مروان بالمهدي .

أو بعدها بقليل وذلك لأن الألم كان موجودا وجياشاً ولكنه يذبل مع مرور الزمن ولا يبقى من الوفاء إلا الذكرى التي يحملها قلب الحي للميت ولكنها ذكرى لا تنتج أدبا بكائيا مؤثرا مهما كانت قوة علاقة الرائي بالمرثي .

ولو كان مروان صاحب صنعة في رثائه فإنه يعني أنه عكف سنة يؤلف وينقح ويهذب قصائده التي رثى بها معنا ولكن ما الذي منعه من ذلك مع العباسيين لماذا لم ينقح ويهذب طوال عام كامل؟ وإنما ظل جامدا كصخرة وثقيلاً أمام المصيبة كجبل بدلا من أن يخرج لنا رثاء يبلغ في قوته رثاء لمعن أن كان مروان قد سلك طريق الصنعة في رثائه .

هذا ما ينقض فكرة الصنعة من أساسها ويلغيها وينفيها من مجموع شعر مروان وإنما يشتتها له في حيز ضيق هو (مدح العباسيين) ويثبت ملكة الطبع له في بقية شعره في مدح معن ورثائه ومديحة لأبنه .

لقد ظل موقف النقاد من مروان في تلك الظاهرة موقف من يطلب ثأراً له فأتهموه بأنه «صاحب صنعة» في جميع أشعاره دو زن يفرقوا بين مدح وهجاء وغزل ورثاء متناسين أن الصنعة تجوز في مواطن ولا يمكن حصولها في مواطن أخرى غافلين عن أن الصنعة يتطلبها شعر المديح الكاذب الذي يعتمد على النفاق والمجاملة والرياء فتكون عوضاً عن العاطفة المقفودة ولا يمكن أن تحدث في مجال الرثاء إذ أن الصنعة ليست قوامه ودعامته وإنما الدعامة هي العاطفة الصادقة ولو ظل شاعر مائة سنة يريد أن يرثي وهو لا يملك انفعالا مادته حزن وعاطفة صادقة تتأثر لحدوث مصيبة فإنه لن ولن يقدر وسوف تفر منه الكلمات والمعاني والحروف والألفاظ فرار السليم من الأجر ب .

يقول طه حسين عن مروان : (لم يكن سريعاً في الشعر ولا متعجلاً ولا مسترسلاً مع الطبع وإنما كان بطيئاً متمهلاً) (١) ويقول شوقي ضيف : (ويروى أنه كان يحوك القصيدة في سنة أما الأشهر الأربعة الأولى فكان ينظمها وكان في الأربعة الثانية يصقلها وينقحها أما في الأربعة الأشهر الأخيرة فكان يعرضها على الرواة والنقاد) (٢) .

وقال عمر فروخ (مروان بن ابي حفصة شاعر مكثر من الشعراء المجيدين والفحول

(١) حديث الأربعاء ٢/٢٣٧ . (٢) العصر العباسي الأول ٣٠١ .

المتقدمين المحككين للشعر على مذهب زهير بن ابي سلمي (١) ، ويقول طه الحاجري (ويعتبر مروان كذلك من أهل الصناعة الشعرية) (٢) .

وختاماً أقول لندع أقوالهم جانبا ونعترف بأن مروان صاحب طبع مع بعض ممدوحيه وصاحب صنعة مع آخرين (٣) .

ولقد اعترف مروان بنفسه بأنه من شعراء الحوليات حينما قال :

إني أقول قصائداً حوالة أبداً تجول خوالعا ارسانها
من كل قافية إذا احديثها جمحت ولم تملك يداي عنانها
سارت بيوتي في البلاد فأمعنت وبيوت غيري لم ترم أوطانها (٤)

إلا أنني مازلت أقول إن هذا الاتجاه عند مروان إنما كان في الشعر الذي يمدح به العباسيين تعويضاً له عن برود العاطفة تجاههم وما يؤكد ذلك أن أشهر موقف أثر عن مروان في هذا الاتجاه كان متعلقاً بقصيدته التي مدح بها المهدي ومطلعها .

طرقتك زائرة فحيّ خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالتها

حيث جاء بعد تنقيحها ليعرضها على يونس بن حبيب الذي فضله في تلك القصيدة على الأعشى (٥) في حين لم يؤثر ذلك عن مروان عند مدحه لمعن بن زائدة على وجه الخصوص .

٤ - المذهب الواقعي :

رغم أن الشعراء العباسيين بلغوا شأواً بعيداً وباعاً طويلاً في القدرة على الأتيان

(١) تاريخ الأدب العربي (والأعصر العباسية ١٣٢/٢) .

(٢) البخلاء - شروح وتعليقات ٣٥١ .

(٣) ويقول الكفراوي في كتابه : تاريخ الشعر العربي ٣١/٢ .

يبدو من شعر مروان وسيرته أنه كان يتمتع بجميع المزايا التي تجعل من المرء شاعراً كبيراً فقد كان لديه استعداد طبيعي لقول الشعر ثم أنه بعد ذلك يقبل على موضوعه بتحمس شديد ورغبة صادقة واخيراً يعود إلى قصيدته بالصقل والتهديب حتى يقوم أودها ويحكم حلقاتها .

(٤) الأشباه والنظائر ٢٢٦/١ ولم أعثر عليها في مصدر سواه .

(٥) راجع ص ٢٤٨ من هذا البحث حيث ذكرت قصة مروان مع يونس بن حبيب كاملة وكذلك قصته مع بشار بخصوص تلك القصيدة ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ من هذا البحث .

بضروب من صور الخيال الذي يعتمد على الصورة المعنوية المشتقة من عالم الواقع حيناً واللاواقع حيناً آخر وصياغتها في أساليب لفظية راقصة مائلة إلا أن مروان لم يكن من هؤلاء الشعراء المصورين فلم يكن شيئاً مع أبي نواس ولا بشار وذلك لأنه عاش بيئة اليمامة وهي بيئة جافة بطبعها وجوهاً أما طبيعتها فصامتة جامدة لاتنطق ولانستنطق إلا من يعيش فيها ويتفاعل معها ولاتعين الشاعر المرهف ولاتمنحه الالهام والخيال الشعري القادر على تركيب صور معنوية عميقة وبعيدة الغور يصعب اصطياها إلا على الشاعر المرهف الاحساس الذي لا بد وأن يكون قد عاش في بيئة مترفة .

إن اليمامة جبال وعرة ورمال متحركة وحر لافح وبرد قارس ووهاد شديد الانحدار ونجاد شديد الارتفاع وأودية تتلوى كالحيات وصحاري قفر بسابس قليلة الماء والكلاء كثيرة السراب ، ولهذا تركت على مروان وعلى شعره سمة منها فلا ترى في صورته إلا الواقع المحسوس الذي تبصره العين وتلمسه اليد بادي القساوة والصلابة والجمود أما الخيال المعنوي الذي يضيف على قصائده نغمات راقصة فلا وجود له عنده لأنه نتاج الطبيعة المتحركة المتمثلة في الأشجار الملتفة والطيور المغردة الصادحة والماء الجارى والنسيم الذى يداعب الأغصان ولنقرأ قوله :

ويوم عسول الآل حام كأنما لظى شمسه مشبوب نار تلهب
نصبتنا له منا الوجوه وكنها عصائب أسمال بها نتعصب

إن الصورة الشعرية في هذين البيتين تصور لنا الصحراء العربية بكل قساوتها والبدوي القديم بكل خشونته التى استمدتها من بيئته حتى أننا لتتخيل مروان « صعلوكا » على مذهب الشنفرى قضى حياته يفترش الأرض ويلتحف السماء يقطع صحراءه ويده قابضة على عصاه وقد عصب رأسه بقطعة قماش بالية يبحث عن قوت يومه ولا يفكر فى غده وكذلك فى قوله :

ما يلمع البرق إلا حن مغترب كأنه من دواعي شوقه وصب

ففى البيت تصوير لحالة البدوي والرجل العربي الاول الذى يتلهف على المطر والغيث فيمضي ليله يخيل البرق لعله يكون قريباً منه فينتجعه . يشرب غديره وترعى بهائم كلاًه

وقوله يصف حديقة اهداها له المهدي .

نواضر غلبا قد تدانت رؤوسها من النبت حتى ما يطير غرابها
ترى الباسقات العم فيها كأنها ظعائن مضروب عليها قبابها

فهو يشببه بالغراب وهو الطائر الذي استولى على مخيلة العربي القديم حتى كان دليل شؤمه والظعائن التي ترسم لنا صورة الارتحال وهو صفة لذلك العربي الذي لا يحل في مكان حتى يرتحل ، ولنقرأ كلمة (حن مغرب) في البيت السابق لنجدها مغرقة في بدويتها التي تحكي كثرة ابتعاد العربي عن موطنه طلبا للعيش وكسبا للرزق وكل هذه الصور صور حية مستمدة من الواقع حتى حين المغترب الذي يعبر عنه بأهات حري أن يقوم مروان بتقريبها إلى القارئ في صور حسية تسمعها الأذان ويحشرج بها الصدر ، وكثيرة هي الأمثلة التي لو سردناها لطال بنا الكلام .

على أن هناك سبباً آخر سبب قصوراً في الخيال وبروزاً في الظاهرة الواقعية عند مروان وهو تنوع الأغراض التي نظم فيها مروان .

فمروان لم ينظم في الخمر واللهو لأنه عاش في بيئة محافظة من ناحية وكان بخيلاً من ناحية أخرى ، ولهذا فإنه لم يشاهد حياته قدحاً ولا خمرأً ولا مزهراً ولا رقصاً أو غير ذلك من الملهيات التي كانت سبباً في تفوق أبي نواس في رسم الصور الشعرية المتحركة والخيال المعنوي الراقص إلا لماماً ، والخبر الوحيد الذي روي عنه أنه حضر أحد مجالس الأنس (١) غير كاف لأنه يحوله من شاعر جلف يلحتف شملته إلى شاعر رقيق يكاد أن يجرحه النسيم . ولم يتغزل مروان تغزلاً حقيقياً وإنما اتبع خطى الجاهليين ولهذا عنى الصورة المادية الحسية الواقعية الجافة فلم يصف الأمور المعنوية عند المرأة وإنما اكتفى بالوقوف عند المشاهد المحسوس وقوف محاك مقلد فشبه المرأة بالغزال وصور المشيب وهو يطرد الشباب بالصباح يطرد الظلام ووقف بيكي اطلال (آل ليلي) (وأم مالك) كما كان شأن الأعشى مع هريرة وامرئ القيس مع أم الحويرث .

ولهذا فإن مروان قصر نفسه على المديح أولاً وهذا يقتضي من مروان كثرة الارتحال إلي

(١) انظر فصل (شخصيته و اخلاقه) .

المدوحين وقطع القفار والبسابس على ظهر ناجية تطوي الفلاة وسهولها وحزونها . وهذا ما جعله يكثر من وصف الناقة لأنها خير رفيق وسمير ومؤنس من الوحشة في الصحراء يجد فيها مصدر الهام فيصف حرقتها وتعبها ونشاطها وبطئها وسرعتها ويحدو لها في شعره حذاء يعث النشاط في عروقها حتى توصل مروان إلى ممدوحه فيقف بين يديه يمدحه وينال عطاءه ثم ينقلب راجعاً إلى بلاده لتبدأ رحلته مع الناقة والصحراء من جديد .

أما الرثاء وهو الفن الثاني عند مروان فهو كالمديح وشبيه به إذ يعتمد على الأخلاق المعنوية التي يتصف بها المفقود وإنما تختلف لغة التعبير ولهجته ففي المديح يطري الشاعر تلك الصفات ويشئ عليها ممدوجاً بالاعجاب وفي الرثاء يكيها ويرثيها ويمتلىء فؤاده عليها أسى وشجنناً أما رثاء الإنسان من حيث كونه لحماً ودماً فالإنسان بأخلاقه . لا بجسمه .

حيث يعد تافها إذا جرد من تلك القيم ولهذا فالشاعر حينما يكي شخصاً فإنما يكي أخلاقه ولهذا اتجه مروان إلى التركيز على الصفات المعنوية في الرثاء كما اهتم بها في المديح مع الاعتناء بالاحكام والاتفاق فذلك سبب الجودة ، ولهذا أهمل مروان الاعتناء بالصور المعنوية التي غالباً ما تصبح بها الأساليب البيانية المانحة للخيال من استعارة وتشبيه مفرد أو تمثيلي . بل إن مروان كثيراً ما يلجأ إلى تقريب تلك الصفة المعنوية التي يتصف بها الشخص الممدوح والمرثي للناس عن طريق ربطها بمشهد مادي محسوس يدرك بالسمع أو البصر فإذا تحدث عن شجاعة معن فإنه لا يأتي بالحديث عنها مجرداً بل يحاول ربطه بإشارة تاريخية مثل (معركة الهاشمية) تجعل القارئ يشعر بأنه يرى معنا وهو يحارب ، وكما يفعل عندما يتحدث عن كرم ممدوحه حيث يمزجه بحركة المطر والغيث ممزجاً يكاد يصل إلى درجة الاتحاد بين الممدوح والمطر ولنقرأ هذا الشاهد . (عن الشجاعة) التي يتصف بها معن ابن زائدة للدلالة على هذا الرأي . يقول مروان :

مازالت يوم الهاشمية معلناً بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسنان (١)

(١) شعر مروان ص ١٠٧ .

وقوله في مدح معن :

أسود لها في بطن خفان أشبل
لجارهم بين السماكين منزل (١)

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم
هم يمنعون الجار حتي كأنما

وقوله بمدح هارون الرشيد بالكرم :

عليهم بكفيك الغيوم المواطر (٢)

إذا فقد الناس الغمام تابعت

وقوله في معن :

شمائله للشائمين فتصدق (٣)

تؤم شريكاً تهلل بالحياء

وقوله بمدح الفضل البرمكي :

فيا لك من هطلل ويا لك من وبل (٤)

إذا ما أبو العباس راحت سماؤه

والأمثلة على ذلك كثيرة من شعره .

وعموماً فإن استعمال الصور المعنوية التي تجنح للخيال من تشبيه أو استعارة وغيرهما من أساليب بيانية إنما يقوى في مجالي الحياة المترفة وما يصاحبها من لهو ورقص وغناء وطبيعة متحركة ولهذا ظل مروان ينزع في صوره إلى الواقع المحسوس من خلال عاملين مهمين هما :

١ - البيئة : التي عاش فيها (اليمامة) فهي بيئة قاسية لاتقوى خيالاً . تغدق على من يعيش فيها الصورة المادية دون انقطاع .

٢ - انقطاع مروان إلى غرضي المديح والرثاء وما يتصل بهما عرضاً من غزل تقليدي أو وصف للناقة وهما غرضان لاتقوى الصورة المعنوية فيهما ولا ينشط الخيال خاصة من شاعر يعيش في إقليم مثل اليمامة .

وهذا الاتجاه في استعمال الصورة عند مروان قربه أكثر من العصر الجاهلي ونأى به عن الحضارة العباسية التي لم يعرف منها سوى الدرهم الذي ينهمر عليه من كف الخليفة والوالي أو الوزير انهمار المطر .

(١) شعر مروان ص ٨٨ . (٣) المصدر السابق ص ٥٣ .

(٤) المصدر السابق ص ٦٨ . (٤) المصدر السابق ص ٩٢ .

٥ - طول النفس وإعتماد البحور الطويلة :

يعتبر طول النفس عند أي شاعر ظاهرة فذة جدية بالتدوين والتسجيل على أنها سمة من خصائص ذلك الشاعر وميزة بزفيها أقرانه وعلا فيها على من عداه .

ونحن لو تتبعنا شعر مروان لوجدنا تلك الظاهرة جلية واضحة في أغلب قصائده التي نظمها فهو حينما ينظم قصيدة فإنه لا يرضى حتى يكملها ويوصلها في عددها إلى مائة بيت أو على الأقل سبعين بيتاً ، وإذا تتبعنا هذه القصائد وسرنا مع مروان عبر حروفها والفاظها وكلماتها وجدناها تحتفظ بالأصالة والجزالة والقوة من أول بيت حتى آخر القصيدة فلا فتور ولا ضعف ولا خور وإنما يصدر مروان من معين لغوي لا ينضب ومادة شعرية غزيرة بعيدة الغور .

بل إنني لأخال أن مروان كلما استرسل في قصيدته زادت حرارتها واشتد وهجها وقويت مادتها واستحكمت لفظها في حين نجد كثيراً من الشعراء يصيبهم الضعف ويدركهم الإعياء كلما أوغلوا في السير فاطالوا القول واسهبوا في النظم .

لهذا فإن مروان في تلك الظاهرة يقرب بزعماء الشعر العربي المطيلين كالمتنبي وابن الرومي وابن هانئ وسواهم ولنقرأ قوله في مدح معن :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها في بطن خفان أشبل

قال عنها ابن خلكان « تناهز ستين بيتاً » (١) وقوله في رثاء معن :

يا من بمطلع شمس ثم مغربها إن السخاء عليكم غير مردود

قال عنها ابن المعتز « القصيدة مشهورة » (٢) وهي طويلة ولا يوجد منها إلا بيتان .

ولنقرأ قوله يمدح المهدي :

طرقتك زائرة فحيّ خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها

فلقد أعطاه المهدي على كل بيت مائة درهم وكان مجموع ما أخذه مائة ألف درهم

وهذا يعني أن القصيدة مكونة من مائة بيت . ثم إن المهدي أعجب بأبياتها التي منها :

(١) وفيات الأعيان ٥ / ١٩١ . (٢) طبقات ابن المعتز ص ٤٧ .

هل تظلمسون من السماء نجومها بأفكم أو تسترون هلالها
حتى فحص الأرض برجله ومعروف أن هذا البيت يقع في منتصف القصيدة وهذا
يدل على أن مروان لا يزال يحتفظ بالقوة والغزارة التي بدأ بها إن لم تكن زادت وتعمقت .
وهناك قصيدة أخرى تسمى (السبعون) وهي التي يقول فيها :

إليك قصرنا النصف من صلواتنا مسيرة شهر بعد - شهر نواصله
وسميت بذلك لأنها سبعون بيتا .

وقصيدته التي مدح بها الهادي ويقول فيها :

تشابه يوماً بأسه ونواله فلا أحد يدري لأيهما الفضل
فأعطاه الهادي عليها مائة وثلاثين ألف درهم .

وقصيدته في مدح معن التي أعطاه عنها ألف دينار وأثارت غضب المنصور عليه :

وفيها يقول :

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيبان

ويمكن ملاحظة تلك الظاهرة في مرثيته التي أنشدها في معن بعد وفاته خاصة

قصيدته :

مضى لسبيله معن وأبقى مكارم لن تبديد ولن تنالا

وقد اقترن بتلك الظاهرة ظاهرة أخرى تعتبر مكملة ومتممة لها وهي اعتماد مروان
البحور الطويلة ، وقد كنت أفكر في فصل تلك الظاهرة وجعلها مستقلة عن سواها ولكنني
آثرت وصلها بالظاهرة السابقة لأنها مكملة لها لوجود وجه شبه جديد يجمع بينهما .

ولو تتبعنا شعر مروان لوجدناه يسير على قاعدة لا يمكن أن يحيد عنها إلا قليلاً في
محاولة للاستراحة من عناء الإطالة كما يستريح المقاتل من عناء القتال فكلاهما يخوض
معركة . المقاتل يخوضها مع عدوه ومروان يخوضها مع الحرف والكلمة .

لقد وقف مروان نفسه إلا قليلاً على البحور الطويلة التفاعيل ينظم عليها كالطويل

والبسيط والمديد والرجز والكامل التي تتطلب الفاظاً أكثر ونفساً أطول ، وهذه الظاهرة إذا أضفناها إلى ظاهرة طول النفس الشعري اتضح لنا أي قدرة لفظية يتمتع بها مروان لأنه يحاول استكمال المعنى في حدود شطري البيت فلا تطول الفكرة إلى أكثر من بيت واحد .

فيستقل كل بيت بمعناه ولهذا فإنه يعني بوحدة البيت لفظاً ومعنى أولاً . ثم يربط بينه وبين ما بعده من أبيات ربط الحاذق البارع الذكي حتى أننا لنجد القصيدة محافظة على جمالها الأدبي وذوقها الفني الرفيع . فهي في قوتها واحدة وفي احكامها ونسجها واتصال حلقاتها متكاملة مستوية الحلقات فلا ينبو بيت لضعفه أو تشذ كلمة لركاكتها ولهذا فإن قصائد مروان تتصف بفتحها الجمالي المتكامل الذي لم يسرقه بيت من بيت أو يختلسه معنى من معنى .

ومن هذا فإن القارئ لشعر مروان لا بد أن ينتابه شعور بالجمال الفني في القصيدة والاعجاب به حينما يقرأ بيتاً واحداً فقط أو يقرأ القصيدة كاملة إذ أن عوامل الكمال لن تخون القارئ وإنما سيحدها حاضرة وافرة يزنحز بها كل بيت ومعنى ولفظ .

وقد استطاع مروان بسبب اعتماده البحور الطويلة غالباً أن ينقذ نفسه من عيب من عيوب الشعر قاتل وهو التضمين والذي طالما وقع فيه الشعراء القدماء حتى الفطاحل منهم وهو تعلق معنى البيت بالبيت الذي يليه كقول النابغة :

وهم وردوا جفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إني
شهدت لهم مواطن صالحات شهدن لهم بحسن الظن مني (١)

فكلمة « إني » رغم وقوعها لفظاً في البيت الأول إلا أنها معنى تتبع البيت الثاني . وللقارئ بعد ذلك أن يدرك مدى فساد البيت وتشنت الفكرة بسبب التضمين ، وهذا ما تجنيه مروان وحده عنه وأنقذ شعره من مخالفه . فأثر البحور الطويلة لأن الشاعر أقدر ما يكون حينما يجعلها مطيته حيث يكمل معناه ، ومن أمثلة ذلك قول مروان على البحر الطويل في مطلع قصيدة يمدح فيها معن بن زائدة :

ويوم عسول الآل حام كأنما لظى شمسه مشبوب نار تلهب

(١) ديوان النابغة ص ١٥٣ .

وقوله في مدح الرشيد :

إشارة سلمى بالبنان الخضب

لعمرك ما أنسى غداة الخصب

وقوله في مدح الهادي :

وحزما إذا أمر أقام وأقعدا

تشابهتما حلما وعدلا وناثلا

وقوله في مدح الفضل بن يحيى :

بقدمه تجرى لنا الطير اسعدا

حمدنا الذي أدى ابن يحيى فأصبحت

وقوله في مدح السري بن عبد الله :

لأنك أعطيت الجزيل وصدروا

أصاب الردى قوماً تمنوا لك الردى

وقوله في مدح معن :

أسود لها في بطن خفان اشبل

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم

وقوله :

خشينا على أوتادها إن تصدعا

تدارك معن قبة الدين بعدما

وقوله في رثائه :

فكادت له أرض العراقيين ترجف

بكي الشام معنا يوم خلى مكانه

وقوله في رثاء المهدي :

بقبر أمير المؤمنين المقابر

لقد أصبحت تختال في كل بلدة

وما أوردته مجرد أمثلة والواقع فإن أغلب شعره على البحر الطويل .

ومن الكامل قوله من قصيدة يمدح بها الهادي ويعزيه في وفاة المهدي :

نفسى فما فرحت بطول بقائها

إن خلدت بعد الإمام محمد

وقوله يمدح معن :

لما جرى وجرى ذوو الأحساب

مسحت ربيعة وجه معن سابقاً

وقوله يمدح الأمين بولاية العهد :

لله درك يا عقيلة جعفر ماذا ولدت من العلا والسؤدد

وقوله مخاطباً إدريس بن عبد الله العلوي حينما هرب من الرشيد :

أتظن يا إدريس أنك مفلت كيد الخليفة أو يقيك فرار

وقوله مفتخراً بشعره :

ولقد جريت مع الجياد ففتها بعنان لاشيم ولا مبهور

وقوله في مدح المدي :

أحيا أمير المؤمنين محمد سنن النبي حرامها وحلالها

وقوله في مدحه أيضاً :

يا ابن الذى ورث النبي محمداً دون الأقارب من ذوي الأرحام

وقوله في رثاء معن :

زار ابن زائدة المقابر بعدما القت إليه عرى الأمور نزار

ومن البسيط قوله من قصيدة يمدح بها معن :

كفي القبائل معن كل معضلة يحمى بها الدين أو يرعى بها الحسب

وقوله :

له خلائق بيض لا يغيرها صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

وقوله يمدح يزيد بن يزيد الشيباني :

يا أكرم الناس من عرب ومن عجم بعد الخليفة يا ضرغامة العرب

وقوله في رثاء معن بن زائدة :

قل للمنية لاتبقي على أحد إذ مات معن فما ميت بمفقود

وقوله مخاطباً يحيى بن منصور وقد فتن بأفعال معن فعاد للشعر بعد تركه تنسكا :

لا تعتمدوا راحتي معن فإنهما بالجود أفنتا يحيى بن منصور

وقوله يمدح معنا :

قد أمن الله من خوف ومن عدم من كان معن له جاراً من الزمن (١)

والملاحظ أن مروان أكثر من القول على هذه البحور الثلاثة الطويل والكامل والبسيط وذلك لأن هذه البحور الطويلة قد وافقت هوى من نفسه لأنه كان بدوياً بطبعه وصلباً بطبيعته وفي بيئته ، والمعروف أن العربي القديم يؤثر ما هو طويل وصعب لأنه نتاج بيئة صعبة في مكوناتها وأسباب حياتها وجمود طبيعتها وقساوة جوها ولذا سلك مروان مسلك الشعراء القدماء الذين كانوا يؤثرون البحور الطويلة لأنه بهم أشبه وإليهم أقرب في حين أن البحور القصيرة أو الخفيفة كانت وسيلة الرجاز وشعراء الحضارة العباسية الذين أثر فيهم اختلاط الحضارات وتنوع الثقافة والعادات بسبب الاختلاط بالجنسيات الوافدة فرقت الحياة ونعمت وأترفت فكان من الضروري أن يواكبها الشعر بما يسايرها فهو ترجمانها المعبر عنها فكانت النتيجة أن رق الشعر وقصرت تفاعيله وانتشر النظم على البحور الخفيفة والمجزوءة والمشطورة والمنهوكة وأصبحت الساحة الشعرية ملكاً لبحور أخرى مثل الوافر والمتقارب والرمل والخفيف والسريع والهزج ، وانحسر دور البحور الطويلة وهذه لم تكن تلائم طبع مروان لأنه كما قال الأصمعي (لم يتجاوز مذهب الأوائل) إلا أن مروان تطرق إلى النظم على هذه البحور بشكل ضئيل لا يمثل شيئاً قياسياً على كثرة منظومه على البحور الطويلة ، وربما كان هدفه من وراء النظم على تلك البحور هو إشعار الناس بأنه قادر على النظم على جميع البحور الشعرية وإن كان يفضل البحور الطويلة ، والمتتبع لشعر مروان لن يعدم وجود ظاهرة البحور الخفيفة في شعره ، كما تؤكد الشواهد التالية :

١ - قوله علي البحر الوافر مداعباً شخصاً اسمه رباح :

لقد كانت مجالسنا فساحاً فضيقها بلحيته رباح

(١) جميع هذه الشواهد في شعر مروان .

وقوله معترفاً بفضل بني أمية عليه :

وكل الناس بعد لهم عبيد

بنو مروان قومي أعتقوني

وقوله :

وما فعلت بنو مروان شراً

فما فعلت بنو مروان خيراً

وقوله في رثاء معن :

مكارم لن تبديد ولن تنالا

مضى لسبيله معن وأبقى

وقوله مخاطباً جعفر البرمكي وقد وصله على مرثيته (اللامية) لمعن :

لنا مما تجود به سجالا

نفحت مكافئاً عن جود معن

وقوله فيه أيضاً :

لنا بكل يوم مهرجان

بدولة جعفر حمد الزمان

٢ - وعلى بحر المتقارب قوله يمدح (ولم يذكر اسم المدوح) وإن كان الظن يتجه لأحد الخلفاء العباسيين .

عظيم الفناء رفيع الدعم

إلى ملك مثل بدر الدجى

وقوله مادحا (ولم يذكر اسم مدوحه)

تذل الرقاب لآياتها

همام إمام له قدرة

٣ - ومن نظمه علي بحر الهزج قوله مهنتاً عمرو بن مسعدة بشفائه :

لك التمحيص والأجر

صح الجسم ياعمرو

والمنة والشكر

ولله علينا الحمد

٤ - ومن نظمه على بحر الخفيف قوله مادحاً الوليد بن يزيد الأموي :

ومولكاً مباركين شهوراً

إن بالشام بالموقر عزاً

وقوله في مدح زائدة بن معن :

إن معنا يحمي الثغور ويعطي ماله في العلا وأنت كذاكا

٥ - ومن نظمه على البحر السريع قوله في الهجاء (ولم يذكر اسم المهجو) :

يا وجهه من لا يرتجي نيله ولست بالأمن من ضيره

كأنه القرد إذا ما مشى يعتله القراد في سيره

وقوله حينما ضرب الناطفي جاريته عنان فبكت :

بكت عنان مسبل دمعها كالد يسّن من خيطه

ومع ذلك فإن مروان يبقى مؤثراً للبحور الطويلة .. لأنها أقرب إلى نفسه وأكثر التصاقاً بروحه كما أنه يؤثر من البحور الطويلة . بحري الكامل والطويل ويمكن ملاحظة ذلك بالرجوع إلى ديوانه .

٦ - الإكثار من وصف الناقة :

لم يكن وصف الناقة من رأسها حتى خفها وقفا على شاعر معين ولم تكن مناجاتها من خصوصيات شاعر (دون آخر) ولكن وصف الناقة كان شائعا منتشرا بين الشعراء خصوصا الجاهليين . حيث إنها مصدر إيحاء وإلهام للشعراء وزناد يوري قرائحهم فتترنم بغرر القصائد وروائع القوافي فالناقة خير صديق ورفيق في السفر يمتطيها الشاعر ويقطع بها القفار والبسابس ويطوي حزون الأرض وسهولها ترفعه نجادها وتخفضه وهادها ولا أنيس ولا صاحب يزيل الوحشة سوى الناقة التي تحمله فوق ظهرها فلا يملك إلا أن يناجيهها ويصفها وكأنني أخال الشاعر يريد الوفاء لها ، ومن هنا أصبح وصف الناقة ظاهرة فنية بارزة جعلت نفسها من سمات العربي وخصائصه وبالذات الشعر الجاهلي .

وحينما نجعل وصف الناقة من الخصائص الفنية الرائعة التي حلى بها مروان شعره وكساه برودها المنمقة بالجزالة والقوة . فإن ذلك لم يصدر عن كونه واصفاً مجيداً فطالما وصف شعراء قبله واجادوا . ولكن الداعي هو أن مروان أكثر من وصفها وذكرها على صورة تلفت النظر وتثير الفكر إذا ما نظرنا بعين فاحصة إلى شعر مروان القليل الموجود بين يدينا ومع ذلك لا تكاد قصيدة تخلو من وصف الناقة خاصة في غرض المديح .

ومن هنا إنطلقت متتبعا تلك الظاهرة وعرفت أنها مميزة إنفرد بها مروان دون سواه من الشعراء بالنسبة لقلة شعره الذي وصل إلينا فما السبب ياترى؟؟

إن السبب الذي دفع مروان إلى ذلك هو أنه شاعر مديح وثناء بالدرجة الأولى يعنيه كسب المال وهو إن لم يكن السبب الأول في مديحه لمعن وابنه والبرامكة إلا أنه كان كل شيء بالنسبة لعلاقته بالعباسيين وعلى أية حال فممدوحه أيا كان موقفه منه بعيد عنه يحتاج للوصول إليه أياما وأحيانا شهورا ولذا فلا بد له أن يتمطي ناجية تقطع به الفيافي وكان لا بد له من أن يسافر ويغرب بعيداً عن دياره منتجعاً ذوي الألفاف والإكرام ممن سارت بشهرتهم الركبان وتناقلها الناس على كل شفة ولسان ، وفعلا سار متكسبا بشعره طالبا من كل عظيم رفده متخذاً من الناقة صاحباً ومركباً ..

لقد طوى بها مروان الفيافي والقفار واختارها راحلة صعبة قوية جلده تسابق ظلها وخفف حملها ومزادها . تسابق الريح ومركبها مريح وهكذا كان . لقد قطع مروان بلاد العرب من اليمامة إلى صنعاء جنوبا وبغداد شمالا مرات عديدة ممتطيا ناقته يطوي بها فلول الأرض وصحاريها ويمني نفسه بلقاء ممدوحه ، وناقته تجذب به في سيرها وتخب ترفعها نجد وتخفضها وهاد تصبر على حر الصيف ولوا به وبرد الشتاء وعذابه فلا تبكى أو تشتكي وفي الليل يخيم عليه سكون رهيب يوحي إليه بالوحشه فلا يطوق سمعه سوى عزيف الجن وصراخ السعالي ولا رفيق له ولا سمير إلا ناقته التي نال منها الجهد والنصب شيئا كثيرا بعد طول مسير فإذا مروان يناجيها وكأنه يحس أنها تجيبه وترد عليه ويطلق بعدد مزاياها وصفاتها بالقوة والصبر وينعتها بشتى نعوت الصديق والوفاء وهو في مناجاته يحاول أن يطرد الوحشة التي سيطرت عليه ولفته ببرودها وفي الوقت نفسه يرسل مناجاته لناقته خافتة حيناً ومجلجلة حيناً يرددها معه رجع الصدى المنبعث من الجبال حوله فيصك ذلك مسامع ناقته التعبه فإذا بها تزداد قوة بعد تعب ونشاطاً بعد ضعف وإذا بها كما يقول المعلوط السعدي :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت باعناق المطي الأباطح (١)

(١) أحد ثلاثة أبيات مشهورة عند البلاغيين تكلموا عنها وتراوحت آراؤهم حولها بين الاعجاب والانتقاد والبيتان الآخران هما :

ولما قضينا من مني كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على ظهر المطايا رحالنا ولم ينظر الفادي من هو رائح

لقد جاءت مناجاته حذاء لهذه الناقة ومعينا لها على المشقة والتعب ولطالما إتبع العرب
القدماء هذه الطريقة وقديما قيل :

فغناها فهي لك الفداء إن غناء الإبل الحذاء

فمروان يناجي ناقته ويحدولها وفي الوقت نفسه يدلل على وفائه لها كما وفت له
فاختار لنفسه نوع المناجاة والحذاء الذي يغني به حيث سخر ذلك في وصف ناقته وسرعتها
وقوتها وطول الصحراء وحرها وبردها لكي يخرج من ذلك إلى ما هو أسمى وأبلغ وهو أن
الناقة التي تقطع تلك الصحراء لا بد أنها ناقة صعبة قوية .
وأى صحراء أطول من تلك التي يصورها لنا في قوله مخاطبا معنا :

لولا رجاؤك ما تخطت ناقتي عرض الدبيل ولاقرى نجران (١)

والدبيل في شمال الجزيرة ونجران في طرفها الجنوبي وتفصلها آلاف الأميال .
ومن أشعار مروان في ناقته قوله مخاطبا معنا يصف ما قاساه من تعب ونصب حينما قدم
إليه في عز القيظ :

لظى شمسه مشبوب نار تلهب ويوم عسول الآل حام كأنما
عصائب أسمال بها نتعصب نصبنا له منا الوجوه وكنها
تنائف فيما بينها الريح تلعب إلى المجتدى ممن تخطت ركابنا
طريد دم من خشية الموت يهرب (٢) كأن دليل القوم بين سهوبها

وتكفي كلمتا « عسول وحام » لتصوير شدة الحرارة وكلمة تخطت ركابنا لتصوير
الأمل الذي يحدو القوم ويدفع بهم إلى ارتكاب المخاطر والأهوال .

ولكى يصف ناقته بالسرعة جعلها ضامرة شاردة هاربة على وجهها لاتلوي على شيء
ففي ضمورها خفة وفي شرودها سرعة . كما في قوله مخاطبا المهدي :

إليك أمير المؤمنين تجاذبت بنا الليل خوص كالقسي شوارد
يمانية ينأى القريب محله بهن ويدنو الشاحط المتباعد
تجلى السرى عنها وللعيس أعين سوام وأعناق إليك قواصد (٣)

(٣) المصدر السابق ص ٣٧ .

(٢) شعر مروان ص ١٦ .

(١) شعر مروان ص ١٠٦ والدبيل رمل باليمامة .

ويقول في قصيدة يمدح بها معنا :

فأمت ركابي أرض معن ولم تزل
نجائب لولا أنها سخرت لنا
كسونا رحال الميس منها غواربا
فما بلغت صنعاء حتى تواضعت
إلى أرض معن حيثما كان نزعا
أبت عزة من جهلها أن توزعا
تدارك فيها التي صيفا ومربعا
ذراها وزال الجهل عنها واقلعا (١)

وانظر إلى عبارة لولا أنها سخرت لنا إنما نكتة بديعة تدل على ذكاء متوقد وإحتياط واجب وقدره على التصرف وإدراك للمعاني وفهم تام لأحوال الناقة . فمروان يرمز في ذلك إلى قوله تعالى ﴿والأنعام خلقها لكم﴾ إلى قوله ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ كما أن وصفه لها بالعزة والإباء غريب معنى لم يسبق إليه على ما أظن .

ولكنة ما ترددت ناقتة على صنعاء وابتصرت معنا أحبته وألفته فلما طال عهدا به ونأت ديارها عنه ورأت البرق يلمع من جهة موطنه هاجت الذكرى بقلبها وانبعثت في فؤادها فأرسلت آهات وزفرات توحى بالحنين والشوق إلى رجل كان وفيا لصاحبها كما في هذين البيتين :

تحن قلوصي نحو صنعاء إذ رأت
تحن إلى مرعى بصنعاء مخصب
وما أظن المرعى الخصب إلا كفي معن .
سماء الحيا من نحو صنعاء تبرق
وشرب رواء ماؤه لايرنق (٢)

ومن أروع ما وصف به مروان ناقتة قوله من قصيدة يخاطب فيها المهدي :

طلبت أمير المؤمنين فواصلت
نزعت إليك صواديا فتقاذفت
يتبعن ناجية يهزمراحها
هو جاء تدرع الربا وتشقها
بعد السرى بغدوها آصالها
تطوي الفلاة حزونها ورمالها
بعد النحول تليها وقذالها
شق الشموس إذا تراع جلالها

(١) شعر مروان ص ٦٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٨ .

تنجوا إذا رفع القطيع كما نجت
خرجاء بادرت الظلام رثالها
كالقوس ساهمة أتنك وقد ترى
كالبرج تملأ رحالها وحبالها (١)

ومما يؤكد اكنار مروان من وصف الناقة قول الخطيب البغدادي (إنه كان يطيل في تصوير الصحراء ورحلته فيها إطالة شديدة حتى أنه وصف في مدحة له في الرشيد ناقته من خطامها إلى خفيها . كما وصف الفيافي من اليمامة إلى بابه أرضاً أرضاً ، ورملة رملة (٢) .

وإطالة مروان هذه تدل على أنه كان ملماً بالناقة من كل ناحية كما توحى ببراعته وتفوقه في وصفها كغيره من الجاهليين الذين سبقوه ممن كانت الناقة سميرهم ورفيقهم وأنيس وحدتهم .

كما أن هناك ظاهرة غريبة هي أن مروان لم يهمل الناقة ولم يضعف في وصفها حينما مدح المهدي ومعن والرشيد والهادي ولكن مروان حينما مدح البرامكة ، ولم يتطرق إلى وصف ناقته إلا لماماً أما في غالب مدائحه فإنه لم يذكر شيئاً عنها وإنما يضرب مناح وطرق آخر ، وذلك لأنه كان يدرك تمام الإدراك ويعرف أن البرامكة فرس لا يعرفون الناقة ولا يدركون أوصافها التي يحتويها شعره ، ولهذا فإنه لم يجعلها أساس مدائحه فيهم فالحكمة تقول خاطب الناس بما يعرفون كما أن من سمات البلاغة مطابقة الكلام للمقتضى الحال فكيف يخاطب مروان قوماً بما لا يعرفون .

إن ذلك يكشف لنا جانباً من عبقرية مروان الشعرية وثقافته الأدبية التي يتمتع بها وشكلت بالنسبة له نهراً أمده بفيض من المعاني والألفاظ التي تصرف فيها تصرف الخاذق الخبير والذكي البصير أمام ممدوحيه على إختلاف اتجاهاتهم الفكرية والسياسية والإجتماعية .

(١) شعر مروان ص ٧٩ .

(٢) تاريخ بغداد ٢٥٨/٦ واعتقدانها قصيدته التي يقول فيها :

لعمرك ما أنسى غداة المحصب
إشارة سلمى بالبنان الخضب
وقد صدر الحجاج إلا أقلهم
مصادر شتى موكبا بعد موكب

ولكنها ضاعت ما عدا هذين البيتين (انظر شعر مروان ص ٥٣) .

وفى نهاية ذلك التطواف وغاية المطاف أقول : إن مروان حينما أكثر وأطنب في وصف ناقته كان يحدوه دافع آخر غير كون الناقة رفيق وعماد رحلته وهو أنه يحاول أن يذوب في الجاهليين تماماً ويتشبه بهم في ألفاظهم ومعانيهم ومبانيهم ومن هذا قطع مروان شعرة معاوية التي تربطه بعصره العباسي ولم يبق بينهما إلا صلة الروح والفكر فضرب في أعماق القديم الغابر .



ط - المستدرك على شعر مروان

ظل شعر مروان مطموراً في كتب وأسفار الأدب والتاريخ القديمة التي تحدثت عنه ودونت شيئاً من أشعاره مثل العقد الفريد ، والأغاني ، وطبقات ابن المعتز ، وتاريخ الطبري وسواها من أمهات الكتب التاريخية والأدبية ، ومع ذلك لم يحاول أحد من الأدباء والنقاد جمع شتات هذه الأشعار في ديوان واحد خاصة وأن ديوان مروان الذي يحوي (٣٠٠) ورقة قد ضاع كما قال ابن النديم (١) وهذا ما جعل مروان رغم أنه شاعر مجيد وأبرع شاعر أنجبه إقليم اليمامة في ذلك العصر أقل ذكراً من شعراء لا يدانونه في المنزلة وحسنتهم الوحيدة أن دواوين أشعارهم قد تغلبت على عادات الزمن .

ومنذ عشرين عاماً قام الدكتور حسين عطوان بالمهمة التي لم يقم بها أحد قبله فأزال غبار النسيان الذي كلنه يغطي أشعار مروان في الكتب الأدبية والتاريخية ، وقام بتجميع تلك الأشعار واصدرها في ديوان أسماه (شعر مروان) صدر عن دار المعارف بمصر في سلسلة ذخائر العرب ويحمل رقم (٤٩) .

ويقع الكتاب في (١٨٠) صفحة عدا الصفحات الخاصة بالفهارس والمراجع وتخريج القصائد ، وقد قام الدكتور حسين عطوان بوضع مقدمة لهذا العمل ص (٦٠٥) كما كتب عن حياة مروان وشعره وموضوعات شعره ومذهبه وطبقته في الصفحات من (٧-١٤) .

وقد جمع الدكتور حسين عطوان (٧٢) مجموعة ما بين قصيدة ومقطوعة وبيتين وبيت شعر واحد بل ونصف بيت تحت عنوان (الصحيح من شعر مروان ص ١٥ - ١١٢) وأربع مجموعات تحمل الأرقام (٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦) تحت عنوان ما ينسب له ولغيره ص (١١٢-١١٦) ، ومن قراءة تلك الأشعار يحس القارئ من بادية الأمر بمدى التمزق والضياع الذي تعرض له شعر ذلك الشاعر المبدع مما يجعل أي دراسة عنه مهما كان صاحبها يعتقد كمالها ناقصة .

وقد قام الدكتور حسين عطوان بجهود وافرة في تخريج تلك القصائد والأبيات التي عثر عليها كما وازن بين الروايات المتعددة المختلفة لبعض الأبيات وشرح الغريب من

(١) الفهرست ص ١٦٠ حيث يقول عن مروان (شعره نحو ثلاثمائة ورقة .

الكلمات ووضع في نهاية الكتاب قسماً خاصاً بعنوان تخريج الصحيح من شعره (ص ١١٩ وما بعدها) وقسماً لتخريج ما ينسب له ولغيره (ص ١٣٥ - ١٣٣) كما وضع فهرساً للأعلام (ص ١٣٤ - ١٣٦) وآخر للقوافي (ص ١٣٧ - ١٣٩) وبلغ عدد مراجعه (٦٤) مرجعاً إلا أنه يلاحظ على هذا العمل ما يلي :

١ - أنه دون القصائد والمقطوعات حسب الحروف الهجائية وكان الأولى أن يدونها حسب الأغراض الشعرية .

٢ - أنه لم يحاول الربط بين بعض المقطوعات الشعرية التي تتفق مع مقطوعات أخرى في الوزن والقافية والغرض وحركة الروي مما يؤكد أنها جزء من قصيدة واحدة ومثال ذلك القطعة رقم (٣٩) التي يمدح فيها الرشيد وعثر منها على بيتين فقط هما :

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها يعجزيتها والحرب تغلي قدورها (١)

فهذان البيتان جزء لا يتجزأ من البيتين اللذين قالهما مروان في مدح الرشيد ويحملان رقم (٤٠) بعد حادثة الفداء وتبادل الأسرى بين المسلمين والروم والقطعة رقم (٤٠) هي :

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعياء المسلمين فكاكها وقالوا سجون المشركين قبورها (٢)

في حين أن هذه الأبيات واحدة في وزنها والقافية وحركة الروي والغرض والمناسبة التاريخية .

٣ - لم يحاول - إطلاقاً - تصحيح بعض الأخطاء التاريخية التي وردت كمقدمة للحديث عن بعض أشعار مروان رغم إلمامه بكل تفاصيل حياة الشاعر ويتمثل ذلك فيما يلي :

١ - في البيتين اللذين قالهما مروان مادحاً الرشيد بعد قصة تبادل الأسرى ويحملان الرقم (٤٠) فقد ذكر الطبري في تاريخه (١١/٧٠٧ ط ليدن) أن هذه القصة وقعت

(٢) المصدر السابق ص ٦١ .

(١) شعر مروان ص ٦٠ .

عام ١٨٩ هـ في حين أن مروان توفي سنة ١٨٢ هـ . والصحيح أن تبادل الأسرى تم عام ١٦٥ هـ حين غزا الرشيد الصائفة لأبيه المهدي . انظر في ذلك فصل (علاقته بالرشيد) .

٤ - حين ذكر الدكتور حسين عطوان نقلاً عن قدامة بن جعفر بيتين على أنهما في مدح شراحيل بن معن (القطعة رقم ٦٣) في حين أن مروان لم تكن له علاقته بشراحيل وإنما كانت علاقته قوية مع (زائدة بن معن) الذي تولى اليمن بعد ذهاب والده إلى سجستان وهذان البيتان هما :

رأيت ابن معن أنطق الناس جوده فكلف قول الشعر من كان مفحماً
وأرخص بالعدل السلاح بأرضنا فما يبلغ السيف المهند درهما (١)

والأمثلة على هذا كثيرة .

٥ - أنه لم يدون جميع الأشعار التي قالها مروان بل فاتته نصيب وافر من تلك الأشعار ، والغريب أن هذه الأشعار التي لم يذكرها موجودة في بعض المراجع التي اعتمد عليها اعتماداً أساسياً في مهمة جمعه لشعر مروان مثل ، العقد الفريد ، ووفيات الأعيان ، والفرج بعد الشدة ومختار الأغاني .

وقد يقول قائل إن الدكتور حسين عطوان تجاهلها لأنها لم تصح نسبتها لمروان وللرد على ذلك أقول .

١ - أنه عقد فصلاً تحت عنوان (ما ينسب له ولغيره) وكان بالإمكان نسبة هذه الأشعار تحت هذا العنوان إذا كان هناك ما يثير الشك حولها .

٢ - أن غالبية هذه القصائد ثابتة لمروان ، ولم يقل عنها أحد ممن كتبوا عنه أنها تنسب لغيره . كما أن هناك شواهد في تلك الأشعار كالغرض واسم الممدوح والمواضع والحوادث التاريخية أو الأدبية الواردة في فيها ثابتة لمروان كحقيقة لا يمكن إنكارها إلا إذا كان ممكناً إنكار ضوء الشمس من سليم النظرفي رابعة النهار .

لذا فإنني لا أرى سبباً لتجاوز الدكتور حسين عطوان عن ذكرها (رغم اجتهاده) سوي أن لإنسان لا يصل مرحلة الكمال مهما فعل واجتهد .

وإكمالاً للفائدة وحرصاً على توثيق شعر مروان قمت بتدوين هذه الأشعار التي عثرت عليها تحت هذا العنوان (المستدرک على شعر مروان) مع الإشارة إلى المراجع التي وردت

فيها . كما أنني قد استخدمت شواهد منها في إعداد تلك الدراسة عن مروان وإليك
عزيزي القارئ هذه الأشعار الجديدة .

١ - قال مروان يمدح المهدي :

قريش الأبلج ذو البهاء غيث العفاة في غد الأنواء

وهم زمام الدولة الزهراء (١)

٢ - وقال :

ياقظ رجراحة الملحاء ومنزل البدر من السماء

والجتدي في السنة الجذباء (٢)

٣ - وقال مروان يرثي المهدي :

أفنى البكاء على إلامام محمد ماء العيون فأسعدت بدمائها
إن القبور قديمها وحديثها بصدك فاضلة على أصدائها
ما حفرة أسنى وأكرم ساكنا من حفرة حدروك في أرجائها
إلا التي أمسى النبي محمد فيها فإن لتلك فضل سنائها (٣)

٤ - وقال مروان من قصيدة يمدح بها معن بن زائدة :

حل المشيب فلن يحول رحله عني وبان فلن يؤوب شبابي

(١) المحاسن والمساوي ٣٨٩/١ ولم يأت نصاً أنها في مدح المهدي إلا أن أبا العيناء يقول للمعتصم (يا أمير المؤمنين قال مروان
في جدك) وجد المعتصم هو المهدي .

(٢) المحاسن والمساوي ١ / ٣٩٠ .

(٣) تاريخ الموصل ص ٢٥٥ ويظهر أن هذه الأبيات الأربعة جزء من قصيدة قالها مروان في رثاء المهدي تقرّباً للخليفة الجديد
الهادي وقد أورد منها الدكتور حسين عطوان بيتاً واحداً هو :

إن خلدت بعد إلامام محمد نفسي لما فرحت بطول بقائها

(شعر مروان ص ١٥)

وفيها يقول :

كرم النجار وصحة الأنساب
تمهلين وهن خير روابي
عالي العماد ممدد الأطناب (١)
أنسابها ولباب كل لباب (٢)

وجرت به غر سوابق زانها
فرعت بنو مطر روابي وائل
قوم رواق المكرمات عليهم
وهم النضار إذا القبائل حصلت

٥ - وقال :

بطن العقيق بنا وحسي كباب (٣)

والعيس قد علت الدبيل وخلفت

٦ - وقال في مدح العباسيين :

قريش بطحاء أولى الأهاضب
مد القباطي على المشاجب (٤)

أنتجعي ياناق ملك غالب
والرأس ممدود على المناكب

٧ - وقال يمدح معن بن زائده :

إلا على باب معن منهم عصب

ما أصبح اليوم من قوم ذوي شرف

(١) مختار الأغاني ٤١٠/٦ .

(٢) الحماسة المغربية ٢٢٧/١ وقد انفردت بذكره وذكر البيتين (٣٠١) .

(٣) صفة جزيرة العرب (ت محمد بن بليهد ص ١٥٢) ويبدو أن هذا البيت تابع للأبيات قبله لاتفاقه معها في الوزن والفرض والقافية وأنها جزء من قصيدة مدح بها مروان معنا ذكر منها بيتان في ديوانه هما :

لما جرى وجرى ذور الأحساب
من دون غايتيه وهن كوابي
مسحت ربعة وجه معن سابقاً
خلى الطريق له الجياد قواصراً

(شعر مروان ص ٢٤) ويلاحظ أن الدبيل والعقيق وحسي كباب الواردة في قوله :

والعيس قد علت الدبيل وخلفت
بطن العقيق بناء وحسي كباب

أسماء مواضع يمر بها الركب المتجه من اليمامة إلى اليمن ، ومن المعلوم أن معنا كان واليا على اليمن للعباسين وكان مروان يقصده هناك ليمدحه ويأخذ إعطياته .

(٤) الخاسن والمساوي ٣٩٠/١ ولم يذكر الممدوح بها ، وإن كان أحد الخلفاء العباسيين لقوله (ملك غالب) وهو الجند (التاسع) للرسول صلى الله عليه وسلم .

شدوا الرحال إلى معن على ثقة
فما الشجاعة إلا دون نجدته
سيان فرع نزار في أرومتها
فما بقيت أصاب العرف طالبة
عادت نزار نزاراً إذ تداركها
فرع نماء شريك وابنه مطر
٨ - وقال يمدح المهدي :

طلاب خير فعموا بالذي طلبوا
ولا المواهب إلا دون ما يهب
وأنت فرع بني شيبان إن نسبوا
وإن ذهبت فما للعرف مطلب (١)
مبارك من بني شيبان منتخب
والصلب عمرو فتاك السادة النجب (٢)

على من راحة المهدي ينسكب
سحابة صوبها الأوراق والذهب
ظني بأضعاف ما قد كنت أحسب
منا ولست بمنان بما تهب
يضيء والصبح في الظلماء يحتجب
بالحق ليس له في غيره أرب (٣)

ما أنس ما أنس غيثاً ظل وابله
سمنا فما أخلفتنا من مخائله
صدقت ياخير مأمون ومعتد
أعطيت سبعين ألف غير متبعها
قد لاح للناس بالمهدي نور هدى
خليفة ظاهر الأثواب معتصم

(١) مختار الأغاني ٤١١/٦ وهذه الأبيات جزء من قصيدة مروان التي يمدح بها معناً ومطلماً .

مايلمع البرق إلا حين مغترب كأنه من دواعي شوقه وصب

شعر مروان ص ٢٠

(٢) الحماسة المغربية ٢٢٧/١ / ٢٢٨ حيث وردت الأبيات (٧/٦/٣) .

(٣) خلاصة الذهب المسبوك ص ٨٤ حيث ذكر لهذه الأبيات مطلقاً هو :

مايلمع البرق إلا حين مغترب كأنه من دواعي شوقه وصب

وقد ورد هذا المطلع في شعر مروان (ص ٢٠) كجزء من قصيدة يمدح بها مروان معن بن زائدة وورد منها في مختار الأغاني ٤١١/٦ والحماسة المغربية ٢٢٧/١ ، ٢٢٨ أبيات لم تذكر في شعر مروان .

٩ - وقال في الصفاح :

خرجن من مكة قافلات
لدى الصفاح متعرضات
ينهضن في نخلة والبوبات
خصوصاً مدلات على الفلاة (١)

١٠ - وقال يمدح الفضل بن يحيى ويشير إلى رضاعه من الخيزران أم الرشيد :

كفى لك فضلاً أن أفضل حرة
غذتك بشدي والخليفة واحد
لقد زنت يحيى في المشاهد كلها
كما زان يحيى في المشاهد خالداً (٢)

١١ - وقال عندما ولدت زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد ابنها (محمد) الملقب بالأمين :

إنى لأعلم أنه لخليفة
إن بيعة عقدت وإن لم تعقد (٣)

١٢ - وقلمن قصيدة يرثي بها المهدي ويهنئ الهادي بالخلافة :

ولو لم يقيم موسى عليها لرجعت
وكنه لابد من ورد منهل
حيننا كما حن الصفايا العشائر (٤)
من الموت لا من حومة الموت قاصر (٥)

(١) بلاد العرب ص ٢٧٧ والصفاح اسم موضع قال عنه ياقوت في معجم البلدان (موضع بن حنين وانصاب الحرم (٤٢١/٣) ونخلة يقصد بها نخلة اليمانية لقربها من البوابة .

قال ياقوت عن الموضعين (بوابة) هكذا بالفتح ثم السكون وباء أخرى وتاء مربوطة إسم لصحراء بأرض تهامة إذا خرجت من أعلى وادي نخلة . معجم ياقوت ١/٥٠٦ وعلى هذا فإني أرى إن هذين البيتين جزء من قصيدة قيلت في مدح معن وضاعت القصيدة ويؤكد هذا ذكره لهذه المواضع وهن في الطريق المتجه إلى اليمن التي كان معن والياً عليها . والمعروف أن مروان كثيراً ما يذكر المواضع التي يمر بها في طريقه لليمن قاصداً معنا .

(٢) وفيات الأعيان ٤ / ٢٧ .

(٣) وفيات الأعيان ٢ / ٢١٦ ومعه بيتان هما :

لله درك ياعقيلة جعفر
ماذا ولدت من الهدى والسودد
إن الخلافة قد تبين نورها
للعالمين علي جبين محمد

وقد ذكر البيتان في شعر مروان ص ٤١ كما نسب هذان البيتان في العقد ١/٢١٨ إلى ابني الجنوب بن مروان إلا أن هذا البيت المذكور اعلاه يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الأبيات الثلاثة لمروان وقد قالها في خلافة الرشيد وقبل المبايعة لأحد بولاية العهد في حين أن (ابا الجنوب بن مروان) لم يكن له أي ذكر في ذلك العهد .

(٤) سمط النجوم العوالي ٢/٢٧٢ ، وتاريخ الخلفاء ٢٨٢ وهو من قصيدة وردت (عدا هذين البيتين في شعر مروان ص ٤٨) ومطلعها .

لقد أصبحت تختال في كل بلدة
بقبر أمير المؤمنين المقابر

(٥) هذا البيت ورد في مختار الأغاني ٦/٤٠٩ .

١٣ - وقال يرثي معن بن زائدة :

زار ابن زائدة المقابر بعدما
إن القبائل من نزار أصبحت
ودت ربيعة أنها قسمت له
فلا بكين فتى ربيعة مادجاً
لازال قبر أبي الوليد تجوده
قبر يضم مع الشجاعة والندی
إن الرزية من ربيعة هالك
رحب السرادق والضياء جبينه
لهفي عليك إذا الطعان بمأزق
خلى الأجنة يوم مات مشيع
يمسى ويصبح مسلماً تذكى به
لو كان خلفك أو أمامك هائباً
١٤ - وقال وقد سجن :

إن تحبسوني فالكريم يحبس
مصابر حتي تجيش الأنفس
إني لسامي الناظرين أشوس
لاساقط عابح ولا مدنس
عرضي نقي ونديي أملس (٢)

١٥ - وقال في مدح البرامكة وقيل إنها لأبي الحجناء :

عند الملوك منافع ومضرة
وأرى البرامك لا تضر وتنفع

(١) العقد الفريد ٢/٢٤٢ ولا أدري كيف فاتت هذه القصيدة على د. حسين عطوان الذي جمع شعر مروان رغم أن العقد الفريد كان من أهم المصادر التي رجع إليها .

(٢) البصائر والدخائر ٨/١٠٨ وربما يكون مروان قد قالها هذا الرجز عندما سجنه الرشيد بعد ذلك وقد ورد الخبر مفصلاً في الفرج بعد الشدة ٣/١٥٥ وأشار إليه عند الحديث عن علاقة مروان بالرشيد .

إن كان شراً كان غيرهم له والخير منسوب إليهم أجمع
وإذا جهلت من امرىء اعراقه وقديمه فانظر إلى ما يصنع
إن العروق إذا استمر بها الندى أشب النبات به وطاب المزوع (١)

١٦ - وقال حينما فتح الرشيد حصن الصفصاف عام ١٨١ هـ

إن أمير المؤمنين المصطفى قد ترك الصفصاف قاعاً صفصفاً (٢)

١٧ - وقال يرثي معن بن زائدة :

بكى الشام معناً يوم خلى مكانه فكادت له أرض العراقين ترجف
ثوى القائد الميمون والقائد الذي به كان يرمي الجانب المتخوف
أتى الموت معناً وهو للعرض صائن وللمجد مبتاع وللمال متلف
ومامات حتى قللته أمورها ربيعة والحيان قيس وخندف
وحتى فشا في كل شرق ومغرب أياد له بالضر والنفع تعرف
بكته الجياد الأعوجية إذ ثوى وحنّ مع النبع الوشيح المثقف
وقد غلبت ربح الصبا في حياته قبولا فأمست وهي نكباء حرجف (٣)

١٨ وقال يمدح المهدي :

إن الذي أمس بمكة ثاوريا حاباهم بك لابهم حاباكا
فجزى الإله أباك خير جزائه عنا ومثل جزائه فجزاكا
لما تيمم للبرية خيرها ولاك أمرهم الذي ولاكا
حنت إلى موسى القلوب فبايعت قبل الأكف وما ظلمن نداكا

(١) وفيات الأعيان ٤ / ٢٥ .

(٢) تاريخ الموصل ص ٢٩٠ .

(٣) العقد الفريد ٣ / ٢٤٢ .

فاعقد لهارون المؤمل عهدَه تظفر بعصمة ديننا وكفاكا (١)

١٩ - وقال مخاطباً (الخيزران) أم الهادي والرشيد :

ياخيـزران هناك ثم هناك إن العباد يسوسهم ولدك (٢)

٢٠ وقال مخاطباً جعفر البرمكي :

إذا ما المادحون عليك أثنوا بفضل فيك قد وجدوا المقالا (٣)

٢١ - وقال من قصيدة قيل إنه مدح بها المنصور ولم يتمكن من لقائه وانشادها بين يديه :

له لحظات عن حفافي سريره إذا كرها فيها عقاب ونائل (٤)

٢٢ - وقال من قصيدة يمدح فيها معن بن زائدة :

لمعن بما يعطي أسر من الذي بما نال من معرفه يتعمول

(١) مختار الأغاني ٤٠٨/٦ - ٤٠٩ . وهذه الأبيات من قصيدة يمدح بها المهدي عندما عقد بيعة العهد لابنه الهادي من بعده ثم لابنه الثاني (هارون الرشيد) وقد ورد منها بيتان في (شعر مروان) ص ٧٠ وهما .

أعص الهوى وتعز عن سعداكا فلمثل حلمك عن هواك نهاكا
أحيا لنا سنن النبي سميـه قد الشراك به قرنت شراكا

وقد ورد الأول منهما في مختار الأغاني ٤٠٨ / ٦ . إضافة إلى الأبيات السابقة . . ويقصد بقوله « إن الذي أسس بمكة .. الخ » عبد المطلب بن هاشم .

(٢) لطائف المعارف ص ٨١ وفي تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ (إمسي يسوس العالمين ابنك) وقد نسب البيت في تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤٣٧/٦ لشاعر اسمه (ابو المعاني) .

(٣) مختار الأغاني ٤١٣/٦ من قصيدة من ستة أبيات وردت في شعر مروان ص ٨٤ مطلعها :

نفسحت مكافئاً عن جود معن لنا مما تجود به بسجـالا
والقصيدة التي يرثي بها مروان معن بن زائدة وكافأه عليه جعفر البرمكي هي التي منها هذا البيت .

(٤) الأغاني ٥٠ / ١٠ . يمدح بها مروان أبا جعفر المنصور حيث قال المهدي لمروان (ابن ما تقوله فينا من قولك في أمير المؤمنين المنصور) وقد ورد هذا البيت في العقد الفريد ٢٢٤/١ منسوباً إلى ابن هرمة في مدح المنصور مع بيتين آخرين هما :

لهم طينة يبطاء من آل هاشم إذا اسود من كوم التراب القبائل
إذا ما أبقى شيشا مضى كالذي أبى وإن قال إني فاعل فهو فاعل

ولم يذكر د. حسين عطوان شيئاً عن هذه الأبيات في فصل (ما ينسب لغيره) ص ١١٣ وما بعدها في (شعر مروان) رغم أن العقد الفريد كان من المراجع الأساسية لديه .

حليف الندى معن بن زائدة الذي
شريكه صولاته مطربة
٢٣ - وقال من قصيدة مدح بها المهدي :
فلانفض للأمر الذي أنت مبرم
حتوف العصاة الناكثين نكاله
٢٤ - وقال مستجيزاً عنان الناطقية :
وما زال يشكو الحب حتى رأيتَه
تنفس من أحشائه وتكلما (٣)
٢٥ - وقال من قصيدة يمدح بها المهدي عندما عقد لابنه الهادي ولاية العهد من بعده :
عقدت لموسى بالرصافة بيعة
موسي الذي عرفت قريش فضله
بمحمد بعد النبي محمد
مهدي أمته الذي أمست به
تعل بحوضيه الظلماء وتنهل
مجرية فيها السمام المثل (١)
ولا رد للقول الذي أنت قائله
وغيت العفاة القاصدين فواضله (٢)

(١) مختار الأغاني ٤١١/٦ وهذا البيت من قصيدة مدح بها مروان معنا وورد منها في مختار الأغاني ٤١٠/٦ - ٤١١
(٨) أبيات وورد منها في شعر مروان (١١) بيتاً لم يكن هذا البيت من ضمنها ومطلعها في شعر مروان كما ورد ص ٨٨ .

كأن التي يوم الرحيل تعرضت
لنا من طباء الرمل أدماء مفزل
كما ورد البيتان (٣٠٢) في الحماسة المغربية ٢٢٦/٢٢٥/١ .

(٢) مختار الأغاني ٤٨٠ / ٦ وهما من قصيدة مدح بها مروان المهدي مطلعها :

صحا بعد جهد فاستراحت عواذله
وأقصرن عنه حين أقصر باطله

ورد منها في شعر مروان ص ٦٤ (١١) بيتاً لم يكن هذا البيتان من ضمنها .

(٣) البصائر والذخائر ١٤ / ٥ وفي الأغاني (٢٣) / ٩ - ط دار الكتب العلمية بيروت) ورد الخبر كما يلي : (عن أحمد ابن معاوية قال : قال لي رجل تصفحت كتباً فوجدت بينها بيتاً جهدت جهدي أن أجده من يجيزه فلم أجده فقال لي صديق عليك عنان جارية الناطقي فجتتها فأشدها :

وما زال يشكو الحب حتى رأيتَه
تنفس في أحشائه وتكلما

فما لبثت أن قالت :

وبيكي فأبكي رحمة لبكائه
إذا ما بكى دمعاً بكيت له دماً

ولم ينسب البيت الي مروان .

موسى ولي عهد الخلافة بعده جفت بذاك مواقع الأقالم (١)
٢٦ - وقال يمدح بن معن زائدة :

جرى للمجد زائدة بن معن فبرز غير مضطرب العنان
إذا شهد الرهان بنو شريك حوت أيديهم قصب الرهان
فقد بلغت يده من المعاني مبالغ مادنت منها يدان
وليس بمدرك أحر الليالي نزارى نداءه ولايمان (٢)
٢٧ - وقال في رثاء المهدي :

واكرم بقبر بعد قبر محمد نبي الهدى قبر بما سبذان
عجبت لأيدٍ هالت التراب فوقه ضحى كيف لم ترجع بدون بنان؟ (٣)
٢٨ - وقال يرثى ابا جعفر المنصور :

ابا جعفر صلي عليك إلهنا فرزؤك أمسى أعظم الحدثنان
بكي الثقلان الأنس والجن إذ ثوى ولم ييك ميتاً قبله الثقلان (٤)
٢٩ - وقال يمدح الفضل بن يحيى بعد انصرافه من خراسان وظفره بيحيى بن عبد الله العلوي :

للفضل يوم الطالقان وقبله يوم اناخ به على خاقان
ما مثل يوميه اللذين حواهما في غيروني تواليا يومان

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤ كما ورد البيت الاول في مختار الأغاني ٤٠٨/٦ ويبدو أن هذه الأبيات جزءاً من قصيدة مظلها :

طاف الخيال فحيه بسلام أنى ألمّ وليس حين لمام

ورد منها (٩) أبيات في شعر مروان ص ١٠٤ ولم تكن الأبيات المذكورة اعلاه من ضمنها .

(٢) الحماسة المغربية ٢٨٨/١ .

(٣) وفيات الأعيان ٢/٢١٠، ٥/٣٤١ .

(٤) تاريخ الموصل ص ٢٣٠ .

سد الثغور ورد ألفة هاشم
عصمت حكومته جماعة هاشم
تلك الحكومة لا التي عن غيرها
٣٠ - وقال يمدح معن بن زائدة :

إني إلى كل أرض كنت ساكنها
قيدتني منك حبلاً فاعتصمت به
تضيق أعطان قوم إن هم سئلوا
لو لم تكن لندي جاراً فتطلقة
٣١ - وقال متحدثاً عن تنقيحه للشعر :

إني أقول قصائداً حوالة
من كل قافية إذا احديتها
سارت بيوتي في البلاد فأمعنت
أبداً تجول حوالها أرسانها
جمحت فلم تملك يداي عنانها
ويوت غيري لم ترم أوطانها (٣)

(١) مختار الأغاني ٤١٢/٦ ويشير بقوله (تفرق الحكمان) إلى قصة التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ويهدف مروان من وراء استعماله تلك الإشارة التاريخية إلى التعريض بالعلويين . وقد ذكر الطبري في تاريخه نقلاً عن أبي حفص الكرمانى أن هذه الأبيات لأبي ثمامة بن الخطاب انظر (تاريخ الطبري . حوادث ١٧٦) .

(٢) الحماسة المغربية ٢٢٨/١ ، ٢٢٩ ، والمنازل والديار ٣٥٥/١ . وقد ورد في شعر مروان ص ١٠٩ أربعة أبيات علي بحر البسيط في مدح معن بن زائدة وهي :

من كان معن له جاراً من الزمن	قد أمن الله من خوف ومن عدم
والمشتري المجد بالقبالي من الثمن	معن بن زائدة الموفى بدمته
غنماً إذا عدها المعطي من الغبن	يري العطايا التي بقي محامدها
حتى تزول ذرا الأركان في حضن	بني لشيبان مجدداً لازوال له

مما يدل علي أن الأبيات المذكورة اعلاها وهذه الأبيات (قصيدة واحدة) وانظر الأبيات في المنازل والديار ٣٥٥/١ وانظر مجلة العرب السنة الاولى / العدد الثامن .

(٣) الأشباه والنظائر ٢٢٦/١ وقد تكون تلك الأبيات جزءاً من قصيدة مدح بها مروان الأمين عندما يبيع بولاية العهد ورد منها =

٣٢ - وقال في جارية اسمها جوهره :

أنت يا جوهر عندي جوهره
فإذا غنت فنار اضرمت
في بياض الوردة المشتهره
قذفت في كل قلب شرره (١)



= في شعر مروان ص ٧١ ثلاث أبيات هي :

لما سمعت ببيعة محمد
بايعت مفتبطاً ولو لم تبسط
شفت النفوس واذهبت احزانها
كفي لبيعه قطعت بنانها
والله أرجح بالتقى ميزانها
رحجت زبيدة والنساء شوائل

وذكر د. حسين عطوان أنها في مدح المهدي وليس ذلك صحيحاً لأن زبيدة والدة الأمين في حين أن أم المهدي هي (أم موسى بنت منصور الحميرية).

واختلاف الغرض بين هذه الأبيات والأبيات المذكورة اعلاه لا يقف حالاً بين أن تؤلف هذه الأبيات مجتمعة قصيدة واحدة . فالمرحوف أن مروان كان يطيل قصائده ومنها ما يتجاوز (٧٠) بيتاً ويجمع فيها بين عدة أعراض شعرية .

(١) البيان والتبيين ٣ / ٣٠٠ حيث نسب البيتان إلى (مروان اليمامي) هكذا في جارية اسمها جوهر اشتراها المهدي فدخل عليه مروان اليمامي (هكذا) وجوهر تغنيه فقال البيتين فاتهمه المهدي بها وأمر به فدع في عنقه إلى أن خرج ، والملاحظ أنه لا يوجد شخص اسمه مروان اليمامي كانت له علاقة بالمهدي سوى مروان بن ابي حفصة وربما كني باليمامي لكونه يسكن اليمامة .

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف	ملاحظات
١	ابن عربي (موئل الحكم الأموي في نجد)	حمد الجاسر	الطبعة الأولى - ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م
٢	اتجاهات الشعر العربي	محمد مصطفى هندارة	دار المعارف - ١٩٦٢م
٣	أخبار أبي تمام	الصولي	ت / تحليل محمود عساكر ، محمد عبده عزام
٤	الأشباه والنظائر	الحالديان	ت / سيد محمد يوسف (١٩٥٨م) القاهرة
٥	الأعلام	الزركلي	المطبعة العربية (١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م)
٦	الأغاني	ابو الفرج الأصفهاني	(طبعة ساسي) مطبعة التقدم
٧	الإماء الشواعر	ابو الفرج الأصفهاني	ت / نوري القيسي يوسف السامرائي (عالم الكتب بيروت)
٨	الأمالي	ابو علي القالي	الطبعة الثانية (١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م) مطبعة التقدم
٩	أمالي المرتضى	المرتضى	ط/الأولى/ت محمد ابو الفضل ابراهيم ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م
١٠	أمراء الشعر العربي في العصر العباسي	أنيس المقدسي	الطبعة السابعة - بيروت - ١٩٦٧م
١١	الأوراق	الصولي	الطبعة الأولى مطبعة الصاوي ١٩٣٤م
١٢	البخلاء	الجاحظ	ت طه الحاجري (١٩٤٨م) دار الكتاب العربي
١٣	البداية والنهاية	ابن كثير	مطبعة السعادة
١٤	البصائر والذخائر	ابوحيان التوحيدي	ت/وداد القاضي - دار صادر بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
١٥	بلاد العرب	عماد الدين الأصفهاني	ت / حمد الجاسر ، صالح العلي - دار اليمامة
١٦	البيان والتبيين	الجاحظ	ت / حسن السنديوني - الطبعة الثالثة ١٩٤٧م
١٧	تاريخ الإسلام السياسي	حسن ابراهيم حسن	الطبعة السابعة ١٩٦٤م
١٨	تاريخ الأدب العربي	بروكلمان	الطبعة الثانية - دار المعارف
١٩	تاريخ الأدب العربي	الكفراوي	مطبعة الرسالة
٢٠	تاريخ الأدب العربي	عمر فروخ	ط الأولى (١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م) بيروت
٢١	تاريخ آداب لغة العربية	جرجي زيدان	ت / شوقي ضيف - ١٩٥٧م - ١٣٥٤هـ - دار الكتاب
٢٢	تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي	مطبعة السعادة ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف	ملاحظات
٢٣	تاريخ الخلفاء	السيوطي	ت محمد محي الدين عبد الحميد ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م / الطبعة الثانية
٢٤	تاريخ الشعر العربي	نجيب البهتتي	دار الفكر - مكتبة الخانجي
٢٥	تاريخ الطبري	الطبري	١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م ، مطبعة الإستقامة
٢٦	تاريخ الموصل	الأزدي	ت / على حبيبة (١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م) القاهرة
٢٧	الحماسة البصرية	علي بن الحسن البصري	ت مختار الدين أحمد - عالم الكتب بيروت ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
٢٨	الحماسة الشجرية	ابن الشجري	حيدر آباد (١٣٤٥ هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية
٢٩	الحماسة المغربية	العادلي	ت/احمد رضوان الداية ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م دار الفكر بدمشق
٣٠	حديث الأرباء	طه حسين	دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م
٣١	مخلاصة الذهب	عبدالرحمن الأربلي	تصحيح مكى السيد جاسم / مكتبة المثنى بغداد
٣٢	الديارات	الشابشتي	ت كوركيس عواد (١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م) مطبعة دار المعارف بغداد
٣٣	ديوان الإسلام	ابن الفزى	ت / سيد كروى حسن - دار الكتب العلمية بيروت
٣٤	ديوان الأعشى	الأعشى	دار صادر بيروت
٣٥	ديوان امرئ القيس	امرؤ القيس	حسن الندوى ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م مطبعة الإستقامة القاهرة
٣٦	ديوان جرير	جرير بن عطية	دار صادر بيروت
٣٧	ديوان زهير	زهير بن ابى سلمي	دار صادر بيروت
٣٨	ديوان لبيد	لبيد بن ربيعة	دار صادر بيروت
٣٩	ديوان المعاني	العسكري	مكتبة المقدسى (١٣٥٢)
٤٠	ديوان النابغة	الناطقة الذبياني	تحقيق كرم البستاني - دار صادر - بيروت
٤١	ربيع الأبرار	الزمخشري	ت سليم التميمي
٤٢	زهر الآداب	القيرواني	ت علي محمد البجاوي - الطبعة الاولى ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م
٤٣	سمط الأبي	البكري	ت عبد العزيز الميمنى (١٩٤٠ م) القاهرة
٤٤	سمط النجوم العوالي	العصامي	اهتمام قاسم فخرو (المطبعة السلفية)

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف	ملاحظات
٤٥	شذرات الذهب	العماد الحنبلي	(١٥٣٠م) مكتبة المقدسي
٤٦	شعر دعبل	دعبل الخزازي	ت / عبد الكريم الأشتر (المجمع العلمي بدمشق)
٤٧	الشعر والشعراء	ابن قتيبة	دار الثقافة ١٩٦٤م
٤٨	الشعر والشعراء	د . مصطفى الشكعة	دار العلم للملايين (١٩٨٦م) بيروت
٤٩	شعر مروان	حسين عطوان	دار المعارف القاهرة (١٩٧٣م)
٥٠	الشيانيون في العصر العباسي الاول	محمد يوسف غندور	الطبعة الاولى عالم الكتب ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م بيروت
٥١	صفة جزيرة العرب	الههمذاني	ت / محمد بن بليهد ١٩٥٣م مطبعة السعادة
٥٢	الصناعتين	العسكري	ت على محمد البجاري ومحمد ابو الفضل ابراهيم ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م
٥٣	ضحى الإسلام	أحمد أمين	ت / الطبعة العاشرة (دار الكتاب العربي) بيروت
٥٤	طبقات الشعراء	ابن سلام	شرح محمود محمد عساكر - دار المعارف
٥٥	طبقات الشعراء	ابن المعتز	ت / عبد الستار أحمد فراج (دار المعارف)
٥٦	العصر العباسي الأول	شوقي ضيف	دار المعارف / الطبعة الثانية (١٩٦٩م)
٥٧	العقد الفريد	ابن عبد ربه الاندلسي	ت محمد سعيد الريان (مطبعة الاستقامة ١٣٥٩ - ١٩٤٠)
٥٨	العمدة	ابن رشتيق	ت محمد محي الدين عبد الحميد ١٣٨٣هـ - ١٣٦٣م المكتبة التجارية
٥٩	عيون الاخبار	ابن قتيبة	الطبعة الاولى (١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م دار الكتب)
٦٠	الفرج بعد الشدة	التنوخسي	ت / عبود الشالحي - دار صادرة بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م
٦١	الفلاكه والمفلوكون	الدلجي	دار الكتب العلمية (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) بيروت
٦٢	الفهرست	ابن النديم	مطبعة مكتبة خياط / بيروت
٦٣	الكامل في التاريخ	ابن الأثير	تصحيح عبدالوهاب النجار (١٣٥٧هـ - الطبعة المنبرية)
٦٤	الكامل في الادب	المبرد	ت أحمد محمد شاکر (الطبعة الاولى ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م)
٦٥	لطائف المعارف	الثعالبي	ت / ابراهيم الايباري وحسن الصيرفي دار إحياء الكتاب العربي
٦٦	المخاسن والمساويء	البيهقي	ت / أحمد ابو الفضل ابراهيم (مطبعة النهضة - مصر)

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف	ملاحظات
٦٧	مختار الاغاني	ابن منظور	ت / طه الحاجري (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م)
٦٨	مروج الذهب	المسعودي	ت / كامل مصطفى - مطبعة الاعتماد ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م
٦٩	المستطرف في أخبار الجوارى	السيوطي	تعليق أحمد عبد الفتاح تمام (مكتبة التراث الاسلامي)
٧٠	المصون في الأدب	ابو أحمد العسكري	ت عبد السلام هارون - الكويت ١٩٦٠م
٧١	معجم الأدباء	ياقوت الحموي	م رجليوث ١٩٢٥م مطبعة منديه / الموسكي
٧٢	معجم البلدان	ياقوت الحموي	بيروت (١٣٢٦هـ - ١٩٥٧م)
٧٣	معجم الشعراء	المرزباني	تهذيب سالم الكرناكيوي - مكتبة المقدس ١٣٥٤هـ
٧٤	الموشح	المرزباني	المطبعة السلفية (١٣٤٣هـ)
٧٥	مقاتل الطالبين	ابو الفرج الأصفهاني	ت أحمد صقر (١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م)
٧٦	المنازل والديار	اسامة بن منقذ	الطبعة الاولى (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م)
٧٧	النجوم الزاهرة	ابن تفردي بردي	الطبعة الاولى دار الكتب (١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م)
٧٨	نقد الشعر	قداية بن جعفر	ت / كمال مصطفى - مكتبة الخانجي ١٩٦٣م
٧٩	وفيات الأعيان	ابن خلكان	ت / احسان عباس - دار صادر - بيروت ١٩٦٩م
٨٠	مجلة العرب	اصدار حمد الجاسر	السنة الاولى / ص ٦٨٣

فهارس الكتاب

الصفحة	العنوان
٣	<u>تقديم</u>
٩	مروان الأنسان
١١	عصر مروان السياسي والاجتماعي
٢٥	أ - اسمه ونسبه وأسرته
٣٢	ب - مولده ونشأته في الدولة الأموية
٣٦	ج - مراحل حياته في الدولة العباسية
٣٦	مع الولاة
٣٦	١ - مع السري بن عبدالله
٣٨	٢ - مع معن بن زائدة
٥٣	- مع الخلفاء
٥٣	١ - مع المنصور
٥٩	٢ - مع المهدي
٧٨	٣ - مع الهادي
٨٤	٤ - مع الرشيد
٩٤	- مع البرامكة
١٠٣	د - شخصيته وأخلاقه
١٢٢	هـ - وفاته .

الصفحة	العنوان
١٣١	مروان الشاعر
١٣٢	عصره الأدبي
١٣٨	أ - بيت الشعر
١٤٥	ب - شعره (تمهيد)
١٥٠	ج - الأغراض الشعرية
١٥٢	١ - المدح
١٧٥	٢ - الرثاء
١٨٧	٣ - الوصف
١٩٤	٤ - الفخر
٢٠١	٥ - الغزل
٢١٢	٦ - الهجاء
٢٢٣	د - العوامل المؤثرة في شعره
٢٢٣	١ - البيعة
٢٢٥	٢ - المناخ السياسي
٢٢٧	٣ - الصفات الشخصية
٢٢٨	٤ - الثقافة النقدية
٣٣٥	هـ - مروان في ميزان النقد
٣٤٦	و - مروان وتنقيح الشعر

الصفحة	العنوان
٢٥١	ز - مروان وشراء القوافي
٢٥٩	ح - الخصائص الفنية
٢٥٩	١ - بساط الصورة الشعرية
٢٦٥	٢ - محاكاة الأقدمين
٢٧٣	٣ - الصنعة والطبع
٢٧٧	٤ - المذهب الواقعي
٢٨٢	٥ - طول النفس واعتماد البحور الطويلة
٢٨٩	٦ - وصف الناقة
٢٩٥	ط - المستدرك علي شعر مروان
٣٠٩	كشاف المراجع

مطابع جاد الأونست ☎ ٤٠٥٠٠٤٤